

الْأَمْرُ مِنْهُ

فِي تَقْسِيمٍ كَعَدْلٍ لِلْمُرْبَطِينَ

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر سليمان الشيرازي

المحمد الأول

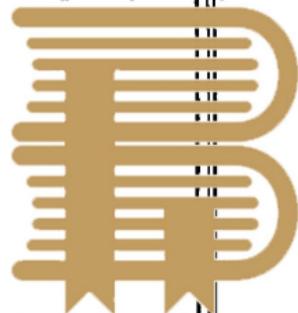


الإِمْتِنَانُ

فِي تَفْسِيرِ كِتابِ اللَّهِ الْمُبِينِ
طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنْقَحَةٌ مَعَ إِضَافَاتٍ

شبكة كتب الشيعة

تأليف
العلامة الفقيه المفسر
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي



shiabooks.net
mktba.net رابط بديل ▶

المجلد الأول

مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تأییف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]. - قم: مدرسة الامام علی بن ابی طالب علیه السلام، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹ج. ۲۰.

ISBN: 964-6632-53-X (جلد ۱) ISBN: 964-6632-49-1 (دوره)

فهرستویسی بر اساس اطلاعات فیها.

کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است.

کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است.
کتابنامه.

۱. تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴. الف. مدرسة الامام علی بن ابی طالب علیه السلام. ب. عنوان.

۲۹۷/۱۷۹

BP۹۸/م۷.۴۴۷

م۷۹-۱۰۳۹۱

۱۳۷۹

هوية الكتاب:

الأمثل فی تفسیر کتاب الله المنزل لسماحة الشیخ ناصر مکارم الشیرازی - المجلد الأول
الناشر: مدرسة الامام علی بن ابی طالب علیه السلام ایران / قم / شارع الشهداء

هاتف: ۹۸-۲۵۱-۷۲۲۴۷۸ ۹۸-۲۵۱-۷۴۳۱۱۴ فکس:

حجم و عدد الصفحات: ۵۶۰ الوزیری

تاریخ التشریف: ۱۳۷۹ هش - ۱۴۲۱ هـ

الکیمة: ۲۰۰۰ نسخة

الطبعة: الأولى (منقحة مع اضافات)

المطبعة: أمیر المؤمنین علیه السلام - قم - ایران

جميع الحقوق محفوظة لمدرسة الامام علی بن ابی طالب علیه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأمثل من جديد

لكلّ عصر خصائصه وضروراته ومتطلباته، وهي تنطلق من الأوضاع الإجتماعية والفكرية السائدة في ذلك العصر، ولكلّ عصر مشاكله وملابساته الناتجة من تغيير المجتمعات والثقافات، وهو تغيير لا ينفك عن مسيرة المجتمع التاريخية الفكرية الفاعلة، هو ذلك الذي فهم الضرورات والمتطلبات، وادرك المشاكل والملابسات.

هذا ما قاله الباحثة الفريد الفقيه والمفسر المعاصر الأمثل، العلامة آية الله العظمى مكارم الشيرازي في دوافع تأليف تفسيره للأمثل.
ويقول: واجهنا دوماً أسلمة وردت علينا من مختلف الفئات - وخاصة الشباب المتعطش إلى نبع القرآن - عن التفسير الأفضل.

هذه الأسلمة تتطوّي ضمنياً على بحث عن تفسير يبيّن عظمة القرآن عن تحقيق ولا عن تقليد ويُجيز على ما في الساحة من احتياجات ومتطلبات وآلام وأمال ... تفسير يجدي كل الفئات، ويخلو من المصطلحات العلمية المعقدة. وهذا التفسير دون على أساس هذين الهدفين.

ولتنفيذ هذا الهدف العظيم، صمم القسم الثقافي لمدرسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعرض جديد لكامل التفسير للأمثل، فأعاد النظر وإمعان فيه بدقة، مع تصحيح الأخطاء المطبعية والإنسانية والإملائية، واضافة كثير من الأحاديث التي كانت محذوفة في الطبعة الأولى.

نأمل أن يكون مقبولاً لدى الباري عز إسمه وجميع الباحثين في حقائق القرآن الكريم.

القسم الثقافي لمدرسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

ما هو التفسير؟

التفسير في اللغة الإبادة وإماتة اللثام.

ولكن هل يحتاج القرآن إلى إبادة وإماتة لثام ... وهو «السور» و «الكلام

المبين»؟!

كلا، ليس على وجه القرآن لثام أو نقاب ... بل إننا بالتفسير ينبغي أن نكشف اللثام عن روحنا، ونزيل الستار المسدول على بصيرتنا، فنستجلِّي بذلك مفاهيم القرآن ونعيش أجواءه.

من جهة أخرى، ليس للقرآن بعْدَ واحِدَّ ... نعم، له بعْدَ عام ميسَّر للجميع، ينير الطريق، ويهدي البشرية إلى سُوَاء السبيل.

وله أيضاً أبعاداً أخرى للعلماء والمتفكرين، لأُولئك الطامحين إلى مزيد من الإِرتواء ... وهؤلاء يجدون في القرآن ما يروي ظلَّاً لهم إلى الحقيقة، ويغرفون من بحره قدر آنيتهم ... وتنسَع الآنية باتساع دائرة السعي والجهد والإخلاص.

هذه الأبعاد أطلقت عليها الأحاديث اسم «البطون» ... بطون القرآن ... وهي لا تتجلّى للجميع، أو بعبارة أدق لا تقوى كُلُّ العيون على رؤيتها.

والتفسير يمنح العيون قوة، ويقشع عن البصائر الحجب والأستار، ويعنّا للياقتها لرؤيتها تلك الأبعاد بدرجة وأخرى.

وللقرآن أبعاد أخرى تنجلی بمرور الزمان وتعاقب التجارب البشرية ونحو الكفاءات الفكرية، وهذا ما أشار إليه ابن عباس إذ قال: «القرآن يفسر الزمان». أضف إلى ذلك أن «القرآن يفسر بعضه بعضاً»، وهذا لا يتنافي مع كونه نوراً وكلاماً مبيناً، لاته كلٌ لا يتجزأ، وجميع لا تفرد، يشكل بمجموعه النور والكلام المبين.

متى بدأ تفسير القرآن؟

تفسير القرآن بالمعنى الحقيقي بدأ منذ عصر رسول الله ﷺ، بل من بدء نزول الوحي إلا أنه كـ«علم مدون» بدأ من زمن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؓ كما تجمع على ذلك أقوال المؤرخين والمفسرين، ورجال هذا العلم يصلون بسلسلة أسانيدهم إليه، ولا عجب في ذلك، فهو باب مدينة علم رسول الله ﷺ. إن مئات التفاسير كتبت لحد الآن، وبلغات مختلفة، وبأساليب ومناهج متنوعة، منها الأدبي، والفلسفي، والأخلاقي، والروائي، والتاريخي، والعلمي، وكل واحد من المفسرين تناول القرآن من زاوية تخصصه. وفي هذا «بستان» مشر ومزدهر ...، شُفف أحددهم بمناظره الشاعرية الخلابة.

وآخر عكف على ما فيه من أشكاليات طبيعية ترتبط بتكوين النبات وهندسة الأزهار وعمل الجذور. وثالث ألهى نظره إلى المواد الغذائية المستفادة منه. ورابع اتجه إلى دارسة الخواص العلاجية في نباتاته. وخامس اهتم بكشف أسرار الخلقة في عجائب ثماره اليانعة وأوراده الملوثة. وسادس راح يفكّر من أي أزهاره يستطيع استخراج أفضل العطور.

وسابع كالنحله لا تفکر إلا بامتصاص رحيق الورد لتهيئه العسل.
وهكذا رؤاد طريق التفسير القرآني، عكس كلّ منهم بما يملكه من مرأة خاصة، مظهراً من مظاهر جمال القرآن وأسراره.

واضح أنَّ كلَّ هذه التفاسير في الوقت الذي تعتبر فيه تفسيراً للقرآن، إلا أنها ليست تفسيراً للقرآن، لأنَّ كلَّ واحد منها يميط اللثام عن بُعدِ آراءِ القرآن لا عن كلِّ الأبعاد، وحتى لو جمعناها لتجلّى من خلالها بعض أبعاد القرآن لا جمِيع أبعاده.

ذلك لأنَّ القرآن كلامُ الله وفيض من علمه اللامتناهي، وكلامه مظهرٌ لعلمه، وعلمه مظهرٌ لذاته، وكلها لا متناهية.
من هنا، لا ينبغي أن نتوقع استطاعة البشر إدراك جميع أبعاد القرآن، فالكوز لا يسع البحر.

طبعاً، متألاً شكًّ فيه أتنا نستطيع أن نعرف من هذا البحر الكبير ... الكبير جداً ... بقدر سعة آنية فكرنا، ومن هنا كان على العلماء فرض أن لا يتواتروا في كلَّ عصر وزمان عن كشف مزيد من حقائق القرآن الكريم، وأن يبذلوا جهودهم المخلصة في هذا المجال ما استطاعوا، عليهم أن يستفيدوا مما خلفه الأسلاف رضوان الله عليهم في هذا المجال، ولكن لا يجوز لهم أن يكتفوا به، فرسول الله ﷺ قال عن كتاب الله العزيز: «لا تحصي عجائبه، ولا تبل غرائبها».

خطر التفسير بالرأي:

أخطر طريقة في تفسير القرآن هي أن يأتي المفسر إلى كتاب الله العزيز معلمًا لا تلميذًا.

أي يأتي إليه ليفرض أفكاره على القرآن، ولি�عرض رؤاه وتصوراته المتولدة من إفرازات البيئة والتخصص العلمي، والاتجاه المذهبية الخاص،

والذوق الشخصي، باسم القرآن، وبشكل تفسير للقرآن، مثل هذا الشخص لا يتّخذ القرآن هادياً وإنما، بل يستّخذه وسيلة لإثبات نظرياته وتبرير ذوقه وأفكاره.

هذا اللون من تفسير القرآن - أو قُل تفسير الأفكار الشخصية بالقرآن - راج بين جماعة، وليس وراءه إلا الإنحراف ... الإنحراف عن طريق الله ... والإِنْزَالِ في متأهّلاتِ الضلالِ.

إنه ليس بتفسير، وإنما هو قسر وفرض وتحمّيل ... ليس باستفتاء، وإنما إفتاء ... ليس بهدایة، وإنما هو الضلال ... إنه مسخ وتفسير بالرأي، ونحن في منهجهنا التفسيري سوف لا ننحو - بإذن الله - هذا النحو، بل نتجه بكل قلوبنا وأفكارنا نحو القرآن لنتتلمذ عليه، لا غير.

* * *

متطلبات العصر:

لكل عصر خصائصه وضروراته ومتطلباته، وهي تنطلق من الأوضاع الإجتماعية والمتغيرات الفكرية والمستجدات الثقافية الطارئة على مفاصل الحياة في ذلك العصر.

ولكل عصر مشاكله وملابساته الناتجة عن تغيير المجتمعات والثقافات، وهو تغيير لا ينفك عن مسيرة المجتمع التاريخية.

المفکر الفاعل في الحياة الإجتماعية هو ذلك الذي فهم الضرورات والمتطلبات، وأدرك المشاكل والملابسات ... وبعبارة أخرى هو الذي استوعب مسائل عصره.

أما أولئك الذين لا يدركون هذه المسائل إطلاقاً، أو لا يتفاعلون معها بسبب عدم انتظامهم إلى عصرهم، أي بسبب فقدانهم عنصر «المعاصرة»، فهم الهاشميون

الذين لا يقدرون على التأثير ولا على المعالجة، بل يقفون دوماً متأسفين ومحسرين وشاكين ومتقدسين، وزداد تشاوئهم وأيأسهم باستمرار حتى يقعوا في طامة «الإنزواء الاجتماعي».

ذلك لأنهم ما استطاعوا أو ما أرادوا أن يستوعبوا احتياجات عصرهم ومشاكله.

هؤلاء يعيشون في ظلام مطبق، وبسبب عدم تفهمهم لأسباب الحوادث وعللها ونتائجها، يفقدون أنفسهم أمام هجوم هذه الحوادث ويرتكبون ويختلفون ويظلّون دون خطّة للمواجهة والدفاع، فيما أنّ مسيرتهم في الظلام فسوف تزلّ قدمهم في كلّ خطوة، وما أجمل ما قاله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «العالم بزماته لا تهجم عليه اللوايس».

رسالة العلماء في كلّ عصر أن يدركوا بوعي كامل هذه المسائل ... هذه الإحتياجات، وهذا الفراغ الروحي والفكري والاجتماعي، وأن يسعوا لمعالجتها بشكل صحيح كي لا يفسحوا المجال للأطروحات المنحرفة أن تخترق الساحة وتملاً الفراغ وتقدم الحلول الكاذبة.

من المسائل التي تلمّسناها بوضوح عطش الجيل الراهن لدرك المفاهيم الإسلامية والمسائل الدينية - وخلافاً لما يردّه اليائسون والمتشاركون - إنَّ هذا الجيل لا يتوق إلى الفهم فحسب، بل يتلهف إلى التطبيق العملي لهذه المفاهيم والمسائل، ولمس المعطيات الدينية من خلال العمل بها.

من الواضح أنَّ أمام هذا الجيل التوّاق مسائل غامضة ونقاط إبهام ومواضع استفهام كثيرة، والخطوة الأولى لتلبية هذه الحاجات إعادة كتابة التراث العلمي والفكري الإسلامي بلغة العصر، وتقديم كلّ هذه المفاهيم السامية عن طريق هذه اللغة إلى روح الجيل وعقله.

والخطوة الأخرى استنباط الإحتياجات والمتطلبات الخاصة بهذا الزمان

من مبادئ الإسلام العامة.

وهذا التفسير دون على أساس هذين الهدفين.

* * *

الأمثل بين التفاسير:

وأجهنا دوماً أسئلة وردت إلينا من مختلف الفئات وخاصة الشباب المتعطش إلى نبع القرآن عن التفسير الأفضل.

هذه الأسئلة تتطوّي ضمنياً على بحث عن تفسير يبيّن عظمة القرآن عن تحقيق لا تقليد، ويحيب على ما في الساحة من إحتياجات وتطلعات وألام وآمال ... تفسير نافع لكلّ الفئات، ويخلو من المصطلحات العلمية المعقدة.

في الواقع نحن نفتقر إلى مثل هذا التفسير، فالأسلاف والمعاصرون رضوان الله عليهم كتبوا في حقل التفسير كثيراً، لكنّ بعضها كتب قبل عدّة قرون وبأسلوب خاصّ لا يستفيد منه إلا العلماء والأدباء، وبعضها مدّون بمستوى علمي لا يدركه سوى الخواصّ، وبعضها تناول جانباً معيناً من القرآن، وكأنّها باقة ورد اقتطفت من بستان مزدان، فهي قبس من هذا البستان، وليس البستان ... وهكذا، من هنا لم نجد أمام هذه الأسئلة المتدافع علينا جواباً مقنعاً يرضي هذه الأرواح المتعطشة التواقة. فاليّنا على أنفسنا أن نجيب على هذا السؤال عملياً، فالكلام لا يرضي السائلين.

لكتنا وجدنا أنفسنا في خضمّ الأشغال المتزايدة من جهة، وأمام القرآن ... البحر الذي لا ساحل له ... من جهة أخرى، فأتّى لنا أن نخوض عبابه دون عدّة وقت واستعداد فكري، لذلك وقفنا على ضفاف هذا البحر الموج ننظر إليه بحسنة.

وفجأة هدانا الله إلى الطريق الحل، وانقدحت في الذهن فكرة العمل الجماعي، فكان أن اجتمع معنا على الطريق عشرة من الفضلاء المخلصين الوعيين كانوا حقيقةً مصدق «عشرة كاملة» فبذلت المساعي الدائبة ليلاً ونهاراً لنشر خلال مدة أقصر مما توقعناها هذا الذي يراه القارئ الكريم.

* * *

ولكي لا تبقى نقطة غموض أمام القارئ الكريم نشرح باختصار منهجه عملنا في هذا التفسير.

فُقِسَّمت الآيات الكريمة أولاً في الفروع المختلفة بين الاخوة وبتوجيه موحد، ودرسووا المصادر المختلفة في التفسير لكتاب المفسرين من علماء الشيعة وأهل السنة، مثل:

- ١ - مجمع البيان للشيخ الطبرسي.
- ٢ - أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي.
- ٣ - الدر المنشور لجلال الدين السيوطي.
- ٤ - البرهان للمحدث البحرياني.
- ٥ - الميزان للعلامة الطباطبائي.
- ٦ - المنار، تقرير دروس للشيخ محمد عبده.
- ٧ - في ضلال القرآن للأستاذ سيد قطب.
- ٨ - المراغي لأحمد مصطفى المراغي.
- ٩ - مفاتيح الغيب للسفر الرازى.
- ١٠ - روح الجنان لأبي الفتوح الرازى.
- ١١ - أسباب التزول للواحدى.
- ١٢ - تفسير القرطبي لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.
- ١٣ - روح المعانى للعلامة شهاب الدين الألوسى.
- ١٤ - نور الثقلين لعبد علي بن جمعة الحوزي.
- ١٥ - الصافي للملأ محسن الفيض الكاشاني.
- ١٦ - التبيان للشيخ الطوسي.
- وتفاسير أخرى ...

ثم جمعنا من المفاهيم ما يتاسب مع متطلبات عصرنا وإحتياجاته، وفي الجلسات العامة التي عقدناها يومياً أضفنا إلى كل ذلك المستجدات الضرورية من المعارف القرآنية، وبعد دراسات ومشاورات حول المباحث المختلفة، ومراجعة المصادر المتنوعة، أملأنا تلك البحوث ودونها الإخوان بسرعة، ثم

راجعنا الكتابات ودققنا فيها بصر وسعة صدر، وأعددناها للطبع، وبعد الطبع أيضاً - وقبل مرحلة النشر - أعيد النظر فيها مرة أخرى.

وكانت نتيجة هذه الجهود ما يراه القارئ العزيز، ونرجو أن يكون بإذن الله نافعاً مفيداً للمجتمع.

* * *

خصائص هذا التفسير:

لكي يرد القراء الأعزاء إلى هذا التفسير برؤية أوضح، وليجدوا فيه ما يريدونه بشكل أيسر، نذكر باختصار خصائص هذا التفسير ومزاياه:

١ - إنما كان القرآن «كتاب حياة» فإنما لم نركّز - في التفسير - على المسائل الأدبية والعرفانية، بل بدلاً من ذلك عالجنا المسائل الحيوية - المادية والمعنية - وخاصة المسائل الإجتماعية، وسعينا إلى إشارة إليها بحثاً وتحليلاً، وخاصة ما يرتبط من قريب بحياة الفرد والمجتمع.

٢ - في ذيل كل آية تناولنا تحت عنوان «بحوث» المسائل المطروحة في الآية بشكل مستقل، كالربا، والرّق، وحقوق المرأة، وفلسفة العج، وأسرار تحرير القمار، والخمر، ولحم الخنزير، ومسائل الجهاد الإسلامي، وأمثالها من الموضوعات، كي يستغنى القارئ عن مراجعة الكتب الأخرى في هذه المجالات.

٣ - عزفنا عن تناول البحوث ذات الفائدة القليلة، وأعطيتنا الأهمية لمعاني الكلمات وأسباب النزول مما له تأثير في النهم الدقيق لمعنى الآية.

٤ - عرضنا التساؤلات والشبهات والإعتراضات المطروحة حول أصول الإسلام وفروعه بمناسبة كل آية، وذكرنا الجواب عليها باختصار، مثل شبهة الأكل والمأكل، والمعراج، وتعدد الزوجات، وسبب الاختلاف بين إirth المرأة والرجل، ودية المرأة والرجل، والحرروف المقطعة في القرآن، ونسخ الأحكام، والغزوات الإسلامية، والإختبارات الإلهية، وعشرات المسائل الأخرى، كي لا

تبقى أية علامة استفهام عند مطالعة تفسير الآيات.

٥— أعرضنا عن استعمال المصطلحات العلمية المعقدة التي تجعل الكتاب خاصًا بفئة خاصة من القراء، ولدى الضرورة تناولنا ذلك في هامش الكتاب من أجل استفادة المتخصصين.

نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَأْخُذْ بِأَيْدِينَا لِمَا فِيهِ رِضَاهُ، وَيُوفَّقَ كُلَّ الْعَالَمِينَ لِخَدْمَةِ كِتَابِ الْعَظِيمِ.

* * *

الصحوة الإسلامية المعاصرة وزيادة الحاجة إلى تفسير القرآن:

تشهد أمتنا الإسلامية خلال هذه الأعوام صحوة إسلامية عامة، تتمثل في رفض كل المستورفات الفكرية، والعودة إلى الإسلام، لإقامة حياتها على أساس أحكام الرسالة الخاتمة.

هذه الصحوة تعود إلى فشل كل الأطروحات الوضعية الكافرة في تحقيق ما لوحت به من تقدمية وتحرر وسعادة كما تعود أيضًا إلى العواطف الإسلامية المتوجلة في أعماق أبناء الأمة.

ويتحتمل العلماء الوعون في هذه المرحلة الحساسة مسؤوليات كبرى تفرض عليهم أن يعمقوا هذا التحرك الوعي بين صفوف الأمة ويُجذّروه ويؤصلوه، كي تكون المسيرة على بصيرة في حركتها وعلى يقظة في اتخاذ قراراتها، وعلى ثقة من أنها تسلك الطريق نحو أهدافها الإسلامية الكبرى دون زيف أو انحراف أو التقاط.

وكتاب الله هدىٌ ونور، وفي الإطار العام للمسيرة، وفيه الزاد اللازم لمواصلة الطريق المستقيم نحو رب العالمين.

وأخيرًا نشكر جهود العلماء والفضلاء الذين شاركونا في تأليف هذا التفسير الجليل:

١— الشِّيخُ مُحَمَّدُ رَضاً الْأَشْتَبَانِي.

٢— الشِّيخُ مُحَمَّدُ جَعْفَرٍ الْإِمامِي.

٣— الشِّيخُ دَاؤِدُ الْإِلَهَامِي.

- ٤- الشّيخ أسد الله الإيماني
- ٥- الشّيخ عبد الرّسول الحسني.
- ٦- السيد حسن الشجاعي.
- ٧- السيد نور الله الطباطبائي.
- ٨- الشّيخ محمود عبد الله.
- ٩- الشّيخ محسن القرائني.
- ١٠- الشّيخ محمد محمدی الإشتہاردی

وكذلك نشكر الإخوة الأفاضل الاستاذ محمد على آذرشب، الشّيخ محمد رضا آل صادق، الاستاذ خالد توفيق عيسى، السيد محمد الهاشمي، الاستاذ قصي هاشم فاخر، الاستاذ أسد مولوي، الشّيخ مهدي الأنصاری والسيد أحمد القبانچي والشّيخ هاشم الصالحي بمساهمتهم في تنقيح وإخراج هذا السفر الجليل وداموا مشكورين.

نسأل الله سبحانه أن تكون بهذا التفسير قد ساهمنا في إعلان كلمة القرآن بشأن واقعنا، وبشأن مستقبلنا، وبشأن ما يجب أن نفعله للخروج من الواقع المؤلم الذي تعيش فيه أمتنا.

ونسأل الله سبحانه أن يوفق كل العالمين على إعلاء راية القرآن في العالم ويستدّد خطابهم وينصرهم على أعدائهم.

نسائله جلّ وعلاً أن يوفق العلماء والمفكّرين الوعيين الملتزمين إلى قيادة هذا التحرّك الإسلامي المتتصاعد في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، قيادة أصيلة قائمة على هدى القرآن والسنة.

ونتضرّع إليه أن يوفّقنا لإكمال بقية أجزاء هذا التفسير وأن يتقدّل من كلّ العالمين عليه في أي سبيل إله تعالى سمّيع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ناصر مكارم الشيرازي

قم - الموزة العلمية ١٤٠٤ هـ

سُورَةُ
الْحَمْد

مَكَيْةٌ

وَعَدَهُ آيَاتِهَا سَبْعُ آيَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحمد

خصائصها:

لهذه السورة مكانة متميزة بين سائر سور القرآن الكريم، وتتميز بالخصائص التالية:

١ - سياق السورة - تختلف سورة الحمد عن سائر سور القرآن في لحنها وسياقها، فسياق السور الأخرى يعبر عن كلام الله، وسياق هذه السورة يعبر عن كلام عباد الله. وبعبارة أخرى: شاء الله في هذه السورة أن يعلم عباده طريقة خطابهم له ومناجاتهم إياته.

تبدأ هذه السورة بحمد الله والثناء عليه، وتستمر في إقرار الإيمان بالمبدأ والمعاد «بِاللَّهِ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ» وتنتهي بالتضرع والطلب.

الإنسان الوعي المتيقظ يحس وهو يقرأ هذه السورة بأنه يرجع على أجنهعة الملائكة، ويسمو في عالم الروح والمعنوية، ويدنو باستمرار من رب العالمين.

هذه السورة تعبر عن إتجاه الإسلام في رفض الوسطاء بين الله والإنسان ... هؤلاء الوسطاء الذين افتعلتهم المذاهب الزانقة المنحرفة، وتعلّم البشر أن يرتبوا بالله مباشرة دونما واسطة، فهذه السورة عبارة عن تبلور هذا الارتباط المباشر والوثيق بين الله والإنسان ... بين الخالق والمخلوق. فالإنسان لا يرى في مضامين آيات السورة سوى الله ... يخاطبه ... يناجيه ... يتضرع إليه ... دونها واسطة حتى وإن كانت الواسطة شيئاً مرسلأً أو ملكاً مقرباً. ومن العجيب أن يحتلّ

هذا الإرتباط المستقيم بين الخالق والمخلوق مكان الصدارة في كتاب الله العزيز!.

* * *

٢- سورة الحمد أساس القرآن - فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «ألا أُعَلِّمكَ أَفْضَلَ سُورَةً أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ؟» قال جابر: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَلَمَتْهُ الْحَمْدَ أُمُّ الْكِتَابِ، وَقَالَ: هِيَ شِفَاءٌ مِّنْ كُلِّ دَاءٍ، إِلَّا السَّامَ، وَالسَّامُ الْمُؤْتَ».^١

وروى عنه ﷺ أيضاً أنه قال: «وَالَّذِي نَصَّبَ يَتَدَهَّدُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الإنجيل وَلَا فِي الزُّبُرِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا، وَهِيَ أُمُّ الْكِتَابِ»!^٢.

سبب أهمية هذه السورة يتضح من محتواها، فهي في الحقيقة عرض لكل محتويات القرآن، جانب منها يختص بالتوحيد وصفات الله، وجانب آخر بالمعاد ويوم القيمة، وقسم منها يتحدث عن الهدایة والضلال باعتبارهما علامات التمييز بين المؤمن والكافر وفيها أيضاً إشارات إلى حاكمية الله المطلقة، وإلى مقام ربوبيته، ونعمه اللامتناهية العامة والخاصة «الرحمانية والرحيمية»، وإلى مسألة العبادة والعبودية واحتصاصها بذات الله دون سواه.

إنها تتضمن في الواقع توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد العبادة.

وبعبارة أخرى: تتضمن هذه السورة مراحل الإيمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. ومن المعلوم أن لفظ «الأُمُّ» يعني هنا الأساس والجذر.

ولعل ابن عباس ينطلق من هذا الفهم إذ يقول:

«إن لكل شيء أساساً... وأساس القرآن الفاتحة».

ومن هذا المنطلق أيضاً قال رسول الله ﷺ فيما روي عنه: «أيما مُسلمٍ قرأ فاتحة الكتاب أُعطي من الأَخْرِ كَمَا قرأ ثلثي القرآن، وأُعطي من الأَخْرِ كَمَا تَصَدَّقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ».^١

تعبير «ثلثي القرآن»، ربما كان إشارة إلى أن القرآن ينطوي على ثلاثة أقسام: الدعوة إلى الله، والأخبار يوم الحساب، والفرائض والأحكام. وسورة الحمد تتضمن القسمين الأولين. وتعبير «أم القرآن» إشارة إلى القرآن يتلخص من وجهة نظر أخرى في (الإيمان والعمل) وقد جمعا في سورة الحمد.

* * *

٣ - سورة الحمد شرف النبي ﷺ - القرآن الكريم يتحدث عن سورة الحمد باعتبارها هبة إلهية لرسوله الكريم، ويقرنها بكل القرآن إذ يقول:

«وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ»^٢.

فالقرآن بعظمته يقف هنا إلى جنب سورة الحمد، ولأهمية هذه السورة أيضاً أنها نزلت مررتين.

نفس هذا المضمون رواه أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الرسول ﷺ قال: «إن الله تعالى قالَ لِي يَا مُحَمَّدَ وَلَقَدْ آتَيْتَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ، فَأَفْزَدْتَ الْإِمْتَنَانَ عَلَيْكَ بِفَاتِحةِ الْكِتَابِ وَجَعَلْتَهَا يَازِداً وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، وَإِنَّ فَاتِحةَ الْكِتَابِ أَشَرَّفَ مَا فِي كُنُوزِ الْقُرْبَى...»^٣.

* * *

١ - مجمع البيان، بداية سورة الحمد.

٢ - سلأتي تفسير «سبعاً من المثاني» في ذيل الآية المذكورة. انظر: المجلد الثامن من هذا التفسير، ذيل الآية ٨٧ من سورة «الحجر».

٣ - تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٦، نقلاً عن تفسير البيان.

٤- التأكيد على تلاوة هذه السورة - ممّا تقدم نفهم سبب تأكيد السنة بمصادرها الشيعية والسنّية على تلاوة هذه السورة - فتلاوتها تبعث الروح والإيمان والصفاء في النّفوس، وتقرّب العبد من الله، وتحتوي إرادته، وتزيد اندفاعه نحو تقديم المزيد من المطاء في سبيل الله، وتبعده عن ارتكاب الذّنوب والإِنحرافات. ولذلك كانت أمّ الكتاب صاعقة على رأس إيليس كما ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام:

«إِنَّ إِلِيَّسَ أَزْيَعَ زَنَاتٍ، أَوْهَنَ يَوْمَ لَعْنَ، وَجَاهَ أَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَجَاهَ بَعْثَ مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَيْهِ حِينَ قَرَرَةَ مِنَ الرُّشْلِ، وَجَاهَ نَزَّلَتْ أُمُّ الْكِتَابِ».^١

* * *

محتوى السورة:

كلّ واحدة من الآيات السبع في هذه السورة تشير إلى حقيقة هامة: «بِسْمِ اللَّهِ...» بداية لكلّ عمل، وتعلّمنا الاستمداد من الباري تعالى لدى البدء بأي عمل.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» درس في عودة كلّ نعمة ورعاية إلى الله تعالى، وإلقاء إلى حقيقة إنطلاق كلّ هذه الموارب من ذات الله تعالى. «أَلَّا مَنِ الْأَجِيمِ» تبيّن هذه الحقيقة، وهي: إنّ خلق الله ورعايته وحاكميته تقوم على أساس الرّحمة والرّحمانية، وهذا المبدأ يشكّل المحور الأساس لنظام رعاية العالم.

«مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» استحضار للمعاد ويوم الجزاء، ولحاكمية الله على تلك

المحكمة الكبرى.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تبيّن التوحيد في العبادة، والتوحيد في الاستعانة بالأسباب.

﴿إِهْدِنَا الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ توضح حاجة العباد ورغبتهم الشديدة للهداية، وتؤكّد حقيقة أن كل ألوان الهداية إنما تصدر منه تعالى. وأخر آية من هذه السورة ترسم معالم «الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» وتميّز بين صراط الذين أنعم الله عليهم، وصراط الذين ضلوا والذين استحقوا غضب الله عليهم.

ويمكن تقسيم هذه السورة، من منظار آخر إلى قسمين: قسم يختص بحمد الله والثناء عليه، وقسم يتضمن حاجات العبد.

وإلى هذا التقسيم يشير الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ قال:

«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَّمْتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

إذا قال القبرى: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قال الله جل جلاله: بسأ عبدي بسامي وحق علي أن أنم لة أمنوره وأبارك لة في أحواله.

فإذا قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قال الله جل جلاله: حدن عبدي وعلمه أن النعم التي لة من عندي، وأن البلايا التي دفعت عنده فبطولى، أشهدكم أنني أضيف لة إلى نعم الدنيا نعم الآخرة، وأدفع عنده بلايا الآخرة كما دفعت عنده بلايا الدنيا.

وإذا قال: «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» قال الله جل جلاله: شهد لي عبدي أنني الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ أشهدكم لأوفرن من رحمتي خطوة ولآخرلن من عطائي تصفيه.

فإذا قال: «مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ» قال الله تعالى: أشهدكم كما اغتررت بي أنا مالك يوم الدين لا سبهن يوم المحساب حسابه، ولا تقبلن حساباته، ولا يحاورن عن سيراته.

فإذا قال: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» قال الله عز وجل: صدق عبدي، إياتي يعبد أشهدكم لأبيته.

على عبادته تواباً يغطيه كُلُّ من خالقه في عبادته لي.

فَإِذَا قَالَ: «وَإِنَّكَ نَسْتَعِنُ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بِي اسْتَغْانَ عَبْدِي، وَإِنِّي إِنْجَأْ، أَشِهِدُكُمْ لِأُغْيِنَتُهُ عَلَى أُمْرِهِ، وَلِأُغْيِنَتُهُ فِي شَدَائِدِهِ وَلَا هُدَىٰ يَتَدَهَّدُ بِيَوْمَ تَوَاهِي».

فَإِذَا قَالَ: «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» إِلَى آخر السورة قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ وَتَدَّ اسْتَجَبْتُ لِعَبْدِي وَأَغْطِيَتُهُ مَا أَمَلَ وَآمَتَتُهُ بِمَا مِنْهُ رَجَلٌ».^١

* * *

لماذا سميت فاتحة الكتاب؟

«فَاتِحَةُ الْكِتَابِ» اسم اتخذته هذه السورة في عصر رسول الله ﷺ، كما يبدو من الأخبار والأحاديث المنقولة عن النبي الأعظم ﷺ.

وهذه المسألة تفتح نافذة على مسألة مهمة من المسائل الإسلامية، وتلقى الضوء على قضية جمع القرآن، وتوضح أنَّ القرآن جُمع بالشكل الذي عليه الآن في زمن الرسول ﷺ، خلافاً لما قيل بشأن جمع القرآن في عصر الخلفاء، فسوره الحمد ليست أول سورة في ترتيب النزول حتى تستوي بهذا الاسم ولا يوجد دليل آخر لذلك، وتسميتها بفاتحة الكتاب يرشدنا إلى أنَّ القرآن قد جمع في زمن الرسول ﷺ بهذه الترتيب الذي هو عليه الآن.

وثمة أدلة أخرى تؤيد حقيقة جمع القرآن بالترتيب الذي بأيدينا اليوم في عصر الرسول ﷺ وبأمره.

روى علي بن إبراهيم، عن الإمام الصادق عليه السلام، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعَلَى عَلِيٍّ: «يَا عَلِيٌّ، إِنَّ الْقُرْآنَ خَلَفَ فِرَاشِي فِي الصُّحْفِ وَالْمُغَرِّبِ وَالْقَرَاطِيسِ، فَعَذْدُوهُ وَأَبْجِعُوهُ»

وَلَا تُضِيقُوهُ كَمَا ضَيَّقْتِ الْيَهُودُ التُّورَةَ، وَانطَّلَقَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَجَمَّعَهُ فِي ثَوْبٍ أَضَفَرَ، ثُمَّ خَتَمَ عَلَيْهِ^١!

ويروي (الخوارزمي) في المناقب عن (علي بن رياح) أنَّ علي بن أبي طالب وأبي بن كعب جمعاً القرآن في عصر رسول الله ﷺ.

وروى (الحاكم) في (المستدرك) عن (زيد بن ثابت) قال: «كُنَّا نُؤْلِفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ».

ويقول العالم الجليل السيد المرتضى رض: «إِنَّ الْقُرْآنَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْمُوعًا مُؤْلَفًا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ الْآنِ»^٢!

ويروي الطبراني وابن عساكر عن الشعبي أنَّ القرآن جمعه ستة من الأنصار في عصر النبي ﷺ^٣.

ويروي قنادة أنه سأله أنس عن جمع القرآن في عصر النبي ﷺ فقال:

أَرْبَعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ هُمْ: أَبُي بْنَ كَعْبٍ، وَمَعَاذٌ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابَةَ، وَأَبُو زَيْدٍ^٤ وَهُنَاكَ روایات أخرى يطول ذكرها.

على أي حال، اتَّخاذ سورة الحمد اسم (فاتحة الكتاب) دليل واضح على إثبات هذه المسألة، إضافة إلى الأدلة الأخرى المستفيضة في مصادر الشيعة والسنّة.

* * *

سؤال:

وهنا يثار سؤال حول المشهور بين بعض العلماء بشأن جمع القرآن بعد عصر النبي ﷺ.

وفي الجواب نقول: ما روى بشأن جمع القرآن على يد الإمام علي رض بعد

١- تاريخ القرآن، أبو عبد الله الزنجاني، ج ١، ص ١٥. ٢- مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٤.

٣- منتخب كنز العمال، ج ٢، ص ٥٢. ٤- صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٠٢.

عصر الرّسول، لم يكن القرآن وحده، بل مجموعة تتضمن القرآن وتفسيره وأسباب نزول الآيات، وما شابه ذلك مما يحتاجه الفرد لفهم كلام الله العزيز. وأمّا ما فعله عثمان في هذا الصدد، فتدلّ القرآن أنّه أقدم على كتابة قرآن واحد عليه علامات التلاوة والإعجام، منعاً للإختلاف في القراءات، إذ لم يكن التنقيط معمولاً به حتى ذلك الوقت.

وما نراه من إصرار لدى جماعة على عدم جمع القرآن في عصر رسول الله صلوات الله عليه وسلم، وعلى نسبة هذا الأمر لل الخليفة عثمان أو لل الخليفة الأول أو الثاني، فإنّما يعود إلى ظروف وملابسات تأريخية لسنا بصددها الآن.

وإذا رجعنا إلى استقصاء طبيعة الأشياء في مجال جمع القرآن، ألمينا أنه من غير المعقول أن يترك النبي صلوات الله عليه وسلم هذه المهمة الكبيرة، بينما تجده يهتمّ بدقائق الأمور المرتبطة بالرسالة.

أليس القرآن دستور الإسلام، وكتاب هداية البشرية، وأساس عقائد الإسلام وأحكامه؟

أليس من الممكن أن يتعرّض القرآن - إن لم يجمع - في عصر الرّسول الله صلوات الله عليه وسلم إلى الضياع، وإلى الإختلاف فيه بين المسلمين؟!

(حديث التقلين) المروي في المصادر الشيعية والسنّية، حيث أوصى رسول الله صلوات الله عليه وسلم بوديعته: كتاب الله وعترته، يؤكّد أيضاً أن القرآن كان قد جمع في مجموعة واحدة في عصر الرّسول الأعظم.

أمّا اختلاف الروايات في عدد الصحابة الذين جمعوا القرآن خلال عصر النبي فلا يشكّل عقبة في البحث، ومن الممكن أن تتجه كلّ رواية إلى ذكر عدد منهم.

سورة الحمد

الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝
اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ اَرْبَعُونَ رَبِيعُ الْرَّجِيمِ ۝ مَا لَكَ
يَوْمَ الدِّينِ ۝ إِنَّا كَنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كَنَّا نَسْتَعِينُ ۝ أَهْدَيْنَا الصَّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ۝ صَرَاطَ الَّذِينَ أَنْفَقُتَ عَلَيْهِمْ غَيْرُ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالُّلُ ۝

التفسير

١- «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

دأبت الأمم والشعوب على أن تبدأ كل عمل هام ذي قيمة باسم كبير من رجالها. والحجر الأساس لكل مؤسسة هامة يوضع باسم شخصية مرموقة في نظر أصحابها، أي أن أصحاب المؤسسة يبدأون العمل باسم تلك الشخصية. ولكن، أليس من الأفضل أن يبدأ العمل في أطروحة أريد لها البقاء والخلود باسم وجود خالد قائم لا يعتريه الفناء؟ فكل ما في الكون يتوجه إلى الزوال والفناء، إلا ما كان مرتبطاً بالذات الأبدية الخالدة ... ذات الله سبحانه. إن خلود ذكر الأنبياء سببه إرتباطهم بالله وبالقيم الإنسانية الإلهية الخالدة كالعدلة وطلب الحقيقة، وخلود اسم رجل في التاريخ مثل (حاتم الطائي)، يعود إلى إرتباطه بواحدة من تلك القيم هي (الستخاء).

ضفة الخلود والأبدية يختص بها الله تعالى من بين سائر الموجودات، ومن هنا ينبغي أن يبدأ كل شيء باسمه وتحت ظله وبالاستمداد منه. ولذلك كانت البسمة أول آية في القرآن الكريم.

والبسمة لا ينبغي أن تنحصر في اللفظ والصورة، بل لا بد أن تتعدى ذلك إلى الارتباط الواقعي بمعناها، وهذا الارتباط يخلق الاتجاه الصحيح ويصنون من الانحراف، ويؤدي حتماً إلى نتيجة مطلوبة مباركة. لذلك جاء في الحديث النبوى الشريف: «كُلُّ أَغْرِيَ ذِي بَالٍ لَمْ يُذَكِّرْ فِيهِ اسْمَ اللَّهِ فَهُوَ أَبْرَئٌ»^١.

وأمير المؤمنين عليه السلام بعد نقله لهذا الحديث الشريف قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَثْرَا أَوْ يَقْتَلَ عَمَلاً فَيَتَوَلُّ يَسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَإِنَّهُ يَتَأْزَكُ فِيهِ»^٢.

ويقول الإمام محمد بن علي الباقري عليهما السلام:

«... وَيَشْبَهُ الْأَشْيَانُ بِهِ عِنْدَ افْتِتاحِ كُلِّ أَغْرِيٍ عَظِيمٍ أَوْ صَغِيرٍ لِيَتَأْزَكَ فِيهِ»^٣؛

بعارة موجزة: بقاء العمل وخلوه يتوقف على ارتباطه بالله.

من هنا كانت الآية الأولى التي أنزلها الله على نبيه الكريم تحمل أمراً لصاحب الرسالة أن يبدأ مهمته الكبرى باسم الله: «إِنَّ رَبَّكَ...»^٤.

ولذلك أيضاً فإنّ نوح عليه السلام - حين يركب السفينة في ذلك الطوفان العجيب، ويمخر عباب الأمواج الهدارة، ويواجه ألوان الأخطار على طريق تحقيق هدفه - يطلب من أتباعه أن يرددوا البسمة في حركات السفينة وسكناتها. «وَقَالَ أَزْكَنُوا فِيهَا يَسْمِ اللَّهِ بِمُخْرَاهَا وَمُرْسَاهَا»^٥. وانتهت هذه السفرة المليئة بالأخطار بسلام وبركة كما يذكر القرآن الكريم: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ إِسْلَامٌ مِنَّا وَبَرَّكَاتٍ

١- بحار الأنوار، ج ١٦، باب ٥٨. نقلًـ عن تفسير البيان، ج ١، ص ٤٦١.

٢- بحار الأنوار، مجلد ٩٢، باب ٢٩، ص ٢٤٢. ٣- المعزان، ج ١، ص ٢١.

٤- المثلق، ١. ٥- هود، ٤١.

عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّكِ مَنْ مَعَكَ) ١.

وسلميماً يبدأ رسالته إلى ملكة سباً بالبسملة: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ يَسْمُرُ
اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ...» ٢.

وإنطلاقاً من هذا المبدأ تبدأ كل سور القرآن بالبسملة، كي يتحقق هدفها
الأصل المتمثل بهداية البشرية نحو السعادة، ويحالفها التوفيق من البداية إلى
ختام المسيرة.

وتفرد سورة التوبة بعدم بدتها بالبسملة، لأنّها تبدأ بإعلان العرب على
بشركي مكة وناكثي الأيمان، وإعلان العرب لا ينسجم مع وصف الله بالرحمن
والرحيم.

* * *

تجدر الإشارة إلى أنّ البسمة تقتصر على صيغة «بِسْمِ اللَّهِ» ولا تقول فيها:
باسم الخالق أو باسم الرزاق وما شابهها من الصيغ، والسبب يعود إلى أنّ الكلمة
(الله) - كما سيأتي - جامعة لكلّ أسماء الله وصفاته. أمّا الأسماء الأخرى لله فتشير
إلى قسم من كمالاته كالرحمة والغالقة.

اتضح مما سبق أيضاً أنّ قولنا: «بِاسْمِ اللَّهِ» في بداية كلّ عمل يعني «الاستعانة»
بالله، ويعني أيضاً «البدء» باسم الله. وهذا المعنى يعودان إلى أصل واحد، وإن
عد بعض المفسّرين إلى التفكّيك بينهما وتقدير كلّ واحد منهما في الكلام.
فالمعنىان متلازمان، أي: أبداً باسم الله وأستعين بذاته المقدّسة.

وطبيعي أنّ البدء باسم الله الذي تفوق قدرته كل قدرة، يبعث فينا القوة،
والعزّم، والثقة، والإندفاع، والصمود والأمل أمام الصعاب والمشاكل،
والإخلاص والتزاهة في الحركة.

وهذا رمز آخر للنجاح، حين تبدأ الأعمال باسم الله.

مهما أطلنا الحديث في تفسير هذه الآية فهو قليل، فالمعروف عن عليٰ عليه السلام أنه بدأ يفسر لابن عباس آية البسمة في أول الليل، فأسفر الصبح وهو لم يتجاوز تفسير الباء منها، غير أننا ننهي البحث بحديث عنه عليه السلام، وستكون لنا بحوث أخرى في هذا الصدد خلال بحوثنا القادمة.

دخل عبد الله بن يحيى على أمير المؤمنين عليه السلام وبين يديه كربلا فآتاهه بالجلوس عليه فجلس عليه قال به حتى سقط على رأسه فأوضحت عن عظم رأسه رسائل الدم، فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بإفصال عن ذلك الدم ثم قال: أدن مني، فوضحت يده على مؤخرتيه «... أما علمنت أن رسول الله خذني عن الله جل وعز: كلُّ أمرٍ ذي بالي لم يذكر فيه يشم الله فهو أبزر؟» فقلت: بل يألي أنت وأمي لا أثر لها بسفلها، قال: «إذا مخظلي بذلك وتشهد»^١.

وقال الصادق عليه السلام: «ولربما ترك في افتتاح أمر بعض شيعتنا يشم الله الرحمن الرحيم فهم يتعجبون الله يمكترون ويشبهون على شكر الله تعالى والثاء عليه ويفخون فيه عنده وصمة تعصيه عند تركه فنول يشم الله»^٢.

* * *

بحوث

١ - هل البسمة جزء من السورة؟

أجمع علماء الشيعة على أنَّ البسمة جزء من سورة الحمد وكلَّ سور القرآن، وكتابتها في مطالع السور أفضل شاهد على ذلك، لأنَّنا نعلم أن النص القرآني مصنون عن أيَّة اضافة، وذكر البسمة معنول به منذ زمان النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه.

١ - بحار الأنوار، ج ٩٢، الباب ٢٩، ص ٢٤١ و ٢٤٢.

٢ - نفس المصدر، ص ٢٤٠.

أما علماء السنة فاختلقوافي ذلك، وصاحب المنار يجمع أقوالهم فيما يلي:
 «أجمع المسلمين على أن البسملة من القرآن وأنها جزء آية من سورة النمل. واختلفوا في مكانها من سائر السور، فذهب إلى أنها آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة - فقهاؤهم وقراوئهم - ومنهم: ابن كثير. وأهل الكوفة و منهم عاصم والكساني من القراء، وبعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة، والشافعي في الجديد وأتباعه، والتوري وأحمد في أحد قوله، والإمامية، ومن الروي عنهم ذلك من علماء الصحابة علي وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة، ومن علماء التابعين سعيد بن جبير وعطاء والزهري وابن المبارك. وأقوى حجتهم في ذلك إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة سوى سورة البراءة (التوبه) مع الأمر بتجريد القرآن عن كل ما ليس منه. ولذلك لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة ...».

ثم ينقل عن مالك والحنفية وآخرين، أنهم ذهبوا إلى أنَّ البسملة آية مستقلة نزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها.

وعن حمزة من قراء الكوفة وأحمد «الفقيه السنّي المعروف» أنها من الفاتحة دون غيرها من سور القرآن^١.

ومن مجموع ما ذكر يستفاد أنَّ الأكثريَّة الساحقة من أهل السنة يرون أنَّ البسملة جزء من السورة كذلك.

تُنقل هنا طائفة من الروايات المنقولَة في هذا الصدد بطرق الشيعة والسنة، وبالقدر الذي يتَناسب مع هذا البحث التفسيري:

١ - عن معاوية بن عمارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إذا قُتلت للصلوة أثراً يُشم الله الرحمن الرحيم في فاتحة القرآن؟ قال: «نعم» قلت: فإذا قرأت فاتحة القرآن أثراً يُشم الله

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَعَ السُّورَةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ».^١

٢ - ما أخرجه الدارقطني بسنده صحيح عن علي عليه السلام: «أَنَّهُ سَيَلَ عَنِ السَّبِيعِ الْمَتَانِي، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْفَالِئِينَ، فَقَبِيلَ لَهُ إِنَّمَا هِيَ سَيَّئَاتٌ فَقَالَ: يَشْرِمُ اللَّهُ الرَّؤْخَنِ الرَّوْعِيْمَ آيَةً».^٢

٣ - روى البيهقي بسنده عن ابن جبير، عن ابن عباس، قال: «إِشْرَقَ السَّيْطَانُ مِنَ النَّاسِ أَعْظَمَ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ: يَشْرِمُ اللَّهُ الرَّؤْخَنِ الرَّوْعِيْمَ» (إشارة إلى شیوع عدم قراءةتها في مطالع السور).^٣

أضف إلى ذلك، أنَّ سيرة المسلمين جرت دوماً على قراءة البسملة في مطالع السور لدى تلاوة القرآن، وثبتت بالتواتر قراءة النبي لها. وكيف يمكن أن تكون أجنبية عن القرآن والنبي والمسلمون يواطئون على قراءتها لدى تلاوتهما القرآن؟!

وأمّا ما ذهب إليه بعضهم من احتمال أنَّ البسملة آية مستقلة وليس جزءاً من سور القرآن، فهو احتمال واؤ ضعيف، لأنَّ مفهوم البسملة يشعر ببداية العمل، ولا يفصح عن معنى منفصل مستقل.

وفي اعتقادنا أنَّ الإصرار على فصل البسملة عن السور تعصب لا مبرر له، ولا ينهض عليه دليل، في حين أنَّ مضمونها مسفر عن أنها بداية لما بعدها من الأبحاث.

يبقى إبراد واحد، هو أنَّ البسملة لا تحتسب في عدد آيات سور القرآن (عدا بسملة سورة العمد)، بل يبدأ العدد من الآية التالية للبسملة.

والجواب على ذلك ما ذكره (الفخر الرازبي) في تفسيره الكبير، إذ قال: لا

١ - الكافي، ج ٢، ص ٣٦٢.

٢ - الإتقان، مجلد ١، ص ١٣٦. نقلأً عن البيان، ص ٤٤١.

٣ - البيهقي، ج ٢، ص ٥٠.

يمعن أن تكون البسمة لوحدها آية في سورة الحمد، وأن تكون جزءاً من الآية الأولى في سائر سور القرآن (أي أن مطلع سورة الكوثر مثلاً: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) يعتبر كله آية واحدة.

والمسألة - على أي حال - واضحة إلى درجة كبيرة حتى روي: أن معاوية صَلَّى اللَّاتِيْنَ فِي نَفْرَةِ حُكُومَتِهِ ثُلَّمْ يَغْرُبُ الْبَشَّمَةَ، فَصَاحَ جَمِيعُ مِنَ الْمَاهِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بِنَدَ الصَّلَاةِ: أَسْرَقْتَ أَمْ نَسِيْتَ؟^١

* * *

٢- لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالى:

كلمة (اسم) أول ما تطالعنا في البسمة من كلمات، وهو في رأي علماء اللغة من (السمو) على وزن (العلو)، ومعناه الإرتفاع، وفيهم أن الشيء بعد التسمية يخرج من مرحلة الخفاء إلى مرحلة البروز والظهور والرقي، أو إنه يرتفع بالتسمية عن مرحلة الإهمال ويكتسب المعنى والعلو^٢.

بعد كلمة الاسم نلتقي بكلمة (الله) وهيأشمل أسماء رب العالمين فكل اسم ورد الله في القرآن الكريم وسائر المصادر الإسلامية يشير إلى جانب معين من صفات الله. والاسم الوحيد الجامع لكل الصفات والكمالات الإلهية أو الجامع لكل صفات الجلال والجمال هو (الله).

ولذلك اعتبرت بقية الأسماء صفات لكلمة (الله) مثل: (الغفور) و(الرحيم) و(السميع) و(العليم) و(البصير) و(الرازق) و(ذو القوة) و(المتين) و(الخالق)

١- البهقي، ج ٢، ص ٤٩، والحاكم في المستدرك، ج ١، ص ٢٣.

٢- ذهب بعضهم إلى أنَّ (الاسم) من (السمة) على وزن (الهبة) من مادة (سم) أي وضع علامة لأنَّ الاسم علامة المعنى. ولكن أكثر علماء اللغة رفضوا هذا الاستئناف، لأنَّه من الواضح أنَّ الجنود الأصلية للكلمة تظهر عند الجمع والتضيير فالواو لا تظهر في الجمع والتضيير (كما تظهر في المثال الواوي عادة) فتقول في الجمع أسماء، في التضيير، وسمية فهو إذن ناقص واوي لا مثال واوي.

و(البارئ) و(المصوّر).

كلمة (الله) هي وحدها الجامعة، ومن هنا اتّخذت هذه الكلمة صفات عديدة في آية كريمة واحدة، حيث يقول تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمِّنُ الْغَزِيرُ الْجَبَارُ الْمُكَبِّرُ»^١

أحد شواهد جامعية هذا الاسم أنَّ الإيمان والتوحيد لا يمكن إعلانه إلَّا بعبارة (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وبعبارة (لَا إِلَهَ إِلَّا القَادِرُ... أو إِلَّا الخالق... أو إِلَّا الرَّزَّاقُ) لا تفي بالغرض. ولهذا السبب يشار في الأديان الأخرى إلى معبود المسلمين باسم (الله) وهذه التسمية الشاملة خاصة بال المسلمين.

* * *

٣- الرحمة الإلهية الخاصة والعامة:

المشهور بين جماعة من المفسرين أنَّ صفة (الرحمن) تشير إلى الرحمة الإلهية العامة، وهي تشمل الأولياء والأعداء، والمؤمنين والكافرين، والمحسنين والمسين، فرحمته تعمّ المخلوقات، وخوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات، وكلَّ العباد يتمتعون بعوبة الحياة، وينالون حظهم من مائدة نعمه اللامتناهية. وهذه هي رحمته العامة الشاملة لعالم الوجود كافة وما تستحق فيه من كائنات.

وصفة (الرحيم) إشارة إلى رحمته الخاصة بعباده الصالحين المطهعين، قد استحقوها بإيمانهم وعملهم الصالح، وحرّم منها المنحرفون وال مجرمون. الأمر الذي يشير إلى هذا المعنى أنَّ صفة (الرحمن) ذكرت بصورة مطلقة في القرآن الكريم ممّا يدل على عموميتها، لكنَّ صفة (الرحيم) ذكرت أحياناً مقيّدة، لدلالتها الخاصة، كقوله تعالى: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا»^٢ وأحياناً أخرى مطلقة

كما في هذه السورة.

وفي رواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ إِلَهُ كُلُّ شَيْءٍ
الْأَوْحَدُ، يُجْمِيعُ خَلْقَهُ، الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً»^١.

من جهة أخرى، كلمة (الرحمن) اعتبروها صيغة مبالغة، ولذلك كانت دليلاً آخر على عمومية رحمته. واعتبروا (الرحيم) صفة مشبهة تدل على الدوام والثبات، وهي خاصة بالمؤمنين.

وثالث دليل آخر، هو إِنَّ (الرحمن) من الأسماء الخاصة بالله، ولا تستعمل لغيره، بينما (الرحيم) صفة تنسب لله ولعباده. فالقرآن وصف بها الرسول الكريم، حيث قال: «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ»^٢.
وإلى هذا المعنى أشار الإمام الصادق عليه السلام، فيما روى عنه: (الْأَوْحَدُ إِنْ شَاءَ خَاصٌّ
بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، وَالرَّحِيمُ عَامٌ بِصِفَةٍ خَاصَّةً)^٣.

ومع كل هذا، نجد كلمة (الرحيم) تستعمل أحياناً كوصف عام. وهذا يعني أن التمييز المذكور بين الكلمتين إنما هو في جذور كل منها، ولا يخلو من استثناء. في دعاء عرفة - المنقول عن الحسين بن علي عليه السلام - وردت عبارة: «يَا رَحْمَنَ
الْدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا».

نختتم هذا الموضوع بحديث عميق المعنى، عن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ
غَرَّ وَجْلَ مائَةَ رَحْمَةً، وَإِنَّهُ أَنْزَلَ مِنْهَا واجِدَةً إِلَى الْأَرْضِ، فَقَسَّمَهَا بَيْنَ خَلْقِهِ، بِهَا يَتَقَاضَفُونَ
وَيَتَرَاحَمُونَ، وَأَغْزِيَتْهُمُ الْمَسِيحَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^٤.

* * *

١- الكافي، وتوحيد الصدوق، ومعاني الأخبار (نقلًا عن العزيزان).

٢- التوبية، ١٢٨.

٣- مجمع البيان، ج ١، ص ٢١.

٤- نفس المصدر.

لِمَ لَمْ تَرِدْ بَقِيَةُ صِفَاتِ اللَّهِ فِي الْبَسْمَلَةِ؟
في البسملة ذكرت صفات الله فقط هما: الرحمانية والرحيمية، فما هو السبب؟

الجواب يتضح لو عرفنا أن كل عمل ينبغي أن يبدأ بالاستمداد من صفة تعم آثارها جميع الكون وتشمل كل الموجودات، وتندى المستغثين في اللحظات الحساسة.

هذه حقيقة يوضحها القرآن إذ يقول: «وَرَحْمَتِي وَسَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ»^١، ويقول على لسان حملة العرش: «رَبَّنَا وَسَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً»^٢.

ومن جانب آخر نرى الأنبياء وأتباعهم يتولون برحمه الله في المواقف الشديدة الحاسمة. قوم موسى تضرعوا إلى الله أن ينقذهم من تجبر فرعون وظلمه، وتولوا إليه برحمته فقالوا: «وَجْبَنَا بِرَحْمَتِكَ»^٣.

وبشأن هود وقومه، يقول القرآن: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَنَّا»^٤. من الطبيعي أننا - حين تتضرع إلى الله - ننادي بصفات تتناسب مع تلك الحاجة، فعيسى عليه السلام حين يطلب من الله مائدة من السماء، يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ... وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»^٥.

ونوح عليه السلام يدعو الله في خط رحاله: «رَبُّ أَنْزَلَنِي مُنْزَلًا مُبَارَّكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَنْزَلِينَ»^٦.

وزكر يا نادى ربى لدى طلب الولد الوارث قال: «رَبُّ لَا تَذَنِنِي فَزُداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ»^٧.

١- الأعراف، ١٥٦.

٢- المؤمن، ٧.

٣- يونس، ٨٦.

٤- الأعراف، ٧٢.

٥- المائد، ١١٤.

٦- المؤمن، ٢٩.

٧- الأنبياء، ٨٩.

للبدء بأي عمل ينبغي - إذن - أن نتوسل برحمـة الله الواسعة، رحـمة العـامة ورحـمة الـخاصـة. وهـل هـناك أـنسـب من هـذه الصـفـة لـتحقـق النـجـاح فـي الـأـعـمال، ولـلتـغلـب عـلـى الـمـشاـكـل وـالـصـعـابـ؟!

وـالـقـوـة الـتـي تـسـتـطـيـع أـن تـجـذـب الـقـلـوب نحو الله وـتـرـبـطـها بـهـ هي صـفـة الرـحـمة، إذ لها طـابـعـها الـعـام مـثـل قـانـون الـجـاذـيـة، يـنـبـغـي الإـسـتـفـادـة مـن صـفـة الرـحـمة هـذـه لـتـوـثـيق العـرـى بـيـن الـمـخـلـوقـين وـالـخـالـقـ.

المـؤـمـنـون الـحـقـيقـيـون يـطـهـرون قـلـوبـهـم بـذـكـر الـبـسـمـلة فـي بـدـاـيـة كـلـ عـلـقـة وـإـرـتـبـاطـ، وـيرـتـبـطـون بـالـلـه وـحـدـه وـيـسـتمـدـون مـنـهـ الـمـعـونـ، وـيـسـتوـسـلـونـ إـلـيـهـ بـرـحـمـةـ الـتـي وـسـعـتـ كـلـ شـيـءـ.

وـالـبـسـمـلة أـيـضـاـ تـعـلـمـنـا أـنـ أـفـعـالـ اللـه تـقـومـ أـسـاسـاـ عـلـى الرـحـمةـ، وـالـعـقـابـ لـهـ طـابـعـ اـسـتـثـنـائـي لاـ يـنـزـل إـلـاـ فـيـ ظـرـوفـ خـاصـةـ، كـمـاـ نـقـرـأـ فـيـ الـأـدـعـيـةـ الـمـرـوـيـةـ عـنـ آلـ بـيـتـ رـسـولـ اللـهـ: «يـا مـنـ سـبـقـتـ رـحـمـتـهـ غـضـبـهـ»^١.

المـجـمـوعـةـ الـبـشـرـيـةـ السـائـرـةـ عـلـىـ طـرـيقـ اللـهـ يـنـبـغـيـ أـنـ تـقـيمـ نـظـامـ حـيـاتـهـ عـلـىـ هـذـاـ أـسـاسـ أـيـضـاـ، وـأـنـ تـقـرـنـ مـوـاقـعـهـ بـالـرـحـمـةـ وـالـمـحـبـةـ، وـأـنـ تـسـتـرـكـ الـعـنـفـ إـلـىـ الـمـوـاضـعـ الـضـرـورـيـةـ، «١١٣» سـوـرـةـ مـنـ مـجـمـوعـ «١١٤» سـوـرـةـ قـرـآنـيـةـ تـبـدـأـ بـالـتـأـكـيدـ عـلـىـ رـحـمـةـ اللـهـ، وـسـوـرـةـ التـوـبـةـ وـحـدـهـ تـبـدـأـ بـإـعـلـانـ الـعـربـ وـالـعـنـفـ بـدـلـ الـبـسـمـلةـ.



الآية

الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑤

التفسير

العالم مغمور في رحمته

بعد البسمة، أول واجبات العباد أن يستحضروا دوماً مبدأ عالم الوجود، ونעם اللامتناهية، هذه النعم التي تحيطنا وتغمر وجودنا، وتهدينا إلى معرفة الله من جهة، وتدفعنا على طريق العبودية من جهة أخرى. وعند ما نقول أن النعم تشكل دافعاً ومحركاً على طريق العبودية، لأنَّ الإنسان مفطور على البحث عن صاحب النعمة حينما تصله النعمة، ومفطور على أن يشكر المنعم على أنعامه.

من هنا فان علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون في بحوثهم الأولية لهذا العلم إلى «وجوب شكر النعم» باعتباره أمراً فطرياً وعقلياً دافعاً إلى معرفة الله سبحانه.

وإنما قلنا إن النعم تهدينا إلى معرفة الله، لأن أفضل طريق وأشمل سبيل لمعرفته سبحانه، دراسة أسرار الخليقة، وخاصة ما يرتبط بوجود النعم في حياة الإنسان.

مما تقدم ابتدأت سورة الحمد بعبارة «الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

ولنفهم عمق هذه العبارة وعظمتها يلزمنا توضيح الفرق بين «الحمد» و«المدح» و«الشكر» والنتائج المترتبة على ذلك:

١- «الحمد» في اللغة: الثناء على عمل أو صفة طيبة مكتسبة عن اختيار، أي حينما يؤدي شخص عملاً طيباً عن وعي، أو يكتسب عن اختيار صفة تؤهله لأعمال الخير فإننا نحمده ونشتري عليه.

و«المدح» هو الثناء بشكل عام، سواء كان لأمر اختياري أو غير اختياري، كمدحنا جوهرة ثمينة جميلة. ومفهوم المدح عام، بينما مفهوم الحمد خاص.

أما مفهوم «الشكر» فأخضر من الاثنين، ويقتصر على ما ندينه تجاه نعمة تغدق علينا من منعم عن اختيار!

ولو علمنا أنَّ الألف واللام في (الحمد) هي لاستغراق الجنس، لعلمنا أنَّ كل حمد وثناء يختص بالله سبحانه دون سواه.

تناوأنا على الآخرين ينطلق من ثناتنا عليه تعالى، لأنَّ مواهب الواهبين كالأنبياء في هدايتهم للبشر، والمعلمين في تعليمهم، والكرماء في بذلهم وعطائهم، والأطباء في علاجهم للمرضى وتطبيتهم للمصابين، إنما هي في الأصل من ذاته المقدسة. وبعبارة أخرى: حمد هؤلاء هو حمد الله، والثناء عليهم ثناء على الله تعالى.

وهكذا الشمس حين تغدق علينا بأشعتها، والسحب بأمطارها، والأرض ببركاتها، كلَّ ذلك منه سبحانه، ولذلك فكلَّ الحمد له.

وبكلمة أخرى: جملة «الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» إشارة إلى توحيد الذات، والصفات، والأفعال (تأمل بدقة).

١- «الشكر»، من وجهة نظر أخرى أوسع إطاراً، لأنَّ الشكر يؤدي بالقول أحياناً وبالعمل أخرى. إنما الحمد والمدح فالقول غالباً.

٢- وصف (الله) بأنه (رَبُّ الْعَالَمِينَ) هو من قبيل ذكر الدليل بعد ذكر الادعاء، وكان سائلاً يقول: لم كان حمد الله؟ ف يأتي الجواب: لأنَّه (رب العالمين). وفي موقع آخر يقول القرآن عن الباري سبحانه: «الَّذِي أَخْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَةً...»^١.

ويقول أيضاً: «وَمَا مِنْ دَائِيَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ يَرْجُفُهَا»^٢.

٣- يستفاد من (الحمد) أنَّ الله سبحانه واهب النعم عن إرادة وإختيار، خلافاً لأولئك القائلين إنَّ الله تعالى مجبر على أن يفيض بالعطاء كالشمس!!

٤- جدير بالذكر أنَّ الحمد ليس بداية كل عمل فحسب، بل هو نهاية كل عمل أيضاً كما يعلمنا القرآن.

يقول سبحانه عن أهل الجنة: «دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحْمِلُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^٣.

٥- أما كلمة «رب» ففي الأصل بمعنى مالك وصاحب الشيء الذي يهتم بتربيته وأصلاحه. وكلمة «ربيبة» وهي بنت الزوجة، وأخذواه من هذا المفهوم للكلمة. لأنَّ الريبة تعيش تحت رعاية زوج أمها.

والكلمة بلفظها المطلق تعني رب العالمين، وإذا أطلقت على غير الله لزم أن تصاف، كأن يقول: رب الدار، ورب السفينة^٤.

وذكر صاحب تفسير (مجمع البيان) معنى آخر للرب، وهو السيد المطاع، ولكن لا يبعد أن يعود المعانيان إلى أصل واحد^٥.

٦- الكلمة «عالمين» جمع «عالَم»، والعالم: مجموعة من الموجودات المختلفة

٢- هود، ٦.

١- السجدة، ٧.

٣- يونس، ١٠.

٤- قاموس اللغة، ومفردات الراغب، وتفسير مجمع البيان، وتفسير البيان.

٥- لا بد من الإلتفات إلى أنَّ (رب) من مادة (رب)، لا من (ربو)، أي إنه مضاعف لاتفاق.

ذات صفات مشتركة، أو ذات زمان ومكان مشتركين، كأن نقول: عالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم النبات. أو نقول عالم الشرق وعالم الغرب، وعالم اليوم، وعالم الأمس. فكلمة العالم وحدها تتضمن معنى الجمع، وحين تجمع بصفحة «العالمين»، فيقصد منها كل مجموعات هذا العالم.

ويلفت النظر هنا أن كلمة عالم جمعت هنا جمعاً مذكراً سالماً، ونعرف أن جمع المذكر السالم يستعمل في العاقل عادة، ومن هنا ذهب بعض المفسرين إلى أن كلمة «العالمين» إشارة إلى المجموعات العاقلة في الكون كالبشر، والملائكة، والجن، ولكن قد يكون هذا الاستعمال للتغليب، أي لتغليب المجموعات العاقلة على غير العاقلة.

٧- يقول صاحب المنار: (ويؤثر عن جدنا الإمام جعفر الصادق عليه أن المراد بالعالمين) الناس فقط.^١

ثم يضيف: وقد وردت كلمة (العالمين) في القرآن الكريم أيضاً بهذا المعنى قوله: «ليكون للعالمين نذيرآم». ^٢

ولكن، لو استعرضنا مواضع استعمال (العالمين) في القرآن، لرأينا أن هذه الكلمة وردت في كثير من الآيات بمعنى بني الإنسان، بينما وردت في مواضع أخرى بمعنى أوسع يشمل البشر وسائر موجودات الكون الأخرى، كقوله تعالى: «فَلَهُ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمَيْنَ» ^٣ وكقوله سبحانه: «قالَ فَرَعَوْنُ: وَمَا رَبُّ الْعَالَمَيْنَ؟ قَالَ: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا». ^٤

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه في تفسير (رب العالمين) قال: «رب العالمين هم الجمادات من كل مخلوق من الجمادات والحيوانات». ^٥

١- المنار، ج ١، ص ٥١.

٢- الفرقان، ٦.

٣- العجائية، ٢٦.

٤- الشمراء، ٢٢ و ٢٤.

٥- تفسير نور التلقيين، ج ١، ص ١٧.

كلمة عالمين يمكن فهمها في إطارها الكوني الأوسع، ويمكن فهمها في إطار عالم (الإنسان) - كما ورد في رواية الإمام زين العابدين عليه السلام، لأنَّ الكائن البشري أشرف المخلوقات، ولأنَّ الإنسان هو الهدف الأساس من هذه المجموعة الكبرى وليس بين الفهمن أي تناقض.

٨- جدير بالذكر أن هناك من قسم العالم إلى: عالم صغير وعالم كبير، والمقصود من العالم الصغير هو الإنسان، لأنَّه لوحده ينطوي على مجموعة من نفس القوى المترددة في هذا الكون الفسيح، والإنسان - في الواقع - عينية مصغرة لكل هذا العالم.

الذي دعانا إلى التوسيع في مفهوم كلمة (العالم) هو أن عبارة «رب العالمين» جاءت وكأنَّها دليل على عبارة (الحمد لله)، أي أتنا نقول في سورة الفاتحة: إنَّ الحمد مختص بالله تعالى لأنَّه صاحب كلِّ كمال ونعمَة وموهبة في العالم.

* * *

بحثان

١- رفض الآلهة:

شهد التاريخ البشري ألوان الإنحرافات عن خط التوحيد، والصفة البارزة في هذه الإنحرافات هو الاعتقاد بوجود آلهة متعددة لهذا العالم، وفكرة التعدد انطلقت من ضيق نظرية أصحابها الذين راحوا يعيتون لكل جانب من جوانب الكون والحياة إليها، وكأنَّ ربوبية العالمين لا يمكن إناطتها لمصدر واحد!! وراحَت بعض الأمم تصنَّع الآلهة لأمور جزئية كالحب والعقل والتجارة والعرب والصيد. اليونانيون مثلاً كانوا يعبدون اثنتي عشرة آلةً وضعوها على قمة (أولمپ)

وكل واحدة منها تمثل جانباً من صفات البشر !!.
والكلدانيون اعتنوا بإله الماء وإله القمر وإله الشمس وإله الزهرة، وأطلقوا على كل واحد منها اسمـاً معيناً، واتخذوا فوق ذلك «مروخ» إلهـا أكبر لهم.
والروم تعددت آلهـتهم أيضاً، وراج سوق الشرك عندـهم أكثر من آية آلة أخرى. فقد قسموا الآلهـة إلى مجموعـتين: آلهـة الأسرة وآلهـة الحكومة. ولم يكونـوا يـكونـون ولاهـة الحكومة، (العدم إرتياحـهم من حـكمـتهم!).

وقد ورد في التاريخ أن الروم اتـخذـوا لهم ثلاثة ألف إلهـا حتى قال أحد رجالـهم مازحاً: إن عددـهمـا من الكثـرة إلى درـجة أنهاـ أكثرـ من العـارةـ في الأـزـقةـ والـطـرـقـاتـ، وكلـ واحدـ منهاـ مـظـهـرـ منـ مـظـاهـرـ الـكـوـنـ المشـهـودـ، إـلهـ مثلـ إـلهـ الزـرـاعـةـ، إـلهـ المـطـبـخـ، إـلهـ مـسـتوـدـعـ الطـعـامـ، إـلهـ الـبـيـتـ، إـلهـ النـارـ، إـلهـ الـفـاكـهـةـ، إـلهـ الـحـصـادـ، إـلهـ شـجـرـةـ الـعـنـبـ، إـلهـ الـفـابـةـ، إـلهـ الـحـرـيقـ، إـلهـ بـوـاـبـةـ رـومـاـ، إـلهـ بـيـتـ النـارـ.^٢
ولـلـخـلاـصـةـ، أـنـ الـبـشـرـيـةـ كـانـتـ غـارـقةـ فـيـ وـحـلـ الـخـرـافـاتـ كـماـ أـنـهاـ تعـانـيـ الـآنـ أـيـضاـ مـنـ ذـلـكـ الـمـورـوـثـ السـقـيمـ.

وـفيـ عـصـرـ نـزـولـ الـقـرـآنـ كـانـ فـيـ الـجـزـيـزةـ الـعـرـبـيـةـ وـفـيـ كـثـيرـ مـنـ مـنـاطـقـ الـعـالـمـ، آـلـهـةـ تـبـعـدـ مـنـ دـوـنـ اللهـ، كـماـ كـانـتـ عـبـادـةـ الـأـفـرـادـ رـائـجـةـ، وـإـلـىـ ذـلـكـ يـشـيرـ الـقـرـآنـ فـيـ خطـابـهـ لـلـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ إـذـ يـقـولـ: «أـتـغـدـدـوا أـخـبـارـهـمـ وـرـهـبـانـهـمـ أـرـيـابـاـ مـنـ دـوـنـ اللهـ».^٣

بعـارـةـ مـوجـزـةـ؛ حـينـ تـتـحـرـفـ الـبـشـرـيـةـ عـنـ خـطـ التـوـحـيدـ، وـتـتـورـطـ فـيـ شـرـاكـ الـخـرـافـاتـ وـفـخـانـ الـأـوـهـامـ. فـمـضـافـاـ إـلـىـ أـنـهـ تـسـاـهـمـ فـيـ تـغـيـرـ الـعـقـلـ وـانـحـطـاطـ الـفـكـرـ، تـؤـديـ إـلـىـ تـشـتـتـ الـمـجـتمـعـ وـتـعـملـ عـلـىـ تـمزـيقـهـ.
خطـ التـوـحـيدـ الـذـيـ دـعـاـ إـلـيـهـ الـأـنـبـيـاءـ يـتـمـيزـ بـنـبـذـ الـآـلـهـةـ الـمـتـعـدـدةـ، وـهـدـاـيـةـ

٢- تاريخ «آلهـةـ»، جـ ١، الفـصلـ الـرـابـعـ.

١- أـعـلامـ قـرـآنـ، صـ ٢٠٢.

٣- التـوـيـةـ، ٣٦ـ.

البشرية نحو الإله الواحد الأحد، وإنطلاقاً من هذه الأهمية القصوى للقضاء على الآلهة المتعددة جاء التأكيد القرآني بعد آية البسملة بقوله: «الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وبهذا يرسم القرآن الكريم خط البطلان على جميع الآلهة المزيفة وأرباب النوع ويلقي بها في وادي العدم مكانها الأولي، ويفرس محلها أزهار التوحيد والاتحاد.

هذا التأكيد يتلوه الإنسان المسلم عشر مرات في صلواته اليومية - على الأقل - لترسخ فكرة التوحيد، وفكرة رفض ربوبية كل الأرباب والآلهة، غير ربوبية الله رب العالمين.

٢- ربوبية الله طريق لمعرفة الله

كلمة (الربّ)، وإن كانت تعنى في الأصل المالك والصاحب، تتضمن معنى الصاحب المتعهد بال التربية.

إمعان النظر في المسيرة التكاملية للموجودات الحية، وفي التغيرات والتحولات التي تجري في عالم الجماد، وفي الظروف التي تتوفّر لتربية الموجودات، وفي تفاصيل هذه الحركات والعمليات، هو أفضل طريق لمعرفة الله. والتنسيق الالإرادي بين أعضاء جسdenا هو نموذج حي لذلك.

لو واجهنا في حياتنا - مثلاً - حادثة هامة تتطلب منها أن ننهض أمامها بقوة وحزم، فإنّ أوامر منسقة تصدر خلال لحظة قصيرة إلى جميع أجزاء جسدنابشكل لا إرادى. وبسرعة خاطفة يشتد ضربان قلباً وتنفسنا، وتتجهز كلّ قوانا، وتتدفق المواد الغذائية والأوكسجين - المحملة عن طريق الدم - إلى جميع الخلايا، وتتأهب الأعصاب والعضلات للعمل والحركة السريعة. وترتفع قدرة تحمل الإنسان للمتاعب والآلام، ويعادر النوم العيون، ويزول التعب من الأعضاء،

ويزول الإحساس بالجوع.

من الذي أوجد هذا التنسيق العجيب في هذه اللحظة الحساسة، وبهذه السرعة، بين جميع أجزاء وجود الإنسان؟ هل هذه العناية والتربية ممكنة من غير الله العالم القادر؟!

آيات القرآن الكريم تكثُر من عرض نماذج لهذه التربية الإلهية، سنتعرض لها في مكانها إن شاء الله تعالى، وكل واحدة منها دليل واضح على معرفة الله.

* * *

الآية

آلْرَحْمَنِ آلْرَحِيمِ ﴿٧﴾

التفسير

معنى (آلْرَحْمَنِ) و(آلْرَحِيمِ) وإتساع مفهومهما والفرق بينهما، شرحناه في تفسير البسمة، ولا حاجة إلى التكرار. وما نضيّفه هنا هو أن هاتين الصفتين تتكرران في البسمة والحمد، «والمُلْتَزِمُونَ» بذكر البسمة في السورة بعد الحمد يكررون هاتين الصفتين في صلواتهم اليومية الواجبة ثلاثين مرّة. وبذلك يصفون الله برحمته ستين مرّة يومياً.

وهذا في الواقع درس لكل جماعة بشرية سائرة على طريق الله، وتواقه للتخليق بأخلاق الله. إنه درس يبعد البشرية عن تلك الحالات التي شهدتها تاريخ الرق في ظل القياصرة والأكاسرة والفراعنة.

القرآن يركز على علاقة الرحمة والرأفة بين رب العباد والعباد، حيث يقول: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَنْقُضُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَيِّعَاهُ». ^١

هذه العلاقة تستحضرها مرات يومياً إذ نقول: «آلْرَحْمَنِ الرَّحِيمِ»، لنرى في أنفسنا تربية صحيحة في علاقتنا بالله، وفي علاقتنا بأبناء جنسنا.

* * *

الآية

مَالِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١﴾

التفسير

الزكيزة الثانية: الإيمان بيوم القيمة

هذه الآية تلقت الأنظار إلى أصل هام آخر من أصول الإسلام، هو يوم القيمة: «مَالِكٌ يَوْمَ الدِّينِ»، وبذلك يكتمل محور المبدأ والمعاد، الذي يعتبر أساس كل إصلاح أخلاقي واجتماعي في وجود الإنسان.

تعبير (مالك) يوحى بسيطرة الله التامة وهيمنته المستحكمة على كل شيء وعلى كل فرد في ذلك اليوم، حيث تحضر البشرية في تلك المحكمة الكبرى للحساب، وتقف أمام مالكها الحقيقي للحساب، وترى كل ما فعلته وقالته، بل وحتى ما فكرت به، حاضراً، فلا يضيع أي شيء -مهما صغر - ولا ينسى، والإنسان -وحده- يحمل أعباء نتائج أعماله، بل نتائج كل ستة استنها في الأرض أو مشروع أقامه.

مالكية الله في ذلك اليوم دون شك ليست ملكية اعتبارية، نظير ملكيتنا للأشياء في هذا العالم، ملكيتنا هذه عقد يبرم بموجب تعامل ووثائق، وينفسخ بموجب تعامل آخر ووثائق أخرى، لكن ملكية الله لعالم الكون ملكية حقيقة.

تمثل في إرتباط الموجودات بإرتباطاً خاصاً بالله. ولو انقطع هذا الإرتباط لحظة لزالت الموجودات تماماً مثل زوال النور من المصايبع الكهربائية، حين ينقطع اتصالها بالمولد الكهربائي.

عبارة أخرى: مالكية الله نتيجة خالقيته وربوبيته. فالذي خلق الموجودات ورعاها ورباها، وأفاض عليها الوجود لحظة بلحظة، هو المالك الحقيقي للموجودات.

نستطيع أن نرى نموذجاً مصغراً للملكية الحقيقة، في مالكيتنا للأعضاء بدننا، نحن نملك ما في جسdenا من عين وأذن وقلب وأعصاب، لا بالمعنى الاعتباري للملكية، بل بنوع من المعنى العقلي القائم على أساس الإرتباط والإحاطة. وقد يسأل سائل فيقول: لماذا وصفنا الله بأنه «مالك يوم الدين» بينما هو مالك الكون كله؟

والجواب هو أن الله مالك لعالم الدنيا والآخرة، لكن مالكيته ليوم القيمة أبرز وأظهر، لأن الإرتباطات العادلة والملكيات الاعتبارية تتلاشى كلها في ذلك اليوم، وحتى الشفاعة لا تتم يومئذ إلا بأمر الله: «يَوْمَ لَا تَنْتَكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأُمُرُ يَوْمئذٍ لِّلَّهِ!».

بتعبير آخر: قد يسارع الإنسان في هذه الدنيا لمساعدة إنسان آخر، ويدافع عنه بلسانه، ويحميه بأمواله، وينصره بقدرته وأفراده، وقد يشمله بحمايته من خلال مشاريع ومخطلات مختلفة، لكن هذه الألوان من المساعدات غير موجودة في ذلك اليوم. من هنا حين يوجه هذا السؤال إلى البشر: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» يجيبون: «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

الإيمان بيوم القيمة، وبتلك المحكمة الإلهية الكبرى التي يخضع فيها كل

شيء للإحصاء الدقيق، له الأثر الكبير في ضبط الإنسان أمام الزلات، ووقايتها من السقوط في المنحدرات، وأحد أسباب قدرة الصلاة على النهي عن الفحشاء والمنكر هو أنها تذكر الإنسان بالعبد المطلع على حركاته وسكناته وتذكرة أيضاً بمحكمة العدل الإلهي الكبرى.

التركيز على مالكية الله ل يوم القيمة يقارع من جهة أخرى معتقدات المشركيين ومنكري المعاد، لأن الإيمان بالله عقيدة فطرية عامة، حتى لدى مشركي العصر الجاهلي، وهذا ما يوضحه القرآن إذ يقول: «وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اهْنَمْ^١ بِينَما الإِيمَانُ بِالْمَعَادِ لَيْسَ كَذَلِكَ، فَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ كَانُوا يُوَاجِهُونَ مَسَأَلَةَ الْمَعَادِ بِعِنَادٍ وَاسْتِهْزَاءٍ وَلِجَاجٍ: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدْلُكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَبَثُّكُمْ إِذَا مُرْفَقُتُمْ كُلُّ مُهَرَّقٍ إِنْ كُمْ لَيْ خُلِقْ جَدِيدٌ، افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ يَهُ جِنَّةً؟^٢.

وروي عن علي بن الحسين السجاد عليهما السلام: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَا «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» يَكْرُرُهَا حَتَّى يَكُادُ أَنْ يَوْمَ^٣».

أما تعبير «يَوْمُ الدِّينِ»، فحيثما ورد في القرآن يعني يوم القيمة، وتكرر ذلك في أكثر من عشرة مواضع من كتاب الله العزيز، وفي الآيات ١٧ و ١٨ و ١٩ من سورة الإنفطار ورد هذا المعنى بوضوح.

وأما سبب تسمية هذا اليوم بـ يوم الدين، فلأن يوم القيمة يوم الجزاء، و(الدين) في اللغة (الجزاء)، والجزاء أبرز مظاهر القيمة، ففي ذلك اليوم تكشف السرائر ويحاسب الناس بما فعلوه بدقة، ويرى كل فرد جزاء ما عمله صالحأً أم طالحاً.

وفي حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يقول: «يَوْمُ الدِّينِ هُوَ يَوْمٌ

١- لقمان، ٢٥.
٢- سباء، ٧، ٨.

٣- تفسير نور التلقين، ج ١، ص ١٩.

الميسيّاب»^١ (والدين) يستناداً إلى هذه الرواية يعني (الحساب)، وقد يكون هذا التعبير من قبيل ذكر العلة وإرادة المعلول، لأن الحساب دوماً مقدمة للجزاء. من المفسّرين من يعتقد أن سبب تسمية «يَوْمُ الدِّين» يعود إلى أن كل إنسان يوم القيمة يجازى إزاء دينه ومعتقداته. لكن المعنى الأول (الحساب والجزاء) يبدو أقرب إلى الصحة.

* * *

١ - مجمع البيان، ذيل الآية؛ مالك يوم الدين.

الآية

إِنَّا لَكَ نَعْبُدُ وَإِنَّا لَكَ نَسْتَعِينُ ⑥

التفسير

الإنسان بين يدي الله

في هذه الآية يتغير لحن السورة، إذ يبدأ فيها دعاء العبد لربه والتضرع إليه. الآيات السابقة دارت حول حمد الله والثناء عليه، والإقرار بالإيمان والإعتراف باليوم القيمة، وفي هذه الآية يستشعر الإنسان -بعد رسوخ أساس العقيدة ومعرفة الله في نفسه حضوره بين يدي الله ... يخاطبه ويناجيه، يستحدث إليه أولاً عن تعبده، ثم يستمد العون منه وحده دون سواه: «إِنَّا لَكَ نَعْبُدُ وَإِنَّا لَكَ نَسْتَعِينُ».

بعارة أخرى: عندما تعمق مفاهيم الآيات السابقة في وجود الإنسان، وتنتور روحه بنور رب العالمين، ويدرك رحمة الله العامة والخاصة، ومالكيته ليوم الجزاء، يكتمل الإنسان في جانبه العقائدي. وهذه العقيدة التوحيدية العميقية، ذات عطاء يتمثل أولاً: في تربية الإنسان العبد الخالص لله، المتحرر من العبودية للألة الخشبية والبشرية والشهوية، ويتجلّى ثانياً: في الاستمداد من ذات الله تبارك وتعالى.

الآيات السابقة تحدثت في العقيقة عن توحيد الذات والصفات، وهذه الآية

تحدّث عن توحيد العبادة وتوحيد الأفعال.

تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ: يعني الإعتراف بأن الله سبحانه هو وحده اللائق بالعبادة والطاعة والخضوع، وبالتالي دون سواه، كما يعني تجنب أي نوع من العبودية والتسليم، لغير ذاته المقدسة.

وَتَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ: هو الإيمان بأن الله هو المؤثر الحقيقي في العالم (الْمُؤَثِّرُ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ). وهذا لا يعني إنكار عالم الأسباب، وتجاهل المسبيبات، بل يعني الإيمان بأن تأثير الأسباب، إنما كان بأمر الله، فالله سبحانه هو الذي يسمح بالنار خاصية الاحراق، والشمس خاصية الإنارة، والماء خاصية الإحياء.

ثمرة هذا الاعتقاد أن الإنسان يصبح معتمدًا على (الله) دون سواه، ويرى أن الله هو القادر العظيم فقط، ويرى ما سواه شبحاً لا حول له ولا قوة، وهو وحده سبحانه اللائق بالإتكال والاعتماد عليه في كل الأمور.

هذا التفكير يحرر الإنسان من الانشداد بأي موجود من الموجودات، ويربطه بالله وحده. وحتى لو تحرك هذا الإنسان في دائرة استنطاق عالم الأسباب، فإنما يتحرّك بأمر الله تعالى، ليرى فيها تجلّي قدرة الله، وهو «مبني الأسباب».

هذا المعتقد يسمو بروح الإنسان ويتوسّع آفاق فكره، ليرتبط بالأبدية واللاتهاية، ويحرر الكائن البشري من الأطر الضيقة الهاابطة.

* * *

بحوث

١- هو المستعان وحده

تقدّم المعقول على الفاعل يفيد الحصر - كما يذكر أصحاب اللغة - وتقديم «إِيَّاك» على «نَعْبُدُ» يدلّ على الحصر، أي أننا نعبدك دون سواك، ونتيجة هذا

الحصر، هو توحيد العبادة وتوحيد الأفعال.

نعم، نحن محتاجون إلى عونه حتى في العبودية والطاعة، ولذلك ينبغي أن نستعين به في ذلك أيضاً، كي لا تتسرّب إلى أنفسنا أوهام العجب والريبة وأمثالها من الإنحرافات التي تجهض عبوديتنا.

بعنارة أخرى: حين تقول «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» فان هذه الجملة يشم منها رائحة الاستقلالية، لذلك تتبعها مباشرة بعبارة «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، كي نجسم حالة الأمر بين الأمرين (الأَجَبُرُ وَلَا تَفْوِيْضُ)، في عبادتنا، ومن ثم في كل أعمالنا.

٢- استعمال صيغ الجمع في تعبير الآيات

كلمة «نَعْبُدُ» و«نَسْتَعِينُ» بصيغة الجمع تشير إلى أن العبادة - خاصة الصلاة - تقوم على أساس الجمع والجماعة. وعلى العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع والجماعة، حتى حين يقف متضرعاً بين يدي الله، فما بالك في المجالات الأخرى!

وهذا الاتجاه في العبادة يعني رفض الإسلام لكل ألوان الفردية والإنتزال. الصلاة خاصة - ابتداء من اذانها وإقامتها حتى تسليمها - تدل على أن هذه العبادة هي في الأصل ذات جانب إجتماعي، أي أنها ينبغي أن تؤدي بشكل جماعي، صحيح أن الصلاة فرادى صحيحة في الإسلام، لكن العبادة الفردية ذات طابع فرعي ثانوي.

٣- الاستعانة به في كل الأمور

يواجه الإنسان في مسيرته التكاملية قوى مضادة داخلية (في نفسه)، وخارجية (في مجتمعه)، ويحتاج في مقاومة هذه القوى المضادة إلى العون والمساعدة، ومن هنا يلزم على الإنسان عندما ينهض صباحاً أن يكرر عبارة

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ليعرف بعبوديته لله سبحانه، وليس من العون منه في مسيرة الطويلة الشاقة. وعندما يجئ عليه الليل لا يستسلم للرقاد إلا بعد تكرار هذه العبارة أيضاً. والإنسان المستعين حقاً، هو الذي تتضاءل أمام عينيه كل القوى المتجردة المفترسة. وكل الجواذب المادية الخادعة، وذلك ما لا يكون إلا حينما يرتفع الإنسان إلى مستوى القول: «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْفَالَّمَنَ»^١.

* * *

الآية

آهَدِنَا الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑤

التفسير

السير على الصراط المستقيم

بعد أن يقرّ الإنسان بالتسليم لرب العالمين، ويرتفع إلى مستوى العبودية لله والإستعانة به تعالى، يتقدّم هذا العبد بأول طلب من بارئه، وهو الهدایة إلى الطريق المستقيم، طريق الظہر والغیر، طريق العدل والإحسان، طريق الإيمان والعمل الصالح، ليهبه الله نعمة الهدایة كما وهب جميع النعم الأخرى.

الإنسان في هذه المرحلة مؤمن طبعاً وعارف بربه، لكنه معرض دوماً بسبب العوامل المضادة إلى سلب هذه النعمة والإنحراف عن الصراط المستقيم. من هنا كان عليه لزاماً أن يكرر عشر مرات في اليوم على الأقل طلبه من الله أن يقيه العثرات والإنحرافات.

أضف إلى ما تقدم أن الصراط المستقيم هو دين الله، وله مراتب ودرجات لا يُستوي في طبيتها جميع الناس، ومهما سما الإنسان في مرتبه، فشّمة مرتب آخر أبعد وأرقى، والأنسان المؤمن تواقد دوماً إلى السير الحثيث على هذا السلم الإرتقائي، وعليه أن يستمد العون من الله في ذلك.

ثمة سؤال يتबادر إلى الإذهان عن سبب طلبنا من الله الهدایة إلى الصراط المستقيم، تُرى هل نحن ضالون كي نحتاج إلى هذه الهدایة؟ وكيف يصدر مثل هذا الأمر عن المعصومين وهم نموذج الإنسان الكامل؟!

وفي الجواب نقول:

أولاً: الإنسان معرض في كل لحظة إلى خطر التعرّض والإنحراف عن مسیر الهدایة - كما أشرنا إلى ذلك - ولهذا كان على الإنسان تفويض أمره إلى الله، والاستمداد منه في تثبيت قدمه على الصراط المستقيم.

ينبغي أن تذكر دائماً أن نعمة الوجود وجميع المواهب الإلهية، تصلنا من المبدأ العظيم تعالى لحظة بلحظة. وذكرنا من قبل أنتا وجميع الموجودات (بلحظات معين) مثل مصابيح كهربائية، النور المستمر في هذه المصايبع يعود إلى وصول الطاقة إليها من المولد الكهربائي باستمرار. فهذا المولد ينبع كل لحظة طاقة جديدة ويرسلها عن طريق الأسلامك إلى المصايبع لتحول إلى نور.

وجودنا يشبه نور هذه المصايبع. هذا الوجود، وإن بدا ممتداً مستمراً، هو في الحقيقة وجود متجدد يصلنا باستمرار من مصدر الوجود الخالق الفياض. هذا التجدد المستمر في الوجود، يتطلب باستمرار هدایة جديدة، فلو حدث خلل في الأسلامك المعنوية التي تربطنا بالله، كالظلم والاثم و ... فإن إرتباطنا بمنع الهدایة سوف ينقطع، وتزويغ أقدامنا فوراً عن الصراط المستقيم.

نحن نتضرّع إلى الله في صلواتنا أن لا يعتري إرتباطنا به مثل هذا الخلل، وأن نقى ثابتين على الصراط المستقيم.

ثانياً: الهدایة هي السير على طريق التكامل، حيث يقطع فيه الإنسان تدريجياً مراحل النقصان ليصل إلى المراحل العليا. وطريق التكامل - كما هو معلوم - غير محدود، وهو مستمر إلى اللانهاية.

مَمَّا تقدَّمْ تفهم سبب تضرّع حتى الأنبياء والأئمَّة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تعالى أن يهدِّيهم

«الصراط المستقيم»، فالكمال المطلق لله تعالى، وجميع ما سواه يسيرون على طريق التكامل، فما الغرابة في أن يطلب المعصومون من ربهم درجات أعلى؟! نحن نصلّى على محمد وآل محمد، والصلة تعني طلب رحمة إلهية جديدة لمحمد وآل محمد، ومقام أعلى لهم.

والرسول ﷺ قال: «رب زدني علما»^١.

والقرآن الكريم يقول: «وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدُوا هُدًى»^٢.

ويقول: «وَالَّذِينَ اهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّاهُمْ تَعَاوُمٌ»^٣.

ولمزيد من التوضيح نذكر الحديثين التاليين:

١ - عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، قال في تفسير «إهدنا الصراط المستقيم»: أى: «أَوْمَ لَنَا تَوْبِيقَكَ الَّذِي أَطْفَلَكَ بِهِ فِي مَا مَضَى مِنْ أَيَّامِنَا، حَتَّى تُطِيقَكَ فِي مُشْتَقِلِ أَغْمَارِنَا»^٤.

٢ - وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «يَغْنِي أَرْشِدُنَا لِلرُّؤُومِ الْطَّرِيقَ الْمُؤَدِّي إِلَى مَعْتَكَ، وَمَبْلِغُ إِلَى جَنَّتِكَ، وَالْمَأْنِعُ مِنْ أَنْ تَتَبَعَ أَهْوَانَنَا فَتَنَطَّبَ، أَوْ أَنْ تَأْخُذَ بِأَرَائِنَا فَتَنَهَّلَكَ»^٥.

* * *

ما هو الصراط المستقيم؟

هذا الصراط كما يبدو من تفحص آيات الذكر الحكيم هو دين التوحيد

١ - ط، ١١٤، ٧٦.

٢ - مريم، ٢.

٤ - معاني الأخبار، وتفسير الإمام العسن العسكري، تفلاً عن تفسير الصافي ذيل الآية المذكورة.

٥ - معاني الأخبار، وتفسير الإمام العسن العسكري، تفلاً عن تفسير الصافي.

والإلتزام بأوامر الله. ولكنه ورد في القرآن بتعابير مختلفة.

فهو الدين القيم ونهج إبراهيم عليه السلام ونفي كل أشكال الشرك كما جاء في قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا هَذَا نَبِيٌّ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قَيْمًا مِّلَةً إِنَّمَا حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»^١، فهذه الآية الشريفة عرّفت الصراط المستقيم من جنة أيدولوجيّة.

وهو أيضاً رفض عبادة الشيطان والإتجاه إلى عبادة الله وحده، كما في قوله: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُوْ فِي هَذَا صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»^٢. وفيها إشارة إلى الجنة العملية للدين. أما الطريق إلى الصراط المستقيم فتم من خلال الإعتصام بالله: «وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»^٣.

يلزمنا أن نذكر أن الطريق المستقيم هو طريق واحد لا أكثر، لأنّه لا يوجد بين نقطتين أكثر من خط مستقيم واحد، يشكل أقصر طريق بينهما. من هنا كان الصراط المستقيم في المفهوم القراني، هو الدين الإلهي في الجوانب العقائدية والعملية، ذلك لأن هذا الدين أقرب طريق للارتباط بالله تعالى. ومن هنا أيضاً فإن الدين الحقيقي واحد لا أكثر «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»^٤.

وسرى فيما بعد -إن شاء الله- أن للإسلام معنىً واسعاً يشمل كل دين توحيدى في عصره، أي قبل أن ينسخ بدين جديد. من هذا يتضح أن التفاسير المختلفة للصراط المستقيم، تعود كلها إلى معنى واحد.

فقد قالوا: إنه الإسلام.

وقالوا: إنه القرآن.

١- الأنعام، ٦٦.

٢- يس، ٦١ و ٦٢.

٣- آل عمران، ١٩.

٤- آل عمران، ١٠١.

وقالوا: إنه الأنبياء والأنتم.

وقالوا: إنه دين الله، الذي لا يقبل سواه.

وكل هذا المعانى تعود إلى نفس الدين الإلهي في جوانبه الإعتقادية والعملية، والروايات الموجودة في المصادر الإسلامية في هذا الحقل، تشير إلى جوانب متعددة من هذه الحقيقة الواحدة، وتعود جميعاً إلى أصل واحد منها: عن رسول الله ﷺ: «إِهْدِنَا الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الْأَتِيَاءِ، وَهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»^١.

وعن جعفر بن محمد الصادق <عليه السلام> في تفسير الآية: «إِهْدِنَا الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»، قال: «الطَّرِيقُ هُوَ مَغْرِفَةُ الْإِيمَانِ»^٢.

وعنه أيضاً: «وَاللَّهُ نَحْنُ الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ»^٣.

وعنه أيضاً: «الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ»^٤.

ومن الواضح أن النبي ﷺ وعليها السلام، وأئمة أهل البيت <عليهم السلام>، دعوا جميعاً إلى دين التوحيد الإلهي، والإلتزام به عقائدياً وعملياً.

واللافت للنظر، أن «الراغب» يقول في مفرداته في معنى الصراط: إنه الطريق المستقيم، فكلمة الصراط تتضمن معنى الاستقامة. ووصفه بالمستقيم كذلك تأكيد على هذه الصفة.

* * *

الآية

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْفَقُتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا
الظَّالِمِينَ ◎

التفسير

خطأ منحرفان!

هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور في الآية السابقة، إنَّه صراط المشمولين بأنواع النعم (مثل نعمة الهداية، ونعمة التوفيق، ونعمة القيادة الصالحة، ونعمة العلم والعمل والجهاد والشهادة) لا المشمولين بالغضب الإلهي بسبب سوء فعالهم وزيغ قلوبهم، ولا الضائعين التائهين عن جادة الحق والهدي: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْفَقُتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الظَّالِمِينَ».

ولإتنا لسنا على معرفة تامة بمعالم طريق الهداية، فإنَّ الله تعالى يأمرنا في هذه الكريمة أن نطلب منه هدایتنا إلى طريق الأنبياء والصالحين من عباده: «الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»، ويحذرنا كذلك بأنَّ أمامنا طريقين منحرفين، وهما طريق «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»، وطريق «الظَّالِمِينَ»، وبذلك يتبيَّن للإنسان طريق الهداية بوضوح.

بحثان

١- من هم «الذين ألغمنتَ عَلَيْهِمْ»؟

الذين أنعم الله عليهم، تبيّن لهم الآية الكريمة من سورة النساء إذ يقول: «وَمَنْ يُطِعَ اللهُ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّنَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسْنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا». ^١

والآية - كما هو واضح - تقسم الذين أنعم الله عليهم على أربع مجتمعات: الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

لعل ذكر هذه المجتمعات الأربع، إشارة إلى المراحل الأربع لبناء المجتمع الإنساني السالم المتتطور المؤمن.

المرحلة الأولى: مرحلة نهوض الأنبياء بدعوتهم الإلهية.

المرحلة الثانية: مرحلة نشاط الصديقين، الذين تترجم أقوالهم مع أفعالهم، لنشر الدعوة.

المرحلة الثالثة: مرحلة الكفاح بوجه العناصر المضادة الخبيثة في المجتمع.

وفي هذه المرحلة يقدم الشهداء دمهم لزراء شجرة التوحيد.

المرحلة الرابعة: هي مرحلة ظهور «الصالحين» في مجتمع طاهر ينعم بالقيم والمثل الإنسانية باعتباره نتيجة للمساعي والجهود المبذولة.

نحن - إذن - في سورة الحمد نطلب من الله - صباً وأمساءً - أن يجعلنا في خط هذه المجتمعات الأربع: خط الأنبياء، وخط الصديقين، وخط الشهداء، وخط الصالحين. ومن الواضح أن علينا أن ننهض في كل مرحلة زمنية بمسؤوليتنا ونؤدي رسالتنا.



٢- من هم «المغضوب عليهم»، ومن هم «الضالّين»؟

يتضح من الآية الكريمة أن «المغضوب عليهم» و«الضالّين» مجموعتان لا مجموعة واحدة، وأما الفرق بينهما ففيه ثلاثة أقوال:

١- يستفاد من استعمال التعبيرين في القرآن أن «المغضوب عليهم» أسوأ وأحطّ من «الضالّين»، أي إن الضالّين هم التائهون العاديون، والمغضوب عليهم هم المنحرفون المعاندون، أو المناقرون، ولذلك استحقوا العن الله وغضبه.

قال تعالى: «وَلَكُنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضْبٌ مِنَ اللَّهِ»^١.

وقال سبحانه: «وَيَعِذِّبُ الظَّالِمِينَ وَالسَّاقِطِينَ وَالشَّرِيكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِالشَّرِّ الْمُوْءُ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعْنَهُمْ وَأَعْدَدُ لَهُمْ جَهَنَّمَ»^٢.

«المغضوب عليهم» إذن يسلكون -إضافة إلى كفرهم- طريق الدجاج والعناد ومعادة الحق، ولا يألون جهداً في توجيه ألوان التنكيل والتعمذيب لقادرة الدعوة الإلهية.

يقول سبحانه: «وَبَاءُوا بِغَضْبٍ مِنَ اللَّهِ ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَتَكَبَّرُونَ الْأَنْبِيَاءَ يَغْيِرُ حُقُوقَ ذَلِكَ بِمَا عَصَمُوا وَكَانُوا يَتَنَاهُونَ»^٣.

٢- ذهب جمّع من المفسرين إلى أن المقصود من «الضالّين» المنحرفون من النصارى، و«المغضوب عليهم» المنحرفون من اليهود.

هذا التهم ينطلق من مواقف هذين الفريقين تجاه الدعوة الإسلامية. فالقرآن يصرّح مراراً أن المنحرفين من اليهود كانوا يكثرون عداءً شديداً وحقداً دفيناً للإسلام.

مع أن علماء اليهود كانوا من مبشرّي ظهور الإسلام، لكنهم تحولوا إلى أعداء للإسلام لدى انتشار الدعوة لأسباب عديدة لا مجال لذكرها، منها تعرّض

١- الفتح، ٦٠.

٢- الفتن، ٦.

٣- آل عمران، ١١٢.

مصالحهم المادية للخطر. (تماماً مثل موقف الصهاينة اليوم من الإسلام والمسلمين).

تعبير «المُغْضُوبُ عَلَيْهِم» ينطبق تماماً على هؤلاء اليهود، لكن هذا لا يعني حصر مفهوم المغضوب عليهم بهذه المجموعة من اليهود، بل هو من قبيل تطبيق الكلي على الفرد.

أما منحرفو النصارى فلم يكن موقفهم تجاه الإسلام يبلغ هذا التعنت، بل كانوا ضالين في معرفة الحق. والتعبير عنهم بالضالين هو أيضاً من قبيل تطبيق الكلي على الفرد.

الأحاديث الشريفة أيضاً فسرت «المُغْضُوبُ عَلَيْهِم» باليهود، و«الضالين» بمنحرفي النصارى، والسبب في ذلك يعود إلى ما ذكرناه^١.

٣- من المحتمل أن «الضالين» إشارة إلى التائهين الذين لا يصررون على تضليل الآخرين، بينما «المُغْضُوبُ عَلَيْهِم» هم الضالون والمضللون الذين يسعون إلى جر الآخرين نحو هاوية الانحراف.

الشاهد على ذلك حديث القرآن عن المغضوب عليهم بوصفهم: «الذين يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ»^٢ إذ يقول: «وَالَّذِينَ يَحْاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَعْجَبْتُ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاهِرَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ»^٢.

ويبدو أن التفسير الأول أجمع من التفسيرين التاليين، بل إن التفسيرين التاليين يتحركان على مستوى التطبيق للتفسير الأول. ولا دليل لتحديد نطاق المفهوم الواسع للأية.

والحمد لله رب العالمين

(نهاية سورة الحمد)

* * *

١- راجع تفسير نور التقلين، ج ١، ص ٢٣ و ٢٤.

٢- هود، ١٩.

سُورَة الْبَقَرَة

مَدِينَة

وَعَدَهُ آيَاتِهَا مَائِتَانٌ وَسَتُّ وَثَمَانُونَ آيَة

سورة البقرة

محتوى سورة البقرة:

هذه السورة أطول سور القرآن، ومن المؤكد أنها لم تنزل مرّة واحدة. بل في مناسبات عديدة، حسب متطلبات المجتمع الإسلامي في المدينة. وتتميز بشمولها لمبادئ العقيدة ولكثير من الأحكام العملية (ال العبادية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية). ففي هذه السورة.

١ - م الموضوعات حول التوحيد ومعرفة الخالق، عن طريق استنطاق أسرار الكون.

٢ - جولات في عالم المعاد والبعث والنشر مقرونة بأمثلة حسية، مثل قصة إبراهيم عليه السلام وإحياء الطير، وقصة عزير عليه السلام.

٣ - آيات ترتبط بإعجاز القرآن وأهمية كتاب الله العزيز.

٤ - سرد مطول حول وضع اليهود والمنافقين ومواقيتم المعادية للقرآن والإسلام وشدة ضررهم في هذا المجال.

٥ - استعراض لتاريخ الأنبياء، وخاصة إبراهيم وموسى عليهما السلام.

٦ - بيان لأحكام إسلامية مختلفة مثل: الصلاة، والصوم، والجهاد، والحج، والقبلة، والزواج والطلاق، والتجارة والدين، والربا، والإنساق، والقصاص، وتحريم بعض الأطعمة والأشربة، والقمار، وذكر نبذة من أحكام الوصية وأمثالها.

وأما تسميتها بالبقرة، فما خوذة من قصّة بقرة بنى إسرائيل، التي سبّأتهي
شرحها في الآيات ٦٧ - ٧٣ إن شاء الله.

* * *

فضيلة هذه السورة:

وردت في فضيلة هذه السورة نصوص عديدة في المصادر الإسلامية، منها:
روي عن رسول الله ﷺ أنه سُئلَ أَيُّ سُورَةِ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ؟ قالَ: «الْبَقَرَةُ»، قيلَ: أَيُّ آيَةٍ
الْبَقَرَةُ أَفْضَلُ؟ قالَ: «آيَةُ الْكُرْبَيْ».١

فضيلة هذه السور تعود على ما يبذلو إلى جامعيتها. وأفضلية آية الكرسي
تعود إلى محتواها التوحيدى. وسيأتي ذكر ذلك في تفسيرها بإذن الله. وهذا لا
يتناهى مع فضالية سور أخرى من جهات أخرى. وروى علي بن الحسين عليه السلام عن
النبي ﷺ أنه قالَ:

قالَ رَسُولُ اللهِ صلوات الله عليه وسلم: «مَنْ قَرَأَ أَزْبَعَ آيَاتٍ مِّنْ أَوَّلِ الْبَقَرَةِ، وَآيَةَ الْكُرْبَيْ، وَآيَاتَنِي
بَعْدَهَا، وَثَلَاثَ آيَاتٍ مِّنْ آخِرِهَا، لَمْ يَرِدْ فِي نَفْسِهِ وَمَا لِي شَيْئاً يَكْرَهُهُ وَلَا يَقْرَبُهُ الشَّيْطَانُ، وَلَا
يَشْتَيِّنُ الْقُرْآنَ».^٢

من اللازم هنا أن نعيد التأكيد على هذه الحقيقة، وهي إنَّ ما ذكر من ثواب
وفضيلة وجراة تتلاوة بعض السور والآيات الخاصة، لا يعني - إطلاقاً - قراءتها
بشكل أوراد، ولا الإكتفاء بتردید ألفاظها، بل التلاوة للفهم، والفهم من أجل
التفكير، والتفكير لغرض العمل. ومن الملاحظ أنَّ كل فضيلة ذكرت لآية أو سورة
إنما تناسب كثيراً مع محتوى السورة والآية.

ففي فضيلة سورة النور ذكر أنَّ من يواظب على قراءتها يصونه الله وأولاده

من (الزنا) وذلك لأن محتوى هذه السورة يتضمن تعاليم في حقل مكافحة الإبهرافات الجنسية، مثل حث العزاب على الزواج، والأمر بالحجاب وغضن الأبصار عما يثير الشهوة، والتحذير من إشاعة الفاحشة والقذف، وكذلك الأمر بإجراء الحد الشرعي على الزاني والزانية.

ومن الطبيعي أن محتوى هذه السورة -إن دخل حيز التنفيذ- يصون المجتمع والأسرة من الزنا. وهكذا الآيات المذكورة من سورة البقرة، ستكون لها تلك الفضائل حتى إن قرأها الإنسان بامعان وتشبع نفسه بمحتوها، خاصة وأنها جمیعاً تدور حول محور التوحيد والإيمان بالغيب ومعرفة الله، والحذر من وساوس الشيطان.

صحيح أن قراءة القرآن عمل مثاب عليه في أي حال من الأحوال، لكن التواب الأساس يترتب على التلاوة المقرونة بالتفكير والعمل.

* * *

الآيات

الْتَّمَ ⑤ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَبَّ لَهُ مُنْتَهٰ ⑥

التفسير

تحقيق في العروض المقطعة في القرآن

تسع وعشرون سورة من سور القرآن تبدأ بحروف مقطعة، وهذه الحروف - كما هو واضح من اسمها - لا تشكل كلمة مفهومة.

هذه الحروف من أسرار القرآن، وذكر المفسرون لها تفاسير عديدة، وأضاف لها العلماء المعاصرون تفاسير جديدة من خلال تحقيقاتهم.

جدير بالذكر أن التاريخ لم يحدتنا أنَّ عرب الجahلية والمرشكين عابوا على رسول الله ﷺ وجود هذه العروض المقطعة في القرآن. ولم يتخدوا منها وسيلة للطعن والإستهزاء. وهذا يشير إلى أنهم لم يكونوا جاهلين تماماً بأسرار وجود الحروف المقطعة.

اخترنا من التفاسير الكثيرة لهذه الحروف، عدداً من التفاسير باعتبار مستنديتها وانسجامها مع آخر الدراسات في هذا المجال. وسنذكر هذه التفاسير بالتدريج في بداية هذه السورة، وسورة آل عمران، وسورة الأعراف، إن شاء الله.

ونبدأ الآن بأهمها:

هذه الحروف إشارة إلى أن هذا الكتاب السماوي، بعظمته وأهميته التي حيرت فصحاء العرب وغير العرب، وتحدى الجن والإنس في عصر الرسالة وكل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسرة في متناول الجميع.

ومع أن القرآن يتكون من هذه الحروف الهجائية والكلمات المتدالوة، فإن ما فيه من جمال العبارة وعمق المعنى يجعله ينفذ إلى القلب والروح، ويملاً النفس بالرضا والإعجاب، ويفرض احترامه على الأفكار والعقول.

في القرآن من الفصاحة والبلاغة ما لا يخفى على أحد، وليس هذا مجرد ادعاء، فخالق الكون تحدى بهذا الكتاب جميع (الجن والإنس)، ليأتوا بمثله «وَلَوْ كَانَ بِغْضُهُمْ لِيَغْضِبُ ظَهِيرًا»^١، ولكنهم عجزوا جمیعاً عن ذلك، وتلك دلالة على أن هذا الكتاب لم يصدر عن فكر بشر.

وكما إن الله تعالى خلق من التراب موجودات، كالإنسان بما فيه من أجهزة معقدة محيّرة، وكأنواع الطيور الجميلة الرائقة، والأحياء المتنوعة، والنباتات والزهور المختلفة، وكما إننا نتتبع من هذا التراب نفسه ألوان المصنوعات، كذلك الله سبحانه خلق من هذه الحروف الهجائية المتدالوة، موضوعات ومعان سامية، في قوله لفظية جميلة، وعبارات موزونة، وأسلوب خاص مدهش معجز، وهذه الحروف الهجائية موجودة تحت تصرف الإنسان، لكنه عاجز عن صنع جمل وعبارات شبيهة بالقرآن.

الأدب في العصر الجاهلي:

من المهم أن نذكر هنا أن العصر الجاهلي كان عصرًا ذهبياً للأدب العربي.

فالوثائق المتوفرة بأيدينا تشير إلى أن العرب الحفاة الجاهليين، كانوا يمتعون بذوق أدبي رفيع. وما وصلنا من شعر ونثر من تلك الفترة، يشير إلى قدرة أولئك على التعبير الجميل الدقيق، ويحتل ذروة الفصاحة في الأدب العربي. وكان للأدب سوق رائجة تدل على اهتمام العرب بلغتهم وأدابهم، (سوق عكاظ) وأمثالها من الأسواق الأدبية تعكس هذا الإهتمام بوضوح.

والسوق المذكور كان يشهد - إضافة إلى المعاملات الاقتصادية والقضايا الاجتماعية - حركة أدبية تعرض خلالها أفضل مقطوعات الشعر والنشر، ويتم فيها انتخاب أفضل ما قيل من النظم خلال العام، و(المعلقات السبع) أو (العشر) نموذج لذلك، وكانت القصيدة الفائزة تعد فخرًا كبيرًا للشاعر ولقبيلته.

في مثل هذا العصر من الإنعاش الأدبي، يتحدى القرآن الناس أن يأتوا بمثله، ولكنهم عجزوا (سندُكْ مزيدًا من إعجاز القرآن في مجال التحدى لدى تفسير الآية ٢٣ من هذه السورة).

شاهد ناطق:

الشاهد الناطق على هذا المنحى من تفسير الحروف المقطعة، حديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام حيث يقول: «كَذَبَ قَرْيَشٌ وَالْيَهُودُ بِالْقُرْآنِ وَقَالُوا هَذَا سِخْرَيْرٌ مَبِينٌ. تَوَأَّلُهُ. فَقَالَ اللَّهُ: «آتُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ...»؛ أيَّا مُحَمَّدًا، هذا الْكِتَابُ الْأَذْيَى أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ هُوَ الْمُرْوُفُ الْقَطْعَمُ الَّتِي مِنْهَا أَلْفُ وَلَامٌ وَمِيمٌ، وَهُوَ يُلْقِيْكُمْ وَخُرُوفَ هِجَانِكُمْ فَأَتَوْا بِيْثِلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...»^١.

وَثُمَّ شاهد آخر عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في قوله: «ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ بِهِذِهِ الْمُرْوُفِ الَّتِي يَتَداوَلُهَا جَمِيعُ الْعَرَبِ». ثُمَّ قال: «قُلْ لَيْسَ

اجتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِيَثِلٍ هَذَا الْقُرْآنِ ...»^١.

وهناك ملاحظة تؤيد ما ذهبنا إليه في تفسير معنى الحروف المقطعة، وهي أن هذه الحروف في السور الأربع والمشرين التي ذكرناها، يتلوها مباشرة ذكر لحظة القرآن، وهذا يدل على الارتباط بين الحروف المقطعة وعظمة القرآن. وعلى سبيل المثال نذكر الآيات التالية:

١ - «الَّرُ، كِتَابٌ أَخِيمَتْ آيَاتُهُ قُمَّ فَصَلَّتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»^٢.

٢ - «طَسٌ، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٌ مُبِينٌ»^٣.

٣ - «آمٌ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ»^٤.

٤ - «آمَنَ، كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ»^٥.

* * *

بعد البسمة وذكر الآية الأولى من سورة البقرة يقول تعالى: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ». قد يشير هذا التعبير إلى أن الله تعالى وعد بيته أن ينزل عليه كتاباً يهتدى به من طلب الحق، ولا يشك فيه من كان له قلب أو ألقى السمع وهو بصير، وهو هو سبحانه قد وفى بوعده الآن.

وقوله: «لَا رَيْبَ فِيهِ» ليس ادعاءً، بل تقرير لحقيقة قرآنية مشهودة، هي إن القرآن يشهد بذاته على حقائقه. وبعبارة أخرى فإن مظاهر الصدق والعظمة والإنسجام والاستحكام وعمق المعانى وحلوة الألفاظ والعبارات وفصاحتها من الوضوح بدرجة تبعد عنه كل شك.

من المشهود أن مر المصور وكـ الدھور لم يقلل من طراوة القرآن، بل إن

١ - توحيد الصدوقي، ص ١٦٢، ط سنة ١٣٧٥ هـ، ق.

٢ - هود، ٢ - ١.

٣ - النمل، ٢ - ١.

٤ - الأعراف، ٢ - ١.

٥ - لقمان، ٢ - ١.

حقائق القرآن، ازدادت وضوحاً بتطور العلوم وبإكتشاف أسرار الكائنات. وكلما ازداد العلم تكاملاً ازدادت آيات القرآن جلاءً وسطوعاً.

وسنوضح هذه الحقيقة أكثر بإذن الله في موضع آخر من هذا التفسير.

* * *

بحوث

١- لماذا الأشارة إلى البعيد؟

نعلم أن الكلمة (ذلك) إشارة إلى البعيد في لغة العرب، وقرب القرآن من أيدي الناس يقتضي أن تكون الإشارة للقريب.

السبب في استعمال اسم الإشارة للبعيد يعود إلى بيان سمو القرآن ورفعته، حتى كأنه -في عظمته- يحتل نقطة الذروة في هذا الوجود. ومثل هذا الاستعمال شائع فيسائر اللغات أيضاً حين يراد الإشارة إلى شخص ذي منزلة كبيرة مثلاً. في بعض مواضع القرآن وردت أيضاً الكلمة (ذلك)، وهي اسم إشارة للبعيد أيضاً، مثل: **«تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ»**^١. والسبب فيه ما ذكرنا.

٢- معنى الكتاب:

«الكتاب» يعني المكتوب والمخطوط، ولا شك أن المراد منه في الآية كتاب الله الكريم.

وهنا يشار سؤال حول سبب استعمال الكلمة الكتاب للقرآن وهو آتى ذلم يكتب كلها.

وفي الجواب نقول: استعمال هذه الكلمة لا يستلزم أن يكون القرآن كله

مكتوبًا. لأن اسم القرآن يطلق على كل هذا الكتاب، وعلى أجزائه أيضًا. أضف إلى ذلك أن «الكتاب» يطلق أحياناً بمعنىً أوسع، ليشمل كل ما يليق أن يكتب فيما بعد، وإن لم يكن كذلك حين إطلاق اسم الكتاب عليه. ففي آية أخرى نقرأ: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِنَّكَ مُبَارَكٌ لِيَدْعُوكَ آيَاتِهِ»^١. ومن المؤكد أن القرآن لم يكن بشكل كتاب مدون بين الناس قبل نزوله.

وثمة احتمال آخر وهو إن التعبير بالكتاب يشير إلى كتابة القرآن في «اللوح المحفوظ»^٢.

٣- ما هي الهدایة؟

كلمة (الهدایة) لها عدة معانٍ في القرآن الكريم، وكلها تعود أساساً إلى معنيين:

١- الهدایة التكوينية: وهي قيادة رب العالمين لموجودات الكون، وتتجلى هذه الهدایة في نظام الخلقة والقوانين الطبيعية المتحكمة في الوجود. واضح أن هذه الهدایة تشمل كل موجودات الكون.

يقول القرآن على لسان موسى عليه السلام: «رَبُّنَا الَّذِي أَغْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»^٣.

٢- الهدایة التشريعية: وهي التي تتم عن طريق الأنبياء والكتب السماوية، وعن طريقها يرتفع الإنسان في مدارج الكمال، وشهادتها في القرآن كثيرة منها قوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَفْلَامًا يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا»^٤.

١- ص. ٢٩

٢- راجع المجلد السابع من هذا التفسير، ذيل الآية ٣٩ من سورة الرعد.

٣- الأنبياء، ٧٣

٤- ط. ٥٠

٤- لماذا اختصت هداية القرآن بالمتقين؟

واضح أن القرآن هداية للبشرية جموعاً، فلماذا خصت الآية الكريمة المتقين بهذه الهدایة؟

السبب هو أن الإنسان لا يتقبل هداية الكتب السماوية ودعوة الأنبياء، مالم يصل إلى مرحلة معينة من التقوى (مرحلة التسليم أمام الحق وقبول ما ينطبق مع العقل والفطرة).

وبعبارة أخرى: الأفراد الفاقدون للإيمان على قسمين:
قسم يبحث عن الحق، ويحمل مقداراً من التقوى يدفعه لأن يقبل الحق آنئي وجلده.

وقسم لجوج متغصب قد استفحلت فيه الأهواء، لا يبحث عن الحق، بل يسعى في إطفاء نوره حينما وجلده.

ومن المسلم به أن أفراد القسم الأول هم الذين يستفيدون من القرآن أو أي كتاب سماوي آخر، أما القسم الثاني فلا حظ لهم في ذلك.

وبعبارة ثالثة: كما إن «فاعلية الفاعل» شرط في الهدایة التكوينية وفي الهدایة التشريعية، كذلك «قابلية القابل» شرط فيها أيضاً.

الأرض السبخة لا تمر وإن هطل عليها المطر آلاف المرات، فقابلية الأرض شرط في استثمار ماء المطر.

وساحة الوجود الإنساني لا تتقبل بذر الهدایة ما لم يتم تطهيرها من اللجاج والتعصب والعناد. ولذلك قال سبحانه في كتابه العزيز أنه: **«هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ»**.

الآيات

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ⑤ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ⑥ أَوْ لَئِكَ عَلَىٰ هُدَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ
وَأَوْ لَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ⑦

التفسير

آثار التقوى في روح الإنسان وبدنـه:

في بداية هذه السورة قسم القرآن الناس حسب ارتباطهم بخط الإسلام على ثلاثة أقسام:

- ١- المتقون: وهم الذين قبلوا الإسلام في جميع أبعاده.
 - ٢- الكافرون: ويقعون في النقطة المقابلة للمتقين، ويعترفون بکفرهم، ولا يأبون أن يظهروا اعداءهم للإسلام في القول والعمل.
 - ٣- المنافقون: ولهم وجهان، فهم مسلمون ظاهراً أمام المسلمين، وكفار أمام أعداء الدين. وشخصيتهم الأصلية هي الكفر طبعاً وإن تظاهروا بالإسلام.
- المجموعة الثالثة تضر بالإسلام - دون شك - أكثر من المجموعة الثانية، ولذلك فإن القرآن يقاومهم بشدة أكثر كما سرني.

هذه المسألة لا تختص بالإسلام طبعاً، كل المذاهب في العالم لها مؤمنون معتقدون، أو معارضون صريعون، أو منافقون محافظون. كما أنها لا تختص بزمان معين، بل هي سارية في كل العصور.

الآيات المذكورة تدور حول المجموعة الأولى، وتطرح خصائصهم في خمسة عناوين هي:

١ - الإيمان بالغيب:

«الغيب والشهود» نقطتان متقابلتان، عالم الشهود هو عالم المحسوسات، وعالم الغيب هو ما وراء الحس. لأنّ «الغيب» في الأصل يعني ما بطن وخفى. وقيل عن عالم ما وراء المحسوسات «غيب» لغفائه عن حواسنا. التقابل بين العالمين مذكور في آيات عديدة كقوله تعالى: «عَالَمُ الْقَنْبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»^١.

الإيمان بالغيب هو بالضبط النقطة الفاصلة الأولى بين المؤمنين بالأديان السماوية، وبين منكري الخالق والوحى والقيمة. ومن هنا كان الإيمان بالغيب أول سمة ذكرت للملائكة.

المؤمنون خرقوا طوق العالم المادي، واجتازوا جدرانه، إنهم بهذه الرؤية الواسعة مرتبطون بعالم كبير لا متناه. بينما يصرّ معارضوهم على جعل الإنسان مثل سائر الحيوانات، محصوراً في موقعه من العالم المادي. وهذه الرؤية المادية تقمّصت في عصرنا صفات العلمية والتقدمية والتطورية!

لو قارناً بين فهم الفريقين ورؤيتهم، لعرفنا أن: «المؤمنين بالغيب» يعتقدون أن عالم الوجود أكبر وأوسع بكثير من هذا العالم المحسوس، وخالق عالم الوجود

غير متناهٍ في العلم والقدرة والإدراك، وأنه أزلٍ وأبدٍ. وأنه صمم هذا العالم وفق نظام دقيق مدروس. ويعتقدون أنَّ الإنسان - بما يحمله من روح إنسانية - يسمو بكثير على سائر الحيوانات. وأنَّ الموت ليس بمعنى العدم والفناء، بل هو مرحلة تكاملية في الإنسان، ونافذة تطل على عالم أوسع وأكبر.

بينما الإنسان المادي يعتقد أنَّ عالم الوجود محدود بما تلمسه وترأه. وأنَّ العالم وليد مجموعة من القوانين الطبيعية العميماء الخالية من أي هدف أو تحضير أو عقل أو شعور. والإنسان جزءٌ من الطبيعة ينتهي وجوده بمותו، يتلاشى بدنُه، وتندمج أجزاؤه مِرَّةً أخرى بالمواد الطبيعية. فلا بقاء للإنسان، وليس ثمة فاصلة كبيرة بينه وبين سائر الحيوانات !

ما أكبر الهوة التي تفصل بين هاتين الرؤيتين للكون والحياة! وما أعظم الفرق بين ما تفرزه كل رؤية، من حياة إجتماعية وسلوك ونظام!

الرؤية الأولى تربى صاحبها على أن ينشد الحق والعدل والخير ومساعدة الآخرين، والثانية، لا تقدم لصاحبها أي مبرر على ممارسة الأمور اللهم إلا ما عاد عليه بالفائدة في حياته المادية. من هنا يسود في حياة المؤمنين الحقيقيين التفاهم والإخاء والطهر والتعاون، بينما تهيمن على حياة الماديين روح الإستعمار والإستغلال وسفك الدماء والنهب والسلب. ولهذا السبب نرى القرآن يتخذ من «الإيمان بالغيب» نقطة البداية في التقوى.

يدور البحث في كتب التفسير عن المقصود بالغيب، فهو إشارة إلى ذات الباري تعالى، أم أنه يشمل - أيضاً - الوحي والقيمة وعالم الملائكة وكل ما هو وراء الحسن؟ ونحن نعتقد أنَّ الآية أرادت المعنى الشامل لكلمة الغيب، لأنَّ الإيمان بعالم ما وراء الحسن - كما ذكرنا - أول نقطة افتراق المؤمنين عن

الكافرين، إضافة إلى ذلك، تعبير الآية مطلق ليس فيه قيد يحدده بمعنى خاص. بعض الروايات المنقولة عن أهل البيت عليه السلام تفسر الغيب في الآية، بالمهدي الموعود المنتظر (سلام الله عليه) والذي نعتقد ب حياته وخفائه عن الأنظار. وهذا لا ينافي ما ذكرناه بشأن معنى الغيب، لأن الروايات الواردة في تفسير الآيات تبين غالباً مصاديق خاصة للآيات، دون أن تحدد الآيات بهذه المصاديق الخاصة، وسنرى في صفحات هذا التفسير أمثلة كثيرة لذلك. والروايات المذكورة بشأن تفسير معنى الغيب، تستهدف في الواقع توسيع نطاق معنى الإيمان بالغيب، ليشمل حتى الإيمان بالمهدي المنتظر عليه السلام ويمكتنا القول أنَّ الغيب له معنى واسع قد نجد له بمرور الزمن مصاديق جديدة.

٢- الارتباط بالله:

الصلة الأخرى للمتقين هي أنهم «يقيمون الصلاة».

«الصلة» باعتبارها رمز الارتباط بالله، تجعل المؤمنين المفتتحين على عالم ماوراء الطبيعة على ارتباط دائم بالخالق العظيم. فهم لا يحرون رؤوسهم إلا أمام الله، ولا يستسلمون إلا لرب السماوات والأرض، ولذلك لا معنى في قاموس حياتهم لعبادة الأوثان، أو التسلیم أمام الجبارية والطواحيت.

مثل هذا الإنسان يشعر أنه أسمى من جميع المخلوقات الأخرى، إذ أنه منح لياقة الحديث مع رب العالمين، وهذا الإحساس الوجداني أكبر عامل في تربية الموجود البشري.

الإنسان الذي يقف خمس مرات يومياً أمام الله، يتضرع إليه ويناجيه، ينطبع فكره وعمله وقوله بطابع إلهي، ومثل هذا الإنسان لا ينهج طريقة فيه سخط الله (على أن يكون تضرعه لله صادراً عن أعماق قلبه ومنطلقاً من تمام وجوده)!.

١- بشأن أهمية الصلاة وأثارها التربوية الكبرى، راجع تفسير الآية ١١٤ من سورة هود (في المجلد السادس).

٣- الارتباط بالناس:

المتقون - إضافة إلى ارتباطهم الدائم بالخالق - لهم ارتباط وثيق ومستمر بالخلوقين، ومن هنا كانت الصفة الثالثة التي يبيتها لهم القرآن أنهم «وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَعُونَ».

يلاحظ أن القرآن لا يقول: ومن أموالهم ينفقون، بل يقول: «وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَعُونَ»، وبذلك وسع نطاق الإنفاق ليشمل المawahب المادية والمعنوية.

فالمتقون لا ينفقون أموالهم فحسب، بل ينفقون من علمهم ومواهبهم العقلية وطاقاتهم الجسمية ومكانتهم الإجتماعية، وبعبارة أخرى ينفقون من جميع إمكاناتهم لمن له حاجة إلى ذلك دون توقع الجزاء منه.

الملاحظة الأخرى: إن الإنفاق قانون عام في عالم الخلائق، وخاصة في التركيب العضوي لكل موجود حي. قلب الإنسان لا يعمل لنفسه فقط، بل ينفق ما عنده لجميع خلايا البدن. الدماغ والرئة وسائر أجهزة البدن تنفق دائمًا من ثمار عملها، والحياة الجماعية - أساساً - لا مفهوم لها دونها إنفاق.^١

الارتباط بالناس - في الحقيقة حصيلة الارتباط بالله. فالإنسان المرتبط بالله يؤمن أن كل ما لديه من نعم إنما هي مواهب إليه مودعة لدليه لفترة زمنية معينة. ومن هنا فلا يزعجه الإنفاق بل يسره ويفرحه، لأنه بالإنفاق قسم مال الله بين عباد الله، وبقيت له تنتائج هذا العمل وبركاته المادية والمعنوية. وهذا التفكير يظهر روح التعاون حيث يشعر كل فرد بأنه مسؤول أن يضع ما لديه من مواهب تحت تصرف كل المحتاجين، مثل الشمس تفيض بأشعتها على الموجودات دون أن تتوقع من

→ من هذا التفسير.

١- راجع بشأن الإنفاق وأهميته وآثاره، المجلد الثاني من هذا التفسير، ذيل الآيات ٢٦١ - ٢٧٤ من سورة البقرة.

أحد جزاء.

في حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بشأن تفسير الآية «وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» يقول: «إِنَّ مَفْنَاهُ وَمَا عَلَّمْنَاهُمْ يَبْتَغُونَ»^١.
 بديهي أن الرواية لا ت يريد أن يجعل الإنفاق مختصاً بالعلم، بل إن الإمام الصادق يريد -بذكر هذا اللون من الإنفاق -أن يوسع مفهوم الإنفاق كي لا يكون مقتصرًا على الجانب المالي كما يتadar إلى الأذهان لأول وهلة.
 ومن هنا يتضح ضمنياً أن الإنفاق المذكور في الآية، لا يقتصر على الزكوات الواجبة والمستحبة، بل يتسع معناه ليشمل كل مساعدة بلا مقابل.

٤- الإيمان بالآيات النبياء والكلام:

الخاصية الرابعة للمنتقين الإيمان بجميع الأنبياء وبرسائلهم الإلهية؛ «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ». وفي هذا التعبير القرآني إشارة إلى أن المتقين يؤمنون بتوافق دعوة الأنبياء في المبادي والأسس، بأنهم جميعاً هداة البشرية نحو صراط مستقيم واحد، أحدهم يكمل الشوط الذي قطعه سلفه في قيادة البشرية نحو كمالها المرسوم. ويؤمنون بأن الأديان الإلهية ليست وسيلة للتفرقة والنفاق، بل على العكس وسيلة للإرتباط وعامل للشد بين أبناء البشر.

الأشخاص الذين يحملون مثل هذه الرؤية ومثل هذا الإدراك، يسعون تطهير أرواحهم من التعصب، ويعملون بما جاء به جميع الأنبياء لهداية البشر وتكاملهم، ويحترمون كل دعوة وهداة طريق التوحيد.
 الإيمان برسلات الأنبياء السابقين، لا يمنع طبعاً من انتهاج رسالة خاتم

الأئمّة في الفكر والعمل، لأن هذه الرسالة هي آخر حلقة من السلسلة التكاملية للأديان، وعدم انتهاجها يعني التخلّف عن المسيرة التكاملية للبشرية.

٥- الإيمان ب يوم القيمة :

آخر صفة في هذه السلسلة من الصفات التي قررها القرآن للمنتقين «وَيَا إِلَيْهِ رَبَّنَا هُمْ يُوقَنُونَ».

إنهم يوقنون بأن الإنسان لم يخلق هملاً وعبناً، فالخلية عينت للكائن البشري مسيرة تكاملية لا تنتهي إطلاقاً بمورته، إذ لو كان الموت نهاية المسير وكانت حياة الإنسان عبناً لا طائل تحته.

المنتقون يقرّون بأن عدالة الله المطلقة تنتظر الجميع، ولا شيء من أعمال البشر في هذه الدنيا يبقى بدون جزاء.

هذا اللون من التفكير يبعث في نفس حامله الهدوء والسكينة، ويجعله يتحمل أعباء المسؤولية ومشاكلها بصدر رحب، ويقف أمام الحوادث كالطود الأشم، ويرفض الخضوع للظلم. وهذا التفكير يملأ الإنسان ثقة بأن الأعمال - صالحها وطالحها - لها جزاء وعقاب، وأنه ينتقل بعد الموت إلى عالم أرحب خال من كل ألوان الظلم، يتمتع فيه برحمـة الله الواسعة وألطافـه الغـزيرـة.

الإيمان بالآخرة يعني شق حاجز عالم المادة والدخول إلى عالم أسمى، ويعني أن عالمنا هذا مزرعة لذلك العالم الأسمى ومدرسة إعدادية له، وأن الحياة في هذا العالم ليست هدفاً نهائياً، بل تمهد وإعداد للعالم الآخر.

الحياة في هذا العالم شبيهة بحياة المرحلة الجنينية، فهي ليست هدفاً لخطة الإنسان، بل مرحلة تكاملية من أجل حياة أخرى. وما لم يولد هذا الجنين سالماً خالياً من العيوب، لا يستطيع أن يعيش سعيداً في الحياة التالية.

الإيمان ب يوم القيمة له أثر عميق في تربية الإنسان. يبهـه الشجاعة والشهامة،

لأن أسمى وسام يتقىده الإنسان في هذا العالم، هو وسام «الشهادة» على طريق هدف مقدس إلهي، والشهادة أحبّ شيء للإنسان المؤمن، وببداية لسعادته الأبديّة. الإيمان يوم القيمة يصون الإنسان من ارتكاب الذنوب. بعبارة أخرى، يتناسب ارتكابنا للذنوب مع إيماننا بالله واليوم الآخر تناسباً عكسيّاً، فكلما قوي الإيمان قلت الذنوب. يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه داود: **«وَلَا تَتَّبِعُ الْهَوَى فَيَضُلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضُلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ إِمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ»**^١.

نسيان يوم الحساب أساس كل طغيان وظلم وذنب، وبالتالي أساس استحقاق العذاب الشديد.

آخر آية في هذا البحث تشير إلى النتيجة التي يتلقاها المؤمنون المتصفون بالصفات الخمس المذكورة، تقول: **«أُولَئِكَ عَلَى هُدَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»**.

وقد ضمن رب العالمين لهؤلاء هدايتهم وفلاحهم، وعبارة **«مِنْ رَبِّهِمْ»** إشارة إلى هذه الحقيقة.

واستعمال حرف (على) في عبارة **«عَلَى هُدَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ»** يوحى بأن الهدایة الإلهیة مثل سفينة يركبها هؤلاء المتفقون لتوصلهم إلى السعادة والفلاح. (لأن حرف - على - يوحى غالباً معنى الإستعلاء).

واستعمال الكلمة **«هُدَى»** في حالة نكرة يشير إلى عظمة الهدایة التي شملتهم الله بها.

وتعبير **«هُمُ الْمُفْلِحُونَ»** يفيد الإبصار كما يذكر علماء البلاغة، أي إن الطريق الوحيد للنجاح هو طريق هؤلاء المفلحين^٢!

١- ص. ٢٦.

٢- صاحب «المنار» يصر على أن تكرار الكلمة **«أُولَئِكَ»** في الآية يفيد الإشارة إلى مجموعتين:

بحثان

١- مواصلة طريق الإيمان والعمل:

الآيات المذكورة استعملت الفعل المضارع الذي يشير عادة إلى الإستمرار **«يَؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ - يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ - يُنفِقُونَ - وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُسْوِقُونَ»**. وهذا يعني أن المتقين والمؤمنين الحقيقيين هم الذين يواصلون مسيرتهم الحياتية بثبات واستمرار، دون ت歇 أو تلکؤ أو توقف.

هؤلاء ينطلقون منذ البدء بروح البحث عن الحق، وهذا يؤدي بهم إلى تلبية دعوة القرآن، والقرآن بعد ذلك يوجد فيهم الخصائص الخمس المذكورة.

٢- ما هي حقيقة التقوى؟

التقوى من الوقاية، أي الحفظ والصيانة^١، وهي بعبارة أخرى جهاز الكبح الداخلي الذي يصون الإنسان أمام طغيان الشهوات.

لهذا السبب وصف أمير المؤمنين علي عليه السلام التقوى بأنها الحصن الذي يقي الإنسان أخطار الإنزال إذ قال: «إاعلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ التَّقْوَىً دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ»^٢.

وفي النصوص الدينية والأدبية تشبيهات كثيرة تجسم حالة التقوى، فعن الإمام علي عليه السلام قال: «أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَىً مَطَابِيَ ذَلِيلٍ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُها، وَأَغْطُوا أَرِمْتَهَا، فَأَوْزَرَ دَهْمُ الْجَنَّةِ»^٣.

^١ الأولى - أولئك الذين يتصفون بالإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، وبالإنفاق، والثانية - هم المؤمنون بالوحى السماوي وبالآخرة. نحن نستبعد كثيراً هذا التفسير، لأن الصفات الخمس المذكورة مترابطة لا يمكن التفكير بها، وكلها تصنف مجموعة واحدة.

^٢ يقول الراغب في مفراداته: الواقية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، والتقوى جعل النفس في وقاية متساوية، لذلك يسمى الخوف تارة تقوى بينما الخوف سبب للتقوى. وفي عرف الشرع، التقوى حفظ النفس عما يؤثرها، و«كمال التقوى» اجتناب المشتقات.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

٣- نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

وعبد الله بن المعتز شبه التقوى بحالة رجل يسير على طريق شائكة، ويسعى إلى أن يضع قدمه على الأرض بتأن وحذر، كي لا تخزه الأشواك، أو تتعلق بشيابه، يقول:

خَلِ الذُّنُوبَ صَفِيرَةً
وَكَبِيرَهَا فَهُوَ الْمُقْتَدِرُ
وَاضْطَجَعَ كَبَائِشُ فَوْقَ أَرْضِ
ضِ الشَّوْكِ يَخْذَرُ مَا يَرْأَى
لَا تَخْفِرْنَ صَغِيرَةً
إِنَّ الْمُبَالَ مِنَ الْمُحْسَنِ^١

هذا التشبيه يفيد أيضاً أن التقوى لا تعنى العزلة والإيزواد عن المجتمع، بل تعنى دخول المجتمع، وخوض غماره، مع الحذر من التلوث بأدرانه إن كان المجتمع ملوثاً.

بشكل عام، فإنَّ حالة التقوى والضبط المعنوي من أوضح آثار الإيمان بالله واليوم الآخر، ومعيار فضيلة الإنسان وافتخاره، ومقاييس شخصيته في الإسلام، حتى أصبحت الآية الكريمة: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَمُكُمْ»^٢ شعاراً إسلامياً خالداً.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ تَقْوَىَ اللَّهِ مِيقَاتُهُ سَدَادٌ، وَذَخِيرَةٌ مَعَادٌ، وَعِيشَقُ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاهَ مِنْ كُلِّ هَلْكَةٍ»؟

جدير بالذكر أن التقوى ذات شعب وفروع، منها التقوى المالية والإقتصادية، والتقوى الجنسية والإجتماعية والتقوى السياسية

* * *

١- تفسير أبو النور الرازي، ج ١، ص ٦٢.

٢- العبرات، ١٤.

١- تفسير أبو النور الرازي، ج ١، ص ٦٢.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٠.

الآياتان

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سُوَاهُ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَنَّ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ⑤ حَتَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ
غِشَّةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑥

التفسير

المجموعة الثانية: الكفار المعاندون

هذه المجموعة تقف في النقطة المقابلة تماماً للمتقين، والآياتان المذكورةتان
بيتنا باختصار صفات هؤلاء.

الآية الأولى تقول إن الإنذار لا يجدي نفعاً مع هؤلاء، فهم متعنتون في كفرهم
«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سُوَاهُ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَنَّ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» بعكس الطائفة الأولى
المستعدة لقبول الحق لدى أول ومضة.

هذه المجموعة غارقة في ضلالها وترفض الانصياع للحق حتى لو اتضحت
لديها. من هنا كان القرآن غير مؤثر في هؤلاء. وهكذا الوعد والوعيد، لأنهم
يفتقدون الأرضية الالزامية لقبول الحق والإسلام له.

الآية الثانية تشير إلى سبب هذا اللجاج والتعصب وتقول: «حَتَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَّةٌ»، ولذلك استحقوا أن يكون لهم

عذاب عظيم».

أجهزة استقبال الحقائق معطوبة عند هؤلاء ... العين التي يرى المتقون فيها آيات الله، والأذن التي يسمعون بها نداء الحق، والقلب الذي يدركون به الحقائق، كلها قد تعطلت وتوقفت عن العمل لدى الكافرين. هؤلاء لهم عيون وأذان وعقول، لكنهم يفتقدون قدرة «الرؤى» و«الإدراك» و«السماع». لأن انفاسهم في الإنحراف وعنادهم ولجاجهم، كلها عناصر تشكل حجاباً أمام أجهزة المعرفة. الإنسان قابل للهداية طبعاً - إن لم يصل إلى هذه المرحلة - مهما بلغ به الضلال أمّا حينما يبلغ في درجة يفقد معها حسّ التشخيص «فلات حين نجاة» لأنّه افتقد أدوات الوعي والفهم، ومن الطبيعي أن يكون في إنتظاره عذاب عظيم.

* * *

بحوث

١ - سلب قدرة التشخيص ومسألة الجبر

أول سؤال يطرح في هذا المجال يدور حول مسألة الجبر، التي قد تبادر إلى الأذهان من قوله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ...» فهذا الختم يفيد بقاء هؤلاء في الكفر إجباراً، دون أن يكون لهم اختيار في الخروج من حالتهم هذه. أليس هذا بجبر؟ وإذا كان جبراً فلماذا العقاب؟

القرآن الكريم يجيب على هذه التساؤلات ويقول: إن هذا الختم وهذا الحجب هما نتيجة إصرار هؤلاء ولجاجهم وتعنتهم أمام الحق، واستمرارهم في الظلم والطغيان والكفر. يقول تعالى: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ»^١ ويقول:

«كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَارٍ»^١ ويقول أيضاً: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضْلَلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَمَّمَ عَلَىٰ سَنْعَهُ وَقَلِيلٍ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً»^٢.

كل هذه الآيات تقرر أن السبب في سلب قدرة التشخيص، وتوقف أجهزة الإدراك عن العمل يعود إلى الكفر والتكبر والتجلب واتباع الهوى واللجاج والعناد أمام الحق، هذه الحالة التي تصيب الإنسان، هي في الحقيقة رد فعل لأعمال الإنسان نفسه.

من المظاهر الطبيعية في الموجود البشري، أن الإنسان لو تعود على انحراف واستأنس به، يتبع في المرحلة الأولى ماهية «الحالة» ثم يتحول إلى «عادة» وبعدها يصبح «ملكة» وجزءاً من تكوين الإنسان حتى يبلغ أحessianاً درجة لا يستطيع الإنسان أن يتخلّى عنها أبداً. لكن الإنسان إختار طريق الإنحراف هذا عن علم ووعي، ومن هنا كان هو المسؤول عن عواقب أعماله، دون أن يكون في المسألة جبر. تماماً مثل شخص فقاً عينيه وسدّ أذنيه عمداً، كي لا يسمع ولا يرى. ولو رأينا أن الآيات تتسبّب بالختم وإسدال الغشاوة إلى الله، فذلك لأن الله هو الذي منح الإنحراف مثل هذه الخاصية. (تأمل بدقة).

عكس هذه الظاهرة مشهود أيضاً في قوانين الطبيعة، أي إن الفرد السائر على طريق الظهر والتقوى والاستقامة تمت ديد الله عزوجل إليه لتقوى حاسته تشخيصه وإدراكه ورؤيته، هذه الحقيقة توضحها الآية الكريمة. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ شَفَعَا اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ فُزُقَانَآءَ»^٣.

في حياتنا اليومية صور عديدة لأفراد ارتكبوا عملاً محرّماً، فتألموا في البداية لما فعلوه واعترفوا بذنبهم، لكنهم استأنسوا تدريجياً بفعلهم، وزالت من

نفوسهم حساسيتهم السابقة تجاه الذنب، ووصل أمرهم إلى حد يجدون اللذة والإنشراح في الإنحراف، وقد يضفون عليه صفة الواجب الإنساني! أو الواجب الديني !!

وفي تاريخنا الإسلامي ظهر مجرمون سفاكون مولعون بازهاق الأرواح والتنكيل بال المسلمين كما ذكر في حالات «الحجاج بن يوسف التقي» أنه كان يضع لأعماله الإجرامية تبريرات دينية، ويقول مثلاً: إن الله سلطنا على هؤلاء الناس المذنبين لنظلمهم، فهم مستحقون لذلك !!

وكذلك قيل إن أحد جنود المغول خطب في أحد مدن ايران العددوية وقال: - ألستم يعتقدون أن عذاب الله يصيب المذنبين؟ فتحن عذاب الله عليكم، فلا ينبغي لكم المقاومة.

٢- لماذا يصر الأنبياء على هداية هؤلاء، إذا كانوا لا يهتدون؟

وهذا سؤال آخر يطرح في إطار الآيات المذكورة. والجواب عليه يتضح لو عرفنا أن العقاب الإلهي يرتبط بموافقات الإنسان العملية وسلوكه الفعلي، لا بما يكتبه في قلبه من زيف وضلال فقط. من هنا كان لابد من توجيه الدعوة حتى إلى هؤلاء الذين لا يهتدون. بعد ذلك يستحق الفرد العقاب تبعاً لموقفه من الدعوة. بعبارة أخرى لابد من «إنعام الحجة» قبل العقاب.

بعبارة موجزة: التواب والعقاب يتوقفان حتماً على العمل بعد إنجازه، لا على المحتوى الفكري والروحي للفرد.

أضاف إلى ما سبق: أن الأنبياء بعثوا للناس جميعاً، وهؤلاء الذين «طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ» قليلون في المجتمع، أما الأكثريَّة فهم التائهون الذين يتقبلون الهداية ضمن برنامج تعليمي تربوي صحيح.

٣- الختم على القلوب:

في الآيات المذكورة وأيات أخرى عبر القرآن عن عملية سلب حسّ التّشخيص والإدراك الواقعي للأفراد بالفعل «ختم»، وأحياناً بالفعل «طبع» و«ران».

في اللغة «خَتَم» الإبناء بمعنى سدّه بالطين أو غيره، وأصلها من وضع الختم على الكتب والأبواب كي لا تفتح، والختم اليوم مستعمل في الإستيقاظ من الشيء والمنع منه كختم سندات الأموال والرسائل السرية الهامة.

وهناك شواهد من التاريخ تدلّ على أن الملوك وأرباب السلطة كانوا سابقاً يغتمنون صرر الذهب بخاتمهم الخاص ويبيتون بها إلى المنظوريين للاطمئنان على سلامة الصرر وعدم التلاعب في محتوياتها.

والشائع في هذا الزمان الختم على الطرود البريدية أيضاً، وقد استعمل القرآن كلمة «الختم» هنا للتعبير عن حال الاشخاص المعاندين الذين تراكمت الذنوب والآثام على قلوبهم حتى منعت الكلمة الحق من النفوذ إليها وأمست كالختم لا سيل إلى فتحه.

و«طبع» بمعنى ختم أيضاً.

أما «ران» فمن «الرين» وهو صدأ يعلو الشيء الجلي، واستعمل القرآن هذه الكلمة في حديثه عن قلوب الغارقين في أحوال الفساد والرذيلة: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^١.

اللهم أن الإنسان ينبغي أن يكون حذراً لدى صدور الذنب منه، فيسارع إلى غسله بماء التوبة والعمل الصالح، كي لا يتحول إلى صفة ثابتة مختوم عليها في القلب.

في حديث عن الإمام محمد بن علي الباقي عليهما السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُكْحَةٌ بَيْضَاءٌ، فَإِذَا أَذْتَهُ ذَبَّاً خَرَجَ فِي تِلْكَ النُّكْحَةِ نُكْحَةُ سُوَادٍ، فَإِذَا تَابَ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوَادُ، فَإِنْ قَادَى فِي الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِكَ السُّوَادُ حَتَّى يُغْطِي الْبَيْضَانَ، فَإِذَا غَطَّى الْبَيْضَانَ لَمْ يَرْجِعْ صَاحِبُهُ إِلَى خَيْرٍ أَبْدًا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «كَلَّا بَلْ رَأَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»).

٤- المقصود من «القلب» في القرآن

لماذا نسب إدراك الحقائق في القرآن إلى القلب، بينما القلب ليس بمركز للإدراك بل مضخة لدفع الدم إلى البدن؟!

الجواب على ذلك، أن القلب في القرآن له معان متعددة منها:

١ - بمعنى العقل والإدراك كقوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا يَلْمَزُ كَانَ لَهُ قَلْبٌ».

٢ - بمعنى الروح والنفس كقوله سبحانه: «وَإِذْ رَأَفْتِ الْأَبْصَارَ وَبَلَغْتِ الْقُلُوبَ الْخَاتِرَ».

٣ - بمعنى مركز العواطف، ك قوله: «سَأَلْتُ قَوْمًا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ»^١، و قوله: «فَيَا رَحْمَةَ مِنَ اللَّهِ لِنَتَ هُنْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيلًا الْقَلْبُ لَا تَفْضُلُ مِنْ حَوْلِكَ»^٢.

لمزيد من التوضيح نقول:

في وجود الإنسان مركزان قويان هما:

١ - مركز الإدراك، ويكون من الدماغ وجهاز الأعصاب. لذلك نشعر أننا

١- أصول الكافي، ج ٢، باب الذنوب، ح ٢٠٩، ص ٢٠٩.

٢- الأحزاب، ١٠.

٥- آل عمران، ١٥٩.

٣- ق، ٣٧.

٤- الأنفال، ١٢.

نستقبل المسائل الفكرية بدماغنا حيث يتم تحليلها وتفسيرها. (وإن كان الدماغ والأعصاب في الواقع وسيلة آلة للروح).

٢ - مركز العواطف، وهو عبارة عن هذا القلب الصنوبرى الواقع في الجانب الأيسر من الصدر. والمسائل العاطفية تؤثر أول ما تؤثر على هذا المركز حيث تندفع الشرارة الأولى.

حينما نواجه مصيبة فإننا نحس بثقلها على هذا القلب الصنوبرى، وحينما يغمرنا الفرح فإننا نحس بالسرور والانشراح في هذا المركز (لا حظ بدقة). صحيح أن المركز الأصلي للإدراك والعواطف هو الروح والنفس الإنسانية، لكن المظاهر وردود الفعل الجسمية لها مختلفة. ردود فعل الفهم والإدراك تظهر أولاً في جهاز الدماغ، بينما ردود فعل القضايا العاطفية كالحب والبغض والخوف والسكينة والفرح والهيم تظهر في القلب بشكل واضح، ويحس بها الإنسان في هذا الموضوع من الجسم.

مما تقدم نفهم سبب ارتباط المسائل العاطفية في القرآن بالقلب (العضو الصنوبرى المخصوص)، وارتباط المسائل العقلية بالقلب (أى العقل أو الدماغ). أضف إلى ما تقدم أنَّ عضو القلب له دور مهم في حياة الإنسان وبقائه، وتوقفه لحظة يؤدي إلى الموت، فماذا يمنع أن تنسُب النشاطات الفكرية والعاطفية إليه؟!

٥ - لماذا جاءت «قلوبهم» و«أبصارهم» بصيغة الجمع، و«سماعهم». بصيغة المفرد؟

يتكرر في القرآن استعمال القلب والبصر بصيغة الجمع: قلوب وأبصار، بينما يستعمل السمع دائمًا بصيغة المفرد، فما السر في ذلك؟ قبل الإجابة لابد من الإشارة إلى أن القرآن استعمل السمع والبصر بصيغة

المفرد أيضاً كقوله تعالى: «وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقُلُبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً»!
الشيخ الطوسي عليه السلام في تفسير «التبيان» ذكر نقاً عن لغوي معروف، أن سبب
ذلك قد يعود إلى أحد أمرين:
أولاً: إن كلمة «السمع» قد تستعمل باعتبارها اسم جمع، ولا حاجة عندئذ إلى
جمعها.

ثانياً: إن كلمة «السمع» لها معنى المصدر، والمصدر يدل على الكثير والقليل،
فلا حاجة إلى جمعه.
ويمكنا أن نضيف إلى ما سبق تعليلاً ذوقياً وعلمياً هو أن الإدراكات القلبية
والمشاهدات العينية تزيد بكثير على «السموعات»، ولذا جاءت القلوب
والأبصار بصفة الجمع، والفيزياء الحديثة تقول لنا إن الأمواج الصوتية المسموعة
معدودة لا تتجاوز عشرات الآلاف، بينما أمواج النور والألوان المرئية تزيد على
الملايين. (تأمل بدقة).

* * *

الآيات

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إِنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ
بِمُؤْمِنِينَ ⑤ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا
أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ⑥ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرْضًا
وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ إِمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ⑦ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّا نَحْنُ مُضْلِلُونَ ⑧ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ
الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ⑨ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا
آمَنُوا أَنَّا نَحْنُ كَمَا آمَنَ السَّفَهَاءُ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ
السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ⑩ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا
إِنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى الشَّيْطَانِيْمَ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّا نَحْنُ
مُشْتَهِيْنَ وَنَحْنُ ⑪ اللَّهُ يَسْتَهِيْزُ بِهِمْ وَيُنَاهِيْهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَغْمَهُونَ ⑫ أَوْلَئِنَّكَ الَّذِينَ أَشْرَرُوا الْأَضْلَالَةَ بِالْهُدَى لَهَا رَجَحَتْ
نُجُرُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ⑬

التفسير

المجموعة الثالثة: المنافقون

هذه الآيات تبين - باختصار وعمق - الخصائص الروحية للمنافقين

وأعمالهم.

الإسلام واجه في عصر انتشار الرسالة مجموعة لم تكن تملك الإخلاص اللازم للإيمان، ولا القدرة الالزامية للمعارضة.

هذه المجموعة المذبذبة المصابة بازدواج الشخصية توغلت في أعماق المسلمين، وشكلت خطراً كبيراً على الإسلام وال المسلمين. كان تشخيصهم صعباً لأنهم متظاهرون بالإسلام، غير أن القرآن بين بدقة مواصفاتهم وأعطى للمسلمين في كل القرون والأعصار معايير حية لمعرفتهم.

الآيات المذكورة قبلها بيّنت في مطلعها الخط العام للنفاق والمنافقين: **«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»**.

هؤلاء يعتبرون عملهم المذبذب هذا نوعاً من الشطارة والدهاء **«يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا»** بينما لا يشعر هؤلاء أنهم يسيئون بعملهم هذا إلى أنفسهم، ويبعدون بانحرافهم هذا طاقاتهم، ولا يجنون من ذلك إلا الخسران والعذاب الإلهي. **«وَمَا يَخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»**.

في الآية التالية يبيّن القرآن أن النفاق في حقيقته نوع من المرض. الإنسان السالم له وجه واحد فقط، وفي ذاته انسجام تام بين الروح والجسد، لأن الظاهر والباطن، والروح والجسم، يكمل أحدهما الآخر. إذا كان الفرد مؤمناً فالإيمان يتجلّى في كل وجوده، وإذا كان منحرفاً فظاهره وباطنه يدللان على انحرافه. وازدواجية الجسم والروح مرض آخر وعلة إضافية. إنه نوع من التضاد والإقصال في الشخصية الإنسانية: **«فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»**.

وبما أنّ سنة الله في الكون اقتضت أن يتيسّر الطريق لكل سالك، وأن تتوفر سبل التقدّم لكل من يجهد في وضع قدمه على طريق. وبعبارة أخرى: إن تكريس أعمال الإنسان وأفكاره في خط معين، تدفعه نحو الإنغماس والثبات في ذلك الخط فقد أضاف القرآن قوله: **«فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا»**.

وبيما أن الكذب رأس مال المنافقين، يبررون به ما في حياته من متناقضات، ولهذا أشار القرآن في ختام الآية إلى هذه الحقيقة: **«وَلَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ»**.

ثم تستعرض الآيات خصائص المنافقين، وتذكر أولاً أنهم يتشددون بالإصلاح، بينما هم يتحركون على خط التخريب والفساد: **«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، قَالُوا: إِنَّا نَحْنُ مُضْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ»**.

ذكرنا سابقاً أن الإنسان، لو تمادي في الغي والضلالة، يفقد قدرة التشخصيص، بل تقلب لديه الموازين، ويصبح الذنب والإثم جزءاً من طبيعته. والمنافقون أيضاً ياصرارهم على انحرافهم يتطبعون بخط النفاق، وتراهم لهم أعمالهم بالتدريج وكأنهم أعمال إصلاحية، وتغدو بصورة طبيعة ثانية لهم.

علامتهم الأخرى: اعتقادهم بأنفسهم واعتقادهم أنهم ذوي اعقل وتدبر، وأن المؤمنين سفهاء وبسطاء: **«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، قَالُوا: أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ؟!»**.

وهكذا تقلب المعايير لدى هؤلاء المنحرفين، فيرون الإنصياع للحق وإتباع الدعوة الإلهية سفاهة، بينما يرون شيطنتهم وتذبذبهم تعقلًا ودراسة!! غير أن الحقيقة عكس ما يرون: **«أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ»**.

ليس من السفاهة أن لا يضع الإنسان لحياته خطأ معيناً، ويبقى يتلوّن بألوان مختلفة؟! ليس من السفاهة أن يضيّع الإنسان وحدة شخصيته، ويتجه نحو إزدواجية الشخصية وتعدد الشخصيات في ذاته، ويهدر بذلك طاقاته على طريق التذبذب والتآمر والتخريب، وهو مع ذلك يعتقد برجاحة عقله؟!

العلامة الثالثة لهؤلاء، هي تلوّنهم بألوان معينة تبعاً لما تفرضه عليهم مصالحهم، فهم انتهازيون يظهرون الولاء للمؤمنين ولأعدائهم من الشياطين:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّا نَحْنُ مُشْتَهِرُونَ﴾.

يؤكدون لشياطينهم أنهم معهم، وأن ولاءهم للمؤمنين ظاهري، هدف الاستهزاء.

وبلهجة قوية حاسمة يرد القرآن الكريم على هؤلاء ويقول: ﴿اللَّهُ يَسْتَهِزُ بِهِمْ وَيَعْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَغْمَهُونَ﴾.

الآية الأخيرة توضح المصير الأسود المظلم لهؤلاء المنافقين، وخسارتهم في سيرتهم الحياتية الضالة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَقُوا الصَّلَالَةَ بِإِلْهَى فَلَا رَبِّ يَعْبُدُ تَجَارَّهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

* * *

بحوث

١- ظهور التناق وأسبابه:

حينما تندلع الثورة في منطقة معينة، فإن مصالح الفتنة الفتاولة الناهبة المستبدة تتعرض للخطر حتماً، خاصة إذا كانت الثورة مثل ثورة الإسلام تقوم على أساس الحق والعدالة. هذه الفتنة تسعى للإطاحة بالثورة عن طريق السخرية والإستهزاء أو لا، ثم بالإستفادة من القوة المسلحة والضغوط الاقتصادية، والتضليل الاجتماعي.

وحيث تبدو في الأفق علامات انتصار الثورة، تعمد فتنة من المعارضين إلى تغيير موقفها، فتستسلم ظاهرياً، وتتحول في الواقع إلى مجموعة معارضة سرية. هؤلاء يستمدون «منافقين» لأنظواهُم على شخصيتين مختلفتين (المنافق

١- يغمدون، من «الفتنة» أي التردد في الأمر، وأيضاً بمعنى عمي القلب وال بصيرة بسبب التحييز (راجع: مفردات الراغب، وتفسير العتار، وقاموس اللغة).

مشتقة من النفق: وهو الطريق النافذ في الأرض المحفور فيها للإستمار أو الفرار)، وهم أخطر أعداء الثورة، لأن مواقفهم غير واضحة، والأمة الشائرة لا تستطيع أن تعرفهم وتطردهم من صفوفها، لذلك يتغلغلون في صفوف الناس المخلصين الطيبين، ويسلّمون أحياناً المناصب الحساسة في المجتمع.

ثورة الإسلام في عصرها الأول واجهت مثل هذه المجموعة. فبعد الهجرة العباركة وضعت أول لبنة للدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وازداد الكيان الإسلامي الوليد قوة بعد إنتصار المسلمين في غزوة «بدر». وهذه الإنتصارات عرضت للخطر مصالح زعماء المدينة، وخاصة اليهود منهم، لأن اليهود كانوا يتمتعون في المدينة بمكانة ثقافية واقتصادية مرموقة. وهؤلاء أنفسهم كانوا يبشرُون قبلبعثة النبي العباركة بظهور النبي.

كما كان في المدينة أفراد مرشحون للزعامة والملكيَّة، لكن الهجرة النبوية بددت آمال هؤلاء المتضررون من الدعوة رأوا أن الجماهير تندفع نحو الإسلام، وتنقاد إلى النبي الخاتم صلوات الله عليه وآله وسلامه حتى عمت الدعوة ذويهم وأقاربهم.

وبعد مدة من الدين الجديد، لم يروا بدأً من الإستسلام والتظاهر بالإسلام، تجنبًا لمزيد من الأخطار الاقتصادية والاجتماعية وحدراً من الإبادة، خاصة وأن قوَّة العربي تتمثل في قبيلته، والقبائل أسلمت للدين الجديد لكن هؤلاء راحوا يخططون خفية للإطاحة بالإسلام.

بعباره موجزة، إن ظاهرة «التفاق» في المجتمع، تعود إلى عاملين: أحدهما، إنتصار الثورة وسيطرة الرسالة الثورية على المجتمع، والآخر: انهزام المعارضين نفسياً، وقد انهم للشجاعة الكافية لمواجهة المدّ الجديد، واضطهارهم إلى الإستسلام الظاهري أمام الدعوة.

٢- ضرورة معرفة المنافقين في كل مجتمع

ظاهرة النفاق والمنافقين لا تختص -دون شك- بعصر الرسالة الأولى، بل هي ظاهرة عامة تظهر بشكل وأخر في كل المجتمعات. من هنا لا بد للجماعة المسلمة أن تعرف أوصافهم كما جاء في القرآن، كي تحبط مؤامراتهم وتفتف بوجههم. في الآيات السابقة وفي سورة المنافقين وهكذا في النصوص الإسلامية وردت للمنافقين أوصاف مختلفة منها:

- ١- كثرة الضجيج والإدعاءات الفارغة، أو بعبارة أخرى كثرة القول وقلة العمل المفيد المترن.
- ٢- التلون والتذبذب، فمن المؤمنين يقولون «آمنا» ومع المعارضين يقولون «إنا معكم».
- ٣- الإنفصال عن الأمة، وتشكيل الجمعيات السرية وفق خطط مبيتة.
- ٤- المكر والخداع والكذب والتملق والنکول والخيانة.
- ٥- التعالي على الناس، وتحقيرهم، واعتبارهم بلهاه سفهاء، إلى جانب الإعتداد بالنفس.

على أي حال، إزدواجية الشخصية، والتضاد بين المحتوى الداخلي والسلوك الخارجي في وجود المنافقين، يفرز ظواهر عديدة بارزة مشهودة في أعمالهم وأقوالهم وسلوكيهم الفردي والإجتماعي.

وما أجمل تعبير القرآن في حق هؤلاء إذ يقول: **«في قلوبهم مرض»**، وأي مرض أسوأ من إزدواجية الظاهر والباطن، ومن التعالي على الناس؟!!
هذا العرض مثل سائر الأمراض الخفية التي تصيب القلب لا يمكن اخفاوه تماماً، بل تظهر علاته بوضوح على جميع أعضاء الإنسان.
في مجلدات هذا التفسير شرح أوفى لحالة النفاق والمنافقين لدى البحث في الآيات ١٤١ - ١٤٣ من سورة النساء (المجلد الثالث).

وفي الآيات ٤٩-٥٧ من سورة التوبه (المجلد السادس).

وفي الآيات ٦٢-٨٥ من سورة التوبه أيضاً (المجلد السادس).

* * *

٣- سعة معنى النفاق :

النفاق في مفهومه الخاص - كما ذكرنا - صفة أولئك الذين يظهرون الإسلام، ويبطئون الكفر. لكن النفاق له معنى عام واسع يشمل كل ازدواجية بين الظاهر والباطن، وكل افتراق بين القول والعمل. من هنا قد يوجد في قلب المؤمن بعض ما نسميه «خيوط النفاق».

ففي الحديث النبوي: «ثلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَرَأَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ مَنْ إِذَا اسْتَمْنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»^١.

الحديث لا يدور هنا طبعاً عن المنافق بالمعنى الخاص، بل عن الذي في قلبه خيوط من النفاق، تظهر على سلوكه بأشكال مختلفة، وخاصة بشكل رداء، كما جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْرِبَاطُ شَجَرَةٌ لَا تُشَرِّفُ إِلَّا الفَرْزَقُ الْحَسِينُ، وَأَضْلَلَهَا النَّفَاقُ»^٢.

وفي نهج البلاغة نص رائع في وصف المنافقين عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه:^٣ «أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذِرُكُمْ أَهْلَ النَّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضْلَّوْنَ، وَالرَّازِلُونَ الْمَزِلُونَ^٤، يَتَلَوَّنُونَ الْوَانَةَ، وَيَتَشَوَّنَ إِلَيْتَانَةَ^٥، وَيَغْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِيَادٍ، وَيَرْصُدُونَكُمْ

١- سفينة المعارج، ج ٢، ص ٦٠٥ . ٢- سفينة المعارج، ج ١، مادة (ربني).

٣- نقل نص الخطبة مع هوامشها كما جاءت في نهج البلاغة، شرح محمد عبد، ص ٢٨١ (م).

٤- الرازلون من زل أخطلا، والمزلون من أزله إذا أوقعه في الخطأ.

٥- يفتنون أي يأخذون في فنون من القول لا يذهبون مذهبها واحداً. ويصدونكم أي يقمعونكم بكل عسايه.

يُكُلُّ مِنْ صَادِ، فَلُوْبُهُمْ دَوِيَّةٌ وَصِفَاخُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَتَشَوَّنَ الْأَنْتَاهَاءُ، وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ وَضَسْطَهُمْ ذَرَاءَ، وَتَوَهُمْ شَفَاءُ، وَفَقْلُهُمْ الدَّاءُ الْعَيَّاهُ، حَسَدَةُ الرَّخَاءُ، وَمَؤْكَدُ الْبَلَاءُ، وَمُسْقَطُوا الرُّجَاءُ، هُمْ يُكُلُّ طَرِيقَ صَرِيعٍ^٥ وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَجَنُ دُمُوعٍ^٦ يَتَقَارَضُونَ النَّتَاهَاءُ^٧ وَيَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ؛ إِنْ سَأَلُوا أَنْهُنَّا أَنْهَنَّا، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا...».

* * *

٤ - مؤامرة المنافقين:

المنافقون يشكّلون أخطر تجمع معارض، لا على الإسلام فحسب، بل على كلّ رسالة ثورية تقدمية، حيث ينفذون بين صفوف المسلمين، ويستغلّون كل فرصة للنّاتّم.

يتحدّث القرآن عن تأمر هؤلاء في صدر الإسلام ويدرك نماذج من أعمالهم.

١- والمساد: ما يقام عليه البناء. أي إذا ملتم من أهوائهم أقاموك عليها بأحمدة من الخديعة حتى توافقوه، والمرصاد محل الإرتقاب. ويرصدونكم؛ يقدمون لكم بكل طريق ليحوّلوك عن الإستقامة.

٢- دويبة أي مريضة من الدوى بالقصر وهو المرض. والصفاح - جمع صفة: والمراد منها صفاح وجوههم، ونقاطتها: صفاوها من حلامات الددوة وقلوبهم مليئة بناها.

٣- يمشون مشي التستر. ويدبون: أي يمشون على هيئة دبيب الضراء، أي يسررون سربان المرض في الجسم أو سربان النقص في الأموال والأنفس والشرارات.

٤- الداء اليماء - بالفتح: الذي أحضر الأطباء ولا يمكن منه الشفاء.

٥- حسدة: جمع حاسد، أي يحسدون على السمة، وإذا نزل بلاء بأحد أكدهوه وزادوه، وإذا رجى أحد شيئاً أوقعه في القنوط واليأس.

٦- الصريع: الطروح على الأرض، أي إنهم كثيراً ما خدعوا أشخاصاً حتى أوغورهم في الهلكة.

٧- الشجو: العزن، أي يكون تصتاً مت أرادوا.

٨- يتقارضون: كل واحد منهم يتبني على الآخر يبني الآخر عليه، كأن كلّاً منهم يسلف الآخر ديناً لرؤيه إليه، وكل يعمل للأخر صلباً يرتفع جزاءه عليه.

٩- ألغفوا: بالغروا في السؤال وألغوا. وإن عذلوا أي لاما، كشفوا أي فضحوا من يلومونه.

يذكر مثلاً استهانة هؤلاء بشخصية المؤمنين، وبما يقدمه المؤمنون على قدر طاقتهم من صدقات فيقول: «الَّذِينَ يُلْمِزُونَ الظُّرُوعَ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا جُهْدُهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخْرَيْةً اللَّهُ مِنْهُمْ وَكُلُّمَا عَذَابٌ أَلِيمٌ»^١.

ويتخذون أحياناً في اجتماعاتهم السرية قرارات بشأن قطع مساعدتهم المالية لأصحاب رسول الله ﷺ، كي يتفرقوا عن الرسالة والرسول: «هُمُ الَّذِينَ يَعْوَلُونَ لَا تُتَفَّقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَقٌّ يَنْفَضُوا، وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكُنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَتَفَهَّمُونَ»^٢!

كما يتخذون القرارات بإخراج المؤمنين من المدينة بعد انتهاء الحرب والعودة إلى المدينة: «لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُغَرِّجَنَّ الْأَعْزَمُ مِنْهَا الْأَذَلُّ»^٣. وكانوا يختلفون عن الجهاد بمبررات مختلفة من قبيل الانشغال بالعصاد مثلاً، ويتربكون الرسول في ساعات الشدة. وهم مع ذلك خائفين من انفصال أمرهم وانكشف سرّهم.

بسبب هذه المواقف العدائية التآمرية ركز القرآن على التنديد بالمنافقين في موضع عديدة، واحتوت سورة المنافقين عرضاً مفصلاً لوضعهم. كما تضمنت سورة التوبه والهشر وسور أخرى حملات شديدة على المنافقين، وتحدىت ثلاث عشرة آية من سورة البقرة عن صفاتهم وعواقب مكرهم.

* * *

٥- خداع الفس米尔:

المنافقون يشكلون مشكلة كبرى للمسلمين، ذلك لأن المسلمين مكلفوون -

٢- المنافقون، ٧.

١- التوبه، ٧٩.

٣- المنافقون، ٨.

من جهة - باحتضان كل من يظهر الإسلام وبالإمتاع عن تقفيش عقائد الأفراد ومسؤولون - من جهة أخرى - عن الحذر من مؤامرات المنافقين وتحركاتهم المشبوهة التي يستهدفون منها الوقوف بوجه الرسالة، وإن اتخذت هذه التحركات صفة إسلامية ظاهرية.

المنافقون يظنون أنهم بعملهم هذا يستطيعون أن يخدعوا المسلمين ويمرروا عليهم مؤامراتهم، بينما هؤلاء يخدعون أنفسهم.

التعبير القرآني «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا» يوضح مفهوماً دقيقاً، فكلمة يخادعون تعني الخداع المشترك من الطرفين، وتبين أن هؤلاء المنافقين كانوا يعتقدون - لعمى بصيرتهم - أن النبي خداع توسل بالدين والنبوة وجمع حوله السُّلْجُوكَ من الناس ليكون له حكم وسلطان، ومن هنا راح المنافقون يتولون بخدعة لمقابلة خدعة النبي! فالتعبير القرآني المذكور يوضح إذن لجوء المنافقين إلى الخدعة، وبين كذلك نظرة هؤلاء الخاطئة إلى النبي الأعظم صلوات الله عليه.

ثم ترد الآية الكريمة على هؤلاء وتقول: «وَمَا يَخْدُعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»، فال فعل «يخدعون» يوضح أن الخداع من جانب المنافقين فقط، وتوكد الآية أيضاً أنهم يخدعون أنفسهم دون أن يشعروا، لأنهم يبددون بأفعالهم هذه طاقاتهم العظيمة على طريق الإنحراف، ويحرمون أنفسهم من السعادة التي رسم الله طريقها لهم، ويعادرون الدنيا وهم صفر اليدين من كل خير، مستقلون بأنواع الذنوب والآثام.

لا يمكن لأحد أن يخدع الله طبعاً لأنه سبحانه عالم بالجهر وما يخفى، وتعبير «يُخَادِعُونَ اللَّهَ» إنما أن يكون المقصود به يخادعون الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ، لأن من يخدع الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ فكانه خدع الله (في القرآن مواضع كثيرة عظم فيها الله رسوله والمؤمنين إذ قرئ اسمهم باسمه). وإنما أن يكون نقص العقل وسوء الفهم قد بلغ بالمنافقين حداً تصوروا معه أنهم قادرون على أن يخفوا على الله شيئاً من

أعمالهم (شبيه ذلك ما ورد في آيات أخرى من كتاب الله العزيز). على أي حال، الآية المذكورة تشير بوضوح إلى حقيقة خداع الضمير والوجودان، وأن الإنسان المنحرف الملوث كثيراً ما يمده إلى خداع نفسه ووجوداته للتخلص من تأنيب الضمير، ويصبح بالتدرج مقتعمًا بأن قبائحه ليست عملاً إنحرافيًا، بل هي أعمال إصلاحية «إِنَّمَا تَعْنَى مُضْلِحُونَ»، وبذلك يخدعون أنفسهم، ويستمرون في غي THEM.

ذكر أن أحد القادة الأميركيين وجه إليه سؤال حول سبب إلقاء القنبلة الذرية على مدineti (هيروشيما وناكازاكي) اليابانيتين مما أدى إلى مقتل مائتي ألف إنسان بريء أو أصابتهم بالعاهات، فقال: نحن فعلنا ذلك من أجل السلام! ولو لم تفعل ذلك لطالت الحرب أكثر، ولذهب ضحيتها عدد أكبر من القتلى!!

المنافقون في كل عصر وفي عصرنا هذا يتسبّبون بمثل هذه الأقاويل لخداع الناس وخداع أنفسهم، فهذا الزعيم الأميركي يضع أمامه طريقين فقط هما: إستمرار الحرب أو القصف الذري للمدن الآمنة، متناسياً طريقاً ثالثاً واضحًا وهو الكف عن الإعتداء على الشعوب وترك الناس أحرازاً مع ثرواتهم! وما تقدم يتضح أن النفاق وسيلة لخداع الضمير وشنّ مفعوله، وما أخطر عملية شلّ الضمير الإنساني، الذي يعتبر الواقع الداخلي والرقيب اليقظ الأمين والمندوب الإلهي في نفس الإنسان!!

* * *

٦ - التجارة الخاسرة:

شبيه القرآن الكريم في مواضع عديدة عمل الإنسان في الحياة الدنيا بالتجارة. ونحن في الحياة الدنيا تجار نأتي إلى هذا المتجر الكبير برأس مال وهبه لنا الله سبحانه، وعنصره العقل والفطرة والعواطف والطاقات الجسمية المختلفة

ومواهب عالم الطبيعة، ثم قيادة الأنبياء، جمع يربحون ويغفرون ويسعدون، وجمع لا يجنون ربحاً، بل أكثر من ذلك يفقدون رأس ما لهم، ويفلسفون بكل ما لهذه الكلمة من معنى. المجاهدون في سبيل الله من أفراد الجمع الأول، ويقولون عنهم الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيُكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفَسِكُمْ»^١.

والمنافقون من أبرز نماذج الجمع الثاني، فبعد أن يذكر القرآن أعمالهم التخريبية المتلبسة بظاهر الإصلاح والتعقل يقول عنهم: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الصَّلَاتَةَ بِالْمُ�ْنَى فَمَا رَجَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

كان بمقدور هؤلاء أن يتخلصوا بأفضل طريق لحياتهم، لأنهم كانوا يعيشون إلى جانب ينبوع الوحي الصافي، وفي جوّ مفعم بالصدق والإخلاص والإيمان. لكنهم فوتوا على أنفسهم هذه الفرصة الفريدة العظيمة، وأضاعوا ما وهبهم الله من هداية فطرية في ذواتهم، ومن هداية تشريعية في إطار نور الوحي، واشتروا الصلاة وسلكوا طريقاً خالوا أنهم يستطيعون به أن يقضوا على الدعوة و يصلوا إلى مآربهم الخبيثة.

وكان في هذه المقاومة الخاطئة خسارتان:

الأولى: ضياع ثرواتهم المادية والمعنوية. والثانية: فشلهم في تحقيق أهدافهم المشروّمة. فالإسلام سرعان ما ضرب بجرانه في أرجاء الأرض فاضحاً خطط المنافقين.



الآيات

مَثُلُّهُمْ كَمَثْلِ الَّذِي أَشْتَوَقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَتِ لَا يُبَصِّرُونَ ⑤ صُمُّ
بُكْمُ عُمُّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ⑥ أَوْ كَصَيْبٌ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلْمَتُ وَرَغْدٌ وَبَرْزُقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي إِذَا نَهَمُ مِنَ
الصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكُفَّارِينَ ⑦ يَكَادُ الْبَرْقُ
يَخْطُفُ أَبْصَرَهُمْ كُلُّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوًأً فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑧

التفسير

مثالان رائعان لوصف حالة المنافقين:

بعد أن بين القرآن صفات المنافقين وخصائصهم، يقدم مثالين متحركين

لتجسيم وضعهم:

١ - «مَثُلُّهُمْ» المنافقين «كَمَثْلِ الَّذِي أَشْتَوَقَدَ نَارًا» في ليلة مظلمة، كي
يهدى بها إلى طريق وبلغ مقصدته. «فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُنْصَرُونَ». لقد ظن هؤلاء أنهم قادرون على أن يحققوا أهدافهم بما لديهم من إمكانات إنارة محدودة.

ولكن نارهم سرعان ما انطفأ because بسبب عوامل جوية، أو بسبب نفاد الوقود، وظلوا حائرين لا يهتدون سبيلاً. ثم تضييف الآية الكريمة أن هؤلاء فقدوا كل وسيلة لدرك الحقائق: «ثُمَّ بَعْدُ كُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يُرِجَّحُونَ».

والمثال المذكور يصور بدقة عمل المنافقين على ساحة الحياة الإنسانية. بهذه الحياة مملوءة بطرق الإنحراف والضلالة، وليس فيها سوى طريق مستقيم واحد للهداية، وهذا الطريق مليء بالمزالق والأعاصير. ولا يستطيع الفرد أن يهتدى من بين الطرق المتلوية إلى الصراط المستقيم، كما لا يستطيع أن يتتجنب المزالق ويقاوم أمام الأعاصير، إلا بنور العقل والإيمان، وبمصابح الوحي الوهاج. وهل تستطيع الشعلة المحدودة المؤقتة التي يضيئها الإنسان، أن تهدي الكائن البشري في هذا الطريق الشائك الطويل؟!

هؤلاء الذين سلكوا طريق النفاق، ظنوا أنهم قادرون بذلك أن يحافظوا على مكانتهم ومصالحهم لدى المؤمنين والكافرين. وأن ينضموا إلى الفتنة الغالبة بعد نهاية المعركة. كانوا يخالون أن عملهم هذا ذكاء وحنكة. وأرادوا أن يستفيدوا من هذا الذكاء وهذه الحنكة، كضوء يشق لهم طريق الحياة ويوصلهم إلى مآربهم. لكن الله سبحانه ذهب بنورهم وفضحهم، إذ قال لرسوله: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ».^١

والقرآن الكريم يفضح المنافقين لدى الكافرين أيضاً، وبينن كذبهم ونكر لهم إذ يقول: «إِنَّمَا يَرَى إِلَيَّ الَّذِينَ نَاقَفُوا يَقُولُونَ لِإِخْرَاجِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْنَاهُنَّ مَعَكُمْ وَلَا تُطِيعُ فِيهِمْ أَحَدًا أَهْدَأَهُمْ وَإِنْ قُوْتُلُوكُمْ لَتَنْصُرَنُكُمْ وَاللَّهُ يَشَهِّدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوهُنَّ لَا يَغْرِبُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوْتُلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصْرُوهُمْ لَيُؤْلَئِكُمْ أَذْبَارٌ مُّمَّا لَا يَنْصُرُونَ».

جدير بالذكر أن القرآن استعمل عبارة «إِشْتَوَقَدَ نَارًا» أي إنهم استفادوا للإنارة من «النار» ذات الدخان والزمام والحرق، بينما يستثير المؤمنون بنور الإيمان الخالص وبضوئه الساطع.

باطن المنافقين ينطوي على النار، وإن ظاهروا بناور الإيمان، وإذا كان ثمة نور فهو ضعيف في قوته وقصير في مدته.

هذا النور الضعيف المؤقت، إنما أن يكون إشارة إلى الضمير والقطرة التوحيدية، أو إشارة إلى الإيمان الأولى لهؤلاء المنافقين حيث أُسْدِلَتْ عليه ستائر مظلمة على أثر التقليد الأعمى والتّุصُّب المقيت واللجاج والمداء، فتحولت ساحة حياتهم لا إلى ظلمة، بل إلى «ظُلُمات» في التعبير القرآني.

وهؤلاء سيفقدون في النهاية قدرة الرؤية الصحيحة، والإستماع الصحيح، والنطق الصحيح، وهذه نتيجة طبيعية - كما ذكرنا سابقاً - للإستمرار على الإنحراف والإصرار على الغي، حيث يؤدي إلى إضعاف آليات الادراك لدى الإنسان فيرى الحقائق مقلوبة، فالخير في نظره شر، والملك شيطان، وهكذا.

على أي حال هذا التشبيه يوضح واحدة من حقائق النفاق، وهي إن عمر النفاق والتذبذب لا يدوم طويلاً، قد يستطيع المنافقون لمدة قصيرة أن يتمتعوا بمصنونية الإسلام والإيمان، وبصداقه الكفار سراً. لكن هذه الحالة مثل شعلة

ضعيفة معرضة لأنواع العواصف، سرعان ما تنطفئ، ويظهر الوجه الحقيقي للمنافقين، ويظلون منفوريين مطرودين حائزين، مثل إنسان يتختبط في ظلام دامس.

لابد من الإشارة إلى ما ورد في تفسير الآية الكريمة: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُورًا»^٢.

عن الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام قال: «أضاءت الأرض بنور محمد عليهما السلام كما أضيئت الشمس، فضررت الله مثل محمد عليهما السلام الشمس ومثل الوصي القمر»^٣.

وهذا يعني أن نور الإيمان والوحى يغمر العالم كله. ولا يمتلك منه المنافقون شيئاً، حتى لو كان في النفاق نور، فإن مداراته قصيرة ودائرته صغيرة لا يضيئ إلا (ما حوله).

في المثال الثاني صور القرآن حياة المنافقين بشكل ليلاً ظلماً مخوفة خطرة، يهطل فيها مطر غزير، وينطلق من كل ناحية منها نور يكاد يخطف الأبصار، ويملا الجو صوت مهيب مرعب يكاد يمزق الآذان. وفي هذا المناخ القلق ضلّ مسافر طريقه، وبقي في بلقع فسيح لا ملجاً فيه ولا ملاذاً لا يستطيع أن يختفي من المطر الغزير، ولا من الرعد والبرق، ولا يهتدى إلى طريق لشدة الظلم. هذه الصورة يرسمها القرآن على النحو التالي: «أَوْ كَصَبَّ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَغْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتَ، وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَارَهُمْ كُلُّهَا أَضَاءَهُمْ مَشَوا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا».

هؤلاء يحسون كل لحظة بخطر، لأنهم يطعون صحراء لا جبال فيها ولا أشجار تحميهم من خطر الرعد والبرق والصواعق، ونحن نعلم أن خطر الصاعقة

يتجه إلى كل ارتفاع على الأرض. لكن الأرض التي يسير عليها هؤلاء حالياً من أي ارتفاع سوى مرتفع أجسامهم، ومن هنا فخطر الصاعقة يهددهم كل آن بتحويلهم إلى رماد!

(أهمية هذا المثال تضح لدى أهل الحجاز - حيث الصحاري المنبسطة - أكثر من وضوحاً لدى أهالي المناطق الجبلية).

نعم، هؤلاء حيارى مضطربون، لا يجدون طريقاً يسلكونه، ولا دليلاً يهتدون به، خطر صوت الرعد يهدد أسماعهم، ونور البرق يكاد يذهب بأبصارهم **«وَلَوْشَاءُ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»**.

المنافقون مثل هؤلاء المسافرين، يعيشون بين المؤمنين المتزايدين المتدافعين كالسيل الهادر وكالمطر الغزير، لكنهم لم يتذدوا لهم ملجاً آمناً يقيهم من شر صاعقة العقاب الإلهي.

نهوض المسلمين بواجبهم الجهادي المسلح بوجه أعداء الإسلام، يشكل صواعق وحمةً تنزل على رؤوس المنافقين. وتسخن أحياناً لهؤلاء المنافقين فرصة للهداية واليقظة، لكن هذه الفرصة لا تثبت طويلاً، إذ تمرّ كما يمرّ نور البرق، ويعود الظلم يطبق عليهم، ويعودون إلى ضلالهم وحريرتهم.

إنشار الإسلام بسرعة كالبرق الخاطف قد أذهلهم، وأيات القرآن التي تفضح أسرارهم صعقتهم، وفي كل لحظة يحتملون أن تنزل آية تكشف عن مكاندهم ونواياهم. وهذا ما تعبّر عنه الآية الكريمة: **«يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ شَرَّ عَلَيْهِمْ سُورَةً تُتَبَّعُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، قُلْ اسْتَهِزُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ»** ١.

والمنافقون خائفون أيضاً أن يأذن الله بمحاربتهم، وأن يبحث القوة الإسلامية المتصاعدة على مواجهتهم، لأنهم كانوا يواجهون مثل هذه التهديدات القرآنية،

كتوله تعالى: «لَئِنْ لَمْ يَتَّسِعُ الْمَنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُزِجُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَتَغْرِيَنَّكُمْ هُمْ لَا يُجَاوِرُونَكُمْ إِلَّا قَلِيلًاً. مُلْعُونِينَ أَيْنَا تَفْعَلُوا أَخْذُوا وَقْتُلُوا تَقْتِلَاهُمْ»^١. مثل هذه الآيات كانت تنزل كالرعد والبرق على المنافقين، وترتكبهم في خوف وذعر وحيرة في المدينة، وتضعهم أمام خطر الإبادة أو الإخراج من المدينة كلّ حين.

هذه الآيات - وإن كانت تتحدث عن المنافقين في عصر نزول الوحي - تمتدد لتشمل كلّ المنافقين في التاريخ، لأنّ خطّ النفاق يقف دوماً بوجه الخط الثوري الصادق الصحيح. ونحن نرى بأعيننااليوم مدى انتباط ما يقوله القرآن على منافق عصرنا بدقة. نرى حيرتهم وخوفه واضطرايهم، ونرى تعاستهم وبؤسهم وانقضائهم تماماً مثل تلك المجموعة المسافرة الهائمة في صحراء مقرفة وفي ليلة ظلماء موحشة.

أما بشأن الفرق بين المثالين فنمة تفسيران:

الأول: إنّ قوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْذِي ...» يصور حالة المنافقين الذين انخرطوا في صفوف المؤمنين عن اعتقاد حقيقي، ثم تزعزعوا وأتجهوا نحو النفاق. أما قوله: «كَصَّابَيْ مِنَ السَّمَاءِ ...» فيمثل حالة المنافقين الذين كانوا منذ البداية في صف النفاق، ولم يؤمّنوا باشّه قط.

الثاني: أن المثال الأول يتحدث عن حالة الأفراد، ولذلك يقول: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِي» والثاني يجسد وضع الأجواء المخيفة المرعبة الخطرة التي تحدق بهؤلاء المنافقين، ومن هنا جاء التشبيه بالجحظظلم المطر العليء بالخوف والذعر والإضطراب.

* * *

الآيات

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ⑤ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرِشَّاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَغْلَبُونَ ⑥

التفسير

فيما سبق من آيات كتاب الله سبحانه تبيّن ثلات مجموعات هي: مجموعة المتقين، ومجموعة الكافرين، ومجموعة المنافقين، فالمتقون هم المشمولون بالهدایة الإلهیة، والمنافقون هم الذين طبع الله على قلوبهم، والمنافقون هم المرضى الذين زادهم الله مرضًا، وقدوا قدرة التشخيص نتيجة أعمالهم.

أما الآيات المذكورة فدعت الناس إلى انتخاب طريق المجموعة الأولى، وإلى عبادة الله الواحد الأحد.

وفي الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» عدة ملاحظات نشير إليها فيما يلي:

١ - قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» تكرر في القرآن عشرين مرّة تقريبًا، وهو نداء عام شامل يشير إلى أن القرآن لا يختص بعنصر أو قبيلة أو طائفة أو فئة

خاصة، بل يوجه دعوته إلى البشرية عامة لعبادة الله، وللثورة على كل ألوان الشرك والإنحراف عن طريق التوحيد.

٢ - يركّز القرآن، في دعوته إلى عبادة الله وإلى شكر الله، على نعمة خلق البشر. وهي نعمة تجلّى فيها قدرة الله كما يتجلّى فيها علم الله وحكمته وكذلك رحمته العامة والخاصة. لأنَّ الْمُوْجُودَ الْبَشَرِيَّ سَيِّدُ الْمُوْجُودَاتِ، وَمَظَهُرُ عِلْمِ الله وَقُدْرَتِهِ الْلَّامِتَاهِيَّةِ وَنِعْمَةِ الْكَثِيرَةِ الْوَاسِعَةِ.

أولئك الذين يستنكفون عن عبادة الله والخضوع له، غافلون غالباً عن العظمة المنطوية في خلقهم وخلق الذين من قبلهم، وعن اليد المبديرة المسقدرة التي أوجدت هذا الخلق، وأودعت فيه النعم الدقيقة المدروسة المتجلية في جسم الإنسان وروحه.

فالذكير بهذه النعم دليل لمعرفة الله، ومحرك للشكر على هذه النعم.

٣ - نتيجة هذه العبادة هي التقوى: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ» فعبادتنا لا تزيد الله عظمة وجلاله، كما أن إعراضنا عن العبادة لا ينقص من عظمة الله شيئاً. هذه العبادات مدرسة لتعليم التقوى، والتقوى هي الإحساس بالمسؤولية والمحرك الذاتي للفرد، وهي معيار قيمة الإنسان وميزان تقييم شخصيته.

٤ - عبارة: «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» لعلها رد على استدلال المشركين الذين برووا عبادتهم للأصنام بتمسكهم بسنة آبائهم. والأية الكريمة تشير بهذه العبارة إلى أنَّ الله الواحد الأحد، خالق البشر وخالق آبائهم، وكل شرك يعترى المسيرة البشرية في حاضرها وسالفها هو إنحراف عن الخط الصحيح.

* * *

نعم الأرض والسماء:

الآية التالية استعرضت قسماً آخر من النعم الإلهية التي تستحق الشكر،

ذُكِرَتْ أَوْلَى خُلُقِ الْأَرْضِ: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا». فَهَذِهِ الْكُرْبَةُ السَّائِرَةُ بِسُرْعَةِ مَذْهَلَةٍ فِي الْفَضَاءِ، قَدْ سُخِرَتْ لِلإِنْسَانِ كَمَا يُمْتَطِّبُهَا وَيُسْتَقِرُّ عَلَيْهَا دُونَ أَنْ تَؤْثِرَ عَلَيْهِ حَرْكَتَهَا.

وَتَتَجَلِّي عَظَمَةُ نَعْمَةِ الْأَرْضِ أَكْثَرَ حِينَ نَلَاحِظُ خَاصِيَّةَ الْجَاذِبَيَّةِ الَّتِي تَؤْمِنُ لَنَا إِمْكَانِيَّةُ الْإِسْتِقْرَارِ وَإِنْشَاءِ الْأَبْنَيَّةِ وَالْمَزَارِعِ، وَسَائِرَ مُسْتَلِزَمَاتِ الْحَيَاةِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ. فَلَوْ انْعَدِمَتْ هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ لِحُكْمِهِ وَاحِدَةٍ لَتَنَاثَرَ كُلُّ مَا عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيْوانٍ وَنَبَاتٍ فِي الْفَضَاءِ!

تَعْبِيرُ «فِرَاش» يَصُورُ بِشَكْلِ رَاعِي مَفْهُومِ الْإِسْتِقْرَارِ وَالْإِسْتِرَاحَةِ، كَمَا يَصُورُ إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ مَفْهُومَ الْإِعْتِدَالِ وَالْمُنْسَابِ فِي الْحَرَارَةِ. هَذِهِ الْحَقِيقَةُ يَعْتَبِرُ عَنْهَا الْإِمَامُ عَلَيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ طَهَّرَ مُفَسِّرًا هَذِهِ الْآيَةِ إِذْ يَقُولُ:

«جَعَلَهَا مُلَائِكَةً لِيُطَاعِكُمْ، مُوَافِقَةً لِأَجْسَادِكُمْ وَلَمْ يُجْعَلْهَا شَدِيدَةَ الْحَمَاءِ وَالْمُحَرَّازَةِ فَتُشْعِرُ فِيمُكُمْ، وَلَا شَدِيدَةَ الْبُرُودَةِ فَتُجْبِدُكُمْ؛ وَلَا شَدِيدَةَ طَبِيبِ الرَّبْعِ فَتَصْدَعُ حَامِاتِكُمْ، وَلَا شَدِيدَةَ النَّفَنِ فَتُغْطِبُكُمْ، وَلَا شَدِيدَةَ الْلِّينِ كَالْمَاءِ فَتُشْرِقُكُمْ، وَلَا شَدِيدَةَ الصَّلَابَةِ فَتُنَتَّعِنَعُ عَيْنَيْكُمْ فِي نُورِكُمْ وَأَبْنِيَتِكُمْ وَقَبُورِ مَوْتَاهُمْ ... فَلِذَلِكَ جَعَلَ الْأَرْضَ فِرَاشًا لَكُمْ!»^١.

ثُمَّ تَتَعَرَّضُ الْآيَةُ إِلَى نَعْمَةِ السَّمَاءِ فَتَقُولُ: «وَالسَّمَاءُ بِنَاءٌ».

كَلْمَةُ «سَمَاءٌ» وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ بِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَكُلُّهَا تُشِيرُ إِلَى الْعُلُوِّ، وَاقْتَرَانِ كَلْمَةِ «سَمَاءٌ» مَعَ «بَنَاءً» يُوَحِّي بِوُجُودِ سَقْفٍ يَعْلُو الْبَشَرَ عَلَى ظَهَرِ هَذِهِ الْأَرْضِ. بَلْ إِنَّ الْقُرْآنَ صَرَّحَ بِكَلْمَةِ «سَقْفٍ» فِي بِيَانِ حَالِ السَّمَاءِ إِذْ قَالَ: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مُخْتَوِظًا»^٢.

لَعِلَّ هَذِهِ التَّعْبِيرَ الْقُرْآنِيَّ يُشِيرُ إِسْتِغْرَابًا أَوْ لِئَلَئِكَ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ مَوْقِعَ الْأَرْضِ فِي الْفَضَاءِ، فَيَسْأَلُونَ عَنْ هَذِهِ السَّقْفِ ... عَنْ مَكَانِهِ وَكِيفِيَّتِهِ. وَلَعِلَّ هَذِهِ التَّعْبِيرَ يَعِيدُ -

بادئ الرأي - إلى الأذهان فرضية بطليموس التي تصور الكون على أنه طبقات من الأفلاك متراكمة بعضها فوق بعض مثل طبقات قشور البصل !! من هنا لا بد من توسيع لمفهوم السماء والبناء والسفف في التعبيرات القرآنية.

ذكرنا أن سماء كل شيء أعلاه، وأحد معاني السماء «جَوَّ الأرض»، وهو المقصود في الآية الكريمة. وجَوَّ الأرض هو الطبقة الهوائية الكثيفة المسحيطة بالكرة الأرضية، ويبلغ سمكها عدة مئات من الكيلومترات. لو أمعنا النظر في الدور الحيادي الأساس الذي تؤديه هذه الطبقة الهوائية لفهمنا مدى استحكام هذا السقف وأهميته لصيانة البشر.

هذه الطبقة الهوائية مثل سقف شفاف يحيط بكرتنا الأرضية من كل جانب، وقدرة استحكامه تفوق قدرة أضخم السدود الفولاذية، على الرغم من أنه لا يمنع وصول أشعة الشمس الحيوية الحياتية إلى الأرض.

لو لم يكن هذا السقف لتعرضت الأرض دوماً إلى رشق الشهب والنيازك السماوية المتاثرة، ولما كان للبشر أمان ولا استقرار على ظهر هذا الكوكب، وهذه الطبقة الهوائية التي يبلغ سمكها عدة مئات من الكيلومترات^١ تعمل على إيادة كل الصخور المتجهة إلى الكرة الأرضية، وقليل جداً من هذه الصخور تستطيع أن تخترق هذا الحاجز وتصل الأرض لتتذر أهل الأرض دون أن تعمّر صفو حياتهم. من الشواهد الدالة على أن أحد معاني السماء هو «جو الأرض» حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يتحدث فيه إلى «المفضل» عن السماء فيقول: «نَكَزُ فِي لَوْنِ السَّمَاءِ وَمَا يُبَلِّغُ مِنْ صَوَابِ الثَّدَبِيِّ، فَإِنَّ هَذَا اللَّوْنَ أَنْدُ الْأَلْوَانِ مُوَافِقَةً لِلْبَصَرِ»

١- تذكر كثيرون من الكتب أن سلك الجو المسحيط بالأرض يبلغ مائة كيلومتر، ويبدو أن المقصود بهذا السلك هو الطبقة الجوية الكثيفة، لأن العلم الحديث أثبت أن الهواء موجود بشكل رقيق متعددالجزئيات على بعد مئات الكيلومترات.

وَتَقْوِيَّةً ...^١.

ومن الواضح أن زرقة السماء ليست إلا لون الهواء الكثيف المحيط بالأرض.
ولهذا فإن المقصود بالسماء في هذا الحديث هو جو الأرض نفسه.
وأضيفت كلمة الجو إلى السماء في قوله تعالى: «أَلَمْ يَرُوا إِلَى الطَّيْرِ
مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوَّ السَّمَاءِ»^٢.

وحول معاني السماء الأخرى ستحدث بشكل أوفى في ذيل الآية ٢٩ من
هذه السورة.

بعد ذلك تطرقت الآية إلى نعمة المطر: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» ... ماء يحيي
الأرض ويخرج منها الشeras.

عبارة «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» تؤكد مرة أخرى أن المقصود من «السماء»
هنا هو جو الأرض، لأننا نعلم أن المطر ينزل من الغيوم، والغيوم بخار منتاثر في
جو الأرض.

الإمام علي بن الحسين^{عليه السلام} يتحدث عن نزول العطر في تفسير هذه الآية
فيقول: «يَنْزَلُهُ مِنْ أَعْلَى لِيَسْلُغْ ثُلَّ جِبَالِكُمْ وَتِلَالِكُمْ وَهَضَابِكُمْ وَأَوْهَادِكُمْ، ثُمَّ فَرَقَهُ رِذَادًا
وَوَلَيًا وَهَطْلًا لِتَشْفِهَ أَرْضَكُمْ، وَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ الظَّرَرَ نَازِلًا عَلَيْكُمْ قَطْعَةً وَاحِدَةً فَيُقْسِدَ
أَرْضِكُمْ وَأشْجَارَكُمْ وَرُزْعَكُمْ وَغَارَكُمْ»^٣.

ثم تشير الآية إلى نعمة الشeras التي تخرج من بركة الأمطار لتكون رزقاً
لبني البشر «فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْقَرَارَاتِ رِزْقًا لَكُمْ».

وإخراج الشeras مدعاة للشكر على رحمة رب العالمين لعباده، ومدعاة
للإذعان بقدرة رب العالمين في إخراج ثمر مختلف ألوانه، من ماء عديم اللون،
ليكون قوتاً للإنسان والحيوان، لذلك عطف عليها قوله تعالى: «فَلَا تَجْنَبُوا هُنَّ

١- بحار الأنوار، ط. الجديد، ج. ٢، ص. ١١١.

٢- النحل، ٧٩.

٣- تفسير نور التلقين، ج. ١، ص. ٤١.

أَنْذَادًا وَأَنْتُمْ تَقْلِمُونَ». ^١

فهذه الأنداد المفترضة وما تعبدون من دون الله، لم يخلقوكم ولا خلقوا آباءكم، ولا خلقوا ما ترونـه حولكم من مظاهر كونية ونعم موفورة. و«الأنداد» جمع «نِد» على وزن ضـدة، وهو الشبيه والشريك، وواضح أن هذا الشـبيـه قائم في أذهان المشركـين وليس أمـراً واقـيـاً.

وبعبارة أدق: نـدـ الشـيءـ ونـدـ يـدـهـ - كما يقول الراغب في المفردات - مشاركة في جوهرـهـ، وذلك ضـربـ من المـماـثـلةـ، أيـ المـماـثـلةـ فيـ جـوـهـرـ الـذـاتـ.

* * *

بحث

الشرك في أشكال مختلفة:

لابد من التأكيد على أن الشرك باـشـ لا يـنـحـصـرـ بـاتـخـاذـ الأـوتـانـ الحـجـرـيةـ والـخـشـبـيـةـ آـلـهـةـ منـ دونـ اللهـ كـماـ يـفـعـلـ الـوـتـنـيـوـنـ، أوـ القـوـلـ بـأـنـ اللهـ ثـالـثـ تـلـاثـةـ كـماـ تـقـولـ النـصـارـىـ. بلـ إـنـ لـلـشـرـكـ معـنـىـ أـوـسـعـ وـصـورـاـ مـتـنـوـعـةـ أـكـثـرـ ضـمـرـوـاـ وـخـفـاءـ. وبـشـكـلـ عـامـ كـلـ اـعـتـقـادـ بـوـجـودـ أـشـيـاءـ لـهـ نـفـسـ تـأـثـيرـ اللهـ فـيـ الـحـيـاـةـ هـوـ نـوعـ منـ الشـرـكـ. وهذاـ ماـ يـعـبـرـ عـنـهـ اـبـنـ عـبـاسـ إـذـ يـقـولـ:

(الأنداد) هوـ الشـرـكـ أـخـفـيـ منـ دـيـبـ النـملـ عـلـىـ صـفـاةـ سـوـدـاءـ فـيـ لـيـلـةـ ظـلـماءـ، وـهـوـ أـنـ يـقـولـ: وـالـهـ، وـحـيـاتـكـ يـاـ فـلـانـ، وـحـيـاتـيـ! ... وـيـقـولـ: لـوـ لـاـ كـلـيـهـ هـذـاـ لـأـسـاناـ اللـصـوصـ الـبـارـحةـ! ... وـقـولـ الرـجـلـ لـهـ صـاحـبـهـ: مـاـ شـاءـ اللهـ وـشـتـ ... هـذـاـ كـلـهـ بـهـ شـرـكـ!.

ونـقـرـأـ فـيـ حـدـيـثـ شـرـيفـ أـنـ رـجـلـاـ قـالـ لـرـسـوـلـ اللهـ ﷺـ: مـاـ شـاءـ اللهـ وـشـتـ.

فقال النبي ﷺ: «أجعلتني الله نذًا؟!»

مثـل هذه التـعـابـير التي يـشـمـ منها رائحة الشـرـكـ رائحةـ معـ الأـسـفـ بـيـنـ سـوـادـ الـمـسـلـمـينـ وـغـيـرـ لـاتـقـةـ بـالـشـخـصـ الـمـوـحـدـ، كـقـوـلـهـمـ: اـعـتـمـادـيـ عـلـىـ اللهـ وـعـلـيـكـ!!ـ فـيـ الـرـوـاـيـةـ عـنـ الـإـمـامـ جـعـفـرـ بـنـ مـحـمـدـ الصـادـقـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـيـ تـفـسـيرـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: «وـمـاـيـؤـمـنـ أـكـثـرـهـمـ بـالـهـ إـلـاـ وـهـمـ مـشـرـكـوـنـ»^١ـ قـالـ: «قـوـلـ الرـجـلـ لـوـلـأـ فـلـانـ مـلـكـتـ، وـلـوـلـأـ فـلـانـ لـأـصـبـتـ كـذـاـ وـكـذـاـ، وـلـوـلـأـ فـلـانـ لـضـاعـ عـيـنـيـ»^٢ـ.

وـسـيـأـتـيـ توـضـيـعـ أـكـثـرـ فـيـ هـذـاـ الـمـجـالـ فـيـ ذـيـلـ الـآـيـةـ ١٠٦ـ مـنـ سـوـرةـ يـوـسفـ.

* * *

الآياتان

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأُتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ
مِّثْلِهِ وَأَذْعُوا شُهَدَاءَ كُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑤
فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا أَنَّاسٌ
وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ⑥

التفسير

القرآن معجزة خالدة:

ظاهرة الكفر والنفاق، التي دارت حولها موضوعات الآيات السابقة، تنشأ أحياناً عن عدم فهم محتوى التوبة ومعجزة الرسول ﷺ. والآيات التي نحن بصددها تعالج هذه المسألة، وتركز على المعجزة القرآنية الخالدة كي تزيل كل شك وتردد في رسالة نبي الإسلام ﷺ. تقول الآية:

«وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأُتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ».^۱

۱- ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير في (مثله) يعود على النبي كما يعود الضمير في (عبدنا) عليه أيضاً. ويعني المعنى حينئذ: لو كنتم في شك من الروحي فأتوا بشخص أتي مثل سعيد يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن، لكن هذا الاحتمال بعيد، إذ ورد في موضوع آخر: «فَلَيأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ» الطور، ۳۴. وفي سوضع آخر أيها «فَأُتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ» يومن، ۲۸، وهذه دلالة على أن الضمير في (مثله) يعود على القرآن.

وبهذا الشكل تعدد القرآن كل المنكرين أن يأتوا بسورة من مثله، كي يكون عجزهم دليلاً واضحاً على أصالة هذا الوحي السماوي وعلى الجانب الإلهي للرسالة والدعوة.

ولأجل أن يؤكّد هذا التحدّي دعاهم أن لا يقوموا بهذا العمل منفردين، بل «وَادْعُوا شَهِداً مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

كلمة «شهداء» تشير إلى الفتنة التي كانت تساعدهم في رفض رسالة النبي ﷺ، وعبارة «مِنْ دُونِ اللَّهِ» إشارة إلى عجز جميع البشر عن الإتيان بسورة قرآنية ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وإلى قدرة الله وحده على ذلك. وعبارة «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» تستهدف حثّهم على قبول هذا التحدّي، ومفهومها: لو عجزتم عن هذا العمل فذلك دليل كذبكم، فانهضوا إذن لإثبات ادعائكم.

طبيعة التحدّي تقتضي أن يكون صارخاً إلى أبعد حدّ ممكن، وأن يكون محققاً للمددوّ مهما أمكن، وعبارة أخرى أن يثير العمّية فيه، كي يجتنّد كل طاقاته لعملية المجايبة، حتى إذا فشل وأيقن بعجزه علم أنه أمام ظاهرة إلهية لا بشرية. من هنا فسياق الآيات التالية، يركز على عنصر الإثارة ويقول: «فَإِنْ لَمْ تَفْعِلُوا وَلَنْ تَفْعِلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ هُنَّ هُنَّ النَّارُ لِيُسْتَحْكَمَ حَدِيثُ مُسْتَقْبَلٍ، بَلْ هِيَ واقعٌ قائمٌ: «أَعِدْتُ لِلْكَافِرِينَ».

جمع من المفسّرين قالوا: إن المقصود بالحجارة: الأصنام الحجرية، واستشهدوا بذلك بالأية الكريمة: «إِنْ كُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ خَصَبْ جَهَنَّمَ» !.

جمع آخر قالوا: (الحجارة) إشارة إلى صخور معدنية كبريتية تفوق حرارتها

حرارة الصخور الأخرى.

وهناك من المفسرين من يعتقد أن المقصود من هذا التعبير، إلقاء النظر إلى شدة حرارة جهنم، أي إن حرارة جهنم وحريقها يبلغ درجة تشتعل فيها الصخور والأجساد كما يشتعل الوقود.

ويبدو من ظاهر الآيات المذكورة، أن نار جهنم تستعر من داخل الناس والحجارة. ولا يصعب فهم هذه المسألة لو علمنا أن العلم الحديث أثبت أن كل أجسام العالم تنطوي في أعماقها على نار عظيمة (أو بعبارة أخرى على طاقة قابلة للتبديل إلى نار)، ولا يلزم أن تتصور نار جهنم شبيهة بالنار المشهودة في هذا العالم.

في موضع آخر يقول تعالى: «نَارُ اللَّهِ الْمُوْقَدَةُ الَّتِي تَسْعَى عَلَى الْأَفْسِدِ»^١. خلافاً لنيران هذا العالم التي تنفذ من الخارج إلى الداخل.

* * *

بحوث

١- لماذا يحتاج الأنبياء إلى المعجزة؟

نعلم أن منصب النبوة أعظم منصب منحه الله لخاصة أوليائه. فكل المناصب عادة تمنع صاحبها القدرة للحكم على أبدان الأفراد، إلا منصب النبوة، فالنبي يحكم على الأجسام والقلوب في مجتمعه. من هنا كان مقام النبوة لا يبلغه مقام في سموه، ومن هنا أيضاً كان أدعياء النبوات الكاذبة أحبط الناس وأشدّهم إنحرافاً.

والناس هنا أمام أمرين: إما أن يؤمّنوا بدعوات النبوة جميعاً، أو يرفضوها

جميعاً، لو قبلوها جملة لتحولت ساحة الأديان إلى فوضى وهرج ومرج. ولو رفضوها جملة لكان عاقبة ذلك الضلال والضياع.

فالدليل على مبدأ البعثة ذاته يفترض إذن أن يكون الأنبياء الصادقين مجهزين بالدليل على نبوتهم كي يتميز الصادقون من الكاذبين. أي أن يكونوا مجهزين بالمعجزة الدالة على صدق ادعائهم.

و«المعجزة» - كما هو واضح من لفظها - عمل خارق يأتي به النبي ويعجز عن الإتيان به الآخرون.

على النبي صاحب المعجزة أن يتحدى الناس بمعجزته، وأن يعلن لهم أن معجزته دليل على صدق دعواه.

* *

٢- القرآن معجزةنبي الإسلام الخالدة:

القرآن كتاب يسمى على أفكار البشر، ولم يستطع أحد حتى اليوم أن يأتي بمثله، وهو معجزة سماوية كبيرة.

هذا الكتاب الكريم يعتبر - بين معاجز النبي ﷺ - أقوى سند حي على نبوة الرسول الخاتم، لأنّه معجزة «ناطقة» و«خالدة» و«عالمية» و«معنوية».

أما أنه معجزة «ناطة» فإنَّ معاجز الأنبياء السابقين لم تكن كذلك، أي أنها كانت بحاجة إلى وجود النبي لكي يتحدث للناس عن معجزته ويتحداهم بها، ومعاجز النبي الخاتم - عدا القرآن - هي من هذا اللون. أما القرآن فمعجزة ناطقة لا يحتاج إلى تعريف، يدعو لنفسه بنفسه، يتحدى بنفسه المعارضين ويدينهم ويخرج متتصراً من ساحة التحدي. وهو يتحدى اليوم جميع البشر كما كان يتحداهم في عصر الرسالة. إنه دين ومعجزة، إنه قانون، ووثيقة تثبت الهيبة القانون.

أما الخلود والعالمية: فإنَّ القرآن حطم سدود «الزمان والمكان» وتعالى عليهما، لأنَّ معاجز الأنبياء السابقين - وحتى معاجز النبي الخاتم غير القرآن -

مسجلة على شرط معين من الزمان، وواقعة في مساحة معينة من المكان، وأمام جمع محدود من الناس، مثل معاجز عيسى عليه السلام كحديثه في المهد وإحيائه الموتى. واضح أن الأحداث المقيدة بزمان ومكان معينين تمسي صورتها باهتماماً كلما ابتعدنا عن ظروفها الزمنية والمكانية. وهذا من خصائص الأمور الزمنية.

لكن القرآن لا يرتبط بالزمان والمكان، فهو يطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهلية قبل قرون، بل إن مرور الزمن زاد البشرية قدرة في العلم والإمكانات لاستفادة منه أكثر من ذي قبل، وما لا يرتبط بزمان أو مكان فإنه يحوي عناصر الدوام والخلود وسعة دائرة العالمية، وبديهي أن الدين العالمي الخالد بحاجة إلى مثل هذه الوثيقة العالمية الخالدة.

أما الصفة «العنوية» للقرآن ففهمها حين ننظر إلى معاجز الأنبياء السابقين، ونرى أنها كانت غالباً «جسمية» مثل: شفاء الأمراض الجسمية المستعصية، وتحدى الطفل في المهد ... وكانت تتجه نحو تسخير الأعضاء البدنية. أما القرآن، فيسخر القلوب والنفوس، ويبعث فيها الإعجاب والإكبار. إنه يتعامل مع الأرواح والأفكار والعقول البشرية، واضح امتياز مثل هذه المعجزة على المعاجز الجسمية.

* * *

٣- هل تحدى القرآن؟

القرآن تحدى البشرية في مواضع عديدة من سورة، منها:

- ١- «قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونَ وَالْجِنُّونَ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيغْضِبُ ظَهِيرَأً».
- ٢- «أَمْ يَعُولُونَ أَفْتَرَاهُ، قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَّيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ

اشتَطَفْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِلَمْ يَشْتَجِبُوا لِكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّا أَنْزَلَنَا
يَعْلَمُ اللَّهُمَّ !

٣ - «أَمْ يَشُولُونَ افْتَرَاهُ فَأَثْوَرُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ اشْتَطَفْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» .

٤ - الآية الثالثة والعشرون من سورة البقرة التي يدور حولها بحثنا.
القرآن تحدى بصرامة وقوه في هذه الآيات جميع البشرية، وفي هذه
الصراحة والقوة دلالة حية على حقائقه. ولم يكتف في تحديه بدعاوة الناس إلى
أن يأتوا بمثله، بل حفظهم وشجعهم على ذلك، وعبارات التحفيف نجدها في قوله
تعالى:

«إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... فَأَثْوَرُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَّيَاتٍ ... قُلْ فَأَثْوَرُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
... وَادْعُوا مِنْ اشْتَطَفْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسَانُ وَالْجِنُونُ ... لَا يَأْتُونَ
بِيَثْلِهِ ... فَأَتَقْوِا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ... فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَئِنْ تَفْعَلُوا ... ».
هذا التحفيف والتحت والإثارة لم يصدر ضمن إطار معركة أديبية أو عقائدية، بل
في إطار معركة «سياسية» «اقتصادية» «اجتماعية»، ضمن إطار معركة حياة أو
موت، يرتبط بمصيرها وجود هذا الكيان الجديد. وعجز المعارضين أمام هذا
التحدي الحيادي الصارخ، يبين بشكل أوضح أبعاد المعجزة القرآنية.
جدير بالذكر أن تحدي القرآن لا ينحصر بزمان أو مكان، بل إن هذا التحدي
قائم حتى يومنا هذا.



٤- هل جيء بمثله؟

الجواب على هذا السؤال يتضح لو ألقينا نظرة على الظروف والملابسات التي عاصرت نزول القرآن، وعلى تاريخ ما ذكر من محاولات لكتابة ما يشبه القرآن.

غير خفي أن الرسالة في عصر النزول وما بعده، واجهت خصوماً للآباء من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين. وهؤلاء توسلوا بكل ما لديهم من قوة وحيلة للوقوف بوجه الدعوة. (حتى إن بعض المنافقين مثل (ابو عامر) الراہب ومن واقفه من المنافقين اتصلوا بأمبراطور الروم للتأمر على الإسلام، وبلغ الأمر بهؤلاء المتآمرين أن شيدوا «مسجد ضرار» في المدينة، وحدثت على أثر ذلك وقائع عجيبة أشار إليها القرآن في سورة التوبة).

من الطبيعي أن هؤلاء الأعداء الآباء من المنافقين وغيرهم كانوا يتربصون بال المسلمين الدوائر، ويتعينون كل فرصة للإضرار بال المسلمين. ولو كان هؤلاء قد حصلوا على كتاب يجيب على تحدي القرآن، لتهافتوا عليه ونشروه وطلبوا له وزموراً، أو لسعوا في حفظه على الأقل.

ولذلك نرى أن التاريخ احتفظ بأسماء أولئك الذين يحمل احتمالاً ضعيفاً أنهم عارضوا القرآن، مثل:

«عبد الله بن المتفع»، فقد قيل أنه عارض القرآن بكتابه «الدرة اليتيمة» بينما لا نظر في هذا الكتاب الموجود بين أيدينا اليوم على إشارة إلى هذه المعارض، ولا نعرف لماذا وجهت التهمة إلى ابن المتفع بهذا الكتاب؟

والمتني، أحمد بن الحسين الكوفي الشاعر، ذكر في زمرة المعارضين وأصحاب النبوءات، بينما تؤكد دراسات حياة المتني وأدبه، أنه كان ينطلق في شعره غالباً من روح الخيبة في بلوغ المناصب الرفيعة، ومن العرمان العائلي. وأبو العلاء المعري، اتهم بهذا أيضاً، ونقلت عنه أشعار تنم عن رفضه لبعض

مسائل الدين، لكنه لم يرفع صوته يوماً بمعارضة القرآن، بل نقلت عنه عبارات في عظمة كتاب الله العزيز سنشير إليها فيما بعد.

أما مسلمة الكذاب من أهل اليمامة فقد عارض القرآن، وأتنى بآيات!! أقرب إلى الهرزل منها إلى الجد، ومن ذلك.

١ - ما قاله معارضًا سورة «الذاريات»: «والمبدرات بذرًا. والحاصلات حصدًا. والذاريات قمحاً. والطاحنات طحناً. والعاجنات عجناً. والخابزات خبزاً. والثاردات ثرداً. واللائمات لقماً. اهاله وسمناً»^١.

٢ - من النماذج الأخرى لآياته: «يا ضفدع نقّي فإنك نعم ما تنفين، لا واردًا تنفرین، ولا ماء تكدرین»^٢.

* * *

٥ - شهادات حول القرآن:

يجدر بنا أن ننقل جملًا من أقوال المشاهير بشأن القرآن بمن فيهم أولئك الذين اتهموا بمعارضة القرآن.

١ - أبو العلاء المعربي (المتهم بمعارضة القرآن) يقول:

«وأجمع ملحد ومهتد أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد كتاب بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالإرجاز، ما حذى على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ... ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة، وجاء كالشمس، لو فهمه الهضب لتصدع، وأن الآية منه أو بعض الآية لتعرض في أقصى كلام يقدر عليه المخلوقون، ف تكون فيه كالشهاب المتلائى، في جنح غسق».

١ - إعجاز القرآن، الرافي.

٢ - تقليًّا عن كتاب «إعجاز القرآن» للخطيب، ج ١، ص ٤٨٣.

والظاهرة البدائية في جدوب^١».

٢ - الوليد بن المغيرة المخزومي، وهو رجل عرف بين عرب الجاهلية بكياسته وحسن تدبيره، ولذلك سمي «ريحانة قريش»، سمع آيات من سورة «غافر» فرجع إلى قوم من بني مخزوم فقال لهم:

«والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه نطلالة، وإن أعلاه لمشر، وإن أسفله لمدقق، وإن يعلو وما يعلن عليه^٢».

٣ - العالم المؤرخ البريطاني «كارليل» يقول حول القرآن:

«لو أقينا نظرة على هذا الكتاب المقدس لرأينا العقائق الكبيرة، وخصائص أسرار الوجود، مطروحة بشكل ناضج في مضامينه، مما يبين بوضوح عظمة القرآن. وهذه الميزة الكبرى خاصة بالقرآن، ولا توجد في أي كتاب علمي وسياسي وإقتصادي آخر. نعم، قراءة بعض الكتب تترك تأثيراً عميقاً في ذهن الإنسان، ولكن هذا التأثير لا يمكن مقارنته بتأثير القرآن. من هنا ينبغي أن نقول: المزايا الأساسية للقرآن، ترتبط بما فيه من حقائق وعواطف طاهرة، ومسائل كبيرة، ومضامين هامة لا يعترفها شك وتردد. وينطوي هذا الكتاب على كل الفضائل الالزمة لتحقيق تكامل البشرية وسعادتها^٣».

٤ - جان ديفن بورت مؤلف كتاب: «الاعتذار إلى محمد والقرآن». يقول:

«القرآن بعيد للغاية عن كل نقص، بحيث لا يحتاج إلى أدنى إصلاح أو تصحيح، وقد يقرؤه شخص من أوّله إلى آخره دون أن يحس بأي ملل^٤». ويقول: «لا خلاف في أن القرآن نزل بأبلغ لسان وأفصحه، وبلهجة قريش

١ - رسالة الفران، ص ٢٦٣.

٢ - مجمع البيان، ج ١٠، سورة المدثر.

٣ - من مقدمة كتاب «التنظيمات العضارية في الإمبراطورية الإسلامية».

٤ - نفس المصدر، ص ١١١.

أكثر العرب أصالة وأدباً... و مليءاً بأبلغ التشبيهات وأروعها».^١

٥- غوره الشاعر الألماني يقول:

«قد يحس قراء القرآن للوهلة الأولى بثقل في العبارات القرآنية، لكنه ما أن يتدرج حتى يشعر بانجذاب نحو القرآن، ثم إذا توغل فيه ينجذب -دون إختيار- إلى جماله الساحر».^٢

وفي موضع آخر يقول: «لسنين طويلة، أبعدنا القساوسة عن فهم حقائق القرآن المقدس وعن عظمة النبي محمد، ولكن كلما خططنا على طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حجب الجهل والتعصب المقيت، وقريباً سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، ويصبح محور أفكار البشرية!»

ويقول كذلك: «كنا معرضين عن القرآن، ولكن هذا الكتاب أفت أنظارنا، وحيّزنا، حتى جعلنا نخضع لما قدمه من مبادىء وقوانين علمية كبرى!»^٣

٦- «ويل ديورانت» المؤرخ المعروف يقول: «القرآن أوجد في المسلمين عزة نفس وعدالة وتقوى لا نرى لها نظيراً في آية بقعة من بقاع العالم».

٧- المفكر الفرنسي «جول لا بوم» في كتاب «تفصيل الآيات» يقول: «العلم انتشر في العالم على يد المسلمين، وال المسلمين أخذوا العلوم من (القرآن) وهو بحر العلم، وفرعوا منه أنهاراً جرت مياهها في العالم...».

٨- المستشرق البريطاني دينورت يقول: «يجب أن نعرف أنَّ العلوم الطبيعية والفلكلية والفلسفة والرياضيات التي شاعت في أوروبا، هي بشكل عام من بركات التعاليم القرآنية، ونحن فيها مدينون للإسلاميين، بل إنَّ أوروبا من هذه الناحية من بلاد الإسلام».^٤

٩- الدكتورة لورا واكسيا واغليري أستاذة جامعة نابولي في كتاب «تقدم

١-عن كتاب «الاعتذار إلى محمد والقرآن».

٢- نفس المصدر، ص ٩١.

٣- المعجزة الخالدة.

الإسلام السريع» تقول:

«كتاب الإسلام السماوي نموذج الإعجاز... (القرآن) كتاب لا يمكن تقليده، وأسلوبه لا نظير له في الآداب، والتأثير الذي يتركه هذا الإسلوب في روح الإنسان ناشئ عن إمكانياته وسموّه... كيف يمكن لهذا الكتاب الإعجازي أن يكون من صنع محمد، وهو رجل أُمي؟!...».

نحن نرى في هذا الكتاب كنوزاً من العلوم تفوق كفاءة أكثر الناس ذكاءً وأكبر الفلسفه وأقوى رجال السياسة والقانون.

من هنا لا يمكن اعتبار القرآن عمل إنسان متعلم عالم».^١

* * *

١- تقدم الإسلام السريع «نقلأً عن محمد والقرآن ...».

الآية

وَيَسِّرْ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَحْبُرُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ تَمَرَّةٍ رُزْقاً قَالُوا
هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِّهِاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ
مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ

التفسير

خصائص نعم الجنة:

آخر آية في بحثنا السابق تحدثت عن مصير الكافرين، وهذه الآية تتحدث عن مصير المؤمنين، كي تتضح الحقيقة أكثر بالمقارنة بين الصورتين، على الطريقة القرآنية في التوضيح.

المقطع الأول في الآية يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

نعلم أن البساتين التي تفتقد الماء الدائم، وتتسقى بين حين وحين ليس لها حظ كبير من النظارة، فالنظارة تطبع على البساتين التي تمتلك ماء سقي دائم مستمر لا ينقطع أبداً. ومثل هذه البساتين لا يعتريها جفاف ولا تهددها شحة ماء، وهذه هي بساتين الجنة.

وبعد الإشارة إلى ثمار الجنة المتنوعة تقول الآية: «كُلُّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ فَرْغٍ / رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ».

ذكر المفسرون لهذا المقطع من الآية تفاسير متعددة:

قال بعضهم: المقصود من قولهم: «هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ» هو أن هذه النعم أخذت علينا بسبب ما أنجزناه من عمل في الحياة الدنيا، وغرستها بذوره من قبل. وقال بعض آخر: عندما يؤتى بالثمار إلى أهل الجنة ثانية يقولون: هذا الذي تناولناه من قبل، ولكنهم حين يأكلون هذه الشمار يجدون فيها طعمًا جديداً ولذة أخرى، فالعنب أو التفاح الذي تناوله في هذه الحياة الدنيا مثلاً له في كل مرة نأكله نفس طعم المرأة السابقة، أمّا ثمار الجنة فلها في كلّ مرّة طعم وإن تشابهت أشكالها، وهذه من إمتيازات ذلك العالم الذي يبدو أنه خال من كل تكرار!

وقال آخرون: المقصود من ذلك أنهم حين يرون ثمار الجنة يلقبونها شبيهة بثمار هذه الدنيا، فإذا نسونها ولا تكون غريبة عليهم، ولكنهم حين يتناولونها يجدون فيها طعمًا جديداً لذيناً.

ويجوز أن تكون عبارة الآية متضمنة لكل هذه المفاهيم والتفاسير، لأنّ الفاظ القرآن تتطوى أحياناً على معان١.

ثم تقول الآية: «وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًام، أي متشابهاً في الجودة والجمال. فهذه الثمار بأجمعها فاخرة بحيث لا يمكن ترجيح إحداها على الأخرى، خلافاً لثمار هذا العالم المختلفة في درجة النضج والرائحة واللون والطعم.

وآخر نعمة تذكرها الآية هي نسمة «الأزواج المطهرة» من كل أدران الروح والقلب والجسد.

أحد منفّعاتها نعم الدنيا زوالها، فصاحب النعمة يقلّه زوال هذه النعمة، ومن

١ - في بحث «استعمال اللفظ في أكثر من معنى» أتبنا إيماناً هذه الأمر.

هنا فلَا تكون هذه النعم عادة باعثة على السعادة والإطمئنان. أَتَأْنِمُ الْجَنَّةَ فِيهَا السَّعَادَةُ وَالظَّمَانِيَّةُ لَأَنَّهَا خَالِدَةٌ لَا يَعْتَرِفُهَا الزَّوَالُ وَالْفَنَاءُ. وإِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ تَشَيرُ الْآيَةُ فِي خَاتَمِهَا وَتَقُولُ: «وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

* * *

بحوث

١- «الإيمان» و«العمل»:

في كثير من الآيات القرآنية يقترن ذكر الإيمان بذكر العمل الصالح، حتى كان الاثنين متلازمان دونما افتراق. والحق كذلك، لأن الإيمان والعمل يكمل بعضها الآخر.

لو نفذ الإيمان إلى أعماق النفس لتجلت آثاره في الأفعال حتماً مثله كمثل مصباح لو أضاء في غرفة لشع نوره من كل نواخذة الغرفة. ومصباح الإيمان كذلك لو شع في قلب إنسان، لسطع شعاعه من عين ذلك الإنسان وأذنه ولسانه ويداه ورجله.

يقول تعالى في الآية الحادية عشرة من سورة الطلاق: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَغْفِلُ صَالِحًا يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَبَغِّرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا».

ويقول في الآية الخامسة والخمسين من سورة النور: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخِفْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ». فالإيمان بمثابة جذر شجرة العمل الصالح ثمرتها. وجود الشمر السليم دليل على سلامته الجذر. وجود الجذر السليم يؤدي إلى نمو الشمر الطيب.

من الممكن أن يصدر عمل صالح أحياناً عن أفراد ليس لهم إيمان، ولكن ذلك لا يحدث باستمرار حتماً. فالذي يضمنبقاء العمل الصالح هو الإيمان المتغلل في أعماق وجود الإنسان، الإيمان الذي يضع الإنسان دوماً أمام مسؤولياته.

٢- الأزواج المطهرة:

مَا يلْفِتُ النَّظَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْوَصْفَ الْوَحِيدَ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ الْقُرْآنُ لِمَدْحِ الْأَزْوَاجِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ هُوَ أَنَّهَا «مَطْهَرَةٌ». وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى أَوَّلِ شَرْطٍ فِي الزَّوْجَةِ هُوَ «الظَّهَرُ». وَكُلُّ مَا سُواهُ مِن الشَّرُوطِ وَالْأَوْصَافِ ثَانِي.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّكُمْ وَخَضْرَاءَ الدَّمْنَ». قَبْلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ مَا خَضْرَاءَ الدَّمْنَ؟ قَالَ: الْمَوَأِدَةُ الْمُسْتَنَأَةُ فِي مَثْبِتِ السُّوءِ»^١.

٣- النعم الماديه والمعنوية في الجنة:

ذكر القرآن الكريم أنواع النعم المادية في الجنة مثل: جنات تجري من تحتها الأنهر، ومساكن طيبة، وأزواج مطهرة، وثمار متنوعة، وخلان متعابين. ولكنه ذكر إلى جانب هذه النعم المادية نعمًا أهم منها هي النعم المعنوية التي لا نستطيع أن نفهم عظمتها بمقاييسنا، كقوله: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَذْنِ وَرَضْوَانَ مِنْ اللَّهِ
أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَزُورُ الْعَظِيمُ»^٢.

وفي آية أخرى يقول سبحانه بعد ذكر النعم المادية: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُمْ»^٣.

لو بلغ الإنسان هذه المرتبة حيث يرضي الله عنه ويرضي عن الله لأحسن بذلك لا ترقى إليها الذلة، ولها نظر هذا الإنسان سائر الذات، عندها يرتبط هذا الإنسان بالله ولا يفكر بما سواه، وهي مرتبة يعجز القلم واللسان عن وصف سموها وأبعادها.

بعارة موجزة: كما أن للمعاد جانباً روحياً جسمياً، كذلك نعم الجنة ذات

٢- التوبه، ٧٢.

١- وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٩.

٣- البيعة، ٨.

جانبين أيضاً، كي تكون جامعة وقابلة لاستفادة أهل الجنة جميعاً، كلُّ على قدر
كفاءته ولياقته.



الآية

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا
الَّذِينَ ءاْمَنُوا فَيَغْلِمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضْلِلُ بِهِ كَثِيرًا وَهُدِيَ بِهِ
كَثِيرًا وَمَا يُضْلِلُ بِهِ إِلَّا الْفَسِيقِينَ ⑤

سبب النزول

ذكر جمع من المفسرين عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية هو اعتراض المنافقين على ما ورد من أمثلة في الآيات السابقة «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اشْتَوَقَ نَارًا ... أَوْ كَصَّبَ مِنَ السَّمَاءِ ...»، وقالوا إن الله أسمى من أن يضرب مثل هذه الأمثال، وبذلك راحوا يشككون في الرسالة وفي القرآن. وفي هذه الظروف نزلت الآية الكريمة المذكورة.

قال آخرون: عند نزول الآيات التي تضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت، بدأ المشركون ينتقدون ويسيرون.

التفسير

هل الله يضرب المثل؟!

الفقرة الأولى من الآية تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَخِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعْوَذَةً فَمَا فَوْقَهَا».

ذلك لأن المثال يجب أن ينسجم مع المقصود، بعبارة أخرى، المثال وسيلة لتجسيد الحقيقة حين يقصد المتحدث بيان ضعف المدعى وتحقيره فإن بلاغة الحديث تستوجب انتخاب موجود ضعيف للتمثيل به، فيما يتضح ضعف أولئك. في الآية (٧٢) من سورة الحج مثلا يقول سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ تَذَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبُوهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَقِدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَتِ الظَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ».

يلاحظ في هذا المثال أن الذباب وأمثاله أحسن وسيلة لتجسيد ضعف هؤلاء.

وهكذا في الآية (٤١) من سورة العنكبوت، حين يريد القرآن أن يجسد ضعف المشركين في انتخابهم أولياء من دون الله، يشبههم بالعنكبوت التي تتخذ لنفسها بيتاً، وهو أضعف البيوت وأووهنها: «مَثَلُ الَّذِينَ احْخَذُوا مِنَ اللَّهِ أُولَئِكَ أَهْلَكُوا فَنَكِبُوتَ الْمُخْدَثَ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ النَّبِيُّوْنَ تَبَيَّنَتِ الْفَنَكِبُوتُ لَوْ كَانُوا يَقْلُمُونَ».

من المؤكد أن القرآن لو ساق الأمثلة في هذه المجالات على الكواكب والسماءات لما أدى الغرض في التصغير والتحقير، ولما كانت أمثلته متناسبة مع أصول النصاحة والبلاغة، فكان الله تعالى يريد بهذه الأمثلة القول: بأنه لا مانع من التمثيل بالبعوضة أو غيرها لتجسيد الحقائق المقلية في ثياب حسية وتقديمها للناس.

الهدف هو إيصال الفكرة، والأمثلة يجب أن تتناسب مع موضوع الفكر، ولذلك فهو سبحانه يضرب الأمثلة بالبعوضة فما فوقها.

وما المقصود من «فَلَا فُوقَهَا» للمفسرين في هذه رأيان:
 الأول: «فوقها» في الصغر، لأن المقام مقام بيان صغر المثال. وهذا مستعمل في الحوار اليومي، نسمع مثلًا رجل يقول لآخر: ألا تستعدي أن تبذل كل هذا الجهد من أجل دينار واحد؟! فيجيب الآخر: لا، بل أكثر من ذلك أنا مستعد لأبذل هذا الجهد من أجل نصف دينار! فالزيادة هنا في الصغر.

الثاني: «فوقها» في الكبر. أي إن الله يضرب الأمثل بالصغر وبالكبير، حسب مقتضى الحال.

لكن الرأي الأول يبدو أنساب.

ثم تقول الآية: «فَإِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا قَيْغَلَوْنَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ». فهو لاء،
 بایعانهم وتقواهم، بعيدون عن اللجاجة والعناد والحدق للحقيقة. ويستطيعون أن
 يروا الحق بجلاء ويدركوا أمثلة الله بوضوح.
«وَإِنَّمَا الَّذِينَ كَفَرُوا قَيْقَلُوْنَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا يُضْلِلُ بِهِ كَثِيرًا وَهُدِيَ بِهِ كَثِيرًا».

هؤلاء يعترضون على هذه الأمثلة لأنها لا تهدي الجميع، ويزعمون أنها لو
 كانت من عند الله لا هتدى بها الناس جميعاً، ولما أدت إلى ضلال أحداً!
 فيجيئهم الله بعبارة قصيرة تحسم الموقف وتقول: «وَمَا يُضْلِلُ بِهِ إِلَّا
 الْفَاسِقِينَ».

فك كل هذه الأمثلة من الله، وكلها نور وهداية، لكنها تحتاج إلى عين البصيرة
 التي تستفيد منها، ومخالفة المخالفين تتطلّق من نقص فيهم، لا من نقص في
 الآيات الإلهية!

١- جمع من المفسرين قالوا: إن حباره «يُضْلِلُ بِهِ كَثِيرًا...» ليس حكاية عن لسان المشركين، بل هو حدث الله، ويكون المعنى بذلك «أن الله يجib على هؤلاء المترضين الذين قالوا: «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا؟»؟ ويقول سبحانه: إن الله يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً، ولكن لا يضل إلا الفاسقين». (أما التفسير الأول فيبدو أنه أصح).

بحوث

١- أهمية المثال في بيان الحقائق:

الأمثلة المناسبة لها دور حساس: وعظيم في التوضيح والإقناع والإفهام. المثال المناسب قد يقرب طريق الفهم إلى الأذهان بحيث تستعيض به عن الاتجاه في الاستدلالات الفلسفية المعقدة. وأهم من ذلك، نحن لا نستطيع أن نستغني عن الأمثلة المناسبة في تعميم ونشر الموضوعات العلمية الصعبة بين عامة الناس. ولا يمكننا أن ننكر دور المثال في إسكات الأفراد المعاندين للسجوجين المتعنتين.

على كل حال، تشبيه «المعقول» بـ«المحسوس» أحد الطرق المؤثرة في تفهم المسائل العقلية، على أن يكون المثال - كما قلنا - مناسباً، وإلا فهو مضلل وخطير.

من هنا نجد في القرآن أمثلة كثيرة رائعة شديدة مؤثرة، ذلك لأنّه كتاب لجميع البشر على اختلاف عصورهم ومستوياتهم الفكرية، إنه كتاب في غاية الفصاحة والبلاغة.^١

* * *

٢- لماذا التمثيل بالبعوضة؟

المعاندون اتخذوا من صغر البعوضة والذبابة ذريعة للإستهزاء بالأمثلة القرآنية.

لكنّهم لو أنصفوا وأمعنوا النظر في هذا الجسم الصغير، لرأوا فيه من عجائب

^١- حول دور الأمثال في حياة البشر، راجع الآية ١٧ من سورة الرعد في المجلد السابع من هذا التفسير.

الخلقة وعظيم الصنع والدقة ما يحيي العقول والألباب.

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام بشأن خلقة هذا الحيوان الصغير:

«إِنَّمَا ضَرَبَ اللَّهُ الْمَثَلَ بِالْبَعْوَذَةِ لِأَنَّ الْبَعْوَذَةَ عَلَى صِفَرٍ حَجِيمَهَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا جَمِيعَ مَا خَلَقَ فِي الْفَيْلِ مَعَ كَبِيرٍ وَرِزْنَادَةَ عَضْوَنِ آخَرَنِ فَلَأَرَادَ اللَّهُ شَبَّاحَةً أَنْ يُبَتَّهَ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى لَطْفِ (اللطيف) خَلْقِهِ وَعَجِيبِ صَنْعِهِ»^١.

يريد الله سبحانه بهذه المثال أن يبين للمؤمنين دقة الصنع في الخلق، التفكير في هذا الموجود الضعيف على الظاهر، والشبيه بالفيل في الواقع، يبين للإنسان عظمة الخالق.

خرطوم هذا الحيوان الصغير يشبه خرطوم الفيل، أجوف، ذو فتحة دقيقة جداً، وله قوة ماصة تسحب الدم.

منع الله هذا الحيوان قوة هضم وتمثيل ودفع، كما منحه أطرافاً وأذناً وأجنحة تناسب تماماً مع وضع معيشته. هذه العشرة تتمتع بحساسية تشعر فيها بالخطر بسرعة فاتحة وتفرّع عندما يداهمها عدوًّا بهارة عجيبة، وهي مع صغرها وضعفها يعجز عن دفعها كبار الحيوانات.

أمير المؤمنين عليهما السلام يقول في هذا الصدد:

«كَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَّاتِنَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَيْرَاهَا وَمَا كَانَ مِنْ مُرْجَحَهَا وَسَائِقَهَا، وَأَصْنَافُ أَشْنَاخَهَا وَأَجْنَاسَهَا، وَمُتَبَلِّذَةُ أَعْيُهَا وَأَكْنَاسَهَا، عَلَى إِخْدَاثِ بَعْوَذَةٍ مَا قَدَرَتْ عَلَى إِخْدَاثِهَا، وَلَا عَرَّقَتْ كَيْفَ الشَّيْلُ إِلَى إِعْجَادِهَا، وَلَا تَحِيرَتْ عَشْوَرُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَّاهَا وَتَاهَتْ، وَرَجَعَتْ حَامِسَةً حَسِيدَةً، غَارِفَةً بِأَنْتَهَا مَهْوَرَةً، مَيْغَةً بِالْعَجْزِ عَنِ إِنْسَانَهَا، مَذْعَنَةً بِالضَّفَفِ عَنِ افْتَانَهَا»^٢.

١- تفسير البرهان، ج ١، ص ٧٢.

٢- نهج البلاغة، شرح محمد عبد، الخطبة ١٨٦، ص ٢٧٥.

٣- هداية الله وإخلاله :

ظاهر عبارة الآية المذكورة يوحى بأن الهداية والضلالة جبريان ومرتبطان بإرادة الله تعالى، بينما العبارة الأخيرة من الآية توضح أن الهداية والضلالة متربنان على أعمال الإنسان نفسه.

ولمزيد من التوضيح نقول: إن أعمال الإنسان وتصرفاته لها نتائج وثمار معينة، لو كان العمل صالحًا فنتيجة مزيد من التوفيق والهداية في السير نحو الله ومزيد من أداء الأعمال الصالحة. يقول تعالى: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ شَاءُوا اللَّهُ يَعْلَمُ لَكُمْ فَزْقَانًا»** !

وإن جنح الإنسان نحو المنكرات، فإن الظلمات تراكم على قلبه، ويزداد نهماً لارتكاب المحرمات، وقد يبلغ به الأمر إلى أن ينكر خالقه، قال تعالى: **«أَتَمْ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوَآءِ أَنَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَشْتَرِئُونَ»** . وقال أيضاً: **«فَلَمَّا رَأَوُا أَرْزَاقَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ»** .

والآية التي يدور حولها بحثنا شاهد آخر على ذلك حيث يقول تعالى: **«وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ»**.

مما تقدم يتضح أن الإنسان حرّ في انتخاب الطريق في بداية الأمر، وهذهحقيقة يقبلها ضمير كل إنسان، ثم على الإنسان بعد ذلك أن يتضرر النتائج الحتمية لأعماله.

بعباره موجزة: **الهداية والضلالة - في المفهوم القرآني - لا يعنيان الإجبار على انتخاب الطريق الصحيح أو الخاطئ، بل إن الهداية - المفهومة من الآيات المتعددة - تعنى توفر سبل السعادة، والإضلالة: يعني زوال الأرضية المساعدة للهداية، دون أن يكون هناك إجبار في المسألة.**

توفّر السبل (الذى نسميه التوفيق)، وزوال هذه السبل (الذى نسميه سلب التوفيق)، هما نتيجة أعمال الإنسان نفسه. فلو منع الله فردًا توفيق الهدایة، أو سلب من أحد هذا التوفيق، فإنما ذلك نتيجة الأعمال المباشرة لهذا الفرد أو ذاك. ويمكن التمثيل لهذه الحقيقة بمثال بسيط: حين يمرّ الإنسان قرب هاوية خطيرة، فإنه يتعرّض لخطر الإنزلاق والسقوط فيها كلّما اقترب منها أكثر. كما أنّ إحتمال سقوطه في الهاوية يقلّ كلّما ابتعد عنها أكثر، والحالات الأولى هدایة والثانية ضلال.

من مجموع ما ذكرنا يتضح الجواب على ما يثار من أسئلة في حقل الهدایة والضلال.

٤ - «الفاسقون»: هم المنحرفون عن طريق العبودية، لأنّ الفسق في اللغة إخراج النوى من التمر، تم انتقال إلى الخروج عن طريق الله.

* * *

آلية

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيقَاتِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ
الْمُخْسِرُونَ ﴿٤٧﴾

التفسير

الخاسرون الحقيقيون:

هذه الآية الكريمة توضح مواصفات الفاسقين بعد أن تحدثت الآية السابقة عن ضلال هذه الفتنة، وتذكر لهم ثلاثة صفات:

١- إنهم «يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيقَاتِهِ».

هؤلاء لهم مع الله عهود ومواثيق، مثل عهد التوحيد، وعهد التربية، وعهد عدم اتباع الشيطان وهوى النفس. لكنهم نقضوا كل هذه العهود، وتمردوا على أوامر الله، واتبعوا أهواءهم وما أراده الشيطان لهم.

طبيعة هذا العهد: يشار سؤال حول العهد المبرم بين الله والإنسان، فالعهد عقد ذو جانبين، وقد يقول قائل: متى أبرمت مع الله عهداً من العهود المذكورة؟ الجواب على هذا السؤال يتضح لو عرفنا أن الله سبحانه أنه أودع في أعماق النفس الإنسانية شعوراً خاصاً وقوى خاصة يستطيع بها أن يهتدى إلى الطريق

الصحيح، ويتجنب مزاعق الشيطان وأهواء النفس، ويستجيب لداعي الله.

هذه القوى الفطرية يعبر عنها القرآن بالعهد الإلهي، وهو في الحقيقة «عهد تكوبني» لا تشرعني أو قانوني. يقول تعالى: «أَلَمْ أُعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَابْنَيْ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ»^{١٢}.

و واضح أن الآية تشير إلى فطرة التوحيد العبودية والميل إلى الاتجاه نحو التكامل في النفس الإنسانية.

الدليل الآخر على هذا الاتجاه في فهم العهد الإلهي، ما جاء في أول خطب نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: حيث قال: «أَبَعَثْتُ فِيهِمْ رُسُلًا وَوَارَتِ إِلَيْهِمْ أَثْيَاءً، لِيُسْتَأْذُهُمْ مِّنْبَاقَ فِطْرَتِهِ».

بتعبير آخر: كل موهبة يمنحها الله للإنسان يصعبها عهد طبيعي بين الله والإنسان، موهبة العين يصعبها عهد يفرض على الإنسان أى يرى الحقائق، وموهبة الأذن تنطوي على عهد مدون في ذات الخليقة يفرض الاستماع إلى نداء الحق ... وبهذا يكون الإنسان قد نقض العهد متى ما غفل عن استئمار القوى الفطرية الموعدة في نفسه، أو استخدم الطاقات الموهبة له في مسیر منحرف.

الفاسقون، ينقضون بعض هذه العهود الفطرية الإلهية، أو جميعها.

٢- الصفة الأخرى لهؤلاء الفاسقين هي أنهم «... يَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَّلَ ...».

أكثر المفسرين ذهبوا إلى أن القطع المذكور في الآية يعني قطع الرحمة، لكن مفهوم الآية - في نظره أعمق - أعم من ذلك، وما قطع الرحمة إلا أحد مصاديقها، لأن الآية تتحدث عن قطع الفاسقين بكل إرتباط أمر الله به أن يصل، بما في ذلك رابطة الرحمة، رابطة الصدقة، والروابط الاجتماعية، والرابطة بهداة البشرية إلى

الله، والإرتباط بالله. ولا دليل على حصر الآية برابطة الرحم. بعض المفسرين ذهبوا إلى أن الآية تشير إلى قطع الإرتباط بالأنبياء والمؤمنين، وبعضهم فسرها بالإرتباط بأئمة أهل البيت عليه السلام[!]. واضح أن هذه التفاسير تبين جزءاً من المفهوم الكلي للآية.

٣- علامة الفاسقين الثالثة هي الفساد: «... وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ». ومن الواضح أن يكون هؤلاء مفسدين، لأنهم نسوا الله وعصوه، وخلت نفوسهم من كل عاطفة إنسانية حتى تجاه أرحامهم، هؤلاء لا يتحركون إلا على خط مصالحهم وأهدافهم الذاتية الذئبة، ولا يهمهم على هذا الطريق أن يعيشوا في الأرض فساداً، ويرتكبوا كل لون من الإنحراف. وتؤكد الآية في الخاتمة أن «أولئك هُمُ الْخَاسِرُونَ».

وأي خسران أكبر من تبديد كل القوى المادية والمعنوية المودعة في الإنسان الرّامية لسعادة، وإهدارها على طريق الشقاوة والتعasse والإنحراف؟! نعم، هؤلاء الفاسقون الذين خرجوا عن خط إطاعة الله ليس لهم مصير سوى الخسران.

* * *

بحثان

١- أهمية صلة الرحم في الإسلام:

الآية المذكورة أعلاه، وإن تحدثت عن كل إرتباط أمر الله به أن يوصل، إلا أن الإرتباط الرحمي دون شك أحد مصاديقها البارزة. لقد أغار الإسلام اهتماماً بالغاً بصلة الرحم وبالتوعد إلى الأهل والأقارب. ونهى بشدة عن قطع الارتباط بالرحم.

١- نور التلمين، ج ١، ص ٤٥، لمزيد من التوضيح في هذا المجال راجع المجلد السابع من هذا التفسير ذيل الآية ٢١ من سورة الرعد.

رسول الله ﷺ يصور أهمية صلة الرحم بقوله: «صلة الرحم تعمّر الديار وتنبذ في الأغمار، وإن كان عملها غير أخير». ^١

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق ع قال: «صل رحمة ولن يشرئه ماء، وأفضل ما يوصل به الرحم كف الأذى عنها». ^٢

الإمام علي بن الحسين السجادي ع يحذر ولده من صحبة خمس مجموعات، إحداها قطاع الرحم، ويقول: «... وإياك ومضاجبة القاطع لزوجه فإني وجدته ملعونا في كتاب الله». ^٣

ويقول سبحانه: «فَهُلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوَلَّنِمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُنْقَطُّوْا أَرْخَامَكُمْ أَوْ إِلَيْكَ الَّذِينَ لَعَنْهُمُ اللَّهُ». ^٤

السبب في كل هذا التأكيد الإسلامي على الرحم هو أن عملية إصلاح المجتمع وتنمية بنته وصيانة مسيرة تكامله وعظمته في العقول المادية والمعنوية، تفرض البدء بتقوية **اللبنات الأساسية** التي يتكون منها البناء الاجتماعي، وعند استحكام **اللبنات** وتقويتها يتم إصلاح المجتمع تلقائياً.

إسلام مارس هذه العملية على النحو الأكمل في بناء المجتمع الإسلامي القوي الشامخ، وأمر بإصلاح الوحدات الاجتماعية. والكائن الإنساني لا يتأسى عادة أن ينبع إلى مثل هذه الأوامر الالزمة لتقوية ارتباط أفراد الأسرة، لاشتراك هؤلاء الأفراد في الرحم والدم.

و واضح أن المجتمع يزداد قوةً وعظمةً كلما ازداد التماسک والتعاون والتعاضد في الوحدات الإجتماعية الصغيرة المتمثلة بالأسرة. وإلى هذه الحقيقة قد يشير الحديث الشريف: «صلة الرحم تعم الديار».

* * *

١ - سفينة البحار (مادة رحم).

٢ - سفينة البحار (مادة رحم).

٣ - محمد، ٢٢.

٢- القطع بدل الوصل:

ذكرت الآية الكريمة: أَنَّ الْفَاسِقِينَ «يُنْظَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَّلَ» وفي هذا الصدد يثار سؤال يقول: هل القطع ممكن قبل الوصل؟ والجواب: إن المقصود بالوصل استمرار الروابط التي أقرها الله سبحانه بينه وبين عباده، أو بين عباده مع بعضهم بشكل طبيعي وفطري. بعبارة أخرى، إن الله سبحانه أمر بالحفظ على هذه الروابط الفطرية والطبيعية وبصائرها، لكن المذنبين يقطعونها (تأمل بدقة).

* * *

الآياتان

كَيْفَ تَكُفُّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَخْيَيْكُمْ ثُمَّ مُّبَيِّنُكُمْ ثُمَّ
يُخْبِيْكُمْ ثُمَّ إِنَّهُ تُزَجَّعُونَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعاً ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝

التفسير

نعمۃ الحياة :

القرآن في الآيتين يلقت أنظار البشر إلى عظمة الخالق عن طريق ذكر بعض النعم الإلهية وبعض المظاهر المدهشة للخلقية. وبذلك يكمل الأدلة التي أوردها في الآيتين (٢١ و ٢٢) من هذه السورة حول معرفة الله.

القرآن يبدأ في أداته من نقطة لا تقبل الإنكار، ويركز على مسألة (الحياة) بكل ما فيها من تعقيد وغموض، ويقول: «كَيْفَ تَكُفُّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَخْيَيْكُمْ».

وفي هذه العبارة تذكر للإنسان بما كان عليه قبل الحياة ... لقد كان ميتاً تماماً مثل الأحجار والأخشاب ولم يكن فيه أي أثر للحياة، لكنه الآن يتمتع بنعمة الحياة، وبنعمة الشعور والإدراك.

من الذي منح الإنسان نعمة الحياة؟ هل أن الكائن البشري هو الذي منح نفسه الحياة؟! كل إنسان منصف لا يتردد أن يجيب: أن هذه الحياة موهبة للإنسان من لدن عالم قادر... عالم برموز الحياة وقوانينها المعقدة... وقدر على تنظيمها. إذن كيف يكفر هذا الإنسان بمن أحياه بعد موته؟!

أجمعـتـ الـعـلـمـاءـ الـيـوـمـ أـعـدـ مـسـأـلـةـ فـيـ عـالـمـنـاـ هـذـاهـ لـأـنـ لـفـزـ الـحـيـاـةـ لـمـ يـنـحـلـ حـتـىـ الـيـوـمـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـلـ مـاـ حـقـقـهـ الـبـشـرـ مـنـ تـقـدـمـ هـائـلـ فـيـ حـقـلـ الـعـلـمـ وـالـمـعـرـفـةـ. قدـ يـسـتـطـعـ الـعـلـمـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ أـنـ يـكـتـشـفـ بـعـضـ أـسـرـارـ الـحـيـاـةـ ... لـكـنـ السـؤـالـ يـقـيـ قـائـمـاـ بـحـالـهـ: كـيـفـ يـكـفـرـ الـإـنـسـانـ بـالـلـهـ وـيـنـسـبـ هـذـهـ الـحـيـاـةـ بـتـعـقـيـدـاتـهـ وـغـمـوـضـهـ وـأـسـرـارـهـ إـلـىـ صـنـعـ الـطـبـيـعـةـ الـعـمـيـاءـ الـصـمـاءـ الـفـاقـدـةـ لـكـلـ شـعـورـ وـإـدـراكـ؟!

مـنـ هـنـاـ نـقـولـ إـنـ ظـاهـرـةـ الـحـيـاـةـ فـيـ عـالـمـ الـطـبـيـعـةـ أـعـظـمـ سـنـدـ لـإـثـبـاتـ وـجـودـ اللـهـ تـعـالـىـ. وـالـقـرـآنـ يـرـكـزـ فـيـ الـآـيـةـ الـمـذـكـوـرـةـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـسـأـلـةـ بـالـذـاتـ، وـهـيـ مـسـأـلـةـ تـعـتـاـجـ إـلـىـ مـزـيدـ مـنـ الـدـرـاسـةـ وـالـتـعـقـمـ، لـكـتـنـاـ نـكـتـفـيـ هـنـاـ بـهـذـهـ الإـشـارـةـ. بـعـدـ التـذـكـيرـ بـهـذـهـ النـعـمـةـ، تـؤـكـدـ الـآـيـةـ عـلـىـ دـلـيلـ وـاضـعـ آـخـرـ وـهـوـ «ـالـمـوـتـ»ـ «ـثـمـ بـيـتـكـمـ»ـ .

ظـاهـرـةـ «ـالـمـوـتـ»ـ يـرـاهـاـ الـإـنـسـانـ فـيـ حـيـاتـهـ الـيـوـمـيـةـ، مـنـ خـلـالـ وـفـاةـ مـنـ يـعـرـفـهـمـ وـمـنـ لـاـ يـعـرـفـهـمـ، وـهـذـهـ الـظـاهـرـةـ تـبـعـتـ أـيـضاـ عـلـىـ التـفـكـيرـ، مـنـ الـذـيـ قـبـضـ أـرـواـحـهـ؟ـ أـلـاـ يـدـلـ سـلـبـ الـحـيـاـةـ مـنـهـمـ عـلـىـ أـنـ هـنـاكـ مـنـعـمـهـ هـذـهـ الـحـيـاـةـ؟ـ نـعـمـ... إـنـ خـالـقـ الـحـيـاـةـ هـوـ خـالـقـ الـمـوـتـ أـيـضاـ، وـإـلـىـ ذـلـكـ تـشـيرـ الـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ:ـ «ـالـذـيـ خـلـقـ الـمـوـتـ وـالـحـيـاـةـ لـيـتـلـوـكـمـ أـيـكـمـ أـخـسـنـ عـمـلاـمـ»ـ .ـ بـعـدـ أـنـ ذـكـرـتـ الـآـيـةـ هـذـيـنـ الدـلـلـيـنـ الـوـاضـعـيـنـ عـلـىـ وـجـودـ اللـهـ، تـنـاوـلـتـ الـمـعـادـ

والحياة بعد الموت: «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ».

ويأتي ذكر المعاد في سياق هذه الآية ليبين أن مسألة الحياة بعد الموت (المعاد) مسألة طبيعية جداً لا تختلف عن مسألة إحياء الإنسان في هذه الدنيا بل إنها أيسر من الخلق الأول (مع أن السهل والصعب ليس لها مفهوم بالنسبة لل قادر المطلق). وهل بمقدور إنسان أن ينكر إمكان المعاد وهو يرى أنه خلق من عناصر ميتة؟!

وهكذا، وبعبارة موجزة رائعة يفتح القرآن أمام الإنسان سجل حياته منذ ولادته وحتى بعثه.

وفي نهاية الآية يقول تعالى: «ثُمَّ إِنَّهُ تُرْجَحُونَ». والمقصود بالرجوع هو الرجوع إلى نعم الله تعالى يوم القيمة. والرجوع غير البعث. والقرآن يفصل بين الاثنين كما في قوله تعالى: «وَالْمُؤْمِنُ يَنْتَهِي إِلَيْهِ ثُمَّ إِنَّهُ يُرْجَحُونَ»^١. قد يكون الرجوع في الآية الكريمة إشارة إلى معنى أدق، هو إن جميع الموجودات تبدأ مسيرة تكاملها من نقطة العدم التي هي نقطة «الصفر» وتواصل السير نحو «اللامنهاية» التي هي ذات الله سبحانه وتعالى. من هنا فإن هذه المسيرة لا تتوقف لدى الموت، بل تستمر في الحياة الأخرى على مستوى أسمى. بعد ذكر نعمة الحياة والإشارة إلى مسألة المبدأ والمعاد، تشير الآية إلى واحدة أخرى من النعم الإلهية السابقة وتقول: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ بِجِيْعاً».

وبهذا تعمن الآية قيمة الإنسان في هذه الأرض، وسيادته على ما فيها من موجودات. ومنها نستطيع أن نفهم المهمة العظيمة التقليلية الموكولة إلى هذا المخلوق

في ساحة الوجود.

وفي القرآن آيات أخرى تؤكد على مكانة الإنسان السامية، وتوضح أن هذا الكائن هو الهدف النهائي من خلق كل موجودات الكون.

«وَسَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ»^١

وئمه آيات أخرى تحدثت عن هذا المفهوم بالتفصيل كقوله تعالى^٢:

«وَسَخَّرْ لَكُمُ الْفَلَكَ ...»^٣.

«وَسَخَّرْ لَكُمُ الْأَهْمَارَ ...»^٤.

«وَسَخَّرْ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ...»^٥.

«وَسَخَّرْ لَكُمُ الْبَحْرَ ...»^٦.

«وَسَخَّرْ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالثَّقْرَ ...»^٧.

وتعود الآية إلى ذكر أدلة التوحيد وتقول: «ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَاهَنَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

ال فعل «استوى» من «الاستواء» وهو التسلط والإحاطة الكاملة والقدرة على الخلق والتدبير، وكلمة «ثم» في الآية لا تعني لزاماً التأخير الزمانى، بل تعنى أيضاً التأخير في البيان وتواتي في ذكر الحقائق.

* * *

١- العجائية، ١٢.

٢- هناك دراسة أولى لهذا المفهوم في الجزء السابع من هذا التفسير، ذيل الآية ٢ من سورة الرعد، وذيل الآيتين ٣٢ و ٣٣ من سورة إبراهيم.

٣- إبراهيم، ٣٢.

٤- إبراهيم، ٣٣.

٥- إبراهيم، ٣٣.

٦- العجائية، ١٢.

٧- إبراهيم، ٣٣.

بحوث

١- التناسخ أو عودة الأرواح

الآية المذكورة أعلاه من الآيات التي ترفض بوضوح فكرة التناسخ، فالمعتقدون بالتناسخ يؤمنون بأن الإنسان يعود بعد الموت ثانية إلى هذه الحياة، بعد أن تحل روحه في جسم آخر (ونطفة أخرى)، ويعيشا في هذه الدنيا حياة أخرى، وقد تكرر هذه العودة مرات، وتكرر هذه الحياة يسمى بالتناسخ أو عودة الأرواح.

الآية تصرح بعدم وجود أكثر من حياة واحدة بعد الموت، هي حياة البعث والنشور. وبعبارة أخرى توضح الآية أن للإنسان حياتين ومماتين لا أكثر، وكان الإنسان ميتاً يوم كان جزءاً من الطبيعة غير الحية، ثم أحياه الله يوم ولد، ثم يمتهن ثم يعيده. ولو كان التناسخ صحيحاً لكان للإنسان أكثر من مماتين وحياتين. هذا المفهوم مذكور في آيات أخرى أيضاً، سنشير إليه في موضعه.^١

فكرة التناسخ إذن مرفوضة قرآنياً، كما أنه مرفرضة عقلياً، وهي نوع من الرجعية والإنتكاس في قانون التكامل^٢.

جدير بالذكر أن هذه الآية لا تشير إلى الحياة البرزخية (الحياة بين الموت والنشور) كما توهم البعض، بل إلى الحياة بعد الموت في هذه الدنيا (إحياء الإنسان بعد تكونه من مواد طبيعية ميتة)، ثم الموت بعد هذه الحياة الدنيوية، ثم الحياة الأخرى، واستمرار المسيرة التكاملية نحو الله.

١- موضوع «الرجعة» لا يعارض هذا المفهوم، لأنه محدود بعدد خاص من الأشخاص، وليس بقانون عام. والأية المذكورة تتحدث عن قضية عامة.

٢- درسنا هذه المسألة في «عود الأرواح والارتباط بالأرواح».

٢- السماوات السبع

كلمة «سماء» تشير إلى جهة عليا، ولها مفهوم واسع ذو مصاديق مختلفة. ولذلك كان لها استعمالات عديدة في القرآن الكريم:

١- أطلقت أحياناً على «الجهة العليا» المجاورة للأرض كقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَكِيفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرَزَعُهَا فِي السَّمَاءِ»^١.

٢- وعنى بها القرآن تارة المنطة البعيدة عن سطح الأرض: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا»^٢.

٣- عبر القرآن بها في موضع آخر عن (الغلاف الجوي) المحيط بالأرض: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا عَنْهُو ظَاهِرًا»^٣. لأن هذا الغلاف يقي الكره الأرضية من الصخور السماوية (النيازك) التي تتجه إلى الأرض ليلاً ونهاراً بفعل جاذبية الأرض، لكن اصطدام هذه الصخور بجو الأرض يؤدي إلى اشتعالها ومن ثم تحولها إلى رماد.

٤- وأراد القرآن بالسماء في موضع آخر (الكرات العليا): «فُمْ اشْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ»^٤.

نعود الآن إلى «السموات السبع» لنرى ما المقصود من هذا العدد. تعددت آراء المفسرين والعلماء المسلمين في ذلك.

١- منهم من قال إنها السيارات السبع^٥ في اصطلاح الفلكيين القدماء: أي

١- ل Ibrahim، ٢٤.

٢- الإنشاء، ٣٢.

٣- فصل، ١١.

٤- منهم من قسم كرات المنظومة الشمسية العشر (تسع سيارات معروفة إضافة سيارة كانت موجودة بهن) إلى رباعي، ثم تهمشت وظلت بقایاها تدور في نفس المدار) إلى مجموعتين: مجموعة تحت مدار الأرض (طارد والزهرة) ومجموعة خارج مدار الأرض وفوقه، وهي سبع سيارات. وللهؤم بهذا أرادوا تفسير السماوات السبع بالكرات السبع الخارجية. (تأمل بدقة).

عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل والقمر والشمس.

٢ - ومنهم من قال إن المقصود بها هو الطبقات المتراكمة للخلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية.

٣ - ومنهم من قال إن العدد (سبعة) لا يراد به هذا العدد المعروف، بل يراد به الكثرة، أي أن معنى «السماءات السبع» هو السماوات والكرات الكثيرة في الكون.

ولهذا نظير في كلام العرب وفي القرآن، كقوله تعالى: **«وَلَوْ أَنْ مَا فِي الْأَرْضِ**
مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةً أَكْثَرُ مَا نَفَدَتْ كَلِيلَاتُ اللَّهِ».^١

و واضح أن المقصود بالسبعين في هذه الآية ليس العدد المعروف، لأن علم الله لا ينتهي حتى ولو أن البحر يمده من بعده الآلاف المؤلفة من الأبحار.

٤ - الأصح في رأينا أن المقصود بالسماءات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد. وتكرر هذه العبارة في آيات الذكر العظيم يدل على أن العدد المذكور في هذه الآيات لا يعني الكثرة، بل يعني العدد الخاص بالذات.

ويستفاد من آيات أخرى أن كل الكرات والسيارات المشهودة هي جزء من السماء الأولى، وثمة ستة عوالم أخرى خارجة عن نطاق رؤيتنا ووسائلنا العلمية اليوم. وهذه العوالم السبعة هي التي عبر عنها القرآن بالسماءات السبع.

يقول تعالى: **«وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الَّتِي يَمْسَابِعُهُ»**.^٢

ويقول أيضاً: **«إِنَّا زَيَّنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ»**.^٣

ويتبين من هاتين الآيتين أن ما نراه وما يتكون منه عالم الأفلak هو جزء من السماء الأولى، وما وراء هذه السماء ست سماوات أخرى ليس لدينا اليوم معلومات عن تفاصيلها.

نحن نرى اليوم أنه كلما تقدمت العلوم الناقصة للبشر اكتشفت عجائب ومجاهيل عظيمة. علم الفلك تقدم إلى مرحلة بعيدة جداً في الرصد عن طريق التلسكوبات، ثم توافت قدرة الرؤية إلى أكثر من ذلك.

بعد ما اكتشفته دوائر الأرصاد الفلكي العالمية حتى الآن مسافة في الكون تعادل ألف مليون (مليار) سنة ضوئية. والراصدون يعترفون أن أقصى ما اكتشفوه هو بداية الكون لا نهايته. وما يدرك أن العلم سيكتشف في المستقبل سمات وعوامل أخرى!

من الأفضل أن نسمع هذا الحديث عن لسان مرصد عالمي كبير.

٣- عظمة الكائنات

المرصد لـ «بالومر» يصف عظمة الكون كالتالي:

«... قبل نصب مرصد بالومر، كان العالم في نظرنا لا يزيد على خمسة مائة سنة ضوئية. لكن هذا الناظور وسع عالمنا إلى ألف مليون سنة ضوئية. واكتشف على أثر ذلك ملايين المجرات الجديدة التي يبعد بعضها عنا ألف مليون سنة ضوئية. أما بعد هذه المسافة فيتراءى لنا فضاء عظيم مهيب مظلم لا نبصر فيه شيئاً، أي أن النور لا ينفذ إليه كي يؤثر على صفحة التصوير في المرصد.

ومن دون شك أن هذا الفضاء المهيب المظلم يحتوي على مئات الملايين من المجرات التي تحافظ بجازيتها على هذا العالم المرئي.

كل هذا العالم العظيم المرئي الحاوي على مئات الآف الملايين من المجرات ليس إلا جزءاً صغيراً جداً من عالم أعظم. ولستنا واثقين من عدم وجود عالم آخر غير هذا العالم الأعظم»!



الآيات

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَكِثِكَةَ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا
أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَشْفِكُ الدَّمَاءَ وَنَخْنُ نُسْبِعُ
عِهْدَكَ وَنَقْدِسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑤ وَعَلَمَ أَدَمَ
الْأَنْسَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَكِثِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِاسْمَهُمْ
هَوْلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ⑥ قَالُوا شَبَحْنَاكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا
عَلَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ⑦ قَالَ يَسْأَدُمُ أَنْبِئُهُمْ بِاسْمَهُمْ
فَلَمَّا أَنْبَأْتَهُمْ بِاسْمَهُمْ قَالَ أَمْ أَقْلَلُ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبَدِّلُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْسِمُونَ ⑧

التفسير

الإنسان خليفة الله في الأرض

الآيات السابقة ذكرت أن الله سبحانه خلق ما في الأرض جميماً للإنسان، وفي هذه الآيات تقرير صريح لخلافة الإنسان وقيادته، وتوضيح لمكانته المعنوية التي استحق بها كل هذه المawahب.

في هذه الآيات عرض لخلفة آدم (أبو البشر)، وفي الآيات ٣٠ إلى ٣٩ تركيز على ثلاث مسائل أساسية هي:

١- إخبار الله ملائكته بشأن خلقة الإنسان في الأرض، وما دار في المشهد من حوار.

٢- أمر الله تعالى ملائكته بِإِكْرَامِ وَتَعْظِيمِ الْإِنْسَانِ الْأُولَى، وهذا ما نجده في مواضع عديدة من القرآن الكريم بمناسبات مختلفة.

٣- شرح وضع آدم وحياته في الجنة، والحوادث التي أدت إلى خروجه من الفردوس، ثم توبته آدم، وحياته هو وذريته في الأرض.

الآيات المذكورة تتحدث عن المرحلة الأولى، حين شاء الله أن يخلق على ظهر الأرض موجداً، يكون فيها خليفته، ويحمل أشعة من صفاته، وتسمو مكانته على مكانة الملائكة، وشاء سبحانه أن تكون الأرض ونعمها وما فيها من كنوز ومعادن وإمكانات تحت تصرف هذا الإنسان.

مثل هذا الموجود بحاجة إلى قسط وافر من العقل والشعور والإدراك والكفاءة الخاصة، كي يستطيع أن يتولى قيادة الموجودات الأرضية.

وبهذه المناسبة تقول الآية الأولى: **«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةَ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»**، وال الخليفة هو النائب عن الغير. أما هذا الغير الذي ينوب الإنسان عنه فاختلت فيه أقوال المفسرين

منهم من قال إنه خليفة الملائكة الذين كانوا يسكنون من قبل على ظهر الأرض. ومنهم من قال إنه خليفة بشر آخرين أو موجودات أخرى كانت تعيش قبل ذلك على الأرض.

وذهب بعضهم إلى أن الخليفة إشارة إلى أن كل جيل من البشر يخلف الجيل السابق.

والحق أن المقصود بال الخليفة هو خليفة الله ونائبه على ظهر الأرض، كما ذهب إلى ذلك كثير من المحققين، لأن سؤال الملائكة بشأن هذا الموجود الذي قد يفسد في الأرض ويسفك الدماء يتناسب مع هذا المعنى، لأن نيابة الله في الأرض لا

تناسب مع الفساد وسفك الدماء.

مسألة «تعليم الأسماء» لآدم التي سيأتي شرحها، وهكذا سجود الملائكة لآدم من أدلة ما ذهبنا إليه في تفسير معنى الخليفة.

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يشير أيضاً إلى هذا المعنى في تفسير هذه الآيات إذ يقول: «إن الله عز وجل علّم آدم أسماءً حجّجه كلّها ثم عرضهم وفهم أزواجاً على الملائكة فقال أتُبُوئُ بِأَسْمَاءٍ هُوَ لِمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ يَا أَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْخِلَاقَةِ فِي الْأَرْضِ لِتُسَبِّحُوكُمْ وَتَنْدِسُوكُمْ مِّنْ آدَمَ فَقَالُوا شَهِدْنَاكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلِمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَا آدَمَ أَتَيْتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَتَيْتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَقَوْمُوا عَلَى عَظِيمِ مَذْلِلِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونُوا خُلُقَةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَحَجَّجَهُ عَلَى بَرِّيهِمْ ثُمَّ غَيَّبَهُمْ عَنْ أَهْنَاصِهِمْ وَاسْتَعْدَهُمْ بِوَلَائِهِمْ وَعَمَّتِهِمْ وَقَالَ لَمَّا أَفْلَلْتُ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَغْلَمُ مَا تُبَدِّلُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»^١.

ثم تذكر الآية سؤال الملائكة الذي وجهوه لرب العالمين مستفسرين لا معتبرين: «قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ وَتَخْنُنُ نَسْبَعَ بِخَمْدِكَ وَتَنْدَسُ لَكَ؟»

الله سبحانه أجاب الملائكة جواباً مغلقاً اتضاع في المراحل التالية: «قَالَ إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

الملائكة كانوا عالمين - كما يبدو من تساؤلهم - أن هذا الإنسان موجود يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فكيف عرفوا ذلك؟!

قيل إن الله سبحانه أوضح للملائكة من قبل على وجه الإجمال مستقبل الإنسان، وقيل إن الملائكة فهموا ذلك من خلال عبارة «في الأرض»، لأنهم علموا أن هذا الإنسان يخلق من التراب، والمادة لمحدوديتها هي حتماً مركز

١- «الميزان» ج ١، ص ١٢١. قال عن معاني الأخبار، وهذا الحديث وإن كان يوضع أكثر مكانة الأئمة والأشية - لا ينحصر بهذه الصفة المقدسة بل إنهم المصدق الأئم والأكمel لهذا الموضوع.

للتنافس والنزاع. وهذا العالم المحدود المادي لا يستطيع أن يشبع طبيعة الحرص في الإنسان. وهذه الدنيا لو وضعت بأجمعها في فم الإنسان فقد لا تسعه. وهذا الوضع - إن لم يقترن بالإلتزام والشعور بالمسؤولية - يؤدي إلى الفساد وسفك الدماء.

بعض المفسرين ذهب إلى أنَّ نبؤ الملائكة يعود إلى تجربتهم السابقة مع مخلوقات سبقت آدم، وهذه المخلوقات تنازعوا وسفكت الدماء وخلفت في الملائكة انطباعاً مِرْأَةً عن موجودات الأرض.

هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض مع بعضها. وقد يكون موقف الملائكة من استغلال آدم ناشئاً عن هذه الأسباب الثلاثة معاً.

الملائكة يتبنوا حقيقة من الحقائق، ولذلك لم ينكِر الله عليهم قولهم، بل أشار إلى أنَّ ثمة حقائق أخرى إلى جانب هذه الحقيقة، حقائق ترتبط بمكانة الإنسان في الوجود؛ وهذا ما لم تعرفه الملائكة.

الملائكة يعلمون أنَّ الهدف من الخلقة هو العبودية والطاعة، وكانوا يرون في أنفسهم مصداقاً كاماً لذلك، فهم في العبادة غارقون. ولذلك فهم - أكثر من غيرهم - للخلافة لا لآتون، غير عالمين أنَّ بين عبادة الإنسان المليء بألوان الشهوات، والمحاط بأشكال الوساوس الشيطانية والمغربات الدنيوية وبين عبادتهم - وهم خالون من كل هذه المؤثرات - بون شاسع. فأين عبادة هذا الموجود الغارق وسط الأمواج العاتية، من عبادة تلك الموجودات التي تعيش على ساحل آمن؟!

ماذا تعرف الملائكة من أبناء آدم أمثال محمد صلوات الله عليه وآله وسلام وإبراهيم ونوح وموسى وعيسى والأنبياء من أهل البيت عليهم السلام وعباد الله الصالحين والشهداء والمضحكون من الرجال والنساء الذين قدّموا وجودهم على مذبح العشق الإلهي، والذين تساوياً ساعة من تفكّرهم سنوات متتالية من عبادة الملائكة.

الجدير بالذكر، إنَّ الملائكة ركناً في بيان فضلهم إلى ثلاثة أمور: التسبیح

والحمد، والتقديس، أما التسبیح والحمد فمعناهما واضح، وهو تنزیه الله عزّوجلّ من كل نقص والاعتراف له بكل كمال وجمال. أما ما هو معنی التقديس؟ البعض يرى أنه عبارة عن تنزیه الله عزّوجلّ عن كل نقص، وهو معنی التسبیح المتقدم. ولكن آخرين ذهبا إلى أن التقديس من مادة «قدس» أي تطهیر الارض من الفاسدين والمفسدين، أو تطهیر النفس من كل رذيلة، أو تطهیر الجسم والروح لله. والشاهد على ذلك كلمة «لک»، في جملة «قدس لك» لأن الملائكة لم يقولوا «قدسك» بل «قدس لك»، أي تطهیر المجتمع والارض لك.

وفي الحقيقة أن مرادهم هو القول بأن الهدف اذا كان هو الطاعة والعبودية فنحن على أتم الاستعداد. ولو كان هو العبادة فنحن في هذه الحالة دائماً، وإذا كان المقصود هو تطهیر النفس أو تطهیر الارض فسوف تنفذ هذا الامر. في حين أن الانسان المادي مضافاً إلى فساده. فإنه يفسد الارض.
ومن أجل أن تتضح الحقيقة للملائكة أقدم الله سبحانه على هذه التجربة ليعلموا الفرق الشاسع بينهم وبين آدم عليه السلام.

الملائكة في بودقة الاختبار

كان آدم يملك - بفضل الله - قابلية خارقة لفهم الحقائق، وشاء الله أن ينقل هذه القابلية من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: «وَعَلِمَ آدَمَ الْأَشْيَاءَ كُلُّهَا».

اختلف المفسرون في تفسير «تعليم الأسماء»، ومن المؤكد أن المقصود من ذلك ليس هو تعليم الأسماء دون المعاني. فذلك لا يكسب آدم فغراً بل المقصود هو معانى الأسماء والمفاهيم والسميات.

هذا العلم بالكون وبأسرار الموجودات وخصائصها. كان مفخرة كبيرة لآدم طبعاً.

عن أبي العباس قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله: وَعَلِمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا، مَاذَا عَلِمَهُ؟ قال: «الْأَرْضِينَ وَالجِبَالَ وَالشَّعَابَ وَالْأَوْدِيَّةَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى بَسَاطِ تَحْتَهُ فَقَالَ: وَهَذَا الْبَسَاطُ مَا عَلِمْتُ». ^١

علم الأسماء إذن لم يكن يشبه «علم المفردات»، بل كان يرتبط بفلسفة الأسماء وأسرارها وكيفياتها وخواصها. والله سبحانه منع آدم هذا العلم ليستطيع أن يستمر العواهب المادية والمعنوية في الكون على طريق تكامله. كما منع الله آدم قابلية التسمية، ليستطيع أن يضع للأشياء أسماء، وبذلك يتحدث عن هذه الأشياء بذكر اسمها لا بإحضار عينها. وهذه نعمة كبيرة، تفهمها لو عرفنا أن علوم البشرية تنقل عن طريق الكتب والمدونات. وما كان هذا التدوين مقدوراً لولا وضع الأسماء للأشياء وخواصها.

«فَمَمْ عَرَضْتُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ: أَتَبُوْفِي بِأَسْمَاءٍ هُؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...» وأمام هذا الاختبار تراجع الملائكة لأنهم لم يملكون هذه القدرة العلمية التي منحها الله لآدم، «قَالُوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».

وهكذا أدركت الملائكة تلك القدرة التي يحملها آدم، التي تجعله لاتقا لخلافة الله على الأرض. وفهمت مكانة هذا الكائن في الوجود.

وحان الدور لآدم كي يشرح أسماء الموجودات وأسرارها أمام الملائكة: «قَالَ يَا آدَمُ أَتَيْشُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقْلِنْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تَبَدُّونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

وهنا اتضاع للملائكة أن هذا الموجود هو وحده اللائق لاستخلاف الأرض. عبارة «مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» إشارة إلى أن الملائكة كانوا يخفون شيئاً لم

يظهره في أقوالهم. قال بعض المفسرين: إنها إشارة إلى حالة استكبار إيليس الذي كان يومئذ بين الملائكة. وكان يكتن إصراره على عدم الخضوع لأدم. ومن المحتمل أيضاً أن تكون العبارة إشارة إلى ما كان يبطنه الملائكة من اعتقاد بأنهم أليق من غيرهم للخلافة الإلهية على الأرض. فهم أشاروا إلى مثل هذا الاعتقاد ولم يصرّحوا به.

جواب على سؤالين

ويبقى سؤالان في هذا المجال، الأول يدور حول تعليم الله لأدم، كيف تم ذلك؟ ولو قدر أن يكون هذا التعليم من نصيب الملائكة لنانوا نفس فضيلة آدم، فهل هناك مفخرة يمتلكها آدم ولا تمتلكها الملائكة؟

أما بشأن كيفية التعليم فالجواب هو أن هذا التعليم تكويني، أي إن الله أودع هذا العلم في وجود آدم بالقوة، ودفعه خلال مدة قصيرة إلى المرحلة الفعلية. إطلاق كلمة «تعليم» في القرآن على «التعليم التكويني» ورد في موضع آخر من القرآن، قوله تعالى: **«عَلِمَهُ الْبَيَانَ»^١** واضح أن الله سبحانه عَلِمَ الإنسان البيان في مدرسة الخليقة، أي منحه الكفاءة والخصائص الفطرية الالزامية للبيان والكلام.

أما الشطر الآخر من هذا السؤال فيتبين جوابه لو علمنا أن الملائكة كانت لهم خلقة خاصة، ما كانت تؤهلهم لتلقى كل هذه العلوم. إنهم مخلوقون لهدف آخر، لا لهذا الهدف، وهذه الحقيقة فهمها الملائكة وقبلوها بعد أن مروا بتلك التجربة المذكورة في الآية. ولعلمهم اعتقدوا في البداية أنهم يحملون الكفاءة الالزامة لهذا الهدف، لكن الله بين لهم الفرق بين كفاءتهم وكفاءة آدم بتجربة تعليم الأسماء.

أما السؤال الثاني فيرتبط بالضمير «هم» في قوله تعالى: «ثُمَّ عَرَضْتُهُمْ وَأَسْمَاهُمْ وَبِاسْمِ الإِشارة هُؤُلَاءِ فِي الْآيَةِ». فالمعروف أنَّ «هم» و«هُؤُلَاءِ» يستعملان في العاقل، وهذا لا ينسجم مع تفسير «الأسماء» بأنَّهم أسرار الخلقة وفهم خواص جميع الموجودات.

والجواب هو أن استعمال الضمير «هم» واسم الإشارة «هُؤُلَاءِ» لا يختص بالعاقل، بل قد يستعملان في جمع مكون من عاقل وغير عاقل، وقد يستعملان في جمع غير عاقل. كقوله تعالى: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»^١ والضمير «هم» في الآية يعود على الكواكب والشمس والقمر التي رأها يوسف.

* * *

الآيات

وَإِذْ قُلْنَا لِلملائِكَةِ اسْجُدُوا لِلأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسُ أَبِي
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ① وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ
وَزَوْجُكَ أَجْنَةً وَكُلُّا مِنْهَا رَغْدًا حَتَّىٰ شِئْنَا وَلَا تَفْرِبَا هَذِهِ
الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ② فَازَ هَمَّا الشَّيْطَنُ عَنْهَا
فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا أَهِبُّوْا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ
فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَتَنْعٌ إِلَى حِينٍ ③

التفسير

آدم ④ في الجنة

يتناول القرآن إلى فصل آخر من موضوع ع神性 الإنسان، ويقول: «وَإِذْ قُلْنَا
لِلملائِكَةِ اسْجُدُوا لِلأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسُ أَبِي وَاسْتَكْبَرَ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ». يبدو للوهلة الأولى أن مسألة السجود للأدم جاءت بعد تجربة الملائكة المذكورة في الآيات السابقة وبعد تعليم الأسماء. ولكن لو أمعنا النظر في آيات القرآن الكريم لأنفينا أن موضوع السجود جاء بعد اكتمال خلقه الإنسان مباشرة، وقبل امتحان الملائكة.

يقول تعالى: «فَإِذَا سَوَيْتُهُ وَنَقَحْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَتَقَوَّلَهُ سَاجِدِينَ».

السجود إذن جاء مباشرة بعد نفخ الروح في الإنسان، وهذا المعنى جاء في الآية ٧٢ من سورة (ص)!^١

ثمة دليل آخر على هذه المسألة هو أن استجابة الملائكة لأمر الله بالسجود، لو كانت بعد انتضاح مكانة آدم، لما اعتبرت مفخرة للملائكة.

على أي حال، الآية المذكورة تقرير قرآنی واضح صريح لشرف الإنسان وعظمته مكانته. فكل الملائكة يؤمرون بالسجود له بعد اكتمال خلقه.

حقاً، إن هذا الموجود، اللائق لخلافة الله على الأرض، والمؤهل لهذا الشوط الكبير من التكامل وتربية أبناء عظام كالأنبياء وخاصة النبي الخاتم صلوات الله عليه وآله وسلامه، يستحق كل احترام.

نحن نشعر بالتعظيم والتكرير لمن حوى بعض العلوم وعلم شيئاً من القوانين والمعادلات العلمية، فكيف حال الإنسان الأول مع كل تلك العلوم والمعارف الراخدة عن عالم الوجود؟!

* * *

بحثان

١- لماذا ابن إبليس؟

«الشيطان» اسم جنس شامل للشيطان الأول ولجميع الشياطين. أما «إبليس» فاسم علم للشيطان الذي وسوس لأدم، وإبليس - كما صرخ القرآن - ما كان من جنس الملائكة وإن كان في صفوفهم، بل كان من طائفة الجن، وهي مخلوقات مادية. قال تعالى: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ»^٢.

١- إلى هنا وأشار أيضاً الألوسي في روح المعاني، والغفر الرازي في التفسير الكبير.

٢- الكهف، ٥٠.

باعثه على الامتناع عن السجود كبر وغرور وتعصب خاص استولى عليه حيث اعتقد أنه أفضل من آدم، ولا ينبغي أن يصدر له أمر بالسجود لآدم، بل ينبغي أن يؤمر آدم بالسجود له، وسيأتي شرح ذلك في تفسير الآية ١٢ من سورة الأعراف^١.

كفر إيليس كان يعود إلى نفس السبب أيضاً، فقد اعتقاد بعدم صواب الأمر الإلهي، وبذلك لم يعُص فحسب، بل إنحرف عقائدياً. وهكذا ذهبت أدراج الرياح كل عباداته وطاعاته نتيجة كبره وغروره. وهكذا تكون دوماً نتيجة الكبر والغرور. وعبارة «**كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**» تشير إلى أن إيليس كان قبل صدور الأمر الإلهي إليه بالسجود، قد انفصل عن مسيرة الملائكة وطاعة الله، وأسرء في نفسه الإستكبار والجحود. لعله عزم في قراره نفسه أن لا يخضع لو صدرت إليه أوامر بالخضوع والسجود. ومن المحتمل أن تكون عبارة «**مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**» إشارة إلى ذلك. وورد هذا المعنى في حديث عن الإمام الحسن العسكري رض. قال إيليس «لَئِنْ أَمْرَنِي اللَّهُ بِالسُّجُودِ هَذَا لَعَصِيَّةٌ إِلَى أَنْ قَالَ: قُلْمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: أَشْجُدُوا إِلَادَمَ فَسَجَدُوا فَأَخْرَجَ إِلِيَّلِيسَ مَا كَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَسِدِ فَأَبِي أَنْ يَشْجُدَ».

* * *

٢- هل كان السجود لله أم لآدم؟^٢

لا شك أن السجود يعني «العبادة» لله، إذ لا معبد غير الله، وتوحيد العبادة يعني أن لا نعبد إلا الله.

من هنا فإن الملائكة لم يؤدوا لآدم يعني «سجدة عبادة» قطعاً. بل كان السجود لله من أجل خلق هذا الموجود العجيب. أو كان سجود الملائكة لآدم

سجود «خضوع» لا عبادة.

جاء في «عيون الأخبار» عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «كَانَ سُجُودَهُمْ^١
لِهِ تَعَالَى عُبُودِيَّةً، وَلِأَدَمَ إِكْرَامًا وَطَاعَةً، لِكَوْنِنَا فِي صُلُبِهِ».^٢

بعد هذا المشهد ومشهد اختبار الملائكة، أمر آدم وزوجه أن يسكنوا الجنة، كما جاء في قوله تعالى: «وَقَلَّنَا يَا آدَمُ اشْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، وَكُلَا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَنْهَرَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ».

يستفاد من آيات القرآن أن آدم خلق للعيش على هذه الأرض. لكن الله شاء أن يسكنه قبل ذلك الجنة، وهي روضة خضراء موفرة النعم في هذا العالم، وخالية من كل ما يزعج آدم.

لعل مرحلة مكوث آدم في الجنة كانت مرحلة تحضيرية لعدم ممارسة آدم للحياة على الأرض وصعوبة تحمل المشاكل الدنيوية بدون مقدمة، ومن أجل تأهيل آدم لتحمل مسؤوليات المستقبل، ولتفهيمه أهمية حمل هذه المسؤوليات والتکاليف الإلهية في تحقيق سعادته، ولا إعطائه صورة عن الشقاء الذي يستتبع إهمال هذه التکاليف، ولتنبيهه بالمحظورات التي سيواجهها على ظهر الأرض. وكان من الضروري أيضاً أن يعلم آدم بامكان العودة إلى الله بعد المعصية. فمعصية الله - لا تسدى إلى الإبد - أبواب السعادة أمامه، بل يستطيع أن يرجع ويعاهد الله أن لا يعود لمثلها، وعند ذاك يعود إلى النعم الإلهية.

ينبغي أن ينصح آدم^{عليه السلام} في هذا الجو إلى حيد معين، وأن يعرف أصدقاءه وأعداءه، ويتعلم كيف يعيش على ظهر الأرض. نعم، كانت هذه مجموعة من التعاليم الضرورية التي تؤهله للحياة على ظهر الأرض.

١- نور القلوب، ج ١، ص ٥٨.

٢- الرغد على وزن الصد يعني الكثير والواسع والهنيء، وعبارة «حيث شئتما» تعني: من أي مكان شئتم في الجنة، أو من أي نوع شئتم من فاكهة الجنة.

كانت هذه مقدمات تأهيلية يحتاجها آدم وأبناء آدم في حياتهم الجديدة. ولعل الفترة التي قضاها آدم في الجنة أن ينهض بمسؤولية الخلافة على الأرض كانت تدريبية أو تمرينية.

وهنا رأى «آدم» نفسه أمام إلهي يقضي بعدم الاقتراب من الشجرة، لكن الشيطان أبى إلا أن ينفذ بقسمه في إغواء آدم وذراته، فطفق يوسوس لآدم وبعده وزوجه - كما يبدو من سائر آيات القرآن الكريم - بالخلود وباتخاذ شكل الملائكة وأقسم أنه لها من الناصحين.^١

تقول الآية بعد ذلك: «فَأَرْسَلَهُ الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا إِمَّا كَانَا فِيهِ»^٢.

نعم. أخرجوا من الجنة حيث الراحة والهدوء وعدم الألم والتعب والعناء، على أثر وسوسة الشيطان.

وصدر لهما الأمر الإلهي بالهبوط «وَقُلْنَا افْرِطُوا بِغَضْبِكُمْ لِيَغْضِبُ عَدُوُّهُ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَنَاعٌ إِلَى حِينٍ».

وهنا، فهم آدم أنه ظلم نفسه، وأخرج من الجنة الهادي الملمع بنعم الجنة بسبب استسلامه لوسوسة الشيطان. وهبط في جو مفعم بالتعب والمشقة والعناء. مع أن آدم كان نبياً وعصوماً، فإن الله يؤاخذ الإنبياء بترك الأولى - كما سترى - كما يؤاخذ باقي الأفراد على ذنباتهم. وهو عقاب شديد تلقاه آدم جراء عصيانه.

* * *

١-الأعراف، ٢٠ و ٢١.

٢-مراجع الضمير في «عنها» إنما أن يعود على «الجنة» ويكون معنى «متى كانا فيه» في هذه الحالة: من مقامهما الذي كانوا فيه. وإنما أن يعود على «الشجرة» فيكون معنى الآية: إن الشيطان أزلاهما بوسيلة الشجرة، وأخرجهما من الجنة التي كانوا فيها.

بحوث

١ - ما هي جنة آدم؟^١

يبدو أن الجنة التي مكث فيها آدم قبل هبوطه إلى الأرض، لم تكن الجنة التي وُعد بها المتقون. بل كانت من جنан الدنيا، وصقعاً منقماً خلاباً من أصقاع الأرض. ودليلنا على ذلك:

أولاً: الجنة الموعودة في القيمة نعمة خالدة، والقرآن ذكر مراراً خلوتها، فلا يمكن إذن الخروج منها.

ثانياً: إيليس الملعون ليس له طريق للجنة، وليس لوسوسته مكان هناك.

ثالثاً: وردت عن أهل البيت ^{عليهم السلام} روايات تصرّح بذلك.

منها ما روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ^{عليه السلام} أنه سئل عن جنة آدم، فقال: «جنةٌ من جناتِ الدنيا، يطلعُ فيها الشّمْسُ وَالقَمَرُ، وَلَمْ كَانَ مِنْ جَنَانِ الْآخِرَةِ مَا خَرَجَ مِنْهَا أَبَدًا».^٢

من هذا يتضح أن هبوط آدم ونزوله إلى الأرض لم يكن مكانياً بل مقامياً. أي أنه هبط من مكانته السامية ومن تلك الجنة العزданة.

من المحتمل أيضاً أن تكون هذه الجنة غير الخالدة في إحدى الكواكب السماوية، وفي بعض الروايات الإسلامية إشارة إلى أن هذه الجنة في السماء. غير أنّ من الممكن أن يكون المقصود بالسماء في هذه الروايات «المقام الرفيع» لا «المكان المرتفع».

على كل حال، توجد شواهد كثيرة على أن هذه الجنة هي غير جنة الخلد الموعودة. لأنّ جنة آدم بداية مسیر الإنسان وجنة الخلد نهايتها. وهذه مقدمة لأعمال الإنسان ومراحل حياته، وتلك نتيجة أعمال الإنسان ومسيرته.

٢- ما هو ذنب آدم؟

المكانة التي ذكرها القرآن لآدم سامية ورفيعة، فهو خليفة الله في الأرض ومعلم الملائكة، وعلى درجة كبيرة من التقوى والمعرفة، وهو الذي سجدت له ملائكة الله المقربين. ومن المؤكد أن آدم هذا لا يصدر عنه ذنب، إضافة إلى أنه كان نبياً، والنبي معصوم.

من هنا يطرح سؤال عن نوع العمل الذي صدر عن آدم. وتوجد لذلك ثلاثة تفسيرات يكمل بعضها الآخر.

١- ما ارتكبه آدم كان «تركاً للأولى» أو بعبارة أخرى كان «ذنباً نسبياً»، ولم يكن «ذنباً مطلقاً».

الذنب المطلق، وهو الذنب الذي يستحق مرتكبه العقاب أياً كان، مثل الشرك والكفر والظلم والعدوان. والذنب النسبي هو الذي لا يليق بمرتكبه أن يفعله لعله منزلة ذلك الشخص، وإن كان إرتكابه مباحاً، بل مستحبأً أحياناً من قبل الأفراد العاديين. على سبيل المثال، نحن نزوي الصلاة بحضور القلب تارة، وبعدم حضور القلب تارة أخرى. وهذه الصلاة تناسب وشأننا، لكن مثل هذه الصلاة لا تليق بأفراد عظام مثل رسول الله ﷺ. صلاة الرسول ينبغي أن تكون بأجمعها اتصالاً عميقاً بالله تعالى، وإن فعل الرسول غير ذلك فلا يعني أنه ارتكب محظماً، بل يعني أنه ترك الأولى.

وآدم كان يليق به أن لا يأكل من تلك الشجرة، وإن كان الأكل منها غير محظم بل «مكروهاً».

٢- نهي الله لآدم إرشادياً، مثل قول الطبيب: لا تأكل الطعام الفاسدي فتمرض. والله سبحانه قال لآدم: لا تقرب هذه الشجرة فتخرج من الجنة. وآدم في أكله من الشجرة خالف نهياً إرشادياً.

٣- الجنة التي مكث فيها آدم لم تكن محلاً للتوكيل، بل كانت دورة إختبارية

وتمهيدية لأدم كي يهبط بعدها إلى الأرض. وكان النهي ذا طابع اختياري^١.

٣- المقارنة بين معارف القرآن والتوراة:

أكبر مفاخر آدم وأعظم نقاط قوته التي جعلته زبدة الكون ومسجد الملاكـة هي - كما يظهر من الآيات - تعليمه الأسماء وإطلاعه على حقائق الكون وأسراره. واضح أن آدم خلـق لهـذه العـلوم، وأـبنـاء آـدم - إـن أـرـادـوا التـكـامل - عـلـيـهم أـن يـسـتـرـيدـوا من هـذـه العـلـوم، وـتـكـامـلـهـم يـتـنـاسـب مـرـادـفـاً مـع مـعـلـومـاتـهـم عـن أـسـرـارـ الـخـلـيـفةـ.

نعم، القرآن يصرـح بـأن عـظـمة آـدم تـكـمن فـي هـذـه النـقطـةـ. ولـكـنـ التـورـاةـ تـذـهـبـ إـلـىـ أـنـ سـبـبـ خـرـوج آـدمـ مـنـ الجـنـةـ وـخـطـيـتـهـ الـكـبـرـيـ هوـ اـتـجـاهـهـ نـحـوـ الـعـلـمـ وـمـعـرـفـةـ الصـالـحـ وـالـطـالـحـ!

جاء في الفصل الثاني من «سفر التكوين» من التوراة:

«وَأَخْذَ الرَّبُّ إِلَهُ آدَمَ وَرَضَقَهُ فِي جَنَّةِ عَذْنِ لَيَقْلَمَهَا وَيَعْتَقِلُهَا. وَأَوْصَى الرَّبُّ إِلَهُ آدَمَ قَاتِلًا مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ آكِلًا. وَأَمَّا شَجَرَةُ مَثِيقَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلُ مِنْهَا. لِمَنْ يَزُمَّ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتٌ تَمُوتُ».

وجاء في الفصل الثالث من التوراة:

«وَسَمِعَاقَصَوْتَ الرَّبِّ إِلَهِ مَا شِبَّاً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ الْهَنَارِ. فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَإِنْزَانَةً مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ إِلَهِ فِي وَسْطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى الرَّبُّ إِلَهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ أَيْنَ أَنْتَ. فَقَالَ سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَعَيْنِي لِأُتْبَعَ عَزْيَانًا فَاخْتَبَأْتُ. فَقَالَ مَنْ أَغْلَقَكَ أَنْكَهُ عَزْيَانَ. هَلْ أَكَلْتَ مِنْ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتَكَ أَنْ لَا تَأْكُلُ مِنْهَا. فَقَالَ آدَمُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَغْطَشَنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ. ...

١- لمزيد من التوضيح في هذا المجال، راجع المجلد الرابع من هذا التفسير، ذيل الآيات (١٩ - ٢٢) من سورة الأعراف، والمجلد العاشر ذيل الآية (١٢١) من سورة طه.

وَقَالَ رَبُّ الْإِلَهِ هُوَ ذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَ عَارِفَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَأَلَّا لَعْلَهُ
يَمْدُدْ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْمِلُ إِلَى الْآتِيدِ، فَأَخْرَجَهُ رَبُّ الْإِلَهِ مِنْ جَنَّةِ
عَذْنِ لِيَغْمَلُ الْأَرْضَ الَّتِي أَخْذَ مِنْهَا، فَطَرَّةُ الْإِنْسَانُ وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَذْنِ الْكَرْوِيمِ وَلَمْ يَبْ
سِيفْ مُتَقَلِّبٌ لِحَرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ !!

من هذه «الأسطورة التافهة»، التي تعرضها التوراة الحالية باعتبارها واقعاً
تاريخياً يتبيّن لنا رأي التوراة الحالية في سبب خروج آدم من الجنة، فهو على
رأي هذه الأسطورة معرفة آدم بالخير والشر، وذنبه الأكبر هو الإتجاه نحو العلم
والمعرفة !!

وإن لم يمد آدم يده إلى «شجرة الخير والشر» لبقي جاهلاً حتى يقع التعرّي،
ولما أخرج من الجنة، بل كان فيها حالداً.

فيما عجبنا، لم إذا حزن آدم على خروجه من الجنة إذا كان خروجه قد افترن
باكتسابه العلم والمعرفة وتميّزه بين الخير والشر، إنها صفة رابحة تلك التي
حصل عليها آدم، فلماذا ندم عليها؟!

ويتضح من ذلك أنَّ أسطورة التوراة تقع في النقطة المقابلة للإتجاه القرآني
الذي يرى أن مكانة الإنسان ومقامه وسر خلقته تكمن في «تعليمه الأسماء». أضف إلى ما سبق أن هذه الأسطورة تتضمّن مفاهيم مشينة مخجلة بشأن الله
سبحانه وبشأن المخلوقات، كل واحدة منها تثير الدهشة أكثر من غيرها، وهي
عبارة عن:

١- نسبة الكذب إلى الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً (كما جاء في الجملة
١٧ من الاصحاح الثاني: أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم
تأكل منها موتاً تموت) !

٢- نسبة البخل إلى الله سبحانه (كما جاء في الجملة ٢٢ من الاصحاح الثالث:
وقال رب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر. والآن لعله

يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويعينا إلى الأبد!).

٣- إمكان وجود الشريك لله تعالى (كما في العبارة السابقة: قد صار كواحد منها).

٤- نسبة الحسد إلى الله (ويستفاد ذلك من العبارة السابقة أيضاً).

٥- تجسيم الله سبحانه (... وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ربيع النهار)!

٦- نسبة الجهل إلى الله بالحوادث التي تقع قريباً منه (كما تقول هذه التوراة: فاختباً آدم وامرأته من وجه رب الإله في وسط شجر الجنة. فنادى رب الإله آدم وقال له: أين أنت؟!!).

(ولابد من التأكيد هنا أن هذه الخرافات لم تكن في التوراة المنزلة، بل أضيفت فيما أضيف إلى التوراة).

٤- المقصود من الشيطان في القرآن

كلمة الشيطان من مادة «شلن» و«الشاطن» هو الخبيث والوضع. والشيطان تطلق على الموجود المتمرد العاصي، إنساناً كان أو غير إنسان، وتعني أيضاً الروح الشريرة البعيدة عن الحق. وبين كل هذه المعاني قدر مشترك.

والشيطان اسم جنس عام، وإيلليس اسم علم خاص، وبعبارة أخرى، الشيطان كل موجود مؤذٍ فهو طاغٌ متمرّد، إنساناً كان أم غير إنسان، وإيلليس اسم الشيطان الذي أغوى آدم ويتربص هو وجنته الدوائر بأبناء آدم دوماً.

من مواضع استعمال هذه الكلمة في القرآن يفهم أن كلمة الشيطان تطلق على الموجود المؤذِي المضر المنعرف الذي يسعى إلى بث الفرقة والفساد والاختلاف. مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بِنَتَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ...﴾^١

وفي استعمال فعل المضارع «يريد» دلالة على استمرار إرادة الشيطان على هذا النحو.

والاستعمال القرآني لكلمة شيطان يشمل حتى أفراد البشر المفسدين المعادين للدعوة الإلهية، قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسَانِ وَالْجِنِّ﴾^٢

كلمة الشيطان أطلقت على إبليس أيضاً بسبب فساده وإنحرافه.

والميكروبات المضرة تشملها كلمة الشيطان أيضاً، كما ورد عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا تُثْرِبُوا الْمَأْمَةَ مِنْ ثُلْمَةِ الْإِنْتَاءِ وَلَا مِنْ عُزُورِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَقْعُدُ عَلَى الْغُرْوَةِ وَالثُّلْمَةِ»^٣.

وروي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «وَلَا يُثْرِبَ مِنْ أَذْنِ الْكُوزِ، وَلَا مِنْ كَشْرِهِ إِنْ كَانَ فِيهِ، فَإِنَّهُ مُثْرِبُ الشَّيَاطِينِ»^٤.

وعن رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «لَا يُطْوِلُنَّ أَحَدُكُمْ شَارِبَهُ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَّخِذُهُ عَنْبَرًا يَسْتَرُّ بِهِ»^٥.

ومن الواضح أننا لا نقصد أن معنى كلمة الشيطان هو الميكروب أينما وردت هذه الكلمة، بل نقصد أن الكلمة لها معانٍ متعددة، أحد مصاديقها الواضحة «إبليس» وجنده وأعوانه. ومصاديقها الآخر أفراد البشر المفسدون المنحرفون. ووردت في مواضع أخرى بمعنى الميكروبات المؤذية (تأمل بدقة)!

١- الأنعام، ١١٢.

٩١- المائدة.

٢- كتاب الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة والأشربة، باب الأواني.

٤- كتاب الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة والأشربة، باب الأواني.

٥- كتاب الكافي، ج ٦، ص ٤٨٧، ح ١١.

٥- لماذا خلق الشيطان؟!

يشار أحياناً سؤال عن سبب خلق هذا الموجود المضل المغوي. وفي الجواب نقول:

أولاً: لم يخلق الله الشيطان، شيطاناً. والدليل على ذلك وجوده بين ملائكة الله وعلى القطرة الطاهرة. لكنه بعد تحرره أساء التصرف، وعزم على الظفيان والتمرد. إنه إذن خلق طاهراً، سلك طريق الإنحراف مختاراً.

ثانياً: وجود الشيطان لا يسبب ضرراً للأفراد المؤمنين، ولطلاب طريق الحق، في منظار نظام الخليقة. بل إنه وسيلة لتقديمهم وتكاملهم، إذ إن التطور والتقدم يتم من خلال صراع الأضداد.

بعارة أوضح: قوى الإنسان وطاقاته الكامنة لا تتأهب ولا تتفجر إلا حينما يواجه الإنسان عدواً قوياً. هذا العدو يؤدي إلى تحريك طاقات الإنسان وبالتالي إلى تقدمه وتكامله.

الفيلسوف المعاصر «توبينبي» يقول: «لم تظهر في العالم حضارة راقية إلا بعد تعرض شعب من الشعوب إلى هجوم خارجي قوي. وهذا الهجوم يؤدي إلى تفجير النبوغ والكفاءات، لصنع مثل هذه الحضارة».

* * *

الآيات

فَتَلَقَّ أَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ أَنَّهُ هُوَ التَّوَابُ
الرَّحِيمُ ﴿١﴾ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مُّنِّيْ هُدَىٰ فَنَّ
تَبِعُ هُدَائِي فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِإِيمَانِنَا أُولَئِكَ أَضَحَّبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا حَلِيلُوْنَ ﴿٣﴾

التفسير

عوده آدم عليه السلام إلى الله

بعد حادثة وسوسه إيليس، وصدور الأمر الإلهي لآدم بالخروج من الجنة، فهم آدم أنه ظلم نفسه، وأنه أخرج من ذلك الجنة الهاديء المنعم على أثر إغواء الشيطان، ليعيش في جوّ جديد مليء بالتعب والنصب. وهنا أخذ آدم يفكر في تلافي خطئه، فاتجه بكل وجوده إلى بارئه وهو نادم أشد الندم. وأدركته رحمة الله في هذه اللحظات كما تقول الآية «فَتَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ».

«التبعة» في اللغة بمعنى «العودة»، وهي في التعبير القرآني، بمعنى العودة عن الذنب، إن نسبت إلى المذنب. وإن نسبت كلمة التبعة إلى الله فتعني عودته سبحانه إلى الرحمة التي كانت مسلوبة عن العبد المذنب. ولذلك فهو تعالى «تَوَاب» في

التعبير القرآني.

عبارة أخرى «توبه» العبد عودته إلى الله، لأن الذنب فرار من الله والتوبة رجوع إليه. وتوبه الله، إغداً رحمة على عبده الآيب.^١ صحيح أن آدم لم يرتكب محْرِّماً، ولكن ترك الأولى يعتبر معصية منه، ولذلك سرعان ما تدارك الموقف، وعاد إلى خالقه.

وستتحدث فيما بعد عن المقصود بـ«الكلمات» في الآية.

على أي حال، لقد حدث ما لا ينبغي أن يحدث – أو ما ينبغي أن يحدث – وقبلت توبة آدم، لكن الأثر الوضعي للهبوط في الأرض لم يستغير، كما يذكر القرآن: «قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَيْعاً، فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُدَىٰ، فَنَّ شَيْعَ هُدَىٰي فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْزُنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَضْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا حَالِدُونَ».

* * *

بحوث

١- الكلمات التي تلقاها آدم

تعدد الآراء في تفسير «الكلمات»، التي تلقاها آدم عليه السلام من ربها.

المعروف أنها الكلمات المذكورة في الآية ٢٣ من سورة الأعراف: «قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْتَسْنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

وقال آخرون أن المقصود من الكلمات هذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي إِنْكَ خَيْرُ الْقَافِرِينَ».

١- ولذلك، توبه العبد تتمدّى بعرف الجر (إلى)، وتوبه الله تصدى بـ(على)، فيقال في الأولى «تاب إليه» وفي الثانية «تاب عليه»، راجع التفسير الكبير للفخر الرازي وتفسير الصافي، ذيل آيات بحثنا.

«اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ شَبَحَانِكَ وَعَمَدَكَ، رَبُّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَازْهَنِي إِنَّكَ خَيْرُ الرَّاجِينَ».

«اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ شَبَحَانِكَ وَعَمَدَكَ، رَبُّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَثُبِّطْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّئِيمُ».

وهذا ما نقل في رواية عن الإمام محمد بن علي الباقي عليه السلام .

مثل هذه التعبير ذكرها القرآن على لسان يونس وموسى عليهما السلام . يonus ناجي ربه فقال: «شَبَحَانِكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»^١ . وموسى أيضاً: «قَالَ رَبُّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ»^٢ .

وفي روايات وردت عن طرق أهل البيت عليهم السلام أن المقصود من «الكلمات» أسماء أفضل مخلوقات الله وهم: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم أفضل الصلاة والسلام - وأدم توسل بهذه الكلمات ليطلب العفو من رب العالمين فعما عنده.

هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض مع بعضها، ولعل آدم تلقى من ربه كل هذه الكلمات، كي يحدث فيه تغيير روحي قام بعد أن يعي حقيقة هذه الكلمات، وليشمله بعد ذلك لطف الله ورحمته.

٢- سبب تكرار جملة «اهبِطُوا»

الأمر بالهبوط تكرر في الآيتين: ٣٦ و ٣٨ من هذه السورة، أي قبل توبية آدم وحواء وبعدها. للمفسرين رأيان في سبب التكرار، بعضهم قالوا للتاكيد، وأخرون قالوا إن موضوع الجملة الأولى يختلف عن موضوع الجملة الثانية. والظاهر أن الجملة الثانية توضح لأدم مسألة عدم إنتفاء الأمر بالهبوط في

١- مجمع البيان، ذيل الآيات التي نحن بصددها. ٢- الأنبياء، ٨٧.

٢- القصص، ١٦.

الأرض بعد قبول التوبة، وعدم الانتقاء هذا يعود إلينا إلى أن آدم قد خلق منذ البداية لهذا الهدف، أو لأن هذا الهبوط أثر وضعى لعمله. وهذا الأثر الوضعي لا يتغير بالتوبة.

٣- من هم المخاطبون في جملة «اهبِطُوا»؟

الضمير في «اهبِطُوا» للجمع، بينما عدد المخاطبين إثنان فقط، هما آدم وزوجه. والجمع هنا ناظر إلى النتيجة التي تستتبع هبوط آدم وحواء في الأرض. فأبناؤهما وأجيال البشر بعدهما سيستقرن على هذه المعمرة.

* * *

الآية

يَسْبِقُ إِنْرِهَ بِلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا
بِعَهْدِي أَوْ فِي بِعْهْدِكُمْ وَإِيَّنِي فَازْهَبُونِ ①

التفسير

ذكر النعم الإلهية

مررت بنا في الآيات السابقة قصة خلافة آدم في الأرض، وموقف الملائكة منه، ثم نسيانه العهد الإلهي وهبوطه إلى الأرض، وبعد ذلك توبته. ومن أحداث قصة آدم عليه السلام، اتضح أن الساحة الكونية تنطوي دوماً على قوتين: قوة الحق وقوة الباطل. وهاتان القوتان متقابلتان ومتصارعتان، ومن اتبع الشيطان في هذا الصراع فقد اختار طريق الباطل، ومصيره الابتعاد عن الجنة والسعادة، ومعاناة المصائب والألام، ومن ثم الندم. ومن إلتزم بأوامر الله ونواهيه وتغلب على وساوس الشيطان وأتباعه، فقد سار على طريق الحق، وابتعد عن نكد العيش وضنكه وألامه.

لما كانت قصة بنى إسرائيل ابتداءً من تحررهم من السيطرة الفرعونية واستغلالهم في الأرض، ومروراً بنسيان العهد الإلهي، وانتهاءً بسقوطهم في حضيض الإنحراف والمعذاب والمشقة، تشبه إلى حد كبير قصة آدم، بل هي فرع

من ذلك الأصل العام، فإن الله سبحانه في آية بحثنا وعشرات الآيات الأخرى التالية، بين مقاطع من حياة بنى إسرائيل ومصيرهم، لإكمال الدرس التربوي الذي بدأ بقصة آدم.

يوجه القرآن خطابه إلى بنى إسرائيل ويقول: **﴿إِنَّا بْنَ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوكُمْ نَعْقِتُكُمْ أَوْفِيَ عَهْدَكُمْ وَإِنَّا يَقُولُونَ﴾**

الأوامر الثلاثة التي تذكرها الآية الكريمة وهي: تذكر النعم الإلهية، والوفاء

بالعهد، والخوف من الله، تشكل المنهج الإلهي الكامل للبشرية.

تذكر النعم الإلهية يحفز الإنسان للإتجاه نحو معرفة الله سبحانه وشكره.

واشتئار العهد الإلهي الذي يستتبع النعم الإلهية يدفع الكائن البشري إلى

النهوض بمسؤولياته وواجباته. ثم الخوف من الله وحده - دون سواه - يمنع

الإنسان العزم على تحدي كل العقبات التي تقف بوجه تحقيق أهدافه والإلتزام

بهذه. لأن التخوف الموهوم من هذا وذاك أهم موانع الإلتزام بالعهد الإلهي.

وظاهرة الخوف كانت متغلللة في أعماق نفوس بنى إسرائيل نتيجة السيطرة

الفرعونية الطويلة عليهم.

* * *

بحوث

١- اليهود في المدينة

يعتل الحديث عن اليهود قسماً هاماً من سورة البقرة، التي هي أول سورة نزلت في المدينة كما صرخ بذلك بعض العلماء، لأن اليهود كانوا أشهر مجموعة من أهل الكتاب في المدينة، وكانوا قبل ظهور النبي ﷺ ينتظرون رسولاً بشرت به كتبهم الدينية، كما أنهم كانوا يتمتعون بمكانة اقتصادية مرموقة، ولذلك كله كان لليهود نفوذ عميق في المدينة.

ولما ظهر الإسلام، باعتباره الرسالة التي تقف بوجه مصالحهم اللامشروعة وإنحرافاتهم وغطرستهم، ففضلاً إلى عدم إيمانهم به وقفوا بوجه الدعوة، وبدأوا يحكون ضدّها المؤامرات التي لا زالت مستمرة بعد أربعة عشر قرناً من البعثة النبوية المباركة.

الآية المذكورة وآيات تالية أنتحت باللائمة الشديدة على اليهود، وهزت عواطفهم بذكر مقاطع حساسة من تاريخهم، بحيث لو كان لأحدّهم قليل من الموضوعية لاستيقظ واتجه نحو الإسلام. كما إن هذا السرد لتاريخ اليهود درس مليء بالعبر للمسلمين.

وستنقد في آيات تالية بإذن الله عند دروس من تاريخ اليهود، مثل نجاتهم من فرعون، وانقلاق البحر لهم، وغرق الفرعونيين، وميعاد موسى في جبل الطور، وعبادة بني إسرائيل للعجل في غياب موسى، والأمر بالتوبة وقتل النفس، ونزول النعم الخاصة الإلهية، وأمثالها من الدروس.

* * *

٢- ميثاق بني إسرائيل:

ميثاق بني إسرائيل الإلهي يتكون من اثني عشر بندًا، عشر منها ذكرت في آياتين متواترتين من هذه السورة.

«وَإِذَا أَخْذَنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَغْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ، وَبِالْأُلْزَادِينَ أَخْسَانًا، وَذِي الْقُرْبَى، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَتَيْمُوا الصَّلَاةَ، وَأَتْوَا الرَّحْكَةَ... وَإِذَا أَخْذَنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تُشْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَلَا تُغْنِي جُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ فَمَّا أَفْرَزْنَا وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ»^١.

وبنداً ذكرًا في الآية الكريمة:

«وَلَقَدْ أَخْذَ اللَّهُ مِيشَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ أُنْتَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعْكُمْ لَئِنْ أَفَتَمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الرَّزْكَةَ وَآمْنَתُمْ بِرُسُلِي، وَغَرَّزْتُمُوهُمْ...».

وهما: الإيمان بالأنبياء ومؤازرتهم.

كان بنو إسرائيل قد دُعوا بالنعيم إن وفوا بعهودهم، **«وَلَا دِخْلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْهِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**» لكنهم نقضوا الميثاق، ولا يزالون حتى اليوم ينقضونه. وكان نتيجة ذلك التشتيت والتشريد، وسيقون كذلك ما داموا ناكثين. وإذارأينا لهم يوماً جولة وضجيجاً بفضل الدعم الإستكباري لهم، فإن هذه الجولة سرعان ما ستختبوء إن شاء الله أمام صولة أبناء الإسلام... وهذا نحن نرى في الأفق بوادر الصحوة الإسلامية التي تدفع بالشباب أن يتخلوا عن المدارس الفكرية المنحرفة والإتجاهات القومية والعنصرية الكافرة ويقضوا على هذا الضجيج.

* * *

٣- وفاء الله بعهده

نعم الله تستبعها دوماً قيود وشروط، وإلى جانب كل نعمة، مسؤولية وشرط. عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في قوله الله عز وجل: «أوفوا بعهدي» قال: قال بولالية أمير المؤمنين عليه السلام «أوف بعهديكم أوف لكم بالجنة». ولا عجب إن ورد الإمام بولالية علي عليه السلام في هذا الحديث، باعتباره جزءاً من العهد. لأن الإيمان بالأنبياء ومؤازرتهم، من بنود العهد مع بنى إسرائيل، ويستتبع ذلك الإيمان بخلفاء الأنبياء باعتبارهم إمتداداً لمسألة القيادة والولاية وهذه المسألة ينبغي تحققتها بشكل يتناسب مع زمانها. موسى عليه السلام في زمانه كان

يتولى مسؤولية القيادة والولاية، والرسول الخاتم ﷺ هو الذي كان يتولى هذه المسؤولية في عصره، ثم تولّها نبي زمن تال علي بن أبي طالب عليهما السلام.

جملة «إياتي فائز هبون» تأكيد على كسر كل حواجز الخوف القائمة في طريق الوفاء بالمهد الإلهي، وعلى الخوف من الله وحده دون سواه، وهذا الحصر يتضح من تقديم ضمير النصب المنفصل «إياتي» على جملة «فائز هبون».

* * *

٤ - لماذا سمي اليهود «بني إسرائيل»؟

«إسرائيل» أحد أسماء يعقوب والد يوسف، وفي سبب تسمية يعقوب بهذا الاسم، ذكر المؤرخون غير المسلمين عللاً ممزوجة بالخرافة.

ورد في «قاموس الكتاب المقدس»: «أن إسرائيل تعني الشخص المنتصر على الله»!! ويقول: «وهذه الكلمة لقب بها يعقوب بن إسحاق بعد أن صرخ الملك الإلهي».

ويقول تحت عنوان «يعقوب»: إنه أثبت مقاومته واستقامته وإيمانه، وفي هذه الحالة غير الله اسمه إلى «إسرائيل»، ووعده أن يكون أباً لكل الطوائف ... ثم مات بعد أن هرم، ودفن كما يدفن السلاطين الدنيويون وأطلق اسم يعقوب وإسرائيل على جميع قومه.

ويقول تحت كلمة «إسرائيل»: «لهذا الاسم معانٍ كثيرة، يقصد به أحياناً نسل إسرائيل ونسل يعقوب!».

أما علماؤنا كالمحسن المعروف «الطبرسي» فيقول في «مجمع البيان»: إن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام وإن «اسر» تعني «العبد» و«ئيل»

بمعنى الله، فيكون معنى إسرائيل عبد الله. واضح أن ما تتحدث عنه التوراة من مصارعة بين يعقوب والملك الإلهي، أو بين يعقوب والله، خرافة وسخافة لا تناسب إطلاقاً مع الكتاب الإلهي، وهي أوضح دليل على تحرير التوراة الموجودة.

* * *

الآيات

وَإِمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرَ
يَهُ وَلَا تَشْرُوْا بِنَاسِيَقِنَا قَلِيلًا وَإِنَّى فَاتَّقُونِ ① وَلَا
تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْسِبُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَغْلَمُونِ ②
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكُوْةَ وَأَزْكُوْعَامَعَ أَرْكِعِينَ ③

سبب النزول

ذكر بعض المفسرين العظام رواية عن الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام: في سبب نزول هذه الآية قال: «كان حَيٌّ بن أَخْطَبَ وَكَفَبَ بْنُ أَشْرَفَ وَآخْرُونَ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَمْأَلُوكُهُ عَلَى الْيَهُودِ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَكَرِهُوْا بِطَلَاقَهُمَا بِأَمْرِ الشَّيْءِ الْمُلْكِيِّ، فَعَرَفُوْا بِذَلِكَ آيَاتٍ مِنَ التَّوْرَاهِ فِيهَا صِفَتُهُ وَذِكْرُهُ فَذَلِكَ الْقُنْدُونُ الَّذِي أُرِيدَ فِي الْآيَةِ».^١

التفسير

جشع اليهود

الآيات المذكورة أعلاه تتطرق إلى تسعه من بنود العهد الذي أخذه الله على

بني إسرائيل.

يقول تعالى: «وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ»، فالقرآن مصدق لما مع اليهود من كتابه أي أن البشائر التي زفتها التوراة والكتب السماوية الأخرى بشأن النبي الخاتم، والأوصاف التي ذكرتها لهذا النبي والكتاب السماوي تتطبق على محمد ﷺ، وعلى القرآن المنزل عليه فلماذا لا تؤمنون به؟!

ثم يقول سبحانه: «وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ» أي - لا عجب أن يكون المشركون والوثنيون في مكة - كفاراً بالرسالة، بل العجب في كفركم، بل في كونكم رواداً للكفر، وسباقين للمعارضة. لأنكم أهل الكتاب، وكتابكم يحمل بشائر ظهور هذا النبي، وكتم لذلك ترقبون ظهوره. فما عذرٌ مما بدا؟ ولماذا كتم أول كافر به؟!.

إنه تعنتهم الذي لواه لكانوا أول المؤمنين برسالة النبي الخاتم ﷺ.

المقطع الثالث من الآية يقول: «وَلَا تَشْتَرُوا بِأَيْمَانِي ثُمَّا قَلِيلًا».

آيات الله، لا ينبغي - دون شك - معاوضتها، بأي ثمن، قليلاً كان أم كثيراً. وفي تعبير هذه الآية إشارة إلى دناءة هذه المجموعة من اليهود، التي تنسى كل التزاماتها من أجل مصالحها التافهة. هذه الفتنة، التي كانت قبل البعثة من المبشرين بظهور نبي الإسلام ﷺ، وبكتابه السماوي، أنكرت بشارات التوراة وحرفتها، حين رأت مصالحها معرضة للخطر، وعلمت أن مكانتها الاجتماعية معرضة للإنهايار عند انكشاف الحقيقة للناس.

في الواقع، لو أعطيت الدنيا بأجمعها لشخص ثمناً لا إنكار آية واحدة من آيات الله، لكان ثمناً قليلاً، لأنَّ هذه الحياة فانية، والحياة الأخرى هي دار البقاء والخلود. فما بالك بيانسان يفرط بهذه الآيات الإلهية في سبيل مصالحه التافهة؟! في المقطع الرابع تقول الآية: «وَإِيَّاهُ فَانْتَقُونَ»، والخطاب موجه إلى زعماء اليهود الذين يخشون أن ينقطع رزقهم، وأن يثور المت指控ون اليهود ضدَّهم،

وتطلب منهم أن يخشوا الله وحده، أي أن يخشوا عصيان أوامر سبحانه.
في البند الخامس من هذه الأوامر ينهي الله سبحانه عن خلط الحق بالباطل
«وَلَا تُنَاهِيَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ».

وفي البند السادس ينهي عن كتمان الحق: **«... وَتَكْسِبُوا الْحَقَّ وَأَثْمَمُونَ تَغْلِمُونَ».**

كتمان الحق، مثل خلط الحق بالباطل ذنب وجريمة، والآية تقول لهم: قولوا الحق ولو على أنفسكم، ولا تشوها وجه الحقيقة بخلطها بالباطل وإن تعرضت مصالحكم الآنية للخطر.

البند السابع والثامن والتاسع من هذه الأوامر يبينه قوله تعالى: **«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّوْا الزَّكَاةَ وَازْكُرُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ».**

البند الأخير يأمر بالصلوة جماعة، غير أن «الركوع» هو الذي ذكر دون غيره من أجزاء الصلاة، ولعل ذلك يعود إلى أن صلاة اليهود كانت خالية من الركوع تماماً، بينما احتل الركوع مكان الزكوة الأساسي في صلاة المسلمين.

ومن الملفت للنظر أن الآية لم تقل «أدوا الصلاة»، بل قالت: **«أَقِيمُوا الصَّلَاةَ»**، وهذا الحث يحمل الفرد مسؤولية خلق المجتمع المصلي، ومسؤولية جذب الآخرين نحو الصلاة.

بعض المفسرين قال إن تعبير **«أَقِيمُوا»** إشارة إلى إقامة الصلاة كاملة، وعدم الاكتفاء بالاذكار والأوراد، وأهم أركان كمال الصلاة حضور القلب والفكر لدى الله سبحانه، وتأثير الصلاة على المحتوى الداخلي للإنسان.^١

هذه الأوامر الأخيرة تتضمن في الحقيقة: أولاًً بيان إرتباط الفرد بخالقه (الصلاحة)، ثم إرتباطه بالمخلوق (الزكوة)، وبعد ذلك إرتباط المجموعة البشرية مع

بعضها على طريق الله!.

* * *

بحث

هل يؤيد القرآن ما جاء في التوراة والإنجيل؟!

في موضع عديدة يصرّح القرآن بتصديقه لما جاء في الكتب الإلهية السابقة، كما جاء في الآية المذكورة: «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» وكما جاء في الآيتين ٨٩ و ١٠١ من سورة البقرة: «مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ». وفي الآية ٤٨ من سورة المائدة: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ».

بعض دعاة اليهودية والنصرانية. استدلوا بهذه الآيات لإثبات عدم تحريف التوراة والإنجيل. وقالوا: إن التوراة والإنجيل في عصر نبي الإسلام لا يختلفان حتماً عما عليه الآن. وإن أصحابهما تحريف فهذا التحرير يعود إلى فترة سابقة على ذلك العصر. ولما كان القرآن قد أيد صحة التوراة والإنجيل الموجودين في عصر نبي الإسلام، فعلى المسلمين أن يعترفوا بصحة هذين الكتابين الموجودين بين ظهرانينا اليوم.

الجواب

يؤكد القرآن في موضع عديدة وجود علامات النبي الإسلام ودينه في تلك الكتب المعرفة التي كانت موجودة في أيدي اليهود والنصارى آنذاك. وهذا يعني وجود حقائق في تلك الكتب لم تمتد إليها يد التحرير، ذلك لأنَّ التحرير لا يعني تغيير كل نصوص تلك الكتب السماوية، بل إن تلك الكتب كانت تحمل بين طياتها حقائق، ومن تلك الحقائق علامات النبي الخاتم (ولا زالت بعض هذه البشائر

مشهودة في الكتب الموجودة الآن).

بعثة النبي الخاتم ﷺ وكتابه السماوي تصدق لما جاء في تلك الكتب من علامات، أي تحقيق عملي لتلك العلامات. وكلمة التصديق بمعنى (التحقيق العملي) وردت في موضع آخر من القرآن الكريم كقوله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام: «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا»^١.

أي أنك قد حفظت عملياً رؤياك.

وتصدر الآية ١٥٧ من سورة الأعراف بأن الرسول الأعظم ﷺ تحقق عملي لما يجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَئِمَّةِ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التُّورَاةِ وَالْأَنْجِيلِ ...»^٢.

على أي حال، ليس في الآيات المذكورة دلالة على تصديق جميع محتويات التوراة والإنجيل، بل دلالتها تقتصر على «التصديق العملي» لما جاء في الكتب الموجودة بيد اليهود والنصارى بشأن النبي الخاتم وكتابه. هذا، إلى جانب وجود آيات عديدة في القرآن تتحدث عن تحريف اليهود والنصارى لآيات التوراة والإنجيل، وهو شاهد حتى صريح على مسألة التحريف.

شاهد حتى آخر:

«فخر الإسلام» - الذي كان من كبار قساوسة المسيحيين، وتتلذذ عند علمائهم حتى حاز مراتب كبيرة في الدراسات الكنيسية - يتحدث في مقدمة كتابه «أنيس الاعلام» عن انتقاله من المسيحية إلى الإسلام فيقول:

«... بعد بحث طويل وعناء كبير وتجوال في المدن، عثرت على قسيس كبير متميز في زهده وتقواه، كان يرجع إليه الكاثوليك بما فيهن سلاطينهم، تعلمته عليه

زمناً مذاهب النصارى، وكان له طلاب كثيرون، ولكنه كان ينظر إلى من بينهم نظرة خاصة، وكانت كل مفاتيح البيت بيدي، إلا مفتاحاً واحداً لغرفة صغيرة، احتفظ به عنده

وفي يوم اعتلت صحة القسيس، فقال لي: قل للطلاب إني لا أستطيع التدريس اليوم. حينما جئت الطلاب وجدتهم منهمكين في نقاش حول معنى «فارقليطا» في السريانية، و«پريكلتوس» في اليونانية ... واستمر بينهم النقاش، وكل كان يدللي برأيه

بعد أن عدت إلى الأستاذ سألني عما كان يدور بين الطلاب، فأخبرته، فقال لي: وما رأيك؟

قلت: اخترت الرأي الفلاني.

قال القسيس: ما قصرت في عملك، ولكن الحق غير ذلك. لأن حقيقة هذا الأمر لا يعلمها إلا الراسخون في العلم، وقليل ما هم، أكثرت في الالحاح عليه أن يوضح لي معنى الكلمة، فبكى بكاءً مرّاً وقال: لم أخف عليك شيئاً ... إن لفهم معنى هذه الكلمة أثراً كبيراً، ولكنه إن انتشر فستعرض للقتل! فإن عاهدتني أن لا تفشيه فسأخبرك ... فأقسمت بكل المقدسات أن لا أذكر ذلك لأحد، فقال: إنه اسم من أسماء نبى المسلمين، ويعنى «أحمد» و«محمد».

ثم أعطاني مفتاح الغرفة وقال: افتح الصندوق الفلاني، وهات الكتابين اللذين فيه، جئت إليه بالكتابين وكانا مكتوبين باليونانية والسريانية على جلد، ويعودان إلى عصر ما قبل الإسلام.

الكتابان ترجمتا «فارقليطا» بمعنى أحمد ومحمد، ثم أضاف الأستاذ: علماء النصارى كانوا مجمعين قبل ظهوره أن «فارقليطا» بمعنى «أحمد ومحمد»، ولكن بعد ظهور محمد صلوات الله عليه، غيروا هذا المعنى حفاظاً لمكانتهم ورئاستهم وأولويه، واختاروا له معنى آخر لم يكن على الإطلاق هدف صاحب الإنجيل.

سألته عما يقوله بشأن دين النصارى؟ قال: لقد نسخ بمجيء الإسلام، وكرر ذلك ثلثاً، ثم قلت:

ما هي طريقة النجاة والصراط المستقيم في زماننا هذا؟ قال: إنما هي باتباع محمد ﷺ.

قلت: وهل التابعون له ناجون؟

قال: إِنَّمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّكُنْ كُنَّا فِي أَرْضٍ

ثم بكى الأستاذ وبكيت كثيراً ثم قال: إذا أردت الآخرة والنجاة فعليك بدين الحق ... وأنا أدعوك دائماً، شرط أن تكون شاهداً لي يوم القيمة أنني كنت في الباطن مسلماً، ومن أتباع محمد ﷺ ... وما من شك أن الإسلام هو دين الله اليوم على ظهر الأرض^١.

وكما يلاحظ فإن هذه الوثيقة الهمامة تصرّح بما فعله علماء أهل الكتاب بعد ظهورنبي الإسلام ﷺ من تحريف لتفسير اسم النبي وعلماته، تحقيقاً لمصالحهم الشخصية.

* * *

١- تقليداً باختصار عن «الهداية الثانية» مقدمة كتاب «أنبياء الأعلام».

الآية

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ وَتَنْهَسُونَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَنْهَلُونَ
الْكِتَابَ أَفَلَا تَغْقِلُونَ ④ وَأَشَعَّيْنَا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا
كَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْمُشْتَدِّعِينَ ⑤ الَّذِينَ يَظْنُونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ
وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَجِعُونَ ⑥

التفسير

«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ وَتَنْهَسُونَ أَنفُسَكُمْ؟!»

هذا السؤال الإستنكاري - وإن كان موجهاً إلى بني إسرائيل كما يتبيّن من سياق الآيات السابقة والتالية - له حتماً مفهوم واسع يشمل الآخرين أيضاً. قال «الطبرسي رحمه الله» في «مجمع البيان»: هذه الآية خطاب لعلماء اليهود. وبختم الله تعالى على ما كانوا يفعلون من أمر الناس بالإيمان بـمحمد صلوات الله عليه وآله وسلامه وترك أنفسهم في ذلك.

وقال أيضاً: كان علماء اليهود يقولون لأقربائهم من المسلمين انتباوا على ما أنتم عليه ولا يؤمنون به.

لذلك كانت الآية الأولى من الآيات التي يدور حولها بحثنا تحمل توبيخاً لهذا العمل: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ وَتَنْهَسُونَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَنْهَلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا

تَعْقِلُونَ؟!

منهج الدعاء إلى الله يقول على أساس العمل أولاً ثم القول. فالداعية إلى الله يبلغ بعمله قبل قوله، كما جاء في الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «كُوْنُوا دُعَاءَ النَّاسِ بِأَعْمَالِكُمْ وَلَا تَكُونُوا دُعَاءَ بِالسِّتْكِمْ».^١

التأثير العميق للدعوة العملية يأتي من قدرة مثل هذه الدعوة على فتح منافذ قلب السامع، فالسامع يثق بما يقوله الداعية العامل، ويرى أن هذا الداعية مؤمن بما يقول وأن ما يقوله صادر عن القلب. والكلام الصادر عن القلب ينفذ إلى القلب. وأفضل دليل على إيمان الفائل بما يقوله، هو العمل بقوله قبل غيره، كما يقول علي عليهما السلام: «إِنَّهَا النَّاسُ إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَحْخُكُمْ عَلَى طَاعَةِ إِلَّا وَأَنْسِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَغْصِبَةِ إِلَّا وَأَنْتَاهُنَّ قَبْلَكُمْ عَنْهَا».^٢

وفي حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «مِنْ أَشَدِ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَصَفَ عَذَلاً وَعَمِلَ بِغَيْرِهِ».^٣

علماء اليهود كانوا يخشون من انهيار مراكز قدرتهم وتفرق عامة الناس عنهم، إن اعترفوا بر رسالة خاتم الأنبياء عليهما السلام، ولذلك حرّفوا ما ورد بشأن صفات نبي الإسلام في التوراة.

والقرآن يحث على الاستعاة بالصبر والصلاة للتغلب على الأهواء الشخصية والعيوب النفسية، فيقول في الآية التالية: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» ثم يؤكد أن هذه الاستعاة ثقيلة لا ينهض بعنتها إلا الخاشعون: «وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ».

وفي الآية الأخيرة من هذه المجموعة وصف للخاشعين: «الَّذِينَ يَظْنُونَ أَنَّهُمْ مُلْأَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

١- سفينة البحار، مادة «عمل».

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٧٥.

٣- تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٤.

كلمة «يَظْهُونَ» من مادة «ظن» وقد تأتي بمعنى اليقين^١. وفي هذا الموضع تعني الإيمان واليقين القطعي، لأن الإيمان بلقاء الله والرجوع إليه، يحيى في قلب الإنسان حالة الخشوع والخشية والإحساس بالمسؤولية، وهذا أحد آثار تربية الإنسان على الإيمان بالمعاد، حيث تجعل هذه التربية الفرد مائلاً دوماً أمام مشهد المحكمة الكبرى، وتدفعه إلى التهوض بالمسؤولية وإلى الحق والعدل.

ويحتمل أن يكون استعمال «الظن» في الآية للتأكيد، أي أن الإنسان لو ظن بالآخرة فقط، فظنه كاف لأن يصده عن ارتكاب أي ذنب. وهو تقرير لعلماء اليهود وتأكيد على أنهم لا يمتلكون إيماناً باليوم الآخر حتى على مستوى الظن، ولو ظنوا بالآخرة لاحسوا بالمسؤولية، وكفوا عن هذه التحريفات!^٢

* * *

بحثان

١- ما هو لقاء الله؟

عبارة «لقاء الله» وردت مراراً في القرآن الكريم، وتعني بأجمعها الحضور على مسرح القيامة. من البديهي أن المقصود بلقاء الله ليس هو اللقاء الحسي، كلقاء أفراد البشر مع بعضهم، لأن الله ليس بجسم، ولا يحده مكان، ولا يرى بالعين. بل المقصود مشاهدة آثار قدرة الله وجراه، وعقابه ونعمه وعذابه على ساحة القيامة، كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسرين.

أو إن المقصود الشهود الباطني والقلبي، لأن الإنسان يصل درجة كأنه يرى

١- يقول الراغب في المفردات: الظن اسم لما يحصل عن أمارة متى قويت أدت إلى العلم، وهي صفت جداً لم يتجاوز حد التوهّم.

٢- المسنار، ج ١، ص ٣٠٢، والميزان، ج ١، ص ١٥١. وتفسير روح المعاني، ج ١، ص ٢٢٨. وفي آيات أخرى إشارة إلى هذا المعنى كقوله تعالى: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلِيَنْتَلِعْ صَاعِدًا» (الكهف)، (١٠).

الله يبصره أمامه، بحيث لا يبقى في نفسه أي شك وتردد.
هذه الحالة قد تحصل للأفراد نتيجة الطهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس
في هذه الدنيا. وفي «نهج البلاغة» نقرأ: أن «ذعلب اليماني» وهو من فضلاء
أصحاب الإمام على بن أبي طالب رض. سأله عليه هل رأيت زئنك؟
أجابه علي: أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى؟!

وحين طلب ذعلب مزيداً من التوضيح قال الإمام:
«لَا تُذْرِكُهُ الْغَيْوُنُ بِمُسَاهَدَةِ الْعَيْانِ، وَلَكِنْ تُذْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَمَائِقِ الْإِعْانِ».^١
هذا الشهود الباطني ينجل إلى الجميع يوم القيمة، ولا يبقى أحد إلا وقد آمن
إيماناً قاطعاً، لوضوح آثار عظمة الله وقدرته في ذلك اليوم.

٢- سبيل التغلب على الصعب

ثمة منطلقات أساسية للتغلب على الصعب والمشاكل، أحدهما داخلي،
والآخر خارجي.

أشارت الآية إلى هذين المنطلقات بعبارة «الصبر» و«الصلة». فالصبر هو
حالة الصمود والإستقامة والثبات في مواجهة المشاكل، والصلة هي وسيلة
الإرتباط بالله حيث السند القوي المكين.

كلمة «الصبر» فسرت في روایات كثيرة بالصوم، لكنها لا تتحصر هنتماً. بل
الصوم أحد المصادر الواضحة البارزة للصبر. لأن الإنسان يحصل في ظل هذه
ال العبادة الكبرى على الإرادة القوية والإيمان الراسخ والقدرة على التحكم في
الميول والرغبات.

روى بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: أن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه كان إذا أحزنه أمر

استعن بالصلوة والصوم^١.

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «ما ينفع أحدكم إذا دخلَ عليه غمٌ من غُصُومِ الدُّنيا أن يتوكلاً ثم يدخلَ المسجدَ فَيَرْكعَ رَكْعَتَيْنِ يَدْعُو اللَّهَ فِيهِما، أما سَيَفِتُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: وَانشَعِنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ»^٢.

التوجه إلى الصلوة والتضرع إلى الله سبحانه يمنح الإنسان طاقة جديدة تجعله قادراً على مواجهة المشاكل.

وفي كتاب «الكافي» عن الصادق عليه السلام: «كَانَ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ إِذَا هَالَهُ أَمْرٌ فَرَأَى إِلَى الصَّلَاةِ ثُمَّ تَلَّا هَذِهِ الْآيَةُ: وَانشَعِنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ».

نعم، الصلوة تربط الإنسان بالقدرة اللامتناهية التي لا يظهرها شيء. وهذا الإحساس يبعث في الإنسان قوّة وشهامة على تحدي المشاكل والصعاب.

* * *

الآيات

يَسْبِئُ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْنِكُمْ وَأَنِّي
فَضَلَّتُكُمْ عَلَى الْغَلَبِينَ ﴿١٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسُ عَنْ
نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ
يُنَصَّرُونَ ﴿١٨﴾

التفسير

أوهام اليهود

في هذه الآيات خطاب آخر إلى بني إسرائيل فيه تذكير بنعم الله: «يَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْنِكُمْ». هذه النعم سابقة واسعة النطاق، ابتداءً من الهدایة والإيمان، وانتهاءً بالنجاة
من فرعون ونبي العظمة والاستقلال.

ثم تشير الآية من بين كل هذه النعم إلى نعمة التفضيل على بقية البشر، وهي
نعمـة مركبة من نعم مختلفة، وتقول: «وَأَنِّي فَضَلَّتُكُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ».
لعل البعض تصور أن هذا التفضيل صفة أبدية مستمرة على مر العصور. لكن
دراسة سائر آيات القرآن تبين أن هذا التفضيل هو تفضيل بني إسرائيل على
غيرهم من أفراد عصرهم ومنطقتهم، لا تفضيلاً مطلقاً. فالقرآن الكريم يخاطب

ال المسلمين في آية أخرى ويقول: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ ...»^١. كما يتحدث القرآن عن وراثة بني إسرائيل للأرض فيقول: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا»^٢. واضح أن هذه الوراثة لم تكن تشمل آنذاك جميع العالم، والمقصود من الآية مشارق المنطقة التي كانوا يعيشون فيها ومقاربها، من هنا فالتفضيل على العالمين هو تفضيلهم على أفراد منطقتهم.

* * *

الآية التالية ترفض أوهام اليهود، التي كانوا يتصورون بموجبها أن الأنبياء من أسلافها سوف يشفعون لهم، أو أنهم قادرون على دفع فدية وبدل عن ذنبهم، كدفعهم الرشوة في هذه الحياة الدنيا.

القرآن يخاطبهم ويقول: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَخْبِزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا. وَلَا يُغْبِلْ مِنْهَا شَفَاعَةً. وَلَا يُؤْخَذْ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنَصَّرُونَ».

الحاكم أو القاضي في تلك المحكمة الإلهية، لا يقبل سوى العمل الصالح، كما تقول الآية الكريمة: «يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنْوَنٌ إِلَّا مَنْ أَقَى اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»^٣.

إن الآية المذكورة من سورة البقرة، تشير في الواقع إلى ما يجري من محاولات في هذه الحياة الدنيا لإنقاذ المذنب من العقاب.

ففي الحياة الدنيا قد يتقدم إنسان لدفع غرامة عن إنسان مذنب لإنقاذه من العقاب، أما في الآخرة فإنه: «لَا تَخْبِزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ».

وربما يلتجأ المذنب في هذه الحياة إلى الشفاعة لينقذوه ممّا ينتظره من الجزاء، ويوم القيمة «... لَا يَقْبِلْ مِنْهَا شَفَاعَةً».

وإذا لم تُوجَد الشفاعة، يتقدم الإنسان في الحياة الدنيا بدفع (العدل) وهو بدل

١-آل عمران، ١١٠. ٢-الأعراف، ١٢٧.

٣-الشعراء، ٨٨ و ٨٩.

الشيء من جنسه، أما في الآخرة فـ «لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَذَّلٌ». وإذا لم تتفق الوسائل المذكورة كلها، يستصرخ أصحابه لينصروه ويخلصوه من الجزاء، وفي الآخرة لا يقوم بإنجاتهم أحد «وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ». القرآن الكريم يؤكد أن الأصول العاكمة على قوانين الجزاء يوم القيمة تختلف كليةً عما هو السائد في هذه الحياة، فالسبيل الوحيد للنجاة يوم القيمة، هو الإيمان والتقوى والاستعانت بالله تعالى.

تاریخ الشرک وتاریخ المنحرفين من أهل الكتاب، مليء بأفکار خرافية تدور حول محور التوسل وبمثل الأمور التي ذكرتها الآية الكريمة للفرار من العقاب الآخرولي. صاحب المنار يذكر مثلاً، أن الناس في بعض مناطق مصر - كانوا يدفعون مبلغاً من المال إلى الذي يتعهد غسل الميت، ويسموون هذا المبلغ أجرة الانتقال إلى الجنة^١.

وفي تاريخ اليهود نقرأ أنهم كانوا يقدمون القرابين للتکفير عن ذنوبهم، وإن لم يجدوا قرباناً كبيراً يكتفون بتقدیم زوج من الحمام.^٢

وفي التاريخ القديم كانت بعض الأقوام تدفن مع الميت حلبيه وأسلحته، ليستفيد منها في الحياة الأخرى^٣.

القرآن ومسألة الشفاعة

المقاب الإلهي في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا ينزل بساحة الإنسان دون شك من أجل الانتقام. بل إن العقوبات الإلهية تشكل عنصر الضمان في تنفيذ القوانين، وتؤدي في النتيجة إلى تقدم الإنسان وتكامله. من هنا يجب الاحتراز عن أي شيء يضعف من قوّة عنصر الضمان هذا، كي لا تنتشر بين الناس الجرأة

١- المنار، ج ١، ص ٣٠٦.

٢- الميزان، ج ١، ص ١٥٦.

٣- الميزان، ج ١، ص ١٥٦.

على ارتكاب العاصي والذنوب. من جهة أخرى، لا يجوز غلق باب العودة والإصلاح بشكل كامل في وجه المذنبين، بل يجب فتح المجال لإصلاح أنفسهم وللعودة إلى الله وإلى الظاهر والقوى.

«الشفاعة» بمعناها الصحيح تستهدف حفظ هذا التعادل، إنها وسيلة لعودة المذنبين والملوثين بالخطايا، وبمعناها الخاطئ، تشجع على ارتكاب الذنوب. أولئك الذين لم يفرقوا بين المعنى الصحيح والخاطئ، لمسألة الشفاعة، أنكروا هذه المسألة بشكل كامل، واعتبروها شبيهة بالواسطات التي تقدم إلى السلاطين والحكام الظالمين.

واثمة مجموعة كالوهابيين استندوا إلى الآية الكريمة: «لَا يُقْبَلُ مُنْهَا شَفَاعَةً» فأنكروا الشفاعة تماماً، دون الإلتفات إلى سائر الآيات في هذا المجال. اعتراضات المنكرين لمسألة الشفاعة يمكن تلخيصها بما يلي:

- ١- الاعتقاد بالشفاعة، يضعف روح السعي والمثابرة في نفس الإنسان.
- ٢- الاعتقاد بالشفاعة، انعكاس عن ظروف المجتمعات المتأخرة والإقطاعية.
- ٣- الاعتقاد بالشفاعة، يؤدي إلى التشجيع على ارتكاب الذنوب وترك المسؤوليات.

٤- الاعتقاد بالشفاعة، نوع من الشرك بالله، وهو معارض للقرآن! ٥- الاعتقاد بالشفاعة، يعني تغيير أحكام الله وتغيير إرادته وأوامره! ولكن كل هذه الاعتراضات ناتجة - كما سنرى - عن الخلط بين الشفاعة بمفهومها القرآني، والشفاعة بمعناها المنحرف الرانج بين الجهلة من الناس. ولما كانت هذه المسألة في جانبها الإيجابي والسلبي ذات أهمية بالغة، فعلينا أن ندرسها بالتفصيل من حيث مفهومها وفلسفتها، وإرتباطها بعالم التكوين،

وموقعها في القرآن والحديث، وصلته بالتوحيد والشرك، كي يزول كل إبهام يرتبط بالآية المذكورة وسائر الآيات في حقل الشفاعة.

١- المفهوم الحقيقي للشفاعة:

كلمة «الشفاعة» من «الشفع» بمعنى «الزوج» و«ضم الشيء إلى مثله»، يقابلها «الوتر» بمعنى «الفرد». ثم أطلقت على انضمام الفرد الأقوى والأشرف إلى الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعيف، ولها في العرف والشرع معنian متباينان كل التباين:

أ: إن الشفاعة لدى السواد تعني أن الشفيع يستفيد من مكانته وشخصيته ونفوذه، لتغيير رأي صاحب قدرة بشأن معاقبة من هم تحت سيطرته.

والشفيع قد يرعب صاحب القدرة هذا، أو قد يستعطفه، أو قد يغير أفكاره بشأن ذنب المجرم واستحقاقه للعقاب ... وأمثال هذه الأساليب.

الشفاعة بهذا المعنى هي - بعبارة موجزة - لا تعني حدوث أي تغيير في المحتوى النفسي والفكري للمجرم أو المتهم. بل إن كل التغييرات والتحولات تتوجه نحو الشخص الذي تقدم إليه الشفاعة (تأمل بدقة).

هذا اللون من الشفاعة ليست له مكانة في المفهوم الديني على الإطلاق. لأن الله سبحانه وتعالى لا يخطأ حتى يتوسط الشفيع في تغيير رأيه، ولا يحمل تلك العواطف الموجودة في نفس الإنسان كي يمكن إثارة عواطفه، ولا يهاب نفوذ شخص كي ينصاع الأوامر، ولا يدور ثوابه وعقابه حول محور غير محور العدالة.

ب: المفهوم الآخر للشفاعة يقوم على أساس تغيير موقف «المشفوع له». أي أن الشخص المشفوع له يوفر في نفسه الظروف والشروط التي تؤهله للخروج من وضعه السيء الموجب للعقاب، وينتقل - عن طريق الشفيع إلى وضع مطلوب حسن يستحق معه العفو والسامح. والإيمان بهذا النوع من الشفاعة - كما

سنرى - يربى الإنسان، ويصلح الأفراد المذنبين، ويبعث فيهم الصحوة واليقظة. والشفاعة في الإسلام لها هذا المفهوم السامي.

وسنرى أن كل الإعتراضات والإنتقادات والعملات التي توجه إلى مسألة الشفاعة، إنما تنطلق من فهم الشفاعة بالمعنى الأولي المنحرف، ولا تلتفت إلى المعنى الثاني المنطقي المعقول البناء.

هذا تفسير مقتضب للوين من ألوان الشفاعة: أحدهما «تخديري»، والآخر «بناء».

* * *

٢- الشفاعة في عالم التكوين

التفسير الصحيح والمنطقي للشفاعة - بالمفهوم الذي مرّ بنا - له مصاديق كثيرة في عالم التكوين والخلقة، (إضافة إلى عالم التشريع). الطاقات الأقوى في هذا العالم تنضم إلى الأضعف منها لتسيرها نحو أهداف بناء.

الشمس تشرق والأمطار تساقط، لتفجر القوة الكامنة في البذرة لتحرركها نحو الإنبات، ونحو شق جسم التربة والخروج إلى الفضاء الذي استمدت البذرة منه طاقات النمو والتكمال.

هذه الظواهر هي في الحقيقة شفاعة تكوينية على صعيد قيامة الحياة الدنيا. ولو انطلقنا من هذه النماذج الكونية في الشفاعة لفهم الشفاعة على صعيد التشريع، لا ببعدنا عن الإنحراف، وسنوضح ذلك قريباً.

* * *

٣- مستندات الشفاعة:

القرآن الكريم تحدث في ثلاثة مواضع عن مسألة «الشفاعة» (بهذا اللفظ)،

وهناك إشارات أخرى إلى هذه المسألة دون ذكر لفظها.

يمكن تقسيم آيات الشفاعة في القرآن إلى المجموعات التالية.

المجموعة الأولى: آيات ترفض الشفاعة بشكل مطلق كقوله تعالى: «أَنْقُثُوا مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْيَغُ فِيهِ وَلَا خُلَّةً وَلَا شَفَاعَةً»^١، وك قوله تعالى: «وَلَا يَثْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً»^٢.

هذه الآيات رفضت كل الطرق المتضورة لإنقاذ المجرمين غير الإيمان والعمل الصالح، سواء كان طريق دفع العوض المادي، أو طريق الصدقة والخلة، أو طريق الشفاعة.

ويقول تعالى بشأن بعض المجرمين: «فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ»^٣.

المجموعة الثانية: آيات تحصر الشفاعة بالله تعالى، كقوله سبحانه: «مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ»^٤، و«قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا»^٥.

المجموعة الثالثة: آيات تجعل الشفاعة متوقفة على إذن الله تعالى كقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا يَأْذِنُهُ»^٦، وقوله «وَلَا تَنْقُعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ»^٧.

المجموعة الرابعة: آيات تبين شروطاً خاصة للشفاعة له. هذه الشروط تمثل أحياناً في رضا الله سبحانه: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى»^٨.

وإسناداً إلى هذه الآية، شفاعة الشفعاء تشمل فقط أولئك الذين بلغوا مرتبة «الإرتضاء» أي القبول لدى الله سبحانه وتعالى.

ويتمثل الشرط أحياناً بالعهد عند الله: «لَا يَقْلُكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اخْتَدَ عِنْدَ

١- البقرة، ٤٨.

.٢٥٤

٤- السجدة، ٤.

.٤٨

٦- البقرة، ٢٥٥.

.٤٤

٨- الأنبياء، ٢٨.

.٢٢

الرَّحْمَنِ عَهْدَهُ^١، والمقصود من هذا العهد الإيمان بالله ورسوله. ويتحدث القرآن عن سلب صلاحية الإستشفاع عن بعض الأفراد مثل المجرمين، كقوله تعالى: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ»^٢. مما تقدم يتضح أن اتخاذ العهد الإلهي، والوصول إلى منزلة نيل رضا الله، واجتناب بعض الذنوب مثل الظلم، شروط حتمية للشفاعة.

* * *

٤- الشروط المختلفة للشفاعة:

آيات الشفاعة تصرح أن مسألة الشفاعة في مفهوم الإسلام مقيدة بشروط، هذه الشروط تحدد تارة الخطيئة التي يستشفع المذنب لها، وتحدد تارة أخرى الشخص المشفع له، كما تقييد من جهة أخرى الشفيع، وهذه الشروط بمجموعها تكشف عن المفهوم الحقيقي للشفاعة وعن فلسفتها.

ثمة ذنوب كالظلم مثلاً خارجة عن دائرة الشفاعة حيث يقول القرآن «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» كما مر، ولو فهمنا «الظلم» بمعناه الواسع - كما سرى من خلال الأحاديث - فإن الشفاعة تقتصر حينئذ على المجرمين النادمين السائرين على طريق إصلاح أنفسهم، والشفاعة في هذه الحالة ستكون دعامة للتوبة وللندم (سنجيب أولئك الذين يتصورون أن التائب النادم لا يحتاج إلى الشفاعة).

كما أن الشفاعة - وطبقاً للآية ٢٨ من سورة الانبياء - لا تشمل إلا أولئك المرتدين إلى درجة «الإرتضاء» وإلى درجة الالتزام بالعهد الإلهي كما مر أيضاً في الآية ٨٧ من سورة مريم.

الإرتضاء، واتخاذ العهد، يعنيان على المستوى اللغوي وكذلك ما ورد من الروايات في تفسير هذه الآيات الإيمان بالله والحساب والميزان والشواب والعقاب، والاعتراف بالحسنات والسيئات، وبما أنزل الله، إيماناً عميقاً في الفكر، ظاهراً في العمل... إيماناً يبعد صاحبه عن صفات الطالمين الذين لا يؤمنون بأية قيمة إنسانية، ويدفعه إلى إعادة النظر في منهج حياته.

يقول تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَاباً رَّحِيمًا»^١، هذه الآية تجعل الاستغفار مقدمة لشفاعة رسول الله ﷺ.

ويقول: «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَكَ ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا حَاطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْفَقُورُ الرَّءِيمُ»^٢، آثار الندم واضحة على إخوة يوسف في طلبهم من أبيهم.

ويقول سبحانه: «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبِّنَا وَسَفَرَ كُلُّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِيمَهُ عَذَابَ الْجَنِيعِ»^٣ فاستغفار الملائكة وشفاعتهم تقتصر على الأفراد المؤمنين السالكين سبيل الله.

وهنا يطرح أيضاً سؤال بشأن جدواي الشفاعة للأفراد المؤمنين السالكين سبيل الله، وسنجيب على ذلك في دراسة حقيقة الشفاعة.

وبشأن الشفاعة ذكر القرآن لهم شرطاً في قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ»^٤. من هنا فالمشفوع له أيضاً ينبغي أن يسلك طريق الحق في القول والعمل، كي يكون له إرتباط بالشفيع، وهذا الإرتباط الضروري بين الشفيع والمشفوع له يعتبر بدوره عاملاً بناءً في تعينة الطاقات على طريق الحق.

* * *

١- النساء، ٦٤.

٢- يوسف، ٩٧ و ٩٨.

٤- الرخرف، ٨٦.

٣- المؤمن، ٧.

٥- الشفاعة في الحديث:

في الروايات الإسلامية تعاير كثيرة تكمل محتوى الآيات المذكورة وتوضح ما خفي منها، من ذلك:

- ١- في تفسير «البرهان» عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «شفاعتي لأهل الكبار من أئمي...» راوي الحديث ابن أبي عمر يقول: قلت له: يا بن رسول الله كيف تكون الشفاعة لأهل الكبار وأنت لا يشفعون إلا ممن أرضضني؟ ومن يزتكب الكبار لا يكتبون مرضضني به؟ فقال: يا أبا أحمد ما من مؤمن يزتكب ذنبًا إلا ساءه ذلك وندم عليه وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفى بالندم توبة... ومن لم يندم على ذنب يزتكبه فليس بمؤمن ولم تحيط به الشفاعة وكأن ظلماً والله تعالى ذكره يقول: «ما للظالمين من حسيم ولا شفيع يطاعه»^١ صدر الحديث يتضمن أن الشفاعة تشمل مرتكبي الكبار. لكن ذيل الحديث يوضح أن الشرط الأساسي في قبول الشفاعة هو الإيمان الذي يدفع المجرم إلى مرحلة الندم وجبران ما فات، ويبعده عن الظلم والطغيان والعصيان. (تأمل بدقة).
- ٢- في كتاب «الكافي» عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في رسالته كتبها إلى أصحابه قال: «من سرّه أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضي عنه»^٢

يتبيّن من سياق الرواية، أن كلام الإمام يستهدف إصلاح الخطأ الذي وقع فيه بعض أصحاب الإمام في فهم مسألة الشفاعة: ويرفض بصرامة مفهوم الشفاعة الخاطئ المشجع على ارتكاب الذنوب.

- ٣- وعن الصادق عليه السلام أيضاً: «إذا كان يوم القيمة يبعث الله العالم والأقاييد، فإذا وقنا بين يدي الله عز وجل قيل للغاید: إنطلق إلى الجنة، وقيل للعالم: قفت شفاعة للناس بمحسن

^١- تفسير البرهان، ج ٣، ص ٥٧.

^٢- عن بحار الأنوار، ج ٣، ص ٤ الطبعة القديمة.

تأديبك طمّ».١

في هذا الحديث نجد إرتباطاً بين «تأديب العالم» و«شفاعته لمن أذبهم» وهذا الإرتباط يوضح كثيراً من المسائل المبهمة في بحثنا هذا. أضف إلى ما سبق أن في اختصاص الشفاعة بالعالم وسلبها من العابد، دلالة أخرى على أن الشفاعة في المفهوم الإسلامي ليست معاملة وعقداً وتلقاءً بالموازين، بل مدرسة للتربية، وتجسيد لما مرّ به الفرد من مراحل تربوية في هذا العالم.

* * *

٦- التأثير المعنوي للشفاعة:

ما ذكرناه من روایات بشأن الشفاعة هو غيض من فيض، فالروايات في هذا المجال كثيرة تبلغ حدّ التواتر، وإنما اخترنا منها ما يتناسب مع بحثنا. النووي الشافعي^٢ في شرحه لصحيح مسلم، نقل عن القاضي عياض - وهو من كبار علماء أهل السنة، - أنَّ أحاديث الشفاعة متواترة.^٣ ابن تيمية (المتوفى ٧٢٨ هـ) ومحمد بن عبد الوهاب (المتوفى ١٢٠٦ هـ)، مع ما لهما من تعصّب ولجاج في مثل هذه الأمور، يقران بتواتر هذه الروایات. ثمة كتاب دراسي معروف ومتداول بين «الوهابية» هو «فتح البعيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن، ينقل عن «ابن القيم» ما يلي:

«الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة

١- الإختصاص، للمفید، نقلًا عن البحار، ج ٣، ص ٣٥٥.

٢- هو يحيى بن شرف، من علماء القرن السابع الهجري، والنوي نسبة إلى مدينة «النوي» قرب دمشق.

٣- البحار، ج ٣، ص ٣٠٧.

قاطبة ويدعوا من أنكرها وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال^١.
و قبل أن ندرس الآثار الاجتماعية والنفسية لمسألة الشفاعة والاشكاليات
الاربع حول فلسفة الشفاعة، نلقي نظرة على الآثار المعنوية لهذه المسألة في إطار
آراء الموحدين المؤمنين بالشفاعة، فمثل هذه النظرية تمهد السبيل لدراسة
القادمة في حقل الشفاعة ومعطياتها الاجتماعية والنفسية^٢.

اختلف علماء العقائد المسلمين في كيفية التأثير المعنوي للشفاعة. فقال
جمع يسمون «الوعيدية»، وهم المؤمنون بخلود مرتكبي الكبائر في جهنم: إن
الشفاعة ليس لها أثر على إزالة آثار الذنوب، بل تأثيرها يقتصر على زيادة التواب
وعلى التكامل المعنوي.

و«التفضيلية» وهم من يعتقد بعدم خلود مرتكبي الكبائر في جهنم، فيذهبون
إلى أن الشفاعة تشمل المذنبين، وتؤثر في إسقاط العقاب عنهم.
أما «الخواجة نصير الدين الطوسي»^٣ فيؤيد كلا الأمرين في كتابه «تجريد
الاعتقاد» ويرى وجود كلا الأثنين للشفاعة.

«العلامة الحلي»^٤ شرح عبارة الطوسي في كتابه «كشف العراد» ولم يرد
عليها بل أورد شواهد عليها.

لو أخذنا بنظر الاعتبار ما مررنا بشأن معنى الشفاعة لنوياً ومقارنتها
بالشفاعة التكوينية، لما ترددنا في صحة ما ذهب إليه المحقق الطوسي.
فمن جهة، ثمة رواية معروفة عن الإمام الصادق^{عليه السلام} هي: «ما من أَخْدِيَ مِنَ
الْأُولَئِنَ وَالآخِرِينَ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ^{صلوات الله عليه} يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^٥.
ويستناداً إلى هذه الرواية، يحتاج إلى الشفاعة كل الناس، حتى التابعون

١- فتح المجيد، ص ٢١١.

٢- ينفي الإلتفات إلى أننا نعالج هذه المسألة من خلال المنطق الخاص لعلماء العقائد.

٣- نقل عن البحار وكتب أخرى.

المغفور لهم، وفي مثل هذه الحالة لابد أن تكون الشفاعة ذات تأثيرين، في الحط من الذنوب، وفي علو المنزلة.

أما الروايات التي تذهب إلى عدم حاجة الصالحين للشفاعة فهي تنفي ذلك النوع من الشفاعة الخاص بال مجرمين والمذنبين.

ومن جهة أخرى ذكرنا أن الشفاعة تعني انضمام الفرد الأشرف والأقوى إلى الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعيف، وهذه المساعدة قد تكون لزيادة نقاط القوة، وقد تكون لإزالة نقاط الضعف.

في الشفاعة التكوينية نشهد هذين اللوتين من الشاعنة في مسيرة حركة التكامل والنمو، فإن الكائنات الأضعف تحتاج إلى عوامل أقوى لإزالة عوامل التخريب تارة (كحاجة النباتات إلى نور الشمس لإيادة الآفات)، وتارة أخرى لزيادة نقاط القوة وسرعة التطور (كحاجة النباتات إلى نور الشمس من أجل النمو)، وهكذا الطالب يحتاج إلى الأستاذ لإصلاح أخطائه من جهة، ولزيادة معلوماته من جهة أخرى.

كل ذلك يدل على أن للشفاعة أثرين، ولا تقتصر على دائرة إزالة آثار الذنب والإيمان (تأمل بدقة).

مما تقدم نفهم أن الثندين بحاجة أيضاً إلى الشفاعة مع علمنا بأن التوبة وحدها كافية لغفران الذنب، وذلك لسبعين:

١ - الثندين بحاجة إلى الشفاعة لزيادة مكانتهم المعنوية، ولتقديمهم في مضمار التكامل والإرتقاء، وإن كان الغفران يتحقق بالتوبة.

٢ - ثمة خطأ وقع فيه كثيرون في فهم التوبة، إذ تصوروا أن التوبة من الذنب قادرة على إرجاع الإنسان إلى حالة ما قبل ارتكاب الذنب، بينما التوبة ليست كما ذكرنا في موضعه - سوى مرحلة أولى، إنها كالدواء الذي يقطع عوارض المرض، وانقطاع العوارض لا يعني عودة الإنسان إلى حالته الطبيعية، بل يعني انتقاله إلى

حالة نقاها يحتاج خلالها إلى تقوية بنيته الجسمية، ليعود بعد مدة إلى مرحلة ما قبل المرض.

بعبارة أخرى، للتوبة مراحل، والندم على الذنب والعزم على التطهير في المستقبل هو المرحلة الأولى للتوبة. والمرحلة النهائية تتحقق حين يعود التائب إلى حالة ما قبل الذنب من كل النواحي. وفي هذه المرحلة تكون شفاعة الشافعين ذات أثر وعطاء.

أفضل شاهد على هذا ما ورد في القرآن وذكرناه من قبل بشأن استغفار الرسول ﷺ للتائبين، وتوبة إخوة يوسف واستغفار يعقوب لهم، وأوضح من كل ذلك استغفار الملائكة للصالحين والمصلحين الوارد في الآيات المذكورة آنفاً. (تأمل بدقة)!

٧- فلسفة الشفاعة

من بنا فيما سبق «مفهوم» الشفاعة و«أسانيدها»، ونستطيع من ذلك أن نفهم بسهولة فلسفة الشفاعة على الصعيد الإجتماعي وال النفسي. وبشكل عام وإنطلاقاً من مفهوم الشفاعة نستطيع أن نلمس الآثار التالية في المؤمنين بالشفاعة.

«مكافحة روح اليأس» من أهم آثار الشفاعة في نفس المعتقدين بها. مرتكبو الجرائم الكبيرة يعانون من وخز الضمير، كما يشعرون باليأس من عفو الله، ولذلك لا يفكرون بالعودة ولا بإعادة النظر في طريقة حياتهم الأئمة. وقد يدفعهم المستقبل المظلم إلى التعنت والطغيان، وإلى التحلل من كل قيد تماماً، كالمريض اليائس من الشفاء الذي يتحلل من أي نظام غذائي، لاعتقاده بعدم جدواه التقيد بنظام.

قلق الضمير الناتج عن هذه الجرائم قد يؤدي إلى اختلالات نفسية، وإلى تحفيز الشعور بالإنتقام من المجتمع الباعث على تلوّنه. وبذلك يتبدل المذنب إلى

عنصر خطر، وإلى مصدر قلق اجتماعي.

الإيمان بالشفاعة يفتح أمام الإنسان نافذة نحو النور، ويعين فيه الأمل بالعفو والصفح، وهذا الأمل يجعله يسيطر على نفسه، يعيد النظر في مسيرة حياته، بل ويشجعه على تلافي سيئات الماضي.

والإيمان بالشفاعة يحافظ على التعادل النفسي والروحي للمذنب، ويفتح الطريق أمامه إلى أن يتبدل إلى عنصر سالم صالح.

من هنا يمكن القول أن الإهتمام بالشفاعة بمعناها الصحيح عامل رادع بناءً، قادر أن يجعل من الفرد مجرم المذنب فرداً صالحاً. وانطلاقاً من هذا الفهم نجد أن مختلف قوانين العالم وضعت فسحة أمل أمام المحكومين بالسجن المؤبد باحتمال العفو بعد مدة إن أصلحوا أنفسهم، كي لا يتسرّب اليأس إلى نفوسهم بذلك ويتبدلوا إلى عناصر خطيرة داخل السجن أو يصابون باختلالات نفسية.

* * *

٨- شروط «توفّر الشفاعة»

الشفاعة بمعناها الصحيح لها قيود وشروط متعددة الجوانب، كما ذكرنا. من هنا فالمؤمنون بهذا المبدأ لابد أن يسعوا لتوفير شروط الشفاعة كي يشملهم عطاوتها، وأن يجتنبوا الذنوب التي تقضي على كل أمل في الشفاعة كالظلم، وأن يستأنفوا حياة جديدة قائمة على أساس تغيير عميق في أنفسهم وأن يتوبوا من الذنب أو يهتموا بالتوبة على الأقل من أجل بلوغ درجة «الارتضاء» واتخاذ «العهد الإلهي» (بالتفسير المذكور).

عليهم أن يكفوا عن مخالفة الأحكام والقوانين الإلهية، أو يقللوا من هذه المخالفة ما أمكنهم، ويعمقوا في أنفسهم الإيمان بالله واليوم الآخر. من جهة أخرى لابد لنيل شفاعة «الشفعي»، أن يسعى الفرد لإيجاد نوع من

التشابه والستخية وإن كان ضعيفاً بينه وبين الشفيع.
وكما أن «الشفاعة التكوينية» لا تتم إلا بوجود نوع من الستخية والتسليم
والاستعداد في الموجود الأضعف، كذلك الشفاعة التشريعية لا تتحقق إلا بتوفير
مثل هذه القابليات، (تأمل بدقة).
وبهذا يتضح بجلاء أن الشفاعة بمعناها الصحيح لها دور فعال في تغيير وضع
المجرمين وإصلاحهم.

* * *

٩- شبكات حول مسألة الشفاعة

ذكرنا أن بين «الشفاعة» في مفهومها المنحرف و«الشفاعة» في مفهومها
الإسلامي الصحيح بوناً شاسعاً. المفهوم الأول يقوم على أساس تغيير وجهة نظر
«المستشفع»، والآخر يدور حول التغيرات المختلفة في وضع المستشفع
له.

واضح أن الشفاعة بمفهومها الأول مرفوضة لأنها تقتل روح السعي والمثابرة
في النfos ... وتشجع على ارتكاب الذنوب ... وتعتبر انعكاساً عن المجتمعات
المختلفة والإقطاعية ... وتتضمن أكثر من ذلك نوعاً من الشرك والإنحراف عن
خط التوحيد.

لا شك أن الإنسان المسلم يبتعد عن خط التوحيد لو اعتقاد بإمكان تقديم
«وساطة» إلى الله كما تقدم «الواسطات»، إلى أصحاب النفوذ في هذه الدنيا. لأن
مثل هذا الفرد قد اعتقاد بشكل غير مباشر بإمكان تغيير علم الله! وبإمكان خفاء
أمر من أمور «المستشفع» على الله! أو بوجود مصدر يمكن أن يطفئ الإنسان به
غضب الله أو يكسب به ودَّه ورضاه! أو بحاجة الله إلى مكانة بعض عباده وبسبب
احتياجه إليهم يقبل شفاعتهم. أو أنه تعالى يقبل شفاعتهم بسبب خوفه من

نفوذهم!! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.
 كل هذه المعاني تبعدها من أصل التوحيد وتؤدي بنا إلى السقوط في وادي الشرك ... إنها المفهوم السلبي للشفاعة والسائل لدى العرف العام.
 أما الشفاعة بمعناها الصحيح الذي ذكرناه، فلا تنطوي على هذه العيوب، بل إنها أكثر من ذلك تصلح العيوب، وتعمق النقاط الإيجابية في الكائن البشري.
 هذا النوع من الشفاعة لا يشجع على إرتكاب الذنب، بل يدفع إلى ترك الذنوب.

لا يدعو إلى التقاعس والتماطل، بل يبعث في الإنسان روح الأمل التي يستتبعها عادة تصعيد الإرادة لتنافي أخطاء الماضي.
 هذه الشفاعة لا ترتبط بالمجتمعات المختلفة، بل هي وسيلة تربوية فعالة لإصلاح المجرمين والمذنبين والمعتدلين.
 ليست هذه الشفاعة بشرك، بل هي عين التوحيد والتأكيد على التوجه إلى الله والإستمداد من صفاته وإذنه وأمره.
 ولمزيد من التوضيح نتحدث أكثر عن مسألة الشفاعة والتوحيد.

١٠ - الشفاعة والتوحيد

الفهم الخاطيء لمسألة الشفاعة آثار اعتراف فتنتين على ما بينهما من تضاد.
 الفتنة الأولى: اعترضت على الشفاعة من منطلق مادي واعتبرتها عاملاً للتخدير ولإماتة روح التسعي والمثابرة، وقد أجبنا على اعترافات هذه الفتنة فيما سبق.

الفتنة الأخرى: اعترضت على الشفاعة من منطلق السلفية، واعتبرتها شركاً وإنحرافاً عن خط التوحيد، ويمثل هذه الفتنة «الوهابيون» ومن لفّ لهم، والإيجابة على اعترافات الوهابيين وإن كانت تحتاج إلى إطالة وخروج عن طريقة التفسير

إلا أنها ضرورية لأسباب عديدة.

لابد من الإلتفات أولاً إلى أن الحركة الوهابية، التي ظهرت خلال القرنين الأخيرين في الجزيرة العربية على يد «محمد بن عبد الوهاب» لم تتجه في أفكارها المتطرفة الجافة إلى معارضة مدرسة أهل البيت عليهم السلام فقط، بل اصطدمت بمعظم المسلمين من أهل السنة أيضاً.

محمد بن عبد الوهاب (المتوفى ١٢٠٦ هـ) استقى أفكاره من «أبن تيمية» (أحمد بن عبد الحليم الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٨ هـ)، أي قبل أربعة قرون تقريباً من ظهور الوهابية، ويعتبر المنظر لهذه الحركة.

استطاع عبد الوهاب خلال الأعوام (١١٦٠ - ١٢٠٦ هـ) بالتعاون مع الحكام المحليين أن ينشر دعوته بين القبائل البدوية المتنقلة في الجزيرة العربية ويبث فيهم تعصباً أعمى باسم الدفاع عن التوحيد ومكافحة الشرك، وعبد البدو والمتنصسين من أتباعه على طريق قمع معارضيه، واستطاع بذلك أن يكتسب قدرة سياسية ويسطير بشكل مباشر وغير مباشر على الحكم، وأراق من أجل ذلك دماء كثيرة من المسلمين في أرض الجزيرة العربية وخارجها.

في سنة ١٢١٦ هـ (عشر سنوات بعد وفاة مؤسس الحركة الوهابية) هاجمت جماعة من الوهابيين مدينة كربلاء قادمة من صحراء الجزيرة العربية، واستغلوا فرصة سفر أهالي المدينة إلى النجف الأشرف بمناسبة عيد الفدير، فدخلوا المدينة وقاموا بتخريب وهدم مرقد سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام وسائر المراقد الشريفة في هذه المدينة، ونهبوا ما فيها من أبواب ذهبية وتقانس، وقتلوا ما يقرب من خمسين شخصاً عند ضريح الحسين، وخمسماة شخص في صحن الروضة المشرفة، كما قتلوا أعداداً كبيرة في سائر أنحاء المدينة، حتى بلغ عدد المقتولين في ذلك الهجوم الوهابي خمسة آلاف إنسان، ولم يسلم منهم حتى الشيوخ والعجائز والأطفال، كما نهبوا كثيراً من البيوت.

في عام ١٣٤٤ أفتى فقهاء المدينة الخاضعون لجهاز الحكم الوهابي بهدم قبور أئمة الإسلام وأولياء الله الصالحين، ونفذت هذه الفتوى في اليوم الثامن من شوال من السنة المذكورة، وهم المنفذون أن يهدموا قبر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه أيضاً، لولا تراجمهم أمام صيحات اعتراف المسلمين.

أتباع محمد بن عبد الوهاب يتميزون على العموم بالخشونة والتصلب والسطحية واللجاج والبعد عن المنطق والتعقل وقد حصروا الإسلام - عمداً أو غفلة - في إطار مكافحة عدد من الظواهر كالشفاعة وزيارة القبور والتسلّل، وبذلك أبعدوا أتباعهم ومن خضع لسيطرتهم عن المسائل الإسلامية الحياتية، وخاصة فيما يرتبط بالمقدمة الاجتماعية، ومكافحة السيطرة الاستعمارية، والتصدي للثقافة المادية وللمدارس الالحادية.

لذلك لا تجد في أوساط الوهابيين حديثاً عن هذه المسائل، بل تسود أجواءهم حالة فطيعة من الغفلة والركود.

نعود إلى رأي هذه الفتنة بشأن الشفاعة، هؤلاء يقولون: لا يحق لأحد أن يستشفع برسول الله، وأن يقول: «يا محمد اشفع لي عند الله» لأن الله سبحانه يقول: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ هُوَ فَلَّا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدَآءَ».

وفي رسالة «كشف الشبهات» لمحمد بن عبد الوهاب نقرأ ما يلي:

«فَإِنْ قَالَ أَنَّ النَّبِيَّ صلوات الله عليه وآله وسلامه أَعْطَى الشُّفَاعَةَ وَأَطْلَبَهَا مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ. فَالجوابُ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ الشُّفَاعَةَ وَنَهَاكُ عنْ هَذَا وَقَالَ: «فَلَّا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدَآءَ» وَأَيْضًا فَإِنَّ الشُّفَاعَةَ أَعْطَاهَا غَيْرُ النَّبِيِّ، فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ وَالْأُولَيَاءَ يَشْفَعُونَ ... أَتَقُولُ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُمُ الشُّفَاعَةَ فَاطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟ فَإِنْ قَلْتَ هَذَا رَجُمْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ»؟

١-العن، ١٨.

٢-كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب، فنلاً عن رسالة البراهين الجلية، ص ١٧.

ويقول محمد بن عبد الوهاب في رسالة أربع قواعد ما حاصله: إن الخلاص من الشرك يكون بمعرفة أربع قواعد.

الأولى: أنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قاتلُوكُمُ الْأَنْبِيَاءَ مُقْرَنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمَدِيرُ ... لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ ...؟»^١.

الثانية: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا دَعَوْنَا إِلَّا أَنْصَامًا وَتَوْجِهَنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا طَلْبَ الْقُرْبَى وَالشَّفَاعَةِ ... «وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءُ شُفَّاقُنَا عِنْدَ اللَّهِ»^٢.

الثالثة: إِنَّهُمْ ظَاهِرٌ عَلَى قَوْمٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ، فَبَعْضُهُمْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَبَعْضُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ الصَّالِحِينَ، وَبَعْضُهُمُ الْأَشْجَارُ وَالْأَحْجَارُ، وَبَعْضُهُمُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، فَقَاتَلُوكُمُ الْأَنْبِيَاءَ الصَّالِحِينَ وَلَمْ يَفْرَقُ بَيْنَهُمْ.

الرابعة: إِنَّ مُشْرِكَي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شُرُكَاءَ الْأَوَّلِينَ، لَأَنَّ أُولَئِكَ يَشْرُكُونَ فِي الرَّحَاءِ وَيَخْلُصُونَ فِي الشَّدَّةِ، هُؤُلَاءِ شُرُكَاهُمْ فِي الْحَالَتَيْنِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلْكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ...»^٣.

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ الْوَهَابِيَّينَ تَبَلُّغُ بَهُمُ الْجَرَأَةُ فِي تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِحِيثِ بَيِّحُونَ نَهْبَ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِ وَسَفْكَ دَمِهِ بِسَهْوَةٍ، وَقَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فِي تَارِيْخِهِمْ مَرَارًا.

يقول الشيخ «سليمان بن لحمان» في كتابه «الهديّة السنّية»:
 «إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنْنَةَ دَلَاءٌ عَلَى أَنْ مَنْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ أَوْ أَبْنَى عَبَاسَ أَوْ أَبَا طَالِبٍ أَوْ ... وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لِيُشْفِعُوكُمُ الْهُمَّ عِنْ اللَّهِ - كَمَا يَفْعُلُ عِنْ الْمُلُوكِ - إِنَّهُ كَافِرٌ مُشْرِكٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالْمَالِ! وَإِنْ قَالَ أَشْهَدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدَ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللَّهِ وَصَلَّى وَصَامَ»^٤.

١- يونس، ٣١.

٢- يونس، ١٨.

٣- العنكبوت، ٦٥.

٤- رسالة أربع قواعد. ص ٢٤-٢٧. طبع المنار بمصر اتفاً عن كتاب كشف الإرباب، ص ١٦٣).

٥- الهديّة السنّية، ص ٦٦ (نقلًّا عن البراهين الجلية. ص ٨٣).

ومع هذا الإفتاء يتضح حال المسلمين في جميع أقطار العالم الإسلامي الذين يستشفعون بهم، اقتداء بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

روح البطش والسفك واللجاجة في هؤلاء لا تخفي على أحد، وهكذا جعلهم بالسائل الإسلامية والقرآنية.

* * *

نظرة على منطق الوهابيين في حقل الشفاعة

وهكذا يظهر مما نقلنا عن مؤسس الحركة الوهابية «محمد بن عبد الوهاب» أن اتهام الوهابيين بالشرك للمؤمنين بالشفاعة يستند إلى مسألتين:

- ١- التشابه بين المؤمنين بشفاعة الأنبياء والصالحين، وبين المشركين في عصر الجاهلية.

- ٢- نهي القرآن عن عبادة غير الله وعن دعوة فرد مع الله: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا»، والإستشفاع نوع من العبادة.

بالنسبة للمسألة الأولى، ارتكب الوهابية خطأً فظيعاً، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: القرآن أقر منزلة الشفاعة بصرامة لجمع من الأنبياء والصالحين والملائكة كما مر، لكنه قيدها بإذن الله. وليس من المعقول إطلاقاً أن يكون الله قد نهى عن الإستشفاع المشروط بإذن الله بمن قد منحهم هو سبحانه هذه المنزلة.

وصرّح القرآن بطلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم، وهكذا صرّح بطلب الصحابة إلى النبي ﷺ أن يستغفر لهم أيضاً.

اليست هذه من المصاديق الواضحة لطلب الشفاعة؟! إن الإستشفاع برسول الله ﷺ بعبارة: «اشفع لنا عند الله» هي نفسها عبارة إخوة يوسف إذ قالوا لأبيهم:

«يَا أَبَانَا اشْتَفِرْ لَنَا» كيف يجرا هؤلاء على إلقاء تهمة الشرك على من يؤمن بما يصرّح به القرآن، بل ويستبيحون دمه وما له؟!

لو كان هذا العمل شركاً، فلم لم ينه يعقوب بنيه عن ذلك.

ثانية: لا يوجد أدنى شبه بين «عبدة الأصنام» و«الموحّدين المؤمنين بالشفاعة بإذن الله»، لأن الوثنين كانوا يعبدون الأصنام ويتخذونها شفعاء، بينما المسلمين المؤمنون بالشفاعة لا تخطر في ذهنهم عبادة الشفعاء، بل يستشعرون بهم إلى الله، وطلب الشفاعة لا إرتباط له بمسألة العبادة كما سنبين.

عبدة الأصنام كانوا يتعجبون من عبادة الإله الواحد الأحد: «أَجَعَلَ الْأَهْمَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَقَيْءٌ عُجَابٌ»^١.

الوثنيون كانوا يجعلون الوثن في منزلة الله: «تَائِلُهُ إِنْ كُنَّا لَنِي ضَلَالٌ مُّبِينٌ إِذْ نُسَوِّيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمَيْنَ»^٢.

الوثنيون كانوا يعتقدون بتأثير الأواثان على حياتهم ومصيرهم وجودهم، كما تذكر كتب التاريخ، وال المسلمين المؤمنون بالشفاعة يعتقدون بانفراد الله في التأثير، ولا يرون لموجود آخر غير الله استقلالاً في التأثير.

والمقارنة بين الرؤيتين مقارنة جاهلة مجافية للمنطق.

أما بشأن المسألة الثانية، علينا أولاً أن نفهم معنى «العبادة» لو فسرنا العبادة بأنها كل لون من ألوان الخضوع والاحترام، لكان ذلك يعني حرمة الاحترام والخضوع لأحد غير الله، وهذا ما لا يقره مسلم. ولو فسرنا العبادة أنها كل ألوان الطلب، فهذا يعني أن التقدم بالطلب من أية جهة هو شرك، وهذا يخالف ضروريات العقل والدين. كما أن العبادة لا يمكن فهمها على أنها كل لون من ألوان اتباع فرد لفرد آخر، فاتباع الأفراد لمسؤوليهم ورؤسائهم في المؤسسات

والتنظيمات الإجتماعية من أولى ضروريات الحياة البشرية، كما أن اتباع الأنبياء وأنتمة الدين من الواجبات الحتمية للمتدينين.

من هنا فالعبادة لا تعني كل ذلك، بل هي الحد الأعلى للخضوع والتواضع المعتبرين عن الإرتباط المطلق والتسليم بلا منازع للمعبود، وإيكال كل عوائق الأمور إليه.

وهل في طلب الشفاعة من الشفاء أثر من الآثار المذكورة للعبادة. أما ببيان النهي عن دعوة أحد سوى الله، فلا يعني النهي عن نداء الأفراد، لأن نقول يا عليّ ويا حسن ويا أحمد، ولا يعني النهي عن الاستعانة بالأفراد، لأن التعاون أحد الأركان الأساسية للحياة الإجتماعية وقد عمل به الأنبياء والآولياء كافة، ولم يرفضه الوهابيون أنفسهم.

أما الأمر الذي يمكن الاعتراض عليه فهو ما أوضحه «ابن تيمية» في رسالته «زيارة القبور» إذ قال ما حاصله: «مطلوب العبد إن كان ممّا لا يقدر عليه إلا الله فسائله من المخلوق مشرك من جنس عباد الملائكة والتماثيل ومن اتّخذ المسيح وأمه إلهين، مثل أن يقول لمخلوق حي أو ميت: اغفر ذنبي أو انصرني على عدوي أو اشف مريضي أو عافني أو عاف أهلي أو دابتي، أو يطلب منه وفاة دينه من غير جهة معينة أو غير ذلك.

وإن كان ممّا يقدر عليه العبد فيجوز طلبه منه في حال دون حال، فإن مسألة المخلوق قد تكون جائزه وقد تكون منها عنها قال الله تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَ فَأَنْصُبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَازْغَبْ» وأوصى النبي ﷺ ابن عباس: إذا سألت فاستئن الله، وإذا استعن فاستعن بالله. وأوصى طائفة من أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً، فكان سوط أحد هم يسقط من كفه فلا يقول لأحد ناولني إيه. وقال: بهذه المنهي

عنها والجائز طلب دعاء المؤمن لأخيه^١.

نحن أيضاً نقول: من الشرك أن يطلب الإنسان من أحد شيئاً يختص به الخالق، ومن الشرك أن يتوجه الإنسان في ذلك الطلب إلى فرد يعتبره قادراً بشكل مستقل عن تلبية ذلك الطلب. أما إذا طلب الإنسان من أحد شفاعة منحها له الله، فما ذلك بشرك، بل هو عين الإيمان والتوحيد، ويشهد على ذلك كلمة «مع» في قوله تعالى: **«فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** التي تفيد أن المنهى عنه هو دعوة شخص تعتبره في منزلة الله، وتعتبره مصدرأً مستقلأً في التأثير. (تأمل بدقة).

هدفنا من التأكيد على هذا الموضوع، هو أن ما اعتبره من مسخ وتحريف وفبر الفرصة لأعداء الدين كي يطعنوا في المقدسات الدينية، كما أدى إلى ظهور تفسيرات واستنتاجات خاطئة لدى بعض المجموعات الإسلامية، متى جرّ بدوره إلى تفرقة صفوف المسلمين.

والفهم الصحيح للشفاعة يؤدي كما أرينا إلى سموّ أخلاق المجتمع وتكاملها. وإلى إصلاح الأفراد الفاسدين، كما يؤدي إليه قطع دابر الطعانيين، وإلى إحلال الوحدة بين المسلمين.

نأمل من العلماء والمفكرين الإسلاميين أن يتعمقوا في تحليل هذه المسألة قرآنياً ومنطقياً، كي يسدوا الطريق أمام طعن أعداء الإسلام ويساهموا في رضى الصنوف.

* * *

الآية

وَإِذْ تَحِينَكُمْ مِنْ ءالِ فِرْعَوْنَ يَسْوُمُونَكُمْ سُوْءَ الْعَذَابِ
يُذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَخْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مَّنْ
رَبُّكُمْ عَظِيمٌ^⑩

التفسير

نعمـة الحرية

في هذه الآية إشارة إلى نعمة كبيرة أخرى، من بها الله سبحانه على بنى إسرائيل، وهي نعمة تحريرهم من براثن الظالمين: «وَإِذْ تَحِينَكُمْ مِنْ ءالِ فِرْعَوْنَ، يَسْوُمُونَكُمْ سُوْءَ الْعَذَابِ يُذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَخْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مَّنْ رَبُّكُمْ عَظِيمٌ».

القرآن يعبر عن العذاب الذي أزله فرعون بنى إسرائيل بفعل «يسـومـونـكـمـ» من «سام» التي تعنى في الأصل الذهاب في ابتلاء الشيء، واستعمال هذا الفعل بصيغة المضارع يشير إلى استمرار العذاب، وإلى أن بنى إسرائيل كانوا دوماً تحت التعذيب من قبل الفراعنة.

والقرآن عبر بكلمة «الباء» عمـا كان ينزل بنـى إـسـرـائـيلـ من عـذـابـ يـتمـثـلـ فـيـ قـتـلـ الذـكـورـ وـاستـخدـامـ الإـنـاثـ لـخـدـمـةـ آـلـ فـرـعـونـ، وـاستـثـمارـ طـاقـاتـ بـنـى إـسـرـائـيلـ

لخدمة الاقباط وإشباع رغبات ونزوات المستكبرين. والبلاء يعني الامتحان، فالحوادث والمصائب التي نزلت ببني إسرائيل كانت بمثابة الامتحان لهم. كما قد يأتي البلاء بمعنى العقاب، لأن بني إسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمة ربهم، فكان ما أصابهم من آل عمران عقاباً على كفرائهم. وذكر بعض المفسرين معنى ثالثاً للبلاء، وهو النعمة، وبذلك يكون البلاء العظيم يعني النعمة العظيمة، والمقصود منها نعمة النجاة من آل فرعون.^١

على كل حال، يوم نجاة بني إسرائيل من آل فرعون يوم تاريخي مهم، رکز عليه القرآن في مواضع عديدة ولنا وقوفات أخرى عند هذا الحدث الكبير.

من الملفت للنظر أن القرآن يسمى ذبح الأبناء واستحياء النساء عذاباً. ولو عرفنا أن استحياء النساء يعني استبقاءهن، وتركهن أحياء، لاتضح لنا أن القرآن يشير إلى أن مثل هذا الاستبقاء المذل هو عذاب أيضاً مثل عذاب القتل. وهذا المعنى يشير إليه الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام اذ يقول: «فاللواث في حياتكم متفهورين والحياء في مؤتكم ظاهرين».^٢

عملية الإمامية كانت شاملة للذكور والإناث مع اختلاف في ممارسة هذه العملية، وفي عالمنا المعاصر يمارس طواغيت الأرض عملية الإمامية أيضاً بأساليب أخرى، وذلك عن طريق قتل روح الرجلة في الذكور، ودفع الإناث إلى مستنقع إشباع الشهوات.

من المفسرين من ذهب إلى أن سبب قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم، يعود إلى رؤيا عرضت لفرعون في منامه. ولكن السبب ليس الرؤيا

١ - يقال بلي الثوب أي خلق، وبلوته: اختبرته كأني أخلفته من كثرة اختياري له، وسمى الفم بلاء من حيث إنه يُيل الجسم، وستي التكليف بلاء لأن التكاليف مشاق على الأبدان ولأنها اختبارات، ولأن اختيار الله تعالى للعباد تارة بالمساز ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت السنحة والمحنة جميماً بهلاكاً. (المفردات، مادة: بلي).

٢ - نهج البلاغة. الخطبة .٥١

وحدها - كما سنبيّن ذلك في تفسير الآية الرابعة من سورة القصص - بل أيضاً خوف الفرعونيين من اشتداد قوة بنى إسرائيل وتشكيلهم خطراً على سلطة آل فرعون.

* * *

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا إِلَّا فِرْعَوْنَ
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٦﴾

التفسير

النجاة من آل فرعون:

الآلية السابقة أشارت إلى نجاةبني إسرائيل من براثن الفرعونين، وهذه الآية توضح طريقة النجاة. «وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا إِلَّا فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».

قضية غرق آل فرعون في البحر ونجاةبني إسرائيل وردت في سور عديدة مثل سورة الأعراف الآية (١٢٦). وسورة الأنفال، الآية (٥٤). وسورة الإسراء الآية (١٠٣). والشعراء الآية (٦٣ و ٦٦). والزخرف، (٥٥). والدخان، الآية (١٧) وما بعدها.

في هذه السور ذكرت كل تفاصيل الحادث، أما هذه الآية فاكتفت بالإشارة إلى هذه النعمة الإلهية في معرض دعوةبني إسرائيل إلى قبور الرسالة الخاتمة^١. حادثة الإنقاذ باختصار حدثت بعد عدم استجابة فرعون وقومه لدعوة

١- راجع التفاصيل في المجلد العاشر تفسير، الآية (٧٧) وما بعدها من سورة طه.

موسى ﷺ مع كل ما شاهدوه منه من معجزات. إذ ذاك أمر أن يخرج مع بني إسرائيل في منتصف الليل من مصر، وعند وصولهم النيل، علموا أن فرعون وجيشه يلاحقونهم، فاعتري، بني إسرائيل خوف واضطراب شديد. فالبحر أمامهم والمعدو وراءهم. وفي هذه اللحظات الحساسة، أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانشقت فيه طرق متعددة عبر منها بني إسرائيل، بينما التحوم الماء حينما كان آل فرعون في وسطه، ففرقوا جميعاً ونجا بني إسرائيل، وهم يتظرون إلى هلاك أعدائهم.

الهدف من تذكير بني إسرائيل بهذا الحدث الذي بدأ بخوف شديد وانتهى بانتصار ساحق، هو دفعهم للشك والسير على طريق الرسالة الإلهية المتملة في دين النبي الخاتم.

كما أنه تذكير للبشرية بالأمداد الإلهي الذي يشمل كل أمة سائرة بجد وإخلاص على طريق الله.



الآيات

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَمَا أَتَخْذَمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَلِيمُونَ ⑤ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعْلَكُمْ
تَشْكِرُونَ ⑥ وَإِذْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعْلَكُمْ
تَهْتَدُونَ ⑦ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ
بِإِعْجَازِكُمُ الْعِجْلَ فَتَوَبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ
خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ⑧

التفسير

أكبر إنحرافاتبني إسرائيل

في هذه الآيات الأربع، تأكيد على مقطع آخر من تاريخبني إسرائيل، وعلى أكبر إنحراف أصيروا به في تاريخهم الطويل، وهو الإنحراف عن مبدأ التوحيد، والإتجاه إلى عبادة العجل. وهذا التأكيد تذكير لهم بما لحقهم من زيف نتيجة إغواء الغاوين، وتحذير لهم من تكرر هذه التجربة في مواجهة الدين الخاتم: «وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» وهي ليالي افتراق موسى عن قومه، «ثُمَّ أَتَخْذَمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

شرح هذا المقطع من تاريخبني إسرائيل سيأتي في سورة الأعراف الآية

(١٤٢) وما بعدها، وفي سورة طه الآية (٣٦) وما بعدها.

وخلالصته، إن موسى عليه السلام بعد نجاةبني إسرائيل من قبضة الفراعنة أمر بالذهاب إلى جبل الطور مدة ثلاثة ليلة لتسلم ألواح التوراة، ثم مددت هذه الليلالي إلى أربعين ليلة من أجل اختبار قومه. واستغل السامري الدجال هذه الفرصة، فجمع ما كان لدى بنى إسرائيل من ذهب الفراعنة ومجوهراتهم، وصنع منها عجلًا له صوت خاص، ودعا بنى إسرائيل لعبادته. فأتبعه أكثر بنى إسرائيل، وبقي هارون -أخوه موسى وخليفة -مع أقلية من القوم على دين التوحيد، وحاول هؤلاء الموحدون الوقوف بوجه هذا الإلحاد فلم يفلعوا، وأوشك المنحرفون أن يقضوا على حياة هارون أيضًا.

بعد أن عاد موسى من جبل الطور تألم كثيراً لما رأه من قومه، ووبخهم بشدة فثاب بنو إسرائيل إلى رشدهم، وأدركوا خطأهم وطلبو التوبة، فجاءهم أمر السماء بتوبية ليس لها نظير، سذكرها فيما يلي.

في الآية التالية يقول سبحانه: «فَمَنْ عَصَنَا عَنْكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»

وبعد إشارة إلى ما جاء بنى إسرائيل من هداية تشريعية: «وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ».

كلمتا «الكتاب» و«الفرقان» قد تشيران كلاهما إلى التوراة، وقد يكون المقصود من «الكتاب» التوراة و«الفرقان» ما قدمه موسى من معاجز بإذن الله، لأنَّ الفرقان يعني في الأصل ما يفرق بين الحق والباطل.

ثم يشير القرآن إلى طريقة التوبة المطروحة على بنى إسرائيل: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْنَاهُمْ أَنْفَسَكُمْ بِإِعْنَادِكُمُ الْعِجْلَ، فَتَوَبُوا إِلَيَّ بِأَنْتُمْ قَاتَلُوكُمْ أَنْفَسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ».

و«الباري» هو الخالق، وفي الكلمة إشارة إلى أن هذا الأمر الإلهي بالتوبه الشديدة صادر عن خلقكم، وعمن هو أعرف بما يضركم وينفعكم.

ذنب عظيم وتوبة فريدة

لا شك أن عبادة عجل السامري لم تكن مسألة هينة، لأنبني إسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات الله ومعجزات نبيهم موسى عليه السلام، ثم نسوا ذلك دفعة، وخلال فترة قصيرة من غياب النبي إنحرفوا تماماً عن مبدأ التوحيد وعن الدين الإلهي.

كان لا بدّ من اقتلاع جذور هذه الظاهرة الخطيرة، كي لا تعود إلى الظهور ثانية خاصة بعد وفاة صاحب الرسالة.

ومن هنا كانت الأوامر الإلهية بالتوبه شديدة لم يسبق لها نظير في تاريخ الأنبياء، وتقضى هذه الأوامر أن تقترن التوبه بإعدام جماعي لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقة تفازد هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضاً، وفي ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء والمعارف على يديه، وما ينزل به - هو نفسه - من عذاب القتل.

وجاء في الأخبار أن موسى أمر في ليلة ظلماء كل الجائعين إلى عبادة العجل، أن يقتسلوا ويرتدوا الأكفان ويعملوا السيف بعضهم في البعض الآخر. ولعلك تسأل عن السبب في قساوة هذه التوبه ولماذا لم يقبل الله تعالى منهم

التوبه دون إراقة للدماء؟

الجواب: إن السبب في شدة هذا الحكم - كما ذكرنا - يعود إلى عظمة الذنب الذي ارتكبوه بعد كل ما شاهدوه من آيات ومعاجز، وإلى أن هذا الذنب يهدد وجود الدعوة ومستقبلها لأن أصول ومبادئ جميع الأديان السماوية يمكن

إختزالها في التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإن ذلك يعني إنهيار جميع اللبنات الفوقيه والمباني العضاريه للدين، فلو تساهل موسى عليه السلام مع ظاهره عبادة العجل، لأمكن أن تبقى سُنة في الأجيال القادمة، خاصة وأن بني إسرائيل كانوا على مرا

التاريخ قوماً متعنتين لجوين.

ولابد إذن من عقاب صارم يبقى رادعاً للأجيال التالية عن السقوط في هاوية الشرك.

ولعل في عبارة قوله تعالى: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ» إشارة إلى هذا المعنى.

* * *

الآياتان

وَإِذْ قُلْتُمْ يَسْوُسُنَّ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرًَةً
فَاخْذُنُكُمُ الصُّعْقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ⑤ مُمَّ بَعْنَتُكُمْ مَنْ بَغَدَ
مَوْتِكُمْ لَعْلَكُمْ تَشْكُرُونَ ⑥

التفسير

طلب عجيبة!

هاتان الآياتان تذكران بنبي إسرائيل بنعمة إلهية أخرى، كما توضحان في الوقت نفسه روح اللجاج والعناد في هؤلاء القوم، وتبيان ما نزل بهم من عقاب إلهي، وما شملهم الله به من رحمة بعد ذلك العقاب.

تقول الآية الأولى: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرًَةً». هذا الطلب قد ينم عن جهل بنبي إسرائيل، لأن إدراك الإنسان الجاهل لا يتعدى حواسه. ولذلك يرمي إلى أن يرى الله بعينه. أو قد يحكي هذا الطلب عن ظاهرة لجاج القوم وعنادهم التي يتميزون بها دوماً.

على أي حال، طلب بنو إسرائيل من نبيهم بصراحة أن يروا الله جهرة، وجعلوا بذلك شرطاً لإيمانهم.

عندئذ شاء الله سبحانه أن يرى هؤلاء ظاهرة من خلقه لا يطيقون رؤيتها، ليفهموا أن عينهم الظاهرة هذه لا تطبق رؤية كثير من مخلوقات الله، فما بالك بروءة الله سبحانه نزلت الصاعقة على الجبل وصحيها برق شديد ورعد مهيب

وزلزال مروع، فتركهم، على الأرض صرعي من شدة الخوف **«فَاخَذْتُكُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَشَظَّرُونَ»**.

اغتم موسى لما حدث بشدة، لأن هلاك سبعين نفراً من كبار بني إسرائيل، قد يوفر الفرصة للمغامرين من أبناء القوم أن يتبرروا بوجه نبيهم. لذلك تصرع موسى إلى الله أن يعيدهم إلى الحياة، فقبل طلبه وعادوا إلى الحياة: **«فُمَّا يَعْتَنِكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَقُلُّكُمْ تَشَكُّرُونَ»**.

هذا باختصار شرح الواقعية، وسيأتي تفصيلها في سورة الأعراف، الآية ١٥٥، وسورة النساء الآية ١٥٣.

هذه القصة تبين من جانب آخر ما عاناه الأنبياء من مشاكل كبرى على طريق دعوتهم. كان قومهم يطلبون منهم معاجز خاصة، وكان العnad يبلغ ببعض الأقوام حداً يطلبون فيه أن يروا الله جهرة، شرطاً لإيمانهم. وحينما يواجه هذا الطلب غير المنطقي بجواب إلهي مناسب حاسم تحدث للنبي مشكلة أخرى. ولو لا لطف الله وتشييه لما كان بالإمكان المقاومة تجاه كل هذا العناد.

هذه الآية تشير ضمناً إلى إمكان «الرجعة»، أي الرجوع إلى هذه الحياة الدنيا بعد الموت. لأن وقوعها في مورد يدل على إمكان الواقع في موارد أخرى. ولكن عدد من مفسري أهل السنة أولوا «الموت» في هذه الآية إلى غير المعنى الظاهر لعدم رغبتهم في قبول «الرجعة»^٢

* * *

١- راجع المجلدين الثالث والخامس من هذا التفسير.

٢- ذهب صاحب السنار، إلى أن المقصود بالبعث بعد الموت، منع الذرية الكثيرة لبني إسرائيل كي لا يستقطع نسلهم، وقال الآلوسي في «روح المعاني» إن الموت هنا يعني الفيروبة، والبعث يعني صحوة بني إسرائيل من غيبوبتهم، وراح بعض يفتر الموت بالجهل، والبعث بالتعليم، ولكن هذه المعانٰي كلها بعيدة عن هذه الآية والأيات المشابهة لها في سورة الأعراف، ولا تليق بعسر يشد فهم الحقيقة.

الآيات

وَظَلَّلَنَا عَلَيْكُمُ الْفَهَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَأَسْلَوْنَا كُلُّوا
مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَّمُونَا وَلَكُنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ⑥

التفسير

النعم المتنوعة

بعد أن نجا بنو إسرائيل من الفرعونين، تذكر الآيات ٢٣ - ٢٩ من سورة المائدة، أنبني إسرائيل أمر والأأن يتوجهوا إلى أرض فلسطين المقدسة، لكن هؤلاء عصوا هذا الامر، وأصرروا على عدم الذهاب مادام فيها قوم جبارون (العمالقة)، وأكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له: «فَإذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَّا قَاعِدُونَ»^١.

تألم موسى لهذا الموقف ودعا ربـه «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَأَفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّوْمِ الْفَاسِقِينَ»^٢ فكتب عليهم التيه أربعين عاماً في صحراء سيناء.

مجموعة من التأنيثين ندمت على ما فعلته أشد الندم، وتضررت إلى الله، فشمل الله سبحانه بني إسرائيل ثانية برحمته، وأنزل عليهم نعمه التي تشير الآية إلى بعضها: «وَظَلَّنَا عَلَيْكُمُ الْفَهَام».

والظل له أهمية الكبرى لمن يطوي الصحراء طيلة النهار وتحت حرارة الشمس اللافحة، خاصة أن مثل هذا الظل لا يضيق الفضاء على الإنسان ولا يمنع عنه هبوب التسقim.

يبدو أن العقام الذي تشير إليه الآية الكريمة، ليس من النوع العابر الذي يظهر عادة في سماء الصحراء، ولا يليث أن يتفرق ويزول، بل هو من نوع خاص تفضل به الله على بني إسرائيل ليستظلوا به بالقدر الكافي.

إضافة إلى الظل فإن الله سبحانه وفر لبني إسرائيل بعد تيههم الطعام الذي كانوا في أمس الحاجة إليه خلالأربعين عاماً خلت من ضياعهم: «وَأَنْزَلَنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلُوِي، كُلُّوا مِنْ طَيَّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ».

لكن هؤلاء عادوا إلى الكفران: «وَمَا ظَلَّمْنَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ». وسنشرح «المن» و«السلوى» في البحوث الآتية.

* * *

بحوث

١- الحياة الجديدة بعد التحرر:

الأمة التي تتحرر بعد عصر من الذل والاستضعفاف والاستعباد، لا تستطيع أن تتخلص تماماً عن حالتها النفسية والثقافية الموروثة عن عصر الطاغوت، ولا بدّ من فترة برزخية تمر بها كي تكون قادرة على إقامة حكم الله في الأرض، وفق معايير إلهية بعيدة عن مؤثرات عصر الطاغوت.

وسواء امتدت هذه الفترة البرزخية أربعين عاماً كما حدث لبني إسرائيل، أو

أقل أو أكثر، فهي فترة عقاب إلهي هدفها التزكية والإصلاح والبناء لأنّ مجازاة الله ليست لها جنبة انتقامية.

ولابد أن يبقى بنو إسرائيل فترة أربعين عاماً من «التيه» في الصحراء ليتربي جيل جديد حامل لصفات توحيدية ثورية، ومؤهل لإقامة الحكم الإلهي في الأرض المقدسة.

* * *

٢- المن والسلوى:

تعددت أقوال المفسرين في معنى هاتين الكلمتين، ولا حاجة إلى استعراضها جميعاً، بل نكتفي بذكر معناهما اللغوي، ثم نذكر تفسيراً واحداً لهما هو في اعتقادنا أوضح التفاسير وأقربها إلى الفهم القرآني.

«المن» شيء كالطلل فيه حلاوة يسقط على الشجر^١ أو بعبارة أخرى هو عصارة شجر ذات طعم حلو، وقيل طعم حلو ممزوج بالحموضة.
و«السلوى» يعني التسلى، وقال بعض اللغويين وجمع من المفسرين إنه «طائر».

وروي عن النبي ﷺ: «إن الكحة من المن».

وذهب البعض إلى أن «المن» هو جميع ما أنعم الله تعالى علىبني إسرائيل ومن عليهم. و«السلوى» هي جميع المawahب والملكات الفسانية التي توجب لهم التسلية والهدوء النفسي.

وهو مع مخالفته لرأي معظم المفسرين، يخالف ظاهر الآية حيث تقول: «كُلُوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» وفي هذا التعبير دلالة واضحة على أن المن

والسلوى نوعان من الطعام. وهذه العبارة وردت كذلك في الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

وتحذر التوراة أن «المن» حب يشبه بذر الكزبرة يتتساقط على الأرض ليلاً، وكان بنو إسرائيل يجمعونه ويصنعون منه خبزاً ذا طعم خاص.

وثمة احتمال آخر هو أن الأمطار الغزيرة النافعة التي هطلت بفضل الله على تلك الصحراء أثرت على أشجار تلك المنطقة فأفرزت عصارة حلوة استفاد منها بنو إسرائيل.

واحتمل بعضهم أن يكون «المن» نوعاً من العسل الطبيعي حصل عليه بنو إسرائيل في الجبال والمرتفعات المحيطة بصحراء التيه. وهذا التفسير يؤيد ما ورد من شروح على العهددين (التوراة والإنجيل) حيث جاء: «الأراضي المقدسة معروفة بكثرة أنواع الأوراد والأزهار، ومن هنا فإن مجاميع التحل تبني خلاياها في أحراج الصخور وعلى أغصان الأشجار وتنابها ببيوت الناس، بحيث يستطيع أفقر الناس أن يتناول العسل».^١

بشأن «السلوى» قال بعض المفسرين إنه العسل، وأجمع الباقيون على أنه نوع من الطير، كان يأتي على شكل أسراب كبيرة إلى تلك الأرض، وكان بنو إسرائيل يتغذون من لحومها.

في النصوص المسيحية تأيد لهذا الرأي حيث ورد في تفسير على العهددين ما يلي: «إعلم أن السلوى تحرك بمجموعات كبيرة من أفريقيا، فتتجه إلى الشمال، وفي جزيرة كابري وحدها يصطاد من هذا الطائر ١٦ ألفاً في الفصل الواحد... هذا الطائر يجتاز طريق بحر القلزم، وخليج العقبة والسويس، ويدخل شبه جزيرة سيناء، وبعد دخوله لا يستطيع أن يطير في إرتفاعات شاهقة لشدة ما

لاقوا من تعب و عناء في الطريق، فيطير على إرتفاع منخفض ولذلك يمكن اصطياده بسهولة ... وورد ذكر ذلك في سفر الخروج وسفر الأعداء من التوراة^١. يستفاد من هذا النص أن المقصود بالسلوى طير خاص سمين يشبه الحمام معروف في تلك الأرض.

شأن الله بفضله ومنه أن يكثُر هذا الطير في صحراء سيناء آتَيْنِي لسدّ حاجة بنى إسرائيل من اللحوم، ولم تكن هذه الكثرة من الطير طبيعية في تلك المنطقة.

* * *

٣- لماذا قالت الآية «أَنْزَلْنَا»؟

عبرت الآية الكريمة عن نعمة تقديم المن والسلوى بالإِنْزال، وليس الإِنْزال دائمًا بإرسال الشيء من مكان عالٍ، كقوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مُنَانِيَةً أَرْوَاجَ»^٢.

وأوضح أن الأنعام لم تهبط من السماء، من هنا فالإنزال في مثل هذه الموضع: إما أن يكون «نزوًلاً مقاميًّا» أي نزوًلاً من مقام أسمى إلى مقام أدنى، أو أن يكون من «الإنزال» بمعنى الضيافة، يقال أُنْزَلَتْ فلاناً: أي أضفتْه، والنزل (على وزن رُسْلٍ) ما يُعد للنازل من الزاد، ومنه قوله تعالى: «فَنَزُلَ مِنْ حَمِيمٍ»^٣ وقوله سبحانه: «خَالِدِينَ فِيهَا نُرْلَأُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»^٤.

وتعبير «الإنزال» للمن والسلوى، قد يشير إلى أن بنى إسرائيل كانوا ضيف الله في الأرض، فاستضافهم بالمن والسلوى.

ويحتمل أن يكون الإنزال بمعنى الهبوط من الأعلى لأن النعم المذكورة وخاصة (السلوى) تهبط إلى الأرض من الأعلى.

* * *

١-قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٨٣.

٢-آل عمران، ١٩٨.

٣-الواقعة، ٩٣.

٤- ما هو الغمام؟

قيل: الغمام والسحب بمعنى واحد، وقيل الغمام هو السحاب الأبيض، وذكروا في وصفه أنه أبرد وأرق من السحاب، والغمام في الأصل من الفم وهو تقطية الشيء، وسمى الغمام بهذا الاسم لأنّه يغطي صفة السماء، وسمى الله عَمَّا بهذا الاسم لأنّه يحجب القلب.^١

على أي حال، قد يشير تعبير «الغمام» إلى أنّ بنى إسرائيل، كانوا يستفيدون من ظل الغمام إضافة إلى تعمّهم بالنور الكافي لبياض هذه السحبة.

* * *

١- تفسير «روح المعانٰي» في تفسير الآية المذكورة، والمفردات مادة «فم».

آيات

وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقُرْيَةَ فَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغْدًا
وَأَذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حَطَّةً تَغْفِرُ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ
وَسَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ⑤ فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ
لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ إِمَّا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ⑥

التفسير

عناد بنى إسرائيل

وهنا نصل إلى مقطع جديد من حياة بنى إسرائيل، يربط بورودهم الأرض المقدسة. تقول الآية الأولى: «وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقُرْيَةَ» والقرية كل مكان يعيش فيه جمٌ من الناس، ويشمل ذلك المدن الكبيرة والصغيرة، خلافاً لمعناها الرايج المعاصر، والمقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

ثم تقول الآية: «فَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغْدًا وَأَذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حَطَّةً» أي حطّ عننا خطاياانا، «تَغْفِرُ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ». كلمة «حطّة» في اللغة، تأتي بمعنى التناحر والمراد منها في هذه الآية الشريفة، آهنا نطلب منك أن تحط ذنوبنا وأوزارنا.

أمرهم الله سبحانه أن يرددوا من أعماق قلوبهم عبارة الإستغفار المذكورة، ويدخلوا الباب، ويبدو أنه من أبواب بيت المقدس^١، وقد يكون هذا سبب تسمية أحد أبواب بيت المقدس «باب الحطة».

والآية تنتهي بعبارة **«وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ»** أي أن المحسنين سينالون المزيد من الأجر إضافة إلى غفران الخطايا.

والقرآن يحدثنا عن عناد مجموعة من بنى إسرائيل حتى في ترتيل عبارة الإستغفار، فهو لاء لم يرددوا العبارة بل بدلوها بعبارة أخرى فيها معنى السخرية والإستهزاء، والقرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: **«فَبَدَّلُوا الَّذِينَ ظَلَّمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ»** وكانت نتيجة هذا العناد ما يحدثنا عنه كتاب الله حيث يقول: **«فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَّمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ مَا كَانُوا يَفْسُدُونَ»**.

وـ**«الرجز»** أصله الإضطراب - كما يقول الراغب في مفرداته - ومنه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.

ويقول **«الطبرسي»** في **«مجمع البيان»**: إن الرجز يعني العذاب عند أهل العجاجز، ويروي عن الرسول ﷺ قوله بشأن مرض الطاعون: **«إِنَّهُ رِجْزٌ عَذَبَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ!»**.

ومن هنا يتضح سبب تفسير **«الرجز»** في بعض الروايات أنه نوع من الطاعون فشا بسرعة بين بنى إسرائيل وأهلهك جمماً منهم.

قد يقال إن الطاعون لا ينزل من السماء، لكن هذا التعبير قد يشير إلى حقيقة انتشار هذا المرض عن طريق الهواء الملوث بفيروس الطاعون الذي هيأ بأمر الله آنذاك في بيته بنى إسرائيل.

يلفت النظر أن من عوارض الطاعون اضطراباً في المشي والكلام، وهذا

١- على رواية أبي حيان الأندلسي، نفلاً عن تفسير **«الكافش»**.

٢- راجع حول معنى **«الرجز»** الجزء الخامس من هذا التفسير.

يتناسب مع أصل معنى «الرجز» تماماً.
 ومن الملفت للنظر أيضاً أن القرآن يؤكد أن هذا العذاب نزل **«عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا»** فقط، ولم يشمل جميع بني إسرائيل.
 ثم تذكر الآية تأكيداً آخر على سبب نزول العذاب على هذه المجموعة من
 بني إسرائيل بعبارة: **«إِنَّمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ»**.
 والآية الكريمة بعد ذلك تبين بشكل غير مباشر سنة من سنن الله تعالى، هي
 أن الذنب حينما يتعمق في المجتمع ويصبح عادة اجتماعية، عند ذاك يقترب
 احتمال نزول العذاب الإلهي.



الآية

وَإِذْ أَشْتَشَقَ مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ أَثْنَتَ عَشَرَةَ عَيْنًا قَدْ عِلِّمَ كُلُّ أَنْاسٍ مَّشْرِبَهُمْ
كُلُّوًا وَأَشْرَبُوا مِنْ رُزْقِ اللَّهِ وَلَا تَغْنُوُا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ⑤

التفسير

انفجار العيون في الصحراء

تذكير آخر بنعمة أخرى من نعم الله علىبني إسرائيل: وهذا التذكير تشير إليه الكلمة «إذ» المقصود منها (وَإِذْ كُرُّوا إِذ)، وهذه النعمة أغدقها الله عليهم، حين كان بنو إسرائيل في أمس الحاجة إلى الماء وهم في وسط صحراء قاحلة، فطلب موسى عليه السلام من الله عز وجل الماء: «وَإِذْ أَشْتَشَقَ مُوسَى لِقَوْمِهِ»، فقبل الله طلبه، وأمر نبيه أن يضرب الحجر بعصا: «فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ أَثْنَتَ عَشَرَةَ عَيْنًا» بعدد قبائلبني إسرائيل.

وكل عين جرت نحو قبيلة بحيث أن كل قبيلة كانت تعرف العين التي تخصها
«قَدْ عِلِّمَ كُلُّ أَنْاسٍ مَّشْرِبَهُمْ».
كثرت الأقوال في طبيعة الحجر الذي انفجرت منه العيون، وكيفية ضربه
بالعصا، والقرآن لا يزيد على ذكر ما سبق.

قال بعض المفسرين: إن هذا العجر كان في ثنايا الجبال المطلة على الصحراء وتدل جملة «انجست» الواردة في الآية ٦٠ من سورة الاعراف على أن المياه جرت قليلة أولاً، ثم كثرت حتى ارتوى منها كل قبائل بني إسرائيل مع مواشיהם ودواهم.

ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعية، لكن الحادثة هنا مقرونة بالإعجاز كما هو واضح.

ثمة أقوال تذكر أن ذلك العجر كان من نوع خاص حمله بنو إسرائيل معهم، ومتى احتاجوا إلى الماء ضربه موسى بعصاه فيجري من الماء. وليس في القرآن ما يثبت ذلك، وإن أشارت إليه بعض الروايات.

في الفصل السابع عشر من «سفر الخروج» تذكر التوراة:

فقال رب لموسى سر قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب - ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخر فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل^١.

لقد من الله على بني إسرائيل بإنزال الماء والسلوى، وفي هذه المرة يمن عليهم بالماء الذي يعزّ في تلك الصحراء القاحلة، ثم يقول سبحانه لهم: «كُلُوا وَاشْرِبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَنْقُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

وفي هذه العبارة حت لهم على ترك العناد وإيذاء الأنبياء، وأن يكون هذا أقل شكرهم لله على هذه النعم.

* * *

بحوث

١- الفرق بين العقبي والفساد

نهى الله سبحانه بني إسرائيل عن الفساد بفعل «لَا تَغْنُوا»، من العقبي وهو شدة الفساد، وتشبه في معناها «العيث»، إلا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حسأً، والعقبي فيما يدرك حكمًا^١. وبهذا يكون معنى «لَا تَغْنُوا» هو معنى «المفسدين» ولكن مع تأكيد أشد.

وقد تشير عبارة النهي بأجمعها إلى حقيقة بده الفساد من نقطة صغيرة، واتساعها واستدادها بعد ذلك. أي تبدأ بالفساد وتنتهي بالعقبي الأرض، وهو شدة الفساد واتساعه.

٢- المعاجز في حياة بني إسرائيل

قد تثير مسألة انفجار الماء من العجر وما شابهها من المعاجز في حياة الأنبياء تساؤلات في ذهن أولئك الذين لم يستوعبوا منطق الإعجاز. ولا نريد هنا أن نتعرض إلى مسألة الإعجاز، لأنها تحتاج إلى بحث مستقل. ونكتفي بالقول: إن المعجزة ليست أمراً محالاً، وليس استثناءً في قانون العلية. بل إنها خرق لما ألفناه واعتدنا عليه، أو بعبارة أخرى، خرق لما ألفناه في حياتنا اليومية من ارتباط بين العلة والمعلول.

وطبيعي أن تغير مسار العلل والمعلولات ليس بعسير على الله سبحانه، ولو خلق الله هذه العلل والمعلولات منذ البدء بشكل آخر غير ما هي عليه اليوم، لكان هذا الذي نأله اليوم خارقاً للعادة.

باختصار، خالق عالم الوجود ونظام العلية حاكم على ما خلق لا محظوظ له.

وفي حياتنا اليومية صور كثيرة للإِسْتِنَاءات في النَّظَامِ الْقَائِمِ لِلْعُلُلِ وَالْمَعْلُولَاتِ.
ومسألة الإِعْجَازِ لا تتشكل أية مشكلة عقلية أو علمية.

٣- الفرق بين الانفجار والإنباجاس

في الآية المذكورة ورد الفعل «انفجر» ليعبّر عن تدفق الماء من الحجر، بينما ورد الفعل «انباجس» في الآية ١٦٠ من سورة الأعراف ليشير إلى نفس الحقيقة مع فارق هو أن الأول يوضح عن شدة تدفق الماء، والثاني عن سيلانه بشكل هادئ. لعل آية سورة الأعراف تتحدث عن المرحلة الأولى من ظهور الماء، وجريانه بشكل هادئ لا يثير فزع القوم، ولا يمنعهم من السيطرة عليه، بينما تشير الآية التي نحن في صددها إلى المرحلة النهائية حيث اشتد جريان الماء. والراغب في مفراداته يفسر الإنباجاس والانفجار بشكل يتناسب مع ما أشرنا إليه إذ يقول: بجس الماء وانباجس: انفجر، لكن الإنباجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق. والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع.

* * *

الآية

وَإِذْ قُلْتُمْ يَسْمُونَ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَحِدَّ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجَ لَنَا مِمَّا تَثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلُهَا وَقَنَائِهَا وَفُوْمَهَا
وَعَدَسَهَا وَبَصَلَهَا قَالَ أَشْتَبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَذْنِي بِالَّذِي هُوَ
خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِضْرَا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْذَّلَّةُ
وَالْمُشْكَنَةُ وَبَاءُ وَبَغْضَبَ مَنْ أَللَّهُ ذَلِكَ بِإِنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِسَائِتِ اللَّهِ وَيَقْتَلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِإِنَّهُمْ أَعْصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ⑤

التفسير

المطالبة بالأطعمة المتنوعة

بعد أن شرحت الآيات السابقة ينعم الله على بي إسرائيل، ذكرت هذه الآية صورة من عنادهم وكفرائهم بهذه النعم الكبرى.

تحدث الآية أولاً عن مطالبة بنى إسرائيل نبيهم بأطعمة متنوعة بدل اطعام الواحد (آلمن و السلوى): «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَحِدَّ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجَ لَنَا مِمَّا تَثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلُهَا وَقَنَائِهَا وَفُوْمَهَا وَعَدَسَهَا وَبَصَلَهَا». فخاطبهم موسى «قَالَ أَشْتَبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَذْنِي بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا

مِضْرَأً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ.

ويضيف القرآن: «وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْذَّلَّةُ وَالْمَشْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَعْتَلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ».

* * *

بحوث

١- آراء المفسرين في كلمة «مصر»

من المفسرين من قال إن المقصود من كلمة «مصر» في الآية الكريمة هو المفهوم العام للمدينة. وقوله سبحانه: «إِهْبِطُوا مِضْرَأً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ»، أي إنكم الآن تعيشون في هذه الصحراء ضمن إطار منهج للإختبار وبناء الذات، وليس هذا مكان الأطعمة المتنوعة، إذ هبوا إلى المدن حيث التنوع في المأكولات، ولكن لا يوجد فيها المنهج المذكور.

ويستدل أصحاب هذا الرأي بأن بنى إسرائيل لم يطلبوا العودة إلى «مصر» موطنهم السابق ولم يعودوا إليه إطلاقاً.

ومنهم من اختار هذا التفسير لمصر، وأضاف إليه أن المقصود من قوله تعالى: «إِهْبِطُوا ...» هو أن بقاءكم في الصحراء واقتصاركم على الطعام الواحد يعودان إلى ضعفكם، فكونوا أقوىاء، وحاربوا الأعداء، وحرروا من سيطرتهم مدن الشام والأرض المقدسة، ليتوفر لكم ما شئتم^١.

وهناك رأي ثالث للمفسرين هو أن المقصود من «مصر» البلد المعروف. ويكون المعنى عندئذ: إنكم في هذه الصحراء الخالية من الأطعمة المتنوعة

١- التثنين في كلمة (مصر) دليل على تناقضها، وعلى عدم اختصاصها بالأرض المعروفة.

٢- تفسير السنار، ذيل الآية المذكورة.

تملكون الإيمان والحرية والإستقلال، وإن أبيتم إلا أن تكون لكم أطعمة متنوعة، فارجعوا إلى مصر حيث الذل والإستعباد، لتأكلوا من فتات موائد الفراعنة. إن مشتهيات بطونكم أنس لكم ما كنتم تعانون منه من ذل واستعباد، وما حصلتكم اليوم عليه من حرية ورفة وافتخار، وما تحملونه من حرمان يسير إنما هو ثمن لحربيتكم^١.

ويبدو أن التفسير الأول أنساب من التاليين.

* * *

٢- التنوع وطبيعة الإنسان

التنوع هو -دون شك - من متطلبات البشر، وحبّ التنويع خصلة طبيعية في البشر، والإنسان -إن استمرّ على تناول طعام معين لمدة طويلة- يمل ذلك الطعام. فلم إذن توجه اللوم والتقرير إلى بني إسرائيل حين طلبوا الخضروات والخيار والثوم والعدس والبصل ليتخلصوا من الطعام الواحد؟!

الجواب يتضح لو علمنا أنّ الحياة الإنسانية تقوم على أساس حقائق هامة لا يمكن التخلّي عنها، هي الإيمان والظهر والتقوى والتحرّر. وقد تمرّ الجماعة البشرية بمرحلة يتعارض فيها هذا الأساس الهام مع متطلبات الإنسان من الطعام والشراب واللذائذ الأخرى. وهنا تصبّع الجماعة أمام خيارين، إما أن تتغمس في اللذات وتترك قيمها وشرفها، أو تضحي بذلكها من أجل إنسانيتها وكرامتها.

بني إسرائيل كانوا يعيشون أمام هذين الخيارين.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ حقيقة حبّ التنويع استغلّها الطامعون والمستعمرون دوماً، ليدفعوا الشعوب إلى هاوية حياة استهلاكية شهوانية هابطة، يعيش الأفراد

فيها بين المعلم والمضجع، ناسين شخصيتهم الإنسانية، وغافلين عن النير الذي يطوق أنفاسهم.

* * *

٣- هل «المن» و«السلوى» خير الأطعمة؟

حين طلب بنو إسرائيل أطعمة متنوعة جاءهم التقرير بالقول: «أَتَشْتَبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَذْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟! أَيْ أَتَخْتَارُونَ الْأَدْنَى وَتَرْكُونَ الْأَفْضَلْ؟! وَيَدُو
أن المقصود بالأفضل هنا هو ما لديهم من طعام متمثل بالمن والسلوى. غير أن التفضيل الذي يطرحه القرآن هنا يعود إلى الحياة بكل أبعادها، والتقرير يتوجه إلى بنى إسرائيل لرغبتهم في التناول مع ما قد يكشف هذا التناول من ذلة وهوان.

وعلى صعيد القيمة الغذائية، فإن الأطعمة النباتية التي طلبها بنو إسرائيل لها قيمتها الغذائية طبعاً، غير أن مقدار الموارد الغذائية النافعة الموجودة في «المن» - وهو العسل أو مادة سكرية مقوية - وكذلك في لحوم السلوى يفوق ما في الأطعمة النباتية المذكورة، كما أن المن والسلوى أسهل هضمًا من الحبوب المذكورة^١.
ولا بأس من الإشارة إلى أن «الفوم» الذي طلبه بنو إسرائيل فُسر بالحنطة مرة وبالنوممرة أخرى، ولكل من المادتين قيمتها الغذائية، ويرى بعض أن تفسير الفوم بالقمع أصح لاستبعاد أن يطلب القوم طعاماً خالياً من القمع^٢.

* * *

١- راجع: «قرآن بر فراز قرون وأوصاف»، (فارسي)، ص ١١٢.

٢- نسخير القرطبي.

٤- ذلة بنى إسرائيل ومسكتتهم

تفيد الآية الكريمة أن بنى إسرائيل «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ» لعاملين:

الأول - لکفرهم بآيات الله، وانحرافهم عن خط التوحيد.

الثاني - لقتلهم الأنبياء بغير حق.

ظاهرة الإنحراف عن خط التوحيد وظاهرة القسوة والفظاظة، لا زالتا مشهودتين حتى اليوم عند جمع من هؤلاء القوم، ولا زالتا سبباً لشقاوتهم وطيشهم وتعاستهم^١.

في تفسير الآية ١١٢ من سورة آل عمران تحدثنا بالتفصيل عن مصير اليهود وحياتهم التعيسة، (المجلد الثاني من هذا التفسير).

* * *

١- نحن إذ نكتب هذه السطور، تصلنا أنباء عما ارتكبه هؤلاء القوم في لبنان، من أعمال قاسية وحشية ذهب ضحيتها الآلاف من المدنيين العزل، خلال مجازر وحشية. قلل أن شهد لها التاريخ نظيراً. وسيدفع هؤلاء المجرمون اللعن الشتماء هذه، «وَسَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْتَلِبٍ يَنْتَلِبُونَ».

الآية

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِرِينَ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ^{٧٧}

التفسير

القانون العام للنجاة

بعد عرض لمقاطع من تاريخ بنى إسرائيل، تطرح هذه الآية الكريمة مبدأ عاماً في التقييم وفق المعايير الإلهية. وهذا المبدأ ينص على أن الإيمان والعمل الصالح هما أساس تقييم الأفراد، وليس للتظاهر والتصنّع قيمة في ميزان الله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِرِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ».

هذه الآية تكررت مع اختلاف يسير في سورة المائدة، الآية ٧٢ وفي سورة

الحج الآية ١٧.

سياق الآية في سورة المائدة يشير إلى أن اليهود والنصارى فخرّوا بدنיהם، واعتبروا أنفسهم أفضل من الآخرين، وادعوا بأن الجنة خاصة بهم دون غيرهم. ولعل مثل هذا التفاخر صدر عن بعض المسلمين أيضاً، ولذلك نزلت هذه

الآية الكريمة لتؤكد أن الإيمان الظاهري لا قيمة له في الميزان الإلهي، سواء في ذلك المسلمين واليهود والنصارى وأتباع الأديان الأخرى. ولقول الآية أيضاً: إن الأجر عند الله يقوم على أساس الإيمان الحقيقي بالله واليوم الآخر إضافة إلى العمل الصالح. وهذا الأساس هو الباعث الوحيد للسعادة الحقيقة والإبعاد عن كل خوف وحزن.

تساؤل هام

بعض المضللين اتخذوا من الآية الكريمة التي نحن بصددها وسيلة لبث شبهة مفادها أن العمل بأي دين من الأديان الإلهية له أجر عند الله، وليس من اللازم أن يعتقد اليهودي أو النصراني الإسلام، بل يكفي أن يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً.

الجواب: نعلم أن القرآن يفترض بعدهم بعضاً، والكتاب العزيز يقول: «وَمَنْ يَتَّبِعَ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَئِنْ يَقْبِلَ مِنْهُ»^١.

كما أن القرآن مليء بالآيات التي تدعو أهل الكتاب إلى اعتناق الدين الجديد، وتلك الشبهة تتعارض مع هذه الآيات. من هنا يلزمنا أن نفهم المعنى الحقيقي للآلية الكريمة.

ونذكر تفسيرين لها من أوضح وأنسب ما ذكره المفسرون:

- ـ لو عمل اليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الأديان السماوية بما جاء في كتبهم، لأنهم حتماً بالتأيي عليهم السلام لأن بشارات الظهور وعلامات النبي وصفاته مذكورة في هذه الكتب السماوية، وسيأتي شرح ذلك في تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة.

٢- هذه الآية تجيب على سؤال عَرَضَ لـكثير من المسلمين في بداية ظهور الإسلام، يدور حول مصير آبائهم وأجدادهم الذين لم يدركوا عصر الإسلام، ثُرِى، هل سيؤاخذون على عدم إسلامهم وإيمانهم؟! الآية المذكورة نزلت لقول إن كل أمة عملت في عصرها بما جاء به نبيها من تعاليم السماء وعملت صالحاً؛ فإنها ناجية، ولا خوف على أفراد تلك الأمة ولا هم يحزنون.

فاليهود المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور المسيح، والسيحيون المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور نبي الإسلام.
وهذا المعنى مستفاد من سبب نزول هذه الآية كما سأتأتي.

* * *

بحوث

١- قصة سلمان الفارسي

إكمالاً للبحث، لا بأس أن نذكر هنا سبب نزول هذه الآية كما جاء في جامع البيان للطبرى:

«كان سلمان من جنديسابور، وكان من أشرافهم، وكان ابن الملك صديقاً له مؤاخياً، لا يقضى واحد منهم أمراً دون صاحبه. وكانا يركبان إلى الصيد معاً. فبينما هما في الصيد، إذ بدا لهما بيت من خباء، فأتياه فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف، يقرأ فيه، وهو يبكي.

سألاه: ما هذا؟

قال: إن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه فائزلا، حتى أعلمكما. فنزل إلينه. فقال لهما: هذا كتاب من عند الله، أمر فيه بطاعته، ونهى عن معصيته، فيه إن لا تزني ولا تسرق ولا تأخذ أموال الناس بالباطل، فقص عليهما ما فيه، وهو

الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى.

فوقع في قلوبهما، وتبعاه، فأسلموا.

وقال لهم: إن ذيحة قومكما عليكم حرام. فلم يزالا معه كذلك يتعلّمان منه. ثم اتفق أن كان للملك عيد، فجعل طعاماً، ودعى إليه الأشراف، فأبى ابن الملك أن يحضر الوليمة، فدعاه أبوه فقال له: ما أمرك هذا؟

قال: إنا لا نأكل من ذاتحكم، إنكم كفار لا تحل ذاتحكم.

قال له الملك: من أمرك بهذا؟ فأخبره أن الراهب أمر بذلك.

فدعى الراهب فقال: ماذا يقول ابني؟

قال: صدق ابنك.

قال له: لو لا أن الدم فينا عظيم لقتلتك، ولكن اخرج من أرضنا. فأجله أجلاً.

قال سلمان: فقمنا نبكي عليه، فقال لهم: إن كنتما صادقين فأنما في بيعة في الموصل، مع ستين رجلاً تعبد الله فيها، فأتوانا فيها، فخرج الراهب، وبقي سلمان وأبن الملك، فجعل يقول لأبن الملك: إنطلق بنا، وابن الملك يقول: نعم.

وجعل ابن الملك يبيع متابعاً يريد الجهاز. فلما أبطأ على سلمان، خرج سلمان حتى أتاهم، فنزل على صاحبه، وهو رب البيعة، وكان أهل تلك البيعة من أفضل الرهبان. فكان سلمان معهم يجتهد في العبادة ويتعب نفسه.

قال له الشیخ يوماً: إنك غلام حدث، تتكلف من العبادة ما لا تطبق، وأنا خائف أن تفتر وتعجز، فارفق بنفسك، وخفف عليها.

قال له سلمان: أرأيت الذي تأمرني به أهو أفضل أو الذي أصنع؟

قال: بل الذي تصنع.

قال: فخل عنّي، ثم إن صاحب البيعة دعا، فقال: إني رجل أضعف عن عبادة هؤلاء، وأنا أريد أن أتحول من هذه البيعة إلى بيعة أخرى هم أهون عبادة من هؤلاء، فإن شئت أن تقيّمها هنا فأقم، وإن شئت أن تنطلق معي فانطلق.

قال له سلمان: أي البيعتين أفضل حالاً؟

قال: هذه.

قال سلمان: فأنا أكون في هذه، وأوصى صاحبُ البيعة عالم البيعة بسلمان، فكان سلمان يتبعدهم.

ثم إن الشيخ العالم عزم أن يأتي بيت المقدس، فقال لسلمان: إن أردت أن تتطلق معي فانتطلق، وإن شئت أن تقيم فأقم.

فقال له سلمان: أيهما أفضل أنطلق معك أم أقيم؟

قال: بل تتطلق معي، وإنطلقا حتى أتيا بيت المقدس.

فقال الشيخ لسلمان: أخرج فاطلبا العلم، فإنه يحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض. فخرج سلمان يسمع منهم، فرجع يوماً حزيناً. فقال له الشيخ: ما لك يا سلمان؟ قال: أرى الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الأنبياء وأتباعهم. فقال له الشيخ: يا سلمان لا تحزن فإنه بقي نبي ليس من نببي بأفضل منه، وهذا زمانه الذي يخرج فيه، ولا أراني أدركه، وأما أنت فثاب لعلك تدركه، وهو يخرج في أرض العرب، فإن أدركته فامن به واتبعه، فقال له سلمان: فأخبرني عن علامته بشيء، قال: نعم، هو مختوم في ظهره بخاتم التّبّوّة. وهو يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.

ثم اتفق أن افترق سلمان عن الراهب لدى عودتهما من بيت المقدس، ففقده في الطريق، وبينما هو يبحث عنه إذ رأه رجلان عربيان من بنى كلب، فأسراه، وأخذاه معهما إلى المدينة، قال سلمان: فأصابني من الحزن شيء لم يصببني مثله قط، فاشترته امرأة من جهينة، فكان يرعى عليها هو وغلام لها يتراوحان الغنم هذا يوماً وهذا يوماً. فكان سلمان يجمع الدراما ينتظر خروج محمد^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} فبينما هو يرعى يوماً إذ أتاه صاحبه الذي يعقبه فقال: أعلمت أنه قد قدماليوم المدينة رجل يزعم أنه نبي؟! فقال له سلمان: أقم في الغنم حتى آتنيك. فذهب سلمان إلى

المدينة، فنظر إلى النبي ﷺ ودار حوله، فلما رأه النبي ﷺ عرف ما يريد. فأرسل ثوبه حتى خرج خاتمه. فلما رأه أباه وكلمه. ثم انطلق فاشترى طعاماً وجاء به، فقال له النبي ﷺ: ما هذا؟ قال سلمان: هذه صدقة. قال: لا حاجة لي بها فأخرجها فليأكل المسلمين. ثم انطلق فاشترى طعاماً، فأتى النبي ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: هدية. قال: فاقعد، فقد فأكلا جميعاً منها. فبینا هو يحدثه، إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً. فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له النبي ﷺ: يا سلمان هم من أهل النار. فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

* * *

٢- من هم الصابئون؟

يقول الراغب الأصفهاني: الصابئون قوم كانوا على دين نوع^١ وذكرهم إلى جانب المؤمنين واليهود والنصارى يدل على أنهم كانوا يدينون بدين سماوي ويؤمنون بالله واليوم الآخر.

واعتبر البعض أنهم مشركون، وقيل عنهم أنهم مجوس، وليسوا كذلك، لأن القرآن ذكرهم إلى جانب المشركين والمجوس إذا قال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...».

واختلف المفسرون وأصحاب الملل والنحل في تشخيص هوية الصابئين، ووجه تسميتهم.

«الشهرستاني» في «الملل والنحل» يقول: الصابئة من صباً أي انحرف عن طريق الأنبياء، وهو لاءٌ قوم انحرفو عن طريق الحق ودين الأنبياء، فهم «صابئة». ويقول «الفيومي» في «المصباح المنير» إن «صباً» تعني الخروج من الدين

إلى دين آخر.

وفي معجم (دهخدا) الفارسي: الصابئون جمع صابيء، وهي كلمة مشتقة من (ص - ب - ع) العبرية التي تعني الغوص في الماء (أو التعميد)، وسقطت العين في التعرّب، وتسمى هذه الطائفة التي تسكن خوزستان باسم (المغفلة) لذلك. دائرة المعارف الفرنسية، في المجلد الرابع، ص ٢٢، ذكرت أن هذه الكلمة عربية وتعني الإنغماس في الماء أو التعميد.

(جسينوس) الألماني يذهب إلى أن هذه الكلمة عربية، ولا يستبعد أن تكون مشتقة من كلمة تعني «النجم».

صاحب كتاب «كشاف اصطلاح الفنون» يقول: «الصابئون فرقة تعبد الملائكة ويقرأون (الزبور) ويتجهون نحو القبلة».

وجاء في كتاب «التبيه والإشراف» نقلًا عن «الأمثال والحكم» ص ١٦٦٦: «قبل أن يطرح (زراتشت) دعوة المجموعة على (جشتاسب)، وكان أهل هذه الديار على مذهب (الحنفاء)، وهم الصابئون، وهو دين جاء به (بودااسب) على عهد (طهمورس)».

سبب اختلاف الآراء حول هذه الطائفة يعود إلى قلة أفرادها وإصرارهم على إخفاء تعاليمهم، وامتناعهم عن الدعوة إلى دينهم، واعتقادهم أن دينهم خاص بهم لا عام لكل الناس، وأن نبيهم مبعثوت إليهم لا لغيرهم. ولذلك أحبطوا بكثير من الغموض واكتفieron بالأسرار، وهم يتوجهون نحو الانقراض.

الالتزام بتعاليمهم على غاية الصعوبة، ففيها أنواع الأغسال والتعميدات في الشتاء والصيف، ويعيلون إلى الإنزواء والإبعاد عن غير أبناء دينهم ويحرمون تزوج النساء من غير الصابئين، وكثير منهم اعتنق الإسلام نتيجة اختلاطهم بال المسلمين.

٣- معتقدات الصابئين

يعتقد الصابئة أن أول كتاب مقدس سماوي نزل على آدم، وبعده على نوح، ثم على سام، ثم على «رام»، ثم على إبراهيم الخليل، ثم على موسى، وأخيراً على يحيى بن زكريا.

كتبهم المقدسة:

١- «كizarبا» ويسمى أيضاً «سدره» أو «صحف» آدم، وفيه آراء حول كيفية بدء الخلق.

٢- كتاب «أدر أفسادهي» أو «سدراذهي» ويتحدث عن يحيى وتعاليمه ويعتقد الصابئة أنه موحى إلى يحيى عن طريق جبرائيل.

٣- كتاب «قلستا» وفيه تعاليم الزواج والزوجية، وهذا إلى جانب كتب كثيرة أخرى يطول ذكرها.

يبدو مما سبق أن هؤلاء أتباع يحيى بن زكريا، الذي يسميه المسيحيون يحيى المعتمد، أو يوحنا المعتمد.^١

صاحب كتاب «بلغ الارب» له رأي آخر بشأن الصابئة، يقول:
«هم من يعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ويقول مطرانا بنوء كذا ...².

وهؤلاء كانوا قوم إبراهيم الخليل عليه السلام وهو أهل دعوته وكانوا بحران، فهيء دار الصابئة، وكانوا قسمين: صابئة حنفاء، وصابئة مشركين، والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر، ويصورونها في هياكلهم ... ويتخذون لها أصناماً تخصها ويقربون لها القرابين.

وطوائف منهم يصومون شهر رمضان ويستقبلون في صلواتهم الكعبة

١- راجع لمزيد من التوضيح كتاب «آراء وعقائد شري» (فارسي).

٢- الأنواء جمع نوء وهو التحريم مال للغروب، بلوغ الارب جزء، ٢٦، ص ٢٢٢-٢٢٨.

ويعطمون مكة ويرون الحج إنها ويحرمون الميّة والدم ولحم الخنزير ويحرمون من القرابات في النكاح ما يحرم المسلمين، وعلى هذا المذهب كان جماعة من أعيان الدولة ببغداد منهم هلال بن المحسن الصابي صاحب الديوان الإنساني وصاحب الرسائل المشهورة، وكان مع المسلمين ويعبد معهم ويمزكي ويحرم المحرمات، وكان الناس يعجبون من موافقته للMuslimين وليس على دينهم، وأصل دين هؤلاء فيما زعموا أنهم يأخذون محسنات العالم ومذاهبهم ويخرجون من قبيل ما هم عليه قولهً وعملًا، ولهذا سموا صابئة، أي خارجين، فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين وتفصيله إلا مارأوه فيه من الحق^١.

من مجموع ما سبق يتبيّن أن الصابئين كانوا في الأصل أتباع أحد الأنبياء وإن اختلف المحققون في تعيين نبيهم. وتبين أيضًا أن عدد هؤلاء قليل وهم في حالة انفراط.

* * *

الآياتان

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيقَاتَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الظُّورَ خُذُوا مَا
هَاءَتِنَّكُم بِقُوَّةٍ وَإِذْ كُرُوا مَا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَتَّقَونَ ⑤ ثُمَّ تَوَلَّتُمْ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً لَكُنْتُمْ مِنْ
الْخَاسِرِينَ ⑥

التفسير

الالتزام بالمعيقات

هاتان الآياتان تطرحان مسألة أخذ معيقات بني إسرائيل بشأن العمل بالتوراة،
ثم نقضهم للمعيقات: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيقَاتَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الظُّورَ» والظور جبل
وسياطي ذكره. وقلنا لكم: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ»، واجعلوا التوراة دوماً نصب
أعينكم: «وَإِذْ كُرُوا مَا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَتَّقَونَ».
لكنكم نقضتم المعيقات وجعلتموه وراء ظهوركم: «ثُمَّ تَوَلَّتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

بحوث

١- الميثاق

المقصود من الميثاق في الآية الكريمة هو نفس ما جاء في الآية ٤٠ من هذه السورة وما سيأتي في الآيتين ٨٣ و ٨٤ أيضاً. مواد هذا الميثاق عبارة عن: توحيد الله، والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، والقول الصالح، وإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، واجتناب سفك الدماء. هذه المواد وردت في التوراة كذلك.

من الآية ١٢ لسوره العنكبوت يتضح أيضاً أن الله أخذ ميثاق بني إسرائيل أن يؤمّنوا بجميع الأنبياء ويساندوهم، وأن ينفقوافي سبيل الله. وفي هذه الآية ضمان للقوم بدخول الجنة إن عملوا بهذا الميثاق.

٢- رفع جبل الطور

أما بشأن كيفية رفع جبل الطور في قوله تعالى: «وَرَفَقْنَا فَوْقَكُمُ الْطُّورَ» يقول الطبرسي عن أبي زيد: حدثنا حسن رجع موسى من الطور، فأتى بالألواح، فقال لقومه: جئتكم بالألواح وفيها التوراة والحلال والحرام فاعملوا بهاء قالوا: ومن يقبل قولك؟! فأرسل الله عز وجل الملائكة حتى نتفقا (رفعوا) الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسى عليه السلام: إن قبلكم ما آتيتكم به وإنما أرسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراة وسجدوا الله تعالى ملاحظين الجبل (أي وهم ينظرون إلى الجبل من طرف خفي)، فمن ثم يسجد اليهود على أحد شقي وجههم». مضمنون هذه الآية ورد مع تفاوت بسيط في الآية ٩٣ من سورة البقرة و ١٥٤ النساء، و ١١٧ الأعراف.

الطبرسي - كما ذكرنا - وجمع من المفسرين - يذهبون إلى أن جبل الطور رفع

فوق رؤوس بنى إسرائيل بأمر الله لا يجاد الظل عليهم^١، وهناك من يقول إن زلزالاً شديداً ضرب الجبل، بحيث كان يرى بنو إسرائيل ظل قمة الجبل على رؤوسهم من شدة الإهتزاز، وترقبوا أن يسقط الجبل عليهم، لكن الزلزال هداً بفضل الله واستقرَّ الجبل^٢.

ويحتمل أيضاً أن تكون قد انفصلت من الجبل صخرة عظيمة بأمر الله على أثر زلزال شديد أو صاعقة، ومررت فوق رؤوسهم في لحظات، فرأوها وتصوروا أنها ستسقط عليهم.

٣- الإلتزام والإرهاب

مسألة رفع الجبل فوق بنى إسرائيل لتهديدهم عندأخذ الميثاق تتبرأ سؤالاً بشأن إمكان تحقيق الإلتزام عن طريق التخويف والإرهاب.

هناك من قال: إن رفع الجبل فوقهم لا ينطوي على إرهاب وتخويف أو إكراه، لأن أخذ الميثاق بالإكراه لا قيمة له.

والأصح أن نقول: لا مانع من إرغام الأفراد المعاندين المستمردين على الرضوخ للحق بالقوّة، وهذا الإرغام مؤقت هدفه كسر أنفاسهم وعنادهم وغرورهم، ومن ثم دفعهم للتفكير الصحيح، كي يؤذوا واجباتهم بعد ذلك عن إرادة وإختيار، على أي حال، هذا الميثاق يرتبط بالمسائل العملية، لا بالجانب الإعتقادي، فالمعتقدات لا يمكن تغييرها بالإكراه.

٤- جبل الطور

اختلف المفسرون في المقصود من جبل «الطور»، منهم من قال: إنه نفس

١- مجمع البيان وتفسير أخرى، ذيل الآية ١٧١ من سورة الأعراف.

٢- المنار، في تفسير الآية المذكورة.

الجبل الذي أُوحى فيه إلى موسى. وقال آخرون: إنه اسم جنس بمعنى مطلق «الجبل» لا جبل بعينه. وجاء تعبير (الجبل) بدل الكلمة الطور في قوله تعالى: «وَإِذْ نَثَنَّا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ»^١.

٥- خذوا تعاليم السماء بقوّة

خاطب الله سبحانه بنى إسرائيل فقال: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ» وعن هذه الآية سئل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن المقصود من القوّة في هذه الآية: «أَيْقُوَّةٌ بِالْأَبْدَانِ أَمْ بِقُوَّةٍ فِي الْقُلُوبِ؟» قال: «بِهِمَا جَمِيعًا»^٢.

وهذا الأمر الإلهي يتجه إلى كل أتباع الأديان الإلهية في كل زمان ومكان، ويطلب منهم أن يتجهزوا بالقوى المادية والقوى المعنوية معاً، لصيانة خط التوحيد وإقامة حاكمة الله في الأرض.

* * *

١- تفسير أبي الفتح الرّازبي والشّفيسر الكبير للرّازبي، ذيل الآية التي نحن بصددها، والأية في سورة العنكبوت، ١٧١.

٢- رواه المياحي، تقلّأً عن مجمع البيان.

الآياتان

وَلَقَدْ عِلِّمْتُمُ الَّذِينَ أَعْتَدْنَا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوا
قِرْدَةً خَسِيْنَ ⑤ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا
وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ⑥

التفسير

عصاة يوم السبت

هاتان الآياتان الكريمتان تتحدثان - كالآيات السابقة - عن روح العصيان والتمرد المتفلصلة في اليهود، والتصاقهم الشديد بالمسائل المادية: «ولقد علِّمْتُمُ الَّذِينَ أَعْتَدْنَا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوا قِرْدَةً خَسِيْنَ»^١. «فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا» أي جعلناها عبرة لتلك الأمة ولأئمُّها «ومَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ».

ملخص الحادثة التي تشير إليها الآية: «أن الله سبحانه أمر اليهود أن يستروا - أي أن يقطعوا أعمالهم - يوم السبت. وهذا الأمر شمل طبعاً أولئك القاطنين قرب البحر الذين يعيشون على صيد الأسماك، وشاء الله أن يختبر هؤلاء، فكثرت

١- جسم: طرد وزجر، ويتعلّم لطرد الكلب، وللطرد المقرن بالإهانة يقال: إخْسَاء.

الأسماك يوم السبت قرب الساحل بينما ندرت في بقية الأيام. طرق هؤلاء يتحايلون لصيد الأسماك يوم السبت. فعاقبهم الله على عصيانهم ومسخهم على هيئة حيوان». ^١

وهل كان هذا المsex جسمي أم نفسي وأخلاقي؟ وأين كان يسكن هؤلاء القوم؟ وبأية حيلة توسلوا للصيد؟ هذا ما سنجيب عليه وعلى غيره من المسائل المرتبطة بهذا الموضوع في المجلد الخامس من هذا التفسير، لدى توضيح الآيات ١٦٣ - ١٦٦ من سورة الأعراف.

وقوله تعالى: «فَقُلْنَا لَهُمْ كُوئُنُوا قِرْزَدَةً خَاسِيَّنَ» إشارة إلى فورية المsex الذي تم بأمر إلهي واحد.

ومن المفيد أن ننقل في هذا المجال رواية عن الإمامين الباقي والصادق ^{عليهما السلام} في تفسير قوله تعالى «فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا...» قالا: «لما بين يديهاه إِي لِتَّا مَعَهَا يَنْظَرُ إِلَيْهَا مِنَ الْقَرَى (في زمان تلك الأمة)، (وما خلفها) نحن (المسلمون) ولنا فيها موعدة!».

* * *

الآيات

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا
أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ⑤ فَالْأُولَاءِ
أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ
وَلَا بَكْرٌ عَوْانٌ يَبْيَنُ ذَلِكَ فَافْعُلُوا مَا تُؤْمِنُونَ ⑥ قَالُوا أَدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَ آةٌ فَاقْعُ
لَوْنُهَا تَشْرُ النَّظَرِينَ ⑦ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ
الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْهَنَدُونَ ⑧ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُشِيرُ إِلَأَرْضٍ وَلَا تَسْقِي الْحَرَثَ مُسْلَمَةً لَا
شَيْءَ فِيهَا قَالُوا أَنْتَ نَحْنُ جِئْنَا بِالْحَقِّ فَذَبَحْنَاهَا وَمَا كَادُوا
يَفْعَلُونَ ⑨ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرِءُوهُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرِجَ مَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ ⑩ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِمَغْضِبَهَا كَذَلِكَ يُخْسِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِيَّ
وَيُرِيكُمْ مَا يَتَّهِي لَعَلَّكُمْ تَغْفِلُونَ ⑪ ثُمَّ قَسَّتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ فِيهِي كَالْمِحْجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْمِحْجَارَةِ لَمَّا
يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَسْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشِيَّةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِعَنِّيْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ⑫

التفسير

قصة بقرة بنى إسرائيل

هذه الآيات تتحدث بالتفصيل عن حادثة أخرى من حوادث تاريخبني إسرائيل، هذا التفصيل لم نألفه في الآيات السابقة، ولعله يعود إلى أن هذه الحادثة ذكرت في هذا الموضع - لا غير - من القرآن الكريم، وإلى أنها تتضمن عِبَراً كثيرة تستوجب هذا التفصيل. من هذه الدروس: لجاج بنى إسرائيل وعنادهم، ومستوى إيمانهم بكلام موسى عليه السلام، وأهمّ من كل هذا البرهنة على إمكان المعاد. العادلة (كما يبينها القرآن وكتب التفسير) على النحو التالي: قتل شخص من بنى إسرائيل بشكل غامض، ولم يعرف القاتل.

حدث بين قبائل بنى إسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، كل قبيلة تتهم الأخرى بالقتل. توجهوا إلى موسى ليقضى بينهم. فما كانت الأساليب الإعتيادية ممكنة في هذا القضاء، وما كان بالإمكان إهمال هذه المسألة لما سيترتب عليها من فتنة بين بنى إسرائيل. لجأ موسى - بإذن الله - إلى طريقة إعجازية لحل هذه المسألة كما ستوضحها الآيات الكريمة! .

١- في الفصل العادي والشرين من سفر التثنية في المهد القديم وردت إشارة عابرة لهذه القصة. وما ورد في التوراة العالية ليس بسرد للحادثة وإنما إعطاء حكم من الأحكام، وهذا نص السفر المذكور من الجملة ١ إلى ٩: «إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الله إياك لتسلكها واقفاً في العقل لا يعلم من قتله - يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل - فالمدينة القرى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالثير - وينحدر شيوخ تلك المدينة بالمجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع، ويكسرون عنق المجلة في الوادي - ثم يتقدم الكهنة بن لاوى لأنهم اختاروا الله إياهم اختار الله ليخدموه ويباركون باسم الله وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة - ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القرى بين من القتيل أيديهم على المجلة المكسورة المنق في الوادي - وبصرحون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر - اغفر لشعب إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بري وفي وسط شعبك إسرائيل فينفر لهم الدم - فتنزع الدم البري، من وسطك إذا عملت الصالح في عيني الله».

يقوله سبحانه في هذه الآيات: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخَذُنَا هُزُواً؟!»
 «قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

أي إن الإستهزاء من عمل الجاهلين، وأنبياء الله مبرأون من ذلك.
 بعد أن أيقنوا جدية المسألة، «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبْيَّنُ لَنَا مَا هِيَ». وعبارة «ربك» تتكرر في خطاب بني إسرائيل لموسى، وتنطوي على نوع من إساءة الأدب والسخرية، وكأن رب موسى غير ربهم !!
 موسى عليه أجا بهم: «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يُكَرُّ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ» أي إنها لا كبيرة هرمة ولا صغيرة، بل متوسطة بين الحالتين: «فَاقْفَلُوا مَا تُؤْمِنُونَ».

لكن بني إسرائيل لم يكفووا عن لجاجتهم: «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبْيَّنُ لَنَا مَا لَوْنُهَا؟»

أجا بهم موسى: «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقْعُ لَوْنُهَا تَسْرُ النَّاظِرِينَ»
 أي إنها حسنة الصفة لا يشوبها لون آخر.

ولم يكتف بنو إسرائيل بهذا، بل أصرروا على لجاجهم، وضيقوا دائرة انتخاب البقرة على أنفسهم.

عادوا و«قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبْيَّنُ لَنَا مَا هِيَ» طالبين بذلك مزيداً من التوضيح، متذرعين بالقول: «إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْهَنْدُونَ».
 أجا بهم موسى «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولٌ ثَيِّرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرَثَ» أي ليست من النوع المذلل لحرث الأرض وسقيها.
 «مُسْلِمَةٌ» من العيوب كلها.

«لَا شَيْءَ فِيهَا» أي لا لون فيها من غيرها.
 حينئذ: «قَالُوا إِنَّا جِئْنَا بِالْحَقِّ».

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي أنهم بعد أن وجدوا بقرة بهذه السمات ذبحوها بالرغم من عدم رغبتهم بذلك.

بعد أن ذكر القرآن تفاصيل القصة، عاد فلخض الحادث بأيدين: **﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْكُرُوهُمْ فِيهَا﴾** أي فاختلتم في القتل وتدافعتم فيه. **﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾**.

﴿قَتَلْنَا أَضْرِبُوهُ بِنَعْصِمَهَا﴾ أي اضربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة، كي يحيى ويخبركم بقاتلهم. **﴿كَذَلِكَ يُحْكَى اللَّهُ الْمُؤْنَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**. وبعد هذه الآيات البينات، لم تلن قلوب بني إسرائيل، بل بقيت على قسوتها وغلظتها وجفافها. **﴿فَمَّا قَسْتُ قُلُوبِكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَمَهِيَ كَالْمُجَازَةُ أَوْ أَشَدُ قَسْوَةً﴾**.

إنها أشد قسوة من الحجارة، لأن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار، أو تنسج منها المياه أو تسقط من خوف الله: **﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَّا يَنْفَجُرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَسْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهُبِطُ مِنْ خُشْبَةِ اللَّهِ﴾**. لكن قلوب بني إسرائيل أشد قسوة من الحجارة، فلا تتفجر منها عاطفة ولا علم، ولا تنسج منها قطرة حب، ولا تتحقق من خوف الله. والله عالم بما تتطوي عليه القلوب وما تفعله الإيدي: **﴿وَمَا اللَّهُ بَغَافِلٌ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**.

* * *

بحوث

١- أسللة كثيرة تافهة

«السؤال» دون شك مفتاح لحل المشاكل، ووسيلة لإزالة الجهل والإبهام، لكنه مثل بقية الأمور، إن تجاوز حدّه وجاء في غير موضعه فإنه يدلّ على

الإنعراج ويؤدي إلى أضرار، ومن ذلك ما نراه في هذه القصة. بنو إسرائيل أمروا أن يذبحوا بقرة، وكان بإمكانهم أن يذبحوا أية بقرة شاؤوا، لأن الأمر الإلهي لم يحدد شكل البقرة ونوعها، ولو أراد الله بقرة معينها لحدد مواصفاتها حين الأمر. لكن الله أمرهم أن يذبحوا «بقرة» وصيغة التكير تدل على عدم إرادة التحديد.

هؤلاء المعاندون أبوا إلا أن يطروحاً أسنانه متكررة، أملاً في تضليل الحقيقة وإخفاء القاتل، وبقوا يصررون على ترددتهم في الذبح حتى النهاية، وهذا ما تشير إليه عبارة: «فَذَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ».

وفي الآيات ما يشير إلى أن مجموعة من بنى إسرائيل - على الأقل - كانت تعرف القاتل، وقد يكون القتل قد تم بمؤامرة بين هؤلاء الأفراد، لكنهم كانوا يكتمون الأمر، ولهذا يقول سبحانه: «وَأَلَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ». أضف إلى ما سبق أنَّ أهل العناد واللجاج يكتشرون دائماً من الجدل والإحتجاج على كل شيء.

وثمة قرائن في الآيات توضح أن هؤلاء القوم لم تكن لهم معرفة كاملة بالله ولا بالنبي المرسل إليهم، لذلك قالوا له بعد كل أسئلتهم: «الآن جئتَ بِالْحَقِّ»، وكانَ ما جاء به حتى ذلك الوقت كان باطلًا!!

والملحوظ أن الله سبحانه ضيق عليهم دائرة الانتخاب، واشتد بذلك عليهم التكليف كلما زادوا في أسئلتهم، لأنهم مستحقون لمثل هذا العقاب. ولذلك نرى في الآخر حثَّ على السكوت عما سكتت عنه تعاليم السماء ففي ذلك حكمة. عن النبي ﷺ: «أَنْتُمْ أُمِرْتُمْ بِإِذْنِي بَقْرَةٍ وَلَكُنْتُمْ مَا شَدَّدْتُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ شَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»!

* * *

٢- مدلول هذه الأوصاف:

كان تكليفبني إسرائيل - كما ذكرنا - مطلقاً غير مقيد بمواصفات معينة. لكن لجاج هؤلاء ضيق عليهم الدائرة وغير عليهم حكم التكليف.^١

إلى جانب هذه الحقيقة، تمة حقيقة اجتماعية قد يمكن استنتاجها من الأوصاف التي ذكرت للبقرة.

يبدو أن القرآن يريد أن يبين أنَّ البقرة التي كتب لها أن تعين فرداً ميناً ينبغي أن لا تكون «ذلولاً» أي تأبى التسلیم والخضوع الأعمى. كما أنها ذات لون واحد خالص لا تشوبه ألوان أخرى.

وهذا يعني أن القائد الذي يستهدف إحياء المجتمع ينبغي أولاً أن يكون متحرراً من تأثيرات الضغوط الاجتماعية التي يمارسها أصحاب الثروة والجاه والقوة، وأن يستسلم له وحده دون أن تأخذه في ذلك لومة لائم، كما أن القائد يجب أن يكون مبِراًً من أي لون غير اللون التوحيدى، ومثل هؤلاء الأفراد فقط يستطيعون أن يعالجوا أمور الناس باتزان واعتدال ويعتنوا في قلوب وأفكار أئمهم الخصب والحياة.

أما المنشد بنير الدنيا والخاضع لها والمشوب بالألوان والأهواء فلا يستطيع أن يحيي القلوب الميتة، ولا يقدر أن ينهض بدور الإحياء.

* * *

٣- ما هو دافع القتل؟

تذكر كتب التاريخ والتفسير أن دافع القتل في هذه الحادثة إما المال، أو الزواج.

١- هذه القصة تشير إلى جواز نسخ الحكم قبل العمل وفق ما تقتضيه المصلحة. وتشير أيضاً إلى وجود النسخ في دين موسى، كما تدل على أن التكليف قد يكون له طابع العقاب. وهذه مباحث سطرتها في محلها.

من المفسرين من قال: إن ثريًّا من بني إسرائيل لم يكن له وارث سوى ابنه فطال عمر هذا الثري ولم يطق الوارث مزيدًا من الإنستان، فقتله خفية ليحصل على أمواله وألقى جسده في الطريق، ثم بدأ بالصرارخ والعويل، وشكى الأمر إلى موسى.

وقال آخرون: إن القاتل أراد أن يتزوج من ابنة القتيل، فرفض ذلك، وزوج ابنته إلى أحد أخيار بني إسرائيل. فقعد له وقتلها، ثم شكا القاتل الأمر إلى موسى. ومن الممكن أن تشير القصة إلى حقيقة هي: إن كل المفاسد والجرائم مصدرها في الغالب أمران: الطمع في المال، والطمع في الجنس.

* * *

٤- العبر في هذه القصة

هذه القصة لها دلالات على قدرة الله اللامتناهية، وكذلك على مسألة المعاد، ولذلك وردت في الآية ٧٣ عبارة «كَذَلِكَ يُخْيِي اللَّهُ الْمَوْقَعُ» إشارة إلى مسألة المعاد، وعبارة «وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ» تأكيد على قدرة الله وعظمته.

إضافة إلى ما سبق، هذه القصة تتحدث عن سنة من سنن الله تعالى، وهي أن الأمة تستوجب غضب الله حين تصرّ على عنادها ولجاجها واستهتارها بكل شيء».

العبارات التي وردت على لسان بني إسرائيل في هذه القصة توضح أن هؤلاء القوم بلغوا الذروة في إهانة النبي، بل وبلغت بهم الجرأة إلى إساءة الأدب تجاه رب العالمين.

في البداية قالوا النبي لهم: «أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًّا؟»؛ وبذلك اتهموا نبيهم بارتكاب ذنب الإستهزاء بالآخرين.

وفي مواضع عديدة خاطبوه بعبارة «أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ»، وكان رب موسى غير

رِبِّهِمْ، مَعَ أَنْ مُوسَى قَدْ قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ». وَقَالَ الَّهُ أَيْضًا: «اذْعُ لَنَا رَبِّكَ يَبْيَّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّ شَاهَ اللَّهُ لَمْهَنَدُونَ» وَيَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ كَلَامَ مُوسَى أَذَى إِلَى ضَلَالِهِمْ فِي تَشْخِيصِ الْبَقَرَةِ، ثُمَّ يَخَاطِبُوهُ فِي النَّهَايَةِ: «الآنِ جِئْتُ بِالْحَقِّ».

هَذِهِ التَّعْبِيرَاتُ تَدْلِي عَلَى جَهْلِ هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَتَعْتَنُهُمْ وَغَرُورُهُمْ وَلِجَاجِهِمْ. وَهَذِهِ الْفَصْحَةُ مِنْ جَهَةِ أُخْرَى تَعْلَمُنَا أَنَّا يَنْبَغِي أَنْ لَا نَتَزَمَّنَ وَلَا نَتَشَدَّدَ فِي الْأُمُورِ كَيْ لَا يَتَشَدَّدَ اللَّهُ مَعَنَا.

وَلَعِلَّ اِنتِخَابَ الْبَقَرَةِ لِلذِّبْعِ يَسْتَهْدِفُ غَسْلَ أَدْمَغَةِ هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِنْ فَكْرَةِ عِبَادَةِ الْعَجْلِ.

* * *

٥- الإِحْسَانُ إِلَى الْأَبِ

يَذَكُّرُ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ الْبَقَرَةَ الَّتِي ذَكَرَتِ الْآيَاتُ مَوَاصِفَهَا، كَانَتْ وَحِيدَةً لَا تَشَارِكُهَا بَقَرَةٌ أُخْرَى فِي ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ اضْطَرَّ الْقَوْمَ إِلَى شَرائِها بِثَمَنٍ باهِظٍ. وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْبَقَرَةَ كَانَتْ مِلْكًا لِشَابٍ صَالِحٍ عَلَى غَايَةِ الْبَرِّ بِوَالِدِهِ. هَذَا الرَّجُلُ وَاتَّهُ سَابِقًا فَرْصَةً صَفْقَةً مَرْبِيعَةً، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَدْفَعَ فِيهَا الثَّمَنَ نَقْدًا. وَكَانَتْ النَّقْدُ فِي صَنْدُوقٍ مَفْتَاحُهُ تَحْتَ وَسَادَةِ وَالِدِهِ. حِينَ جَاءَ الرَّجُلُ لِيَأْخُذَ الْفَتَاحَ وَجَدَ وَالِدَهُ نَائِمًا، فَأَبْيَنَ إِيقَاظَهُ وَازْعَاجَهُ، فَفَضَّلَ أَنْ يَتَرَكَ الصَّفْقَةَ عَلَى أَنْ يَوْقِظَ وَالِدَهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «كَانَ الْبَانِعُ عَلَى اسْتِعْدَادِ لَأَنْ يَبْيَعَ بِضَاعِتِهِ بِسَبْعِينِ أَلْفًا نَقْدًا، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ أَبْيَى أَنْ يَوْقِظَ وَالِدَهُ وَاقْتَرَحَ شَرَاءُ تِلْكَ الْبَضَاعَةَ بِشَمَائِنِيْنِ أَلْفًا عَلَى أَنْ يَدْفَعَ الْمُبْلِغَ بَعْدَ اسْتِيقَاظِ وَالِدِهِ. وَأَخْرَى لَمْ تَمْ صَفْقَةُ الْمُعَامَلَةِ، وَلَذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى تَعْوِيْضَهُ عَلَى اِيْتَارِهِ هَذَا بِمَعَامِلَةِ أُخْرَى وَفِيرَةِ الْرِّبَعِ.

وقالوا أيضاً: بعد أن استيقظ الوالد وعلمه بالأمر، أهدي لولده البقرة المذكورة، فدررت عليه ربيعاً عظيماً.

وإلى هذه القصة يشير رسول الله ﷺ إذ يقول: «أنظروا إلى البر ما يبلغ بأهله»^٢

* * *

٢ - تفسير نور التلقين، ج ١، ص ٨٨

١ - تفسير ابن كثير، ج ١.

الآيات

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَشْمَعُونَ
كَلَمْنَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَغْلِمُونَ ۝ وَإِذَا
لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا إِنَّا مَنَّا وَإِذَا خَلَّا بَغْضُهُمْ إِلَى بَغْضِ
قَالُوا أَخْعَذُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيَخَابُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
أَفَلَا تَقْتَلُونَ ۝ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرِرُونَ وَمَا
يُعْلَمُونَ ۝

سبب التزول

روي عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقي رض أنه قال: «كان قوم من اليهود ينسوا من المغانيدين التوطئين، إذا لقوا المسلمين حدثوهم بما في التزارة من صفة محمد، فنهيهم كبراؤهم عن ذلك، وقالوا: لا نخرب وهم بما في التزارة من صفة محمد فيخابوكم به عند ربكم: فنزلت هذه الآية»^١.

التفسير

لأمثل في هؤلاء

كان سياق الآيات السابقة يتجه نحو سرد تاريخ بنى إسرائيل، وفي هاتين الآيتين يتوجه الخطاب نحو المسلمين ويقول لهم: لا تعقدوا الآمال على هداية هؤلاء اليهود، فهم مصرون على تحريف الحقائق ونكران ما عقلوه «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُجْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا وَهُمْ يَغْلُبُونَهُ»

وهذه عظة للMuslimين، ودفع لما قد يعتريهم من يأس نتيجة عدم استطاعتهم إقناع اليهود وجذبهم إلى الدين الجديد.

الآياتان الكريمتان توضحان أن السبب في عدم استسلام هؤلاء القوم أمام المعجزة القرآنية وسائر المعاجز النبوية الأخرى، إنما يعود لعناد متصل في هؤلاء ورثوه عن آبائهم الذين سمعوا كلام الله عند جبل الطور، ثم ما لبثوا أن حرّفوه بعد عودتهم.

من عباره «وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ...» نفهم أن بنى إسرائيل لم يكونوا بأجمعهم محرفين، بل إن فريقاً منهم - ومن المحتمل أن يشكل عددهم أكثريه - بنى إسرائيل - كانوا هم المحرفين.

ورد في أسباب التزول أن مجموعة من بنى إسرائيل حين عادوا من جبل الطور قالوا: «سمعنا أن الله قال لموسى: إعملوا بأوامرني قدر استطاعتكم، واتركوها متى تذر عليكم العمل بها»! وكان ذلك أول تحرير في بنى إسرائيل، على أي حال، كان من المتوقع أن يكون اليهود أول من يؤمن بالرسالة الإسلامية بعد إعلانها لأنهم أهل كتاب (خلافاً للمشركيين)، ولأنهمقرأوا صفات النبي ﷺ في كتبهم. لكن القرآن يوجه أنظار المسلمين إلى سوء السابقة لدى هؤلاء القوم، ويوضح لهم أن الإنحراف النفسي يدفع إلى الإعراض عن الحقيقة.

مهما كانت هذه الحقيقة واضحة بيته.

الآية التالية تلقي الضوء على حقيقة مُرَأةً أخرى بشأن هذه الزمرة المنافقة ونقول: «وَإِذَا قَوْا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَّا بَعْضُهُمْ إِلَى بَغْضٍ قَالُوا أَنْحَدْثُونَهُمْ إِيمَانَهُمْ لِيَتَحَاجَجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَتَفَقَّلُونَ؟!»
من المحتمل أيضاً أن تتحدث هذه الآية في صدرها عن المنافقين من اليهود الذين يتظاهرون بالإيمان لدى لقائهم بال المسلمين، ويزرون إنكارهم عند لقائهم بأصحابهم، بل يلومون أولئك اليهود الذين يكشفون للمسلمين عمّا في التوراة من أسرار.

هذه الآية - على أي حال - تأيد للآية السابقة، التي نهت المسلمين عن عقد الأمل على إيمان مثل هؤلاء القوم.

عبارة «إِيمَانَهُمْ لِيَتَحَاجَجُوكُمْ» قد تعني الميثاق الإلهي الذي كان محفوظاً لدى بني إسرائيل. وقد تشير إلى الأسرار الإلهية المرتبطة بالشريعة الجديدة. ويتبين من الآية أن إيمان هذه الفئة المنافقة من اليهود، كان ضعيفاً إلى درجة أنهم تصوروا الله مثل إنسان عادي، وظنوا أنهم إذا أخفوا شيئاً عن المسلمين فسيخفي عن الله أيضاً.

لذلك تقول الآية التالية بصرامة: «أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلَمُونَ؟!»

* * *

الآيات

وَمِنْهُمْ أُمَّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَظْنُونَ ﴿١﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْكِتَابَ بِأَنْدِيمِهِمْ^{VA}
يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشَرِّعُوا بِهِ مَنَّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لِّهُمْ مَمَّا
كَتَبْتَ أَنْدِيمِهِمْ وَوَيْلٌ لِّهُمْ مَمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٢﴾

سبب النزول

عدم جمع من علماء اليهود إلى تغيير صفات النبي الإسلام في التوراة من أجل
صيانة مصالحهم، واستمرار الأموال التي كانت تتدفق عليهم سنويًا من جهة
اليهود. فعند ظهور النبي ﷺ غير وأما ذكر من صفاته في التوراة وأبدلواها بصفات
أخرى على العكس منها، كي يموّهوا الأمر على الأميين الذين كانوا قد سمعوا من
قبل بصفات النبي في التوراة، فمتن ما سألوه علماءهم عن هذا النبي الجديد قرؤوا
لهم الآيات المحرفة من التوراة لاقناعهم بهذه الطريقة:

التفسير

خطة اليهود في استغلال الجهلة!

بعد الحديث عن إنحرافات اليهود في الآيات السابقة، قسمت هاتان الآيات

اليهود على مجموعتين: أمنين وعلماء ماكرين، (هناك طبماً أقلية من علمائهم آمنت والتحقت بصفوف المسلمين).

عن المجموعة الأولى يقول تعالى: «وَمِنْهُمْ أُمَّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَثَافِيٌ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظْهُرُونَ».

والأميون جمع أمي، والأمية غير الدارس. سموا بذلك لأنهم في معلوماتهم كما ولدتهم امهاتهم، أو لشدة تعلق امهاتهم بهم، صعب عليهن فراقهم جهلاً، ومنعهم من الذهاب إلى المدرسة^١.

والأمني جمع أمنية، ولعل الآية تشير هنا إلى الإمتيازات الموهومة التي كان ينسبها اليهود لأنفسهم، كقولهم: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجِبَّاؤُهُ»^٢، و كقولهم: «لَنْ نَسْأَلَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ»^٣.

ومن المحتمل أيضاً أن يكون المقصود من الأمني الآيات المعرفة التي كان علماء اليهود يشيرونها بين الأميين من الناس، وهذا المعنى ينسجم أكثر مع قوله تعالى: «لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ».

وعلى أي حال عبارة: «إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْهُرُونَ» دلالة واضحة على بطلان اتباع الظن في فهم أصول الدين ومعرفة مدرسة الوحي، ولا بد من التتبع والتحقيق في هذا الأمر.

ثمة مجموعة أخرى من العلماء كانت تحرف الحقائق ل لتحقيق مصالحها، وإلى هؤلاء يشير القرآن: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...».

«فَوَيْلٌ لِهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ...».

«وَوَيْلٌ لِهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ...».

١- معنى «الأمي» بحث بشكل أولى في تفسير الآية ١٥٧ من سورة الأعراف، راجع المجلد الخامس.

٢- المائدة، ٤٨.

٣- آل عمران، ٢٤.

ومن العبارة الأخيرة نفهم الهدف الذي لهؤلاء، وكذلك عاقبتهم الوخيمة. وقد أورد بعض المفسرين حدثناً عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية حديث فيه ملاحظات هامة:

قال رجل للصادق عليه السلام: إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلا بما يسمعونه من علمائهم، فكيف ذمتم بتقليلهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلا كعوامنا، يقلدون علماءهم - إلى أن قال - فقال عليه السلام: «بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهة، وتسوية من جهة، أمّا من حيث الاستواء فإنَّ اللَّهَ ذُمِّ عوامنا بتقليلهم علماءهم، كما ذُمِّ عوامهم، وأمّا من حيث افترقا فإنَّ عوام اليهود كانوا قد عرّفوا علماءهم بالكذب الصراح، وأكل المحرام، والرشاء وتغيير الأحكام، واضطربوا بقلوبهم إلى أنَّ من فعل ذلك فهو فاسق، لا يجوز أن يصدق على الله، ولا على الوسائل بين الخلق وبين الله، فلذلك ذمّهم، وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، والعصبية الشديدة، والتکالب على الدنيا وحرامها، فمن قلد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذين ذمّهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم، فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، عمالقاً على هواه، مطيناً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه، وذلك لا يكون إلا بعض فقهاء الشيعة لا كلّهم، فإمّا من ركب من القبائح والفواحش مراكب علماء العامة، فلا تقبلوا منهم عنا شيئاً، ولا كرامة، وإنما كثر التخليط فيما يتحمّل عنا أهل البيت لذلك، لأنَّ الفسقة يتحمّلون عنا فيحرّفونه بأسره لمصلحتهم، ويضعون الأشياء على غير وجهها لقلة معرفتهم وأخرون يعتمدون الكذب علينا»^١

واضح أن هذا الحديث لا يدور حول التقليد التعبد في الأحكام، بل يشير إلى اتباع العلماء من أجل تعلم أصول الدين، لأن الحديث يتناول معرفة النبي، وهذه المعرفة من أصول الدين، ولا يجوز فيها التقليد التعبد.

* * *

الآيات

وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَغْدُودَةٍ قُلْ أَتَخَذُ ثُمَّ عِنْدَ
اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ بَلِّي مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحْطَثَ بِهِ خَطِيئَةً فَإِذَا لَمْكَ
أَضْحَبَ النَّارَ هُمْ فِيهَا خَلِيدُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَضْحَبَ الْجَنَّةَ هُمْ فِيهَا خَلِيدُونَ ﴿٣﴾

التفسير

غورو وادعاء فارغ

يشير القرآن الكريم هنا إلى واحدة من ادعاءات اليهود الدالة على غرورهم،

هذا الغرور الذي يشكل الأساس لكثير من إنحرافات هؤلاء القوم:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَغْدُودَةٍ﴾، ثم تجيئهم الآية بأسلوب مفحم:
﴿قُلْ أَتَخَذُ ثُمَّ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾.

اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار، وأن عنصرهم متغرق على سائر
الأجناس البشرية، وأن مذنبיהם لن يدخلوا جهنم سوى أيام قليلة ليتنعموا بعدها
بالجنة، من مظاهر أنانية هؤلاء واستفحال ذاتياتهم.

ادعاء اليهود المذكور في الآية الكريمة لا ينسجم مع أي منطق، إذ لا يمكن أن يكون بين أفراد البشر أي تفاوت في نيل التواب والعقاب أمام الله سبحانه وتعالى.

بِمَ استحق اليهود أَنْ يَكُونُوا مُسْتَنْدِينَ مِنَ الْقَانُونِ الْعَامِ لِلْعِقَابِ الإِلَهِيِّ؟! الآية الكريمة تدحض مزاعمهم بدليل منطقي، وفهمهم أن مزاعمهم هذه إنما أن تكون قائمة على أساس عهد لهم اتخذه عند الله، ولا يوجد مثل هذا العهد، وأن تكون من افترائهم الكذب على الله.

ثم تبيّن الآية الكريمة التالية قانوناً عاماً يقوم على أساس المنطق وتقول: «**بَلِّيْ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْشَةً فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا حَالِدُونَ**».

وهذا القانون عام يشمل المذنبين من كل فئة وقوم، وبشأن المؤمنين الأتقياء، فهناك قانون عام شامل تبيّنه الآية التالية: «**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهِ حَالِدُونَ**»

* * *

بحوث

١- كسب السيئة

الكسب والإكتساب: الحصول على الشيء عن إرادة و اختيار، من هنا عبارة «**بَلِّيْ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**» إشارة إلى أولئك الذين يرتكبون الذنوب عن علم وانتخاب. وتعبير الآية بكلمة «**كَسَبَ**» قد يكون إشارة إلى المحاسبة الخاطئة العاجلة التي يرتكب المذنب على أساسها ذنبه ظاناً أنه يكسب بارتكاب الذنب نفعاً، ويتحمل بتركه خسارة! وإلى مثل هؤلاء المذنبين تشير آية كريمة ستأتي بعد عدد من الآيات إذ يقول سبحانه: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ**

فَلَا يُخْفَى عَنْهُمُ الْقَدَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ).^١

* * *

٢- إحاطة الخطيئة

الخطيئة تستعمل غالباً في الذنوب التي لا يرتكبها صاحبها عن عمد، لكنها وردت في هذه الآية بمعنى الذنوب الكبيرة^٢، أو بمعنى آثار الذنب في قلب الإنسان وروحه^٣.

مفهوم إحاطة الخطيئة يعني إنغماس الفرد في الذنب إلى درجة يصبح ذلك الفرد سجين ذنبه.

بعباره أوضح، الذنوب الكبيرة والصغرى تبدأ على شكل « فعل » ثم تتحول إلى « حالة » ومع الإستمرار والإصرار تتحول إلى « مملكة ». وعند اشتدادها تغدر وجود الإنسان وتتصبح عين وجوده. عندئذ لا تجدي مع هذا الفرد موعظة ولا يؤثر فيه توجيهه ولا نصح، إذ أنه عملٌ عن اختيار على قلب ماهيته فمثلهم مثل دودة القز التي تلف حولها من نسيج العرير حتى تسمى سجينه عملها.

الآية الكريمة تتحدث عن خلود مثل هؤلاء الأفراد في النار، وهذا يعني أن هؤلاء يغادرون الدنيا وهم مشركون. لأن الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشَرِّكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ».^٤

* * *

٣- عنصرية اليهود

فهم من الآيات الكريمة أن روح التمييز العنصري لدى اليهود، التي هي

١- التفسير الكبير، الفخر الرازي، الآية المذكورة. ٢- الميزان، الآية المذكورة.

٣- النساء، ٤٨.

مبعث كثير من مشاكل الساحة العالمية اليوم، كانت راسخة لدى اليهود منذ تلك الأيام. وكانوا يعتقدون بوجود تفوق وامتياز لعنصربني إسرائيل على سائر الأجناس البشرية الأخرى. ولا زالت هذه الذهنية سائدة لدى هؤلاء القوم بعد مرورآلاف السنين على أسلانهم الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم. وهذا التعصب العنصري هو الأساس الذي تقوم عليه الدولة الصهيونية الفاصلةاليوم. هؤلاء يعتقدون بأن عنصرهم تميّز عن سائر البشر لا في هذه الدنيا فحسب، بل في الآخرة أيضاً، حيث لا ينال المجرم منهم -على رأيهما - سوى عقوبة خفيفة قصيرة. وهذه التصورات المغلوطة هي التي دفعتهم إلى أن يرتكبوا ألوان الجرائم والموبقات^١.

* * *

١- لم يفسر الآية ١٢٣ من سورة النساء بحثاً أيضاً في هذه الإمتيازات الكاذبة (المجلد الثالث من هذا التفسير).

الآيات

وَإِذْ أَخْذَنَا مِيشَانَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَغْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ
وَبِالَّوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُوَّةِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ
وَقَوْلُوا لِلنَّاسِ حُسْنَا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَإِذْ أَتُوا الْزَكَوَةَ ثُمَّ
تَوَلَّتُمُ الْأَقْلِيلَ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُغْرِضُونَ ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَخْذَنَا مِيشَانَكُمْ
لَا تَشْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَرِكُمْ ثُمَّ
أَقْرَزْتُمُ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُولًا إِنْ قَتَلُوكُنَّ أَنفُسَكُمْ
وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَرِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْأَنْمَامِ
وَالْعَدُوْنَ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسْرَى تُفَلِّدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ أَنْتُمْ مُنُونَ بِيَغْضِبِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِيَغْضِبِ فَما
جَزَ آءَهُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْنَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَنِيلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ لَتَنْكِ أَلَّذِينَ أَشْرَرُوا أَلْحِيَّةَ الدُّنْيَا بِالْأُخْرَةِ فَلَا
يُعْجَفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنَصَّرُونَ ﴿١٨﴾

التفسير

الناتكون

تقدّم ذكر ميثاق بني إسرائيل، ولكن الآيات السابقة لم تتعرّض إلى تفاصيل هذا الميثاق على النحو المذكور في هذه الآيات. يشير سبحانه في هذه الآيات إلى مواد هذا الميثاق، وهي بأجمعها – أو معظمها – من المبادئ الثابتة في الأديان الإلهية. موجودة بشكل من الأشكال في كل الأديان السماوية.

القرآن ينذّد في هذه الآيات بشدةً باليهود لنقضهم هذه العهود، ويتوعدُهم نتيجةً لهذا النقض بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب في الآخرة.

بنود هذا العهد الذي أقرّ به بنو إسرائيل:

- ١ - التوحيد وإخلاص العبودية لله **«وَإِذْ أَخْذَنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ»**.
 - ٢ - الإحسان إلى الوالدين: **«وَبِالْأَوَالِيَّاتِ إِحْسَانًا»**.
 - ٣ - الإحسان إلى الأقارب واليتامى والفقراء: **«وَذِي الرُّقُبَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ»**.
 - ٤ - التعامل الصحيح مع الآخرين: **«وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَاءً»**.
 - ٥ - إقامة الصلاة: **«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ»**.
 - ٦ - إيتاء الزكاة: **«وَآتُوا الزَّكَاةَ»**.
- ثم تذكر الآية الكريمة نقض القوم للميثاق وعدم وفائهم بالعهد: **«فَمَمْ تَوَلَّهُمْ
وَلَا قَبِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُغْرِضُونَ»**.
- ٧ - عدم سفك الدماء: **«وَإِذْ أَخْذَنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ»**.
 - ٨ - عدم إخراجبني جلدكم من ديارهم: **«وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ»**.
 - ٩ - إفداء الأسرى، أي بذل المال لتحريرهم من الأسر (وهذا البند نفهمه من

عبارة «أَفَتُؤْمِنُونَ بِيَغْضِبِ الْكِتَابِ وَتَكْفِرُونَ بِيَغْضِبِ»، وسيأتي ذكرها.
ثم تذكر الآية إقرار القوم بالمعيقات: «إِنَّمَا أَفْرَزْتُمْ وَإِنَّمَا تَشَهَّدُونَ».

ثم يتعرض القرآن إلى نقضبني إسرائيل للمعيقات، بقتل بعضهم وتشريد بعضهم الآخر: «إِنَّمَا هُؤُلَاءِ تَقْتَلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ». ويشير القرآن إلى تعاون بعضهم ضد البعض الآخر: «تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْأَئِمَّةِ وَالْعَذُونَ».

ثم يشير إلى تناقض هؤلاء في مواقفهم، إذ يحاربونبني جلدتهم ويخرجونهم من ديارهم، ثم يغدونهم إن وقعوا في الأسر: «وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تَفَادُوهُمْ وَهُوَ عَزَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ».

فهم يفادونهم استناداً إلى أوامر التوراة، بينما يشرونهم ويقتلونهم خلافاً لما أخذ الله عليهم من ميثاق: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِيَغْضِبِ الْكِتَابِ وَتَكْفِرُونَ بِيَغْضِبِ»؟!
ومن الطبيعي أن يكون هذا الإنحراف سبباً لانحطاط الإنسان في الدنيا
والآخرة:

«فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا حِزْبٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِ الْعَذَابِ».

وإنحرافات آية أمّة من الأمم لابد أن تعود عليها بالنتائج الوخيمة، ذلك لأنّ
الله سبحانه وتعالى أحصاها عليهم بدقة: «وَمَا اللَّهُ يَعْلَمُ عَمَّا تَعْمَلُونَ».
الآية الأخيرة تشير إلى تحبطبني إسرائيل وتناقضهم في مواقفهم، والمصير
ال الطبيعي الذي يتذمرونهم نتيجة لذلك: «أَوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُفْعَلُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ».

بحوث

١- إشارة تأريخية:

في الآيات إشارة لتناقض بنى إسرائيل في مواقف بعضهم من البعض الآخر. قيل في ذلك: «كان بنو إسرائيل إذا استضعف قوماً أخرجوهم من ديارهم، وقد أخذ عليهم العيشان أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وأخذ عليهم العيشان إن أسر بعضهم بعضاً أن يفدوهم. فأخرجوهم من ديارهم تم فادوهم، فآمنوا بالفداء فقدوا وكفروا بالإخراج من الديار فأخرجوهم». وروي في المعنى بهذه الآية: «أن قريطة والتضير كانا أخوين كالأوس والخزرج فاقتربوا فكانت التضير مع الخزرج وكانت قريطة مع الأوس، فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فإذا وضع العرب أوزارها فدوا أسرارها تصديقاً لما في التوراة، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأواثن لا يعرفون جنة ولا ناراً ولا قيامة ولا كتاباً، فأنما الله تعالى اليهود بما فعلوه».^١

وهكذا سقط اليهود وغيرهم من أهل العناد في مثل هذه التناقضات في حياتهم لأنحرافهم عن خط العبودية التامة لله تعالى.

* * *

٢- الإزدواجية في الإلتزام:

مرَّانا أن القرآن الكريم يوين اليهود بشدة على إلتزامهم ببعض الأحكام الإلهية وتركهم لبعضها الآخر، وينذرهم بخزي الدنيا وبعذاب الآخرة وخاصة في عملهم بالاحكام الجزئية، ومخالفتهم لأهم الأحكام الشرعية. أي قانون حرمة إراقة الدماء، وتهجير من يشاركون في العقيدة من ديارهم وأوطانهم.

هؤلاء في الواقع التزموا بالاحكام التي تسجم مع مصالحهم الدنيوية من الأحكام، أما حين تقضي مصلحتهم أن يرثوا دم الآخرين ويستضعفوهم، فلا يألون جهداً في ارتكاب كل ذلك مخالفين بذلك أهم أحكام رب العالمين. إلتزامهم بفداء الأسرى لا ينطلق من روح تعبدية، بل من روح مصلحية ترى أنَّ من مصلحتها أن تُفدي الأسرى اليوم، كي تُفدي هي حين تقع بالأسر في المستقبل.

العمل بالأحكام المنسجمة مع مصالح الإنسان الدنيوية، ليس دلالة على طاعة الله وعبادته، لأن الدافع لم يكن الإستجابة إلى دعوة الله بقدر ما كان استجابة لنداء الذات والمصالح الذاتية. روح الطاعة تبرز لدى إلتزام الإنسان بما لا ينسجم مع مصالحة الآنية الذاتية. وهذا هو المعيار الذي يميز به المؤمن عن العاصي، فالإِذْوَاجِيَّة في الإلتزام بأحكام الله تعالى، تدل على روح العصيان، بل أحياناً على عدم الإيمان وبعبارة أخرى، إن الإيمان يظهر أثره فيما لو كان القانون على خلاف مصالح الفرد ومع ذلك يلتزم به الفرد، وإنما العمل بالأحكام الشرعية، إذا اتفقت مع المصالح الشخصية لا يعتبر افتخاراً ولا علامة على الإيمان ولهذا يمكن تمييز المؤمنين عن المناقفين من هذا الطريق فالمؤمنون يلتزمون بجميع الأحكام، والمناقفون يذهبون إلى التبعيض.

ومصير هذه الأمة - بالتعبير القرآني - الخزي في الدنيا وأشد العذاب في الآخرة ... ولا خزي أكبر من سقوط هذه الأمة السائرة على خط الإِذْوَاجِيَّة بيد الغزاة الأجانب، وهبوطها في مستنقع الذلة على الساحة العالمية.

هذه السنة الكونية لا تقتصر علىبني إسرائيل، بل هي سارية في كل زمان ومكان، وتشملنا نحن المسلمين أيضاً. وما أكثر الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويُكفرون ببعض في مجتمعاتنا اليوم! وما أشقي هؤلاء في الدنيا والآخرة!

٣- منهج البقاء وعوامل السقوط

الآيات الكريمة في معرض حديثها عن بنى إسرائيل تطرح ستناً كونية في بقاء الشعوب وانحطاطها.

أهم عامل لبقاء الأمة ورفعتها وعزتها في المنظار القرآني، اعتماد الأمة على قوّة الله وقدرته الأبديّة وخضوعها له وحده دون سواه وخشيتها وحده دون غيره: «لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ».

ومن عوامل البقاء أيضاً التلاحم الاجتماعي بين أفراد الأمة، وهذا ما يعبر عنه القرآن بالإحسان إلى الوالدين باعتبارهما أقرب أفراد المجتمع إلى الإنسان، ثم الإحسان إلى ذي القربى، ثم بعد ذلك إلى عامة أفراد المجتمع من الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس.

إزالة التمييز الطبقي ورفع الهوة الساحقة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء في المجتمع، عن طريق إيتاء الزكاة، ومن عوامل بقاء المجتمع أيضاً وزفته.

أما عوامل السقوط فهي عبارة عن تفكك البنية الاجتماعية، ونشوب النزاعات والحرروب الداخلية بين أفراد المجتمع، واستضعاف بعضهم بعضاً. «لَا تسفكون دماءكم ولا تخرون أنفسكم من دياركم ...».

ثم الإزدواجية في الالتزام بأحكام الله تعالى عامل هام من عوامل السقوط، يدفع بالأفراد لأن يتحرّكوا حول محور مصالحهم الآتية الذاتية الضيقة، فيلتزموا بالقوانين التي تحفظ لهم منافعهم الشخصية، ويتركوا القوانين الساقعة للمجتمع «افتؤمنون ببعض الكتاب وتکفرون ببعض».

هذه هي الاسباب والعلل في تكامل وانحطاط الأمم والحضارات في منظور القرآن.

الآياتان

وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَنِتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ
أَفَكُلَّا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّمَّا لَا تَهْوِي أَنْفُسُكُمْ أَشْتَكَبْرُّتُمْ فَقَرِيقًا
كَذَّبُتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿١﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ
يُكَفِّرُهُمْ فَقِيلِاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾

التفسير

القلوب المغلفة

الحديث في هاتين الآيتين عنبني إسرائيل، وإن كانت المفاهيم والمعايير التي تطرحها الآياتان عامة و شاملة.

تقول الآية الأولى: «وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» ثم تذكر بعثة الأنبياء. بعد موسى مثل داود وسليمان ويوشع وزكريا ويحيى ... «وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ»، وتشير إلى بعثة عيسى «وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَنِتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»، لكن تعاملبني إسرائيل كان مع كل هؤلاء الأنبياء قائماً على أساس نزعات هو النفس «أَفَكُلَّا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّمَّا لَا تَهْوِي أَنْفُسُكُمْ أَشْتَكَبْرُّتُمْ»! وكان موقفهم إما اغتيال شخصية النبي أو شخص النبي: «فَقَرِيقًا كَذَّبُتُمْ وَفَرِيقًا

تَقْتُلُونَ، لَوْ كَانَ اغْتِيَالُ الْشَّخْصِيَّةِ كَافِيًّا لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمُ الدِّينِيَّةِ اكْتَفَوْا بِذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِيًّا سَفَكُوا دَمَهُ!

ذكرنا في تفسير الآيات السابقة عند حديثنا عن الإزدواجية في الالتزام بالاحكام الإلهية أن معيار الإيمان والتسليم هو الالتزام بما لا تهوى النفس، لأن كل أصحاب الأهواء مستسلمون لما ينسجم مع ميلهم وأهوائهم.

ومن جانب آخر يستفاد من الآية أن القادة الإلهيين لم يكونوا يأبهون بمعارضة أصحاب الأهواء، وهذا هو شأن القائد لمنهج الحق. ولو انساقوا وراء أهواء الآخرين لما كانوا قادة لطلاب صراط الحق. بل أتباع لطلاب الدنيا.

الآية التالية تذكر ما كانوا يقولونه باستهزاء مقابل دعوة الأنبياء لهم أو دعوة النبي الخاتم ﷺ: **«وَقَالُوا: قُلُّوْنَا غُلْفٌ»** والخلف جمع أغلف أي مخلف.

نعم، إنها كذلك مغلفة وبعيدة عن نفوذ النور الإلهي إليها، لأن أصحابها لعنوا بعد التمادي في الكفر **«بَلْ لَعَنْهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ فَقِيلِاً مَا يُؤْمِنُونَ»**.

قد تشير الآية إلى اليهود الذين كذبوا الأنبياء وقتلواهم، وقد تشير إلى اليهود المعاصرین للنبي الخاتم ﷺ متن وقف بوجه الرسالة. لكنها على أي حال تبينحقيقة هامة هي: إن الانغماض في الأهواء يبعد الفرد عن الله، ويسلِّم الحجب على قلبه، فلا تكاد الحقيقة تجد لها طريقاً إلى نفسه.

* * *

بحوث

١- رسالة الأنبياء في مسيرة التاريخ

ذكرنا أن أصحاب الأهواء المنحرفين كانوا يقفون دوماً بوجه دعوة الأنبياء، لأنها كانت تهدد مصالحهم الآنية التافهة، وتحريف الرسائلات الإلهية أحد السبل التي انتهجهها هؤلاء المنحرفون لمحاربة الدعوة، لذلك كان لا بدّ من توالي الرسل -

على مر التاريخ - لمواصلة بقاء خط النبوة على الأرض، ولإتمام الحجة على البشرية. قال سبحانه: «مَّا أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَّا مُّهَاجِرًا مَّا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعُنَا بَعْضُهُمْ بَغْضًا»^١

هذا المفهوم عبر عنه أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: «فَيَمْتَثِلُ فِيهِمْ رُسُلُهُ وَزَانَهُ إِلَيْهِمْ أَثْيَاءُهُ، يَتَشَاءُدُونَهُمْ بِمِياثِقِ فِطْرَتِهِ، وَيَنْكِرُونَهُمْ مَشَيْئِي نَعْمَتِهِ، وَيَخْتَجِرُونَهُمْ بِالثَّنَيَّةِ، وَيَنْكِرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»^٢!

هدف بعثة الأنبياء على مر العصور التاريخية إذن هو تذكير البشر بنعم الله سبحانه، ودعوتهم إلى الالتزام بميثاق الفطرة، وإحياء دعوات الأنبياء السابقين. هنا يشار سؤال حول سبب ختم النبوة بنبغي الإسلام للنبي عليه السلام، وسنجيب عليه إن شاء الله في تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.

٢- ما هو روح القدس؟

للملفسين آراء مختلفة في معنى روح القدس:

١- قالوا إنه جبرائيل، فيكون معنى الآية على هذا إن الله أيد عيسى بجبرائيل، وشاهدتهم على ذلك قوله تعالى: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ»^٣

ووجه تسمية جبرائيل بروح القدس، هو أن جبرائيل ملك، والجانب الروحي في الملائكة أمر واضح، وإطلاق كلمة «الروح» عليهم مناسب مع طبيعتهم، وإضافة الروح إلى «القدس» إشارة إلى ظهر هذا الملك وقداسته الفائقة.

٢- وقيل إن «روح القدس» هو القوة الغيبية التي أيدت عيسى عليه السلام، وبهذه القوة الخفية الإلهية كان عيسى يحيي الموتى.

٢- نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

١- المؤمنون، ٤٤.

٣- التحل، ١٠٢.

هذه القوة الفيّبية موجودة طبعاً بشكل أضعف في جميع المؤمنين على اختلاف درجة إيمانهم. وهذا الإمداد الإلهي هو الذي يعين الإنسان في أداء الطاعات وتحمل الصعاب، ويقيه من السقوط في الذنوب والزلات. من هنا ورد عن رسول الله ﷺ قوله لحسان: «لَن يَزَالَ مَعَكُمْ رُوحُ الْقَدْسِ مَا ذَبَيْتُ عَنْكُمْ» وقول بعض أئمّة أهل البيت لشاعر قرأ أبياتاً ملتزمة: «إِنَّمَا نَفَثَ رُوحُ الْقَدْسِ عَلَى لِسَانِكَ». ٢- ومن المفسرين من قال إن روح القدس هو «الإنجيل»^١ ويبدو أن التفسيرين السابقين أقرب إلى المعنى.

٣- مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين

ورد في قاموس الكتاب المقدس: «إن روح القدس هو الأقنوم الثالث من الأقانيم الثلاثة الإلهية. ويقال له (الروح)، لأنّه مبدع الحياة، ويسمى مقدساً لأنّ من أعماله تقديس قلوب المؤمنين، ولما له من علاقة بالله والمسيح يسمى أيضاً (روح الله) و(روح المسيح)».

وورد أيضاً في هذه القاموس تفسير آخر هو: «أما روح القدس الذي يؤنسنا فهو الذي يحنّنا دوماً إلى قبول وفهم الإستقامة والإيمان والطاعة، ويحيي الأشخاص الذين ماتوا في الذنوب والخطايا، ويظهر لهم وينزّههم و يجعلهم لاتقين لتمجيد حضرة واجب الوجود».

وكما يلاحظ، إن عبارات قاموس الكتاب المقدس أشارات إلى معنيين لروح القدس: الأولى، إن روح القدس أحد الأرباب الثلاثة، وهذه هي عقيدة التشليث، وهي عقيدة شرك بالله ومرفوضة، والثانية يشبه التفسير الثاني المذكور أعلاه.

٤- قلوب غافلة محجوبة

كان اليهود في المدينة يقفون بوجه الدعوة، ويمتنعون عن قبولها، ويتردرون عن ذلك بمختلف الحجج، والآية التي نحن بصددها تشير إلى واحدة من ذرائعهم.
«وَقَالُوا: قُلُّوْنَا غُلْفٌ» ولا ينفذ إليها قول!!

كانوا يقولون ذلك عن استهزاء، غير أن القرآن أيد مقالتهم، فبکفرهم ونفاقهم أُسدل على قلوبهم حجب من الظلمات والذنوب، وابعدوا عن رحمة الله، **«فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ»**.

وهذه مسألة تطرحها آية أخرى من قوله تعالى: **«وَقَوْنِيمُ قُلُّوْنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفُّرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا»**.

* * *

الآيات

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كَتَبْ مَنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ
قَبْلُ يَسْتَقْبِلُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا
بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكُفَّارِ ⑩ بِشَيْءٍ أَشَرَّوا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ
يَكْفُرُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِغِيَّاً أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَهُ بِغَضْبٍ عَلَى غَضْبٍ وَلِلْكُفَّارِ عَذَابٌ
مُهِينٌ ⑪

سبب النزول

روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كانت اليهود تجحد في كتبها أن مهاجر (مكان هجرة) محمد رسول الله عليه السلام ما بين (جبل) غير واحد، فخرجوا يطلبون الوضع، فرروا بجبل يقال له حداد، فقالوا: حداد وأحد سواء، فتفرقوا عنده، فنزل بعضهم بيضاء وبعضهم بحده وبعضهم بخيبر، فاشتاق الذين ببيضاء إلى بعض أخوانهم، ففرّ بهم أعرابي من قيس فتكلروا منه (أي استأجروا إيله) وقال لهم: أمر يكم ما بين غير وأحد، (فعملوا أنهم أصابوا ضالتهم)، فقالوا له: إذا مررت بهما فاذننا (أخبرنا) بهما، فلما توسط بهم أرض المدينة، قال: ذلك غير، وهذا أحد، فنزلوا عن ظهر إيله، وقالوا: قد أصبنا بغيتنا فلا حاجة بنا إلى إيله، فاذهب حيث شئت، وكتبو إلى إخوانهم الذين بحده وبخيبر أنا قد أصبنا الموضع فهلتموا

إلينا، فكتبوا إليهم أتا قد استقرت بنا الدار واتخذنا بها الأموال، وما أقربنا منكم، فإن كان ذلك لما أسرعنا إليكم، واتخذوا بأرض المدينة أموالاً فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تبعاً لفراهم، فتحصروا منه، فحاصرهم ثم أتمتهم، فنزلوا عليه، فقال لهم: إني قد استطعت بلادكم، ولا أراني إلا مقيماً فيكم. قالوا له: ليس لك ذلك، إنها مهاجر نبي، وليس ذلك لأحد حق يكون ذلك، فقال لهم: فإني مختلف فيكم من أسرى من إذا كان ذلك ساعدك ونصره، فخلف حين تراهم الأوس والخزرج، فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمد لنخرجنكم من ديارنا وأموالنا، فلما بعث الله محمد^{صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} آمنت به الأنصار وكفرت به اليهود، وهو قوله تعالى: «وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَشْتَهِيُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ...» إلى آخر الآية.

نعم، هذه الفئة التي كانت تبحث بولع شديد عن منطلق البعثة المحمدية، لتكون أول من تؤمن بررسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت تفتخر أمام الأوس والخزرج بأنها ستكون من خاصة صحابة النبي المبعوث، فإذا هي تقف - بسبب لجاجها وعنادها - إلى جانب أعداء النبي، بينما التف حول الرسول من كان بعيداً عن هذه الأجواء.

التفسير

كفروا بما دعوا الناس إليه

هذه الآيات تتحدث أيضاً عن اليهود ومواقفهم، هؤلاء - كما ورد في أسباب التزول - هاجروا ليتخذوا من يرب سكناً بعد أن وجدوا فيها ما يشير إلى أنها أرض الرسول المرتقب، وبقوا فيها ينتظرون بفارغ الصبر النبي الذي بشرت به التوراة، كما كانوا ينتظرون الفتح والنصر على الذين كفروا تحت لواء هذا النبي، لكنهم مع كل ذلك أعرضوا عن الرسول وعن الرسالة «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَشْتَهِيُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ... فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وهكذا تستطيع الأهواء والمصالح الشخصية أن تقف بوجه طالب الحقيقة، مهما كان الفرد عاشقاً لهذه الحقيقة وتوافقاً للوصول إليها فيتركها ويعرض عنها، بل تستطيع الأهواء أيضاً أن تحول هذا الفرد إلى عدوًّا لدودًّا لهذه الحقيقة.

ما أشدَّ خسارة هؤلاء اليهود، تركوا أوطانهم وهاموا في الأرض بعثنا عن علامات أرض الرسالة، ثم ها هم خسروا كل شيء، وباعوا أنفسهم بأسوأ ثمن: «يُشْسَ مَا اشْرَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ».

لقد ضيعوا كل شيء وكأنهم أرادوا أن يكون النبي الموعود من بنى إسرائيل، ولهذا تألموا من نزول القرآن على غيرهم، بل من شاءه الله: «أَنْ يَكْثُرُوا إِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِغِيَّاً أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ». ولذلك شملهم غضب الله المتواتي: «فَبَاءُوا بِغَضْبٍ عَلَى غَضْبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ».

* * *

بحثان

١- صفقة خاسرة

إنه لخسران عظيم أن تهتمَّاً للإنسان كل سبل الهدایة ثم يعرض عنها لأمور تافهة، واليهود المعاصرون للنبي الخاتم ﷺ هم من أولئك، توفرت لهم كل هذه السبل، بل تحركوا زماناً يبتغون مصدر هذه الهدایة، وعشروا بعد جهد على مبتغاهم حين حطوا رحالهم بين «الغير» و«أحد» انتظاراً للنبي الموعود، ثم إذا هم يخسرون كل شيء، حين علموا أن هذا النبي المبعث ليس من بنى إسرائيل، أو أنه لا يحقق مصالحهم الشخصية.

ما أكبر الخسارة حين يبيع الإنسان نفسه بهذا الشكل ويشتري بها غضب الله عزوجل! بينما ليس لوجود الإنسان ثمن إلا الجنة كما يقول أمير المؤمنين

عليه عليه: «إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ مَنْ إِلَّا يُنْتَهِيُوا إِلَيْهَا»^١. عبارة «اشتراء النفس» أي يبعها توحى أن الإتجاه نحو طريق الضلال بيع للنفس، وكأن الكافر يبيع شخصيته الإنسانية، لأن الكفر يهدم قيمة الإنسان من الأساس، وبعبارة أخرى إنه يكون كالعبد الذين باعوا أنفسهم فأمسوا أسرى بيد الآخرين ... أجل إنهم أسرى الأهواء وعبيد الشيطان.

٢- غضب على غضب

القرآن الكريم قال عن بنى إسرائيل حين تاهوا في صحراء سيناء بأنهم «وَبَاءُوا بِغَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ» بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء وفي سورة آل عمران الآية ١٢، ورد هذا المعنى أيضاً وأن اليهود بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء باءوا بغضب من الله تعالى. وهذا هو الغضب الأول.

وهؤلاء أحفادهم من اليهود المعاصرین للبعثة المحمدية ساروا على طريق أسلافهم في الكفر بالرسالة وزادوا على ذلك بوقوفهم بوجه الرسول وتآمرهم على الدعوة ولذلك قال عنهم «فَبَاءُوا بِغَضْبٍ عَلَى غَضْبٍ». و«باءوا» يعني رجعوا - وأقاموا في المكان - وهنا تعني استحقاقهم لعذاب الله. فكأنهم عادوا لهم محملون بهذا الغضب الإلهي، أو كأنهم اتخذوا موقفاً بغضب الله.

هؤلاء القوم كانوا يعيشون أمل ظهور النبي المنقذ، قبل دعوة موسى وقبل دعوة النبي الخاتم عليه السلام، وكان موقفهم من الرسولين الكريمين واحداً، هو النكول والإعراض، واستحقوا غضب الله وسخطه مرّة بعد أخرى.

* * *

الآيات

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ إِنْتَنَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَأَاءُهُ وَهُوَ أَعْلَمُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ
تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلٍ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ
مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ مُّمَّا أَخْذَذُمُ الْعِجْلَ مِنْ يَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَلَمُونَ ۝
وَإِذَا أَخْذَنَا مِيقَاتَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الظُّرُورَ خُذُوا مَاءَ اتَّيَّثْنَا
بِقُوَّةٍ وَآسْعُوا قَالُوا سَيْغُنا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ
يُكَفِّرُهُمْ قُلْ يَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝

التفسير

العصبية القومية لدى اليهود

يشير القرآن مرّة أخرى إلى عصبية اليهود القومية ويقول:
**«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ إِنْتَنَا إِنْتَنَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا
وَرَأَاءُهُمْ».**

فهم لم يؤمنوا بالإنجيل ولا بالقرآن، بل إنهم يدورون حول محور العنصرية والمصلحية، فيجرأون على رفض الدعوة التي جاءت تصديقاً لما معهم في التوراة

«وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ».

ويكشف القرآن زيف ادعائهم مرة أخرى حين يقول لهم: «قُلْ فَلِمَ تَسْتَشْلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» هؤلاء يدعون أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراة تبيح لهم قتل الأنبياء؟!

وهذا الذي يقوله بنو إسرائيل: «تُؤْمِنُ إِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْنَا» ينطلق من روح ذاتية فردية أو فتوية، وهي تخالف روح التوحيد. فالتوحيد يستهدف القضاة على كل المحاور الذاتية في حركة الإنسان وموافقه، وتكريس نشاطات الفرد حول محور العبودية لله لا غير.

بعبرة أخرى، لو كان الإنصياع للأوامر الإلهية متوقعاً على نزولها عليهم، فهو الشرك لا الإيمان، وهو الكفر لا الإسلام، ومثل هذا الإنصياع ليس بدليل على الإيمان قط.

وبعبارة «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» تحمل مفهوم نفي كل ذاتية بشرية في الرسالة، بما في ذلك ذات النبي المرسل، فلم تتضمن العبارة اسم محمد وعيسى وموسى عليهم أفضل الصلاة والسلام، بل التأكيد على الإيمان بما أنزل الله تعالى.

ويعرض القرآن وثيقة أخرى لإدانة اليهود ولكشف زيف ادعائهم فيقول: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخْذَنَاهُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

ما هذا الإنحراف نحو عبادة العجل بعد أن جاءكم البصائر إن كنتم في إيمانكم صادقين؟! لو كنتم آمنتم به حقاً، فلِمَ تبدّل إيمانكم إلى كفر عند غياب موسى وذهابه إلى جبل الطور، وبذلك ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم والأجيال المتعاقبة بعدكم؟!

في الآية الثالثة يطرح القرآن وثيقة إدانة أخرى، فيشير إلى مسألة مبنية على جبل الطور ويقول: «وَإِذَا أَخْذَنَا مِيقَاتَكُمْ وَرَفَقْنَا قَوْقَعَكُمُ الطُّورَ خَذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ

وَاسْمُوا، قَالُوا: سَيِّفُنَا وَعَصَيْنَا).

وما كان عصيانهم إلا عن انغماس في حب الدنيا الذي تمثل في حب عجل السامری الذهبي: «وأشربوا في قلوبهم العجل يكثرون» ولذا نسوا الله عز وجل؟! كيف يجتمع الإيمان بالله مع قتل انباته وعبادة العجل وتفضي المهد والمواتيق الالهية المؤكدة؟! أجل «قُلْ يَشْتَأِيْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ»!

* * *

بحثان

- ١ - عبارة «قالوا: سيفنا وعصيناه» ليست حكاية عما قالوه بالاستناد، بل حسب الظاهر هي تعبير عن الواقع عملي لهؤلاء القوم، وكناية رائعة عن إنحرافهم.
- ٢ - عبارة «وأشربوا في قلوبهم العجل» هي أيضاً كناية رائعة تعتبر عن وضع هذه الجماعة.

والاشراب له معنيان كما ورد في المفردات: الإحكام كقولك «أشربت البعير» إذا شددت رقبته بالحبيل. وكذلك الإرواء، ويكون المعنى على الوجهين أن حب العجل قد غمر قلوببني إسرائيل واستحكم في أنفسهم.

والعبارة توحى أيضاً ما يصدر عن هؤلاء القوم من إنحراف، إنما هو ظاهرة طبيعية ناتجة عن تغلغل روح الشرك في قلوبهم. والقلوب التي أشربت الشرك لا يصدر عنها إلا القتل والإبكار والخيانة.

وتتبين أهمية الموضوع أكثر لو طالعنا مقدار ما أكدت عليه الديانة اليهودية

١ - مررنا في الآيتين (٦١ و ٦٣) من هذه السورة المباركة موضوع مبنائقبني إسرائيل وخصائصه.

من تقبیح لعملية القتل ونهي عنها فقد جاء في قاموس الكتاب المقدس، ص ٦٧٨: «القتل العمدی وتقبیحه كان على درجة من الأهمیة لدى بنی إسرائیل، بحيث لا تبرأ ذمّة القاتل له لو لجأ إلى الأماكن المقدسة، بل لابدّ إزالة عقوبة القصاص به بأيّ حال من الأحوال».

هذا هو معنى قتل الإنسان في نظر التوراة، فما بالك بقتل الأنبياء؟



الآيات

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ
النَّاسِ فَتَمَنُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴿١﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبْدًا إِمَا
قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظُّلْمِينَ ﴿٢﴾ وَلَسَاجَدَنَّهُمْ أَخْرَصَ
النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمًا حَدُّهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ
أَلْفَ سَنَةً وَمَا هُوَ بِمُرْخِزٍ جِهَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
إِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾

التفسير

فتنة مغرورة:

يبدو من تاريخ اليهود - مضافاً لما أخبر القرآن عنه - أن هؤلاء القوم كانوا يعتبرون أنفسهم فتنة متميزة في العنصر، ومتفوقة على سائر الأجناس البشرية، وكانوا يعتقدون أن الجنة خلقت لهم لا لسوادهم، وأن نار جهنم لن تسهم، وأنهم أبناء الله وخاصته، وأنهم يحملون جميع الفضائل والمحاسن.

هذا الغرور الأرع عن تعكسه كثير من آيات الذكر الحكيم الآية (١٨) من سورة المائدة تقول عن لسانهم: «تَخْنَنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحْبَاؤُهُمْ». وفي الآية ١١ من سورة

البقرة نرى إدعاً آخر لهم: «وَقَالُوا أَنَّ يَذْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى»، وهكذا في الآية ٨٠ من سورة البقرة: «وَقَالُوا أَنَّ نَعْسَنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَفْدُودَةً».

هذه التصورات المohoمة كانت تدفعهم من جهة إلى الظلم والجريمة والطغيان، وتبعدتهم فيهم - من جهة أخرى - الغرور والتكبر والإستعلاء.

والقرآن الكريم يجيب هؤلاء القوم جواباً داماً إذا يقول: «قُلْ إِنَّ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةٌ مِنْ ذُوْنَ النَّاسِ فَنَعْمَلُوا مَا وَتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

ألا تحبّون رحمة الله وجواره ونبيل النعيم الخالد في الجنان؟ ألا يحب

الحبيب لقاء حبيبه؟!

لقد كان اليهود يهدرون من كلامهم هذا وأن الجنة خالصة لنا دون سائر الناس: أو أن النار لا تمسنا إلا أياماً معدودات - إلى توهين إيمان المسلمين وتخدير عقائدهم.

لماذا تفرون من الموت، وكل ما في الآخرة من نعيم هو لكم كما تدعون؟!
لماذا هذا الالتصاق بالأرض وبالصالح الذاتية الفردية، إن كنتم مؤمنين بالآخرة وبنعمها حقاً؟!

بهذا الشكل فضح القرآن أكذوبة هؤلاء، وبين زيف ادعائهم.
في الآية التالية تأكيد على ما سبق بشأن ابعاد القوم عن الموت: «وَلَنْ يَتَمَرَّزَهُ أَبْدًا إِنَّمَا قَدَّمْتُ أَنِيدِيهِمْ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْنِ بِالظَّالِمِينَ».

هؤلاء يعلمون ما في ملف أعمالهم من وثاق سوداء ومن صحائف إدانة، والله علیم بكل ذلك، ولذلك فهم لا يتمنون الموت، لأنّه بداية حياة يحاسبون فيها على كل أعمالهم.

الآية الأخيرة تذكر اندداد هؤلاء بالأرض وحرصهم الشديد على المال والمتاع: «وَتَتَجَدَّنُهُمْ أَخْرَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاةٍ» وتذكر الآية أن حرصهم هذا ينبع حرص الذين أشركوا: «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا».

المشركون ينبغي أن يكونوا أحقر من غيرهم على جمع المال والمتعة، لكن هؤلاء من أصحاب الإدعاءات الفارغة، بلغوا من الحرث ما لم يبلغه المشركون.

وبلغ شففهم بالدنيا أنه «يَوْمٌ أَخْدُهُمْ لَوْ يَعْمَرُ أَلْفَ سَنَّةً» لجمع مزيد من متعة الدنيا، أو خوفاً من عقاب الآخرة لكن هذا العمر الذي يمتهنه كل واحد منهم لا يبعده عن العذاب، ولا يغير من مصيره شيئاً «وَمَا هُوَ بِمُتَّخِذِيهِ مِنَ الْقَدَابِ أَنْ يَعْمَرَ» إذ كل شيء محسوب لدى الله، ولا يعزب عن عمله شيء «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

* * *

بحوث

١- المقصود من الأعوام الألف في قوله تعالى: «يَوْمٌ أَخْدُهُمْ لَوْ يَعْمَرُ أَلْفَ سَنَّةً» ليس هذا العدد المعروف، بل يعني العمر الطويل المديدة، فهو ليس للتعدد، بل للتكثير.

وذهب بعض المفسرين إلى أن العرب لم تكن تعرف أذاك عدداً أكبر من الألف، ولم يكن لما يزيد على الألف اسم عند العرب، ولذلك كان أبلغ تعبير عن الكثرة!.

٢- تكثير الحياة في تعبير الآية «وَتَجِدُهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ» تفيد - كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسرين - الإستهانة والتحقير، أي إن هؤلاء حرّيصون حتى على أنفه حياة وأرخصها وأشقاها، ويفضلونها على الآخرة!.

٣- إفرازات العنصرية:

كان التعصب العنصري وراء كثير من العروbs والماسي التي حدثت على الساحة البشرية خلال جميع عصور التاريخ، وفي عصرنا الحديث كان التعصب العرقي الألماني عاملًا فعالاً في إشعال نظى العربين العالميتين الأولى والثانية. واليهود يحتلون دون شك الصدارة بين العنصريين المتخصصين على مرّ التاريخ، وهو هي دويلتهم المسماة بإسرائيل أقيمت على أساس هذه العنصرية المقيمة، وما يرتکبها هذا الكيان العنصري الصهيوني من جرائم فظيعة إنما هو استمرار لجرائمها التاريخية الناشئة عن عنصريتها البغيضة.

لقد دفعتهم عنصريتهم لأن يحتكروا حتى تعاليم موسى، ويزيلوا عنصر الدعوة من دينهم، كي لا يعتقد تعاليمهم أحد غيرهم. وهذه النزعة الأنانية هي التي جعلت هؤلاء القوم متذمرين معمقين من قبل كل شعوب العالم.

التعصب العنصري شعبة من الشرك، ولذلك حاربه الإسلام بشدة، مؤكداً أن كل أبناء البشر من أب واحد وأم واحدة، ولا تمايز إلا بالتقوى والعمل الصالح.

٤- عوامل الخوف من الموت:

أكثر الناس يخافون من الموت، وخوفهم هذا يعود إلى عاملين:

- ١- الخوف من الفناء والعدم، فالذين لا يؤتون بالآخرة لا يرون بعد هذه الحياة استمرار لحياتهم، ومن الطبيعي أن يخاف الإنسان من الفناء، وهذا الخوف يلاحق هؤلاء حتى في أسعد لحظات حياتهم فيحوّلها إلى علقم في أنفواهم.
- ٢- الخوف من العقاب، ومثل هذا الخوف يلاحق المذنبين المؤمنين بالآخرة، فيخافون أن يسعن حسنهم وهم متقلون بالآلام والأوزار، فيبنالوا جزاءهم، ولذلك يودون أن تتأخر ساعة انتقالهم إلى العالم الآخر.

الأنبياء العظام أحيوا في القلوب الإيمان باليوم الآخر، وبذلك أبعدوا شبح
الفناء والإبندام من الأذهان، وبيّنوا أن الموت انتقال إلى حياة أبدية خالدة منعمّة.
من جهة أخرى دعا الأنبياء إلى العمل الصالح، كي يتبع الإنسان عن الخوف
من العقاب، ولكن يزول عن القلوب والأذهان كل خوف من الموت.



الآيات

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ مَنْ كَانَ
عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرَسُولِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوًّا
لِلْكُفَّارِينَ ۚ

أسباب النزول

روي عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية، ما روي أن ابن صوريا وجماعة من يهود أهل فدك، لما قدم النبي ﷺ المدينة، سأله أئمه، وكان رسول الله يجيئهم وهم يصدقون جوابه، من ذلك أنهم قالوا له: يا محمد كيف نومك؟ فقد أخبرنا عن نوم النبي الذي يأتي في أواخر الزمان، فقال: تنايم عيني وقلبي يقطان. قالوا: صدقت يا محمد... ثم قال له ابن صوريا: خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتبعتك: أي ملك يأتيك بما ينزل الله عليك؟ قال: جبريل. قال ابن صوريا: ذاك عدونا ينزل بالقتال والشدة وال الحرب، وميكائيل ينزل باليسير والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمننا بك!!.

التفسير

قبوْم جَدِيلُون:

سبب نزول الآية الكريمة يبيّن طبيعة المناد واللجاج والجدل في اليهود، ابتداءً من زمان موسى عليه السلام ومروراً بعصر خاتم الأنبياء وحتى يومنا هذا يعرضون عن الحق بألوان الحجج الواهية.

حجتهم في هذا الموضع المذكور في الآية نقل التكاليف التي يأتي بها جبرائيل، وعداؤهم لهذا الملك، ورغبتهم في أن يكون ميكائيل أميناً للسُّوحِي !! وكأن الملائكة هم مصدر الأحكام الإلهية! والقرآن الكريم يصرّح بأن الملائكة ينفذون أوامر الله ولا ينعرفون عن طاعته: «لَا يَخْضُونَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ»^١.

القرآن يجيب عن ذريعة هؤلاء: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ يَأْذِنُ اللَّهُ» وما جاء به جبرائيل يصدق ما نزل في الكتب السماوية السابقة: «مُصَدِّقاً مَا بَيْنَ يَدَيْهِ» وهو إضافة إلى كل هذا: «وَهُدِيَ وَبُشِّرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».

فالجواب في هذه الآية ينطوي على ثلاثة شعب:
 أولاً: إن جبريل لا يأتي بشيء من عنده، بل ما يأتي به هو «يأذن الله». ثانياً: ما جاء به جبريل تصدقه الكتب السماوية السابقة، لانتظامه على العلامات والدلائل المذكورة في تلك الكتب.

ثالثاً: محتوى ما جاء به جبرائيل يدلّ على أصلاته وحقّانيته.
 الآية التالية تؤكد نفس هذا الموضوع تأكيداً مقرّوناً بالتهديد وتقول: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ»^٢ مشيرة بذلك إلى أن موقف الإنسان من الله وملائكته ورسله ومن جبرائيل وميكائيل، لا يقبل التفكير، وأن موقف المعادي من أحدهم هو معاداة الآخرين.^٣

١- التعرّيف، ٦- البقرة، ٩٨.

٢- الميزان، في تفسير الآية المذكورة.

وبعبارة أخرى؛ الأوامر الإلهية الباعثة على تكامل الإنسان، تنزل عن طريق الملائكة على الرسل، وإن كان بين مهام الملائكة اختلاف، فذلك يعود إلى تقسيم المسؤوليات لا إلى التناقض بين المهام، واتخاذ موقف معاد من أحدهم هو عداء الله سبحانه.

جبريل وميكائيل

ورد اسم جبريل ثلاث مرات، واسم ميكائيل مرة واحدة في القرآن الكريم^١. ويستفاد من الآيات أنهما ملكان مقربان من ملائكة الله تعالى. قيل إن اسم جبرائيل عربي يعني «رجل الله» أو «قوة الله» (جبر: تعني الرجل أو القوة، وائيل: يعني الله).

هذه الآيات الكريمة تعرف جبريل أنه رسول الوحي الإلهي إلى النبي، ومنزل القرآن على قلبه، ولواسطة الوحي اسم آخر في الآية ١٠٢ من سورة النحل هو: «روح القدس»، أمّا الآية ١٩١ من سورة الشعراه فتسميه «الروح الأمين»، ويصرّح المفسرون أن المقصود من روح القدس والروح الأمين، هو جبرائيل. وهناك أحاديث تدور حول تشكل جبرائيل بصور متعددة لدى نزوله على النبي، وكان في المدينة ينزل على صورة (دحية الكلبي) وهو رجل جميل الطلة. يستفاد من سورة النجم أن النبي ﷺ شاهد جبرائيل مررتين على هيئة الأصلية^٢.

ذكرت المصادر الإسلامية أسماء أربعة من الملائكة المقربين هم: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزراطيل، وأعظمهم مرتبة جبرائيل. وفي كتب اليهود ورد ذكر جبريل وميكائيل، ومن ذلك ما ورد في كتاب دانياel

١ - اسم «جبريل» ورد مررتين في هذه الآيات ومرة في سورة التحرير الآية (٤) واسم ميكائيل لم يرد إلا في هذا الموضوع من القرآن.

٢ - أعلام القرآن، ص ٢٧٧ و ٦٢٩.

حيث وصف جبرائيل بأنه الغالب لرئيس الشياطين، ووصف ميكائيل بأنه حامي قوم بني إسرائيل.^١

ذكر بعض المحققين أن المصادر اليهودية خالية من الدلالة على خصومة جبرائيل لهؤلاء القوم، وهذا يؤيد أن ادعاءات اليهود بشأن موقفهم من جبرائيل، لم يكن إلا ذريعة للتخلص من الإسلام إذ لا يوجد في مصادرهم الدينية ما يشير إلى وجود مثل هذه العداوة بينهم وبين جبرائيل.

* * *

الآيات

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُهُمْ بِإِلَّا
الْفَسِيقُونَ ۝ أَوْ كُلُّمَا عَنْهُدُوا عَنْهُدَةً فَرِيقٌ مُنْهَمٌ بِإِلَّا
أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِمَا مَعَهُمْ تَبَذَّلَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَأَءَ
ظُهُورِهِمْ كَائِنُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝

سبب التزول

قال ابن عباس: إن ابن صوريـاـ وهو من أصحاب اليهودـ قال لرسول الله ﷺ: يا محمد ما جتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بهبة فتباعك لها، فأنزل الله هذه الآية^١

التفسير

الناكرون من اليهود

الآية الأولى تشير إلى الآيات والعلامات والدلائل الكافية الواضحة التي

١ـ مجمع البيان، وتفسير القرطبي.

توفرت لدى رسول الله ﷺ، وتؤكد أن المعرضين عن هذه الآيات البينات أدركوا في الواقع حقائق الدعوة، لكنهم هبوا للمعارضة مدفوعين بأغراضهم الشخصية: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكُفُّرُهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ».

التفكير في آيات القرآن ينير الطريق لكل طالب حق منصف، وبطاعة هذه الآيات يمكن فهم صدق دعوة نبي الإسلام ﷺ، وعظمته القرآن.

لكن هذه الحقيقة الواضحة لا يفهمها الذين انطفأ نور قلوبهم بسبب الذنوب، من هنا نرى الفاسقين الملوثين بالخطايا يعرضون عن الإيمان بالرسالة.

ثم يتطرق القرآن إلى صفة مجموعة من اليهود، وهي صفة التكول ونقض العهود والمواثيق، وكأنها صفة تارikhية تلازمهم على مر العصور «أَوَ كُلُّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا أَنْبَذُهُ قَرِيبًا مِنْهُمْ، بَلْ أَكْرَهُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

لقد أخذ الله ميثاقهم في جانب الطور أن يعملوا بالتوراة لكنهم نقضوا الميثاق، وأخذ منهم الميثاق أن يؤمنوا بالتبني الخاتم المذكور عندهم في التوراة فلم يؤمنوا به.

يهود «بني النضير» و«بني قريضة» عقدوا الميثاق مع النبي لدى هجرته المباركة إلى المدينة أن لا يتواتروا مع أعدائه، لكنهم نقضوا المهد، وتعاونوا مع مشركي مكة في حرب الأحزاب ضد المسلمين.

وهذه الخصلة في هذا الفريق من اليهود نجد لها اليوم متجسدةً في الصهيونية العالمية التي تضع كل المواثيق والقرارات والمعاهدات الدولية تحت قدميها، متى ما تعرضت مصالحها للخطر.

الآية الأخيرة تؤكد بصرامة أكثر على هذا الموضوع: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَةٌ ظُهُورِهِمْ كَائِنَةٌ لَا يَعْلَمُونَ».

كان أصحاب اليهود يبشرون الناس قبل البعثة النبوية بالرسول الموعود

ويذكرون لهم علاماته وصفاته، فلما بعث النبي الإسلام، أعرضوا عما جاء في كتابهم، وكأنهم لم يروا ولم يقرأوا ما ذكرته التوراة في هذا المجال.

هذه هي النتيجة الطبيعية للأفراد الغارقين في ذاتياتهم، هؤلاء - حتى في دعوتهم إلى حقيقة من الحقائق - لا يتجردون عن ذاتياتهم، فإن وصلوا إلى تلك الحقيقة ووجدوها تنسجم مع أهوائهم، أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم.

* * *

بحوث

١ - واضح أن تعبير «الثُّرُول» أو «الإِنْزَال» بشأن القرآن الكريم لا يعني الانتقال المكاني من الأعلى إلى الأسفل وأن الله مثلاً في السماء وأنزل القرآن إلى الأرض، بل التعبير يشير إلى علو مكانة رب العالمين.

٢ - كلمة «فاسق» من مادة «فسق» وتعني خروج النواة من الرطب، فقد تسقط الرطبة من النخلة، وتفصل عنها النواة. ويقال عن هذا الانفصال في العربية «فاقت النواة»، ثم أطلقت الكلمة على كل انفصال عن خط طاعة الله، وعن طريق العبودية.

فكما أن النواة فاسقة إذا نزعت لباسها الحلو المفيد المندي، كذلك الفاسق ينزع عنه بفسقه كل قيمه وشخصيته الإنسانية.

٣ - القرآن في حديثه عن اليهود لا يوين الجميع بسبب ذنوب الأكثرية، بل يستعمل كلمات مثل «فريق» «أكثر» ليصون حق الأقلية المؤمنة المتقية، وطريقة القرآن هذه في حدديثه عن الأمم درس لنا كي لا نعيدي في أحاديثنا وموافقنا عن الحق والحقيقة.

* * *

الآيات

وَاتَّبَعُوا مَا تَشْتَأْلُوا أَشَيْطِينٌ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَنِينَ كَفَرُوا أَيُعْلَمُونَ النَّاسُ السُّخْرُ وَمَا أُنْزَلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعْلَمَا مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْرَقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمُزَءِ وَرَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَيَعْلَمُونَ مَا يَضْرُبُهُمْ وَلَا يَنْسَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَكِنَّ أَشَرَّهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقِهِ وَلَبِسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَمْنَوْا وَأَتَقْوَاهُمْ شَوَّهَهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾

التفسير

سلیمان وسحره بابل

يفهم من الأحاديث أن مجموعة من الناس مارست السحر في عصر النبي سليمان عليه السلام، فأمر سليمان بجمع كل أوراقهم وكتاباتهم، واحتفظ بها في مكان خاص. (لعل الإحتفاظ بها يعود إلى إمكان الإستفادة منها في إبطال سحر

السحرة).^١

بعد وفاة سليمان عمدت جماعة إلى إخراج هذه الكتابات، وبدأوا بنشر السحر وتعلمه. واستغلت فتنة هذه الفرصة فأشاعت أن سليمان لم يكننبياً أصلاً بل كان يسيطر على ملوكه ويأتي بالأمور الغارقة للعادة عن طريق السحر! مجموعة من بني إسرائيل سارت مع هذه الموجة ولجأت إلى السحر، وتركت التوراة.

عندما ظهر النبي الخاتم صلوات الله عليه، وجاءت آيات القرآن مؤيدة لنبوة سليمان، قال بعض أصحاب اليهود: ألا تعجبون من محمد يقول: سليمان نبي وهو ساحر؟ وجاءت الآية ترد على مزاعم هؤلاء وتنفي هذه التهمة الكبرى عن سليمان صلوات الله عليه.^١

الآية الأولى إذن تكشف فضيحة أخرى من فضائح اليهود وهي اتهامهم لنبي الله بالسحر والشعوذة، تقول الآية عن هؤلاء القوم: «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ».

والضمير في «وَاتَّبَعُوا» قد يعود إلى المعاصرين للنبي، أو إلى أولئك اليهود المعاصرين لسليمان، أو لكلا الفريقين.

والمقصود بكلمة «الشياطين» قد يكون الطغاة من البشر أو من الجن أو من كلهما.

نعم تؤكد الآية على نفي الكفر عن سليمان: «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانَ». فسليمان صلوات الله عليه لم يلتجأ إلى السحر، ولم يحقق أهدافه عن طريق الشعوذة: «وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السُّحُرَ». هؤلاء اليهود لم يستغلوا ما تعلموه من سحر الشياطين فحسب، بل أساووا

١- سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٩٢. ومجمع البيان في تفسير الآية، مع قليل من الاختلاف.

الإستفادة أيضاً من تعليمات هاروت وماروت: «وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمُلْكَيْنِ إِبْرَاهِيمَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ»^١.

هاروت وماروت ملكان للهيان جاءا إلى الناس في وقت راج السحر بينهم وابتلاوا بالسحرة والمشعوذين، وكان هدفهم تعلم الناس سبل إبطال السحر، وكما إن إحباط مفعول القبلة يحتاج إلى فهم لطريقة فعل القبلة، كذلك كانت عملية إحباط السحر تتطلب تعلم الناس أصول السحر، ولكنهما كانا يقرنان هذا التعليم بالتحذير من السقوط في الفتنة بعد تعلم السحر «وَمَا يَعْلَمُانِ مِنْ أَخْدِ حَقٍّ يَتَوَلَّ إِنَّمَا نَخْنُ فِتْنَةً فَلَا تَكْفُرْ».

وسقط أولئك اليهود في الفتنة، وتغلوا في إنحرافهم، فزعموا أن قدرة سليمان لم تكن من النبوة، بل من السحر والسحرة. وهذا هو دأب المنحرفين دائمًا، يحاولون تبرير إنحرافاتهم بإتهام العظماء بالإنحراف.

هؤلاء القوم لم ينجحوا في هذا الاختبار الإلهي، فأخذدوا العلم من الملائكة واستغلوا على طريق الإفساد لا الإصلاح، لكن قدرة الله فوق قدرتهم وفوق قدرة ما تعلموه: «فَيَسْتَأْتِلُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرَّقُونَ بَيْنَ الْمَوْلَى وَزَوْجِهِ، وَمَا هُمْ بِضَارَّينَ بِهِ مِنْ أَخْدِ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضْرُبُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ».

لقد تهافتوا على اقتناه هذا المtauع الدنيوي وهم عالمون بأنه يصادر آخرتهم «وَلَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ اشْتِرَاءَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ»^٢. لقد باعوا شخصيتهم الإنسانية بهذا المtauع الرخيص «وَلَيُشَتَّرِكُوا بِهِ أَنفُسُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

لقد أضاعوا سعادتهم وسعادة مجتمعهم عن علم ووعي، وغرقوا في مستنقع الكفر والإنحراف «وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَأَتَقْرَأُوا الْمُؤْمِنَةَ مِنْ عِنْدِ أَنْوَهٍ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

١- بعض المفسرين عطوا جملة «مَا أُنْزِلَ» على «مَا شَتَّلُوا» وعلى هذا الأساس فسرنا الآية أعلاه. وبضمهم مطغوها على (السر).

٢- الخلق يعني الفعل، وقد يعني الحفظ والتسلب وهذا هو معنى الكلمة في الآية.

بحوث

١- قصة هاروت وماروت

كثر الحديث بين أصحاب القصص والأساطير عن هذين الملائكة، واختلطت الغرافة بالحقيقة بشأنهما، حتى ما عاد بالإمكان استخلاص الحقائق مما كتب بشأن هذه الحادثة التاريخية، ويظهر أن أصح ما قيل بهذا الشأن وأقربه إلى الموازين العقلية والتاريخية والآيات الشرفية هو ما يليه:

شاع السحر في أرض بابل وأدى إلى إخراج الناس وازعاجهم، فبعث الله ملائكة بصورة البشر، وأمرهما أن يعلما الناس طريقة إحباط مفعول السحر، ليتخلصوا من شرّ السحرة.

كان الملائكة مضطرين لتعليم الناس أصول السحر، باعتبارها مقدمة لتعليم طريقة إحباط السحر. واستغلت مجموعة هذه الأصول، فانخرطت في زمرة الساحرين، وأصبحت مصدر أذى للناس.

الملائكة حذرا الناس - حين التعليم - من الواقع في الفتنة، ومن السقوط في حضيض الكفر بعد التعلم، لكن هذا التحذير لم يؤثر في مجموعة منهم^١.

وهذا الذي ذكرناه ينسجم مع المقل والمنطق، وتؤيده أحاديث أئمة آل البيت عليهم السلام منها ما ورد في كتاب عيون أخبار الرضا (وقد أورده في أحد طرقه عن الإمام الرضا عليه السلام في طريق آخر عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام)^٢.

أما ما تتحدث عنه بعض كتب التاريخ ودواوين المعرف بهذا الشأن فمشوب بالغرافات والأساطير، وبعيد كل البعد عما ذكره القرآن، من ذاك متلاً أن الملائكة أرسلوا إلى الأرض ليثبت لها سهولة سوطهما في الذنب إن كانوا مكان البشر، فنزلوا وارتكبا أنواع الآثام والذنوب والكبائر!! والنص القرآني بعيد عن هذه الأساطير

١- مجمع البيان، في تفسير الآية المذكورة، الوسائل، ج ١٢، ص ١٠٦ - ١٠٧.

٢- نفس المصدر.

ومنزه منها.

٢- لفظ هاروت وماروت

زعم بعض المحققين أن «هاروت» و«ماروت» لقطان فارسيان قديمان. وقال: إن الكلمة «هوروت» تعني «الخصب»، و«موروت» تعني «عديم الموت» وأسماء هاروت وماروت مأخوذان، من هذين اللفظين^١. وهذا الإتجاه في فهم معنى الأسمين لا يقوم على دليل.

وفي كتاب «آوستا» وردت ألفاظ مثل: «هرودات» ويعني «شهر خرداد»، وكذلك «أمردات» بمعنى عديم الموت، وهو نفسه اسم «شهر مرداد»^٢. وفي معجم (دهخدا) تفسير للفظين شبيه بما سبق.

والعجب أن البعض ذهب إلى أن هاروت وماروت من البشر ومن سكنته بابل^٣، وقيل أيضاً أنهما من الشياطين!! والآيات المذكورة ترفض ذلك طبعاً.

٣- كيف يكون الملك معلماً للإنسان؟

يبقى السؤال عن الرابطة بين الملك والإنسان، وهل يمكن أن تكون بينهما رابطة تعلمية؟ الآيات المذكورة تصرح بأن هاروت وماروت علمتا الناس السحر، وهذا تم طبعاً من أجل إحباط سحر السحرة في ذلك المجتمع. فهل يمكن للملك أن يكون معلماً للإنسان؟

الأحاديث الواردة بشأن الملائكة تجيب على هذا السؤال، وتقول: إن الله بعثهما على شكل البشر، وهذه الحقيقة يمكن فهمها من الآية التاسعة لسورة الأنعام أيضاً، حيث يقول تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا»^٤.

٤- لا قدرة لأحد على عمل دون إذن الله

نفهم من قول الله في هذه الآيات أن السحرة ما كانوا قادرين على إزالة الضّر بأحد دون إذن الله سبحانه، وليس في الأمر «جبر» ولا إرغام، بل إن هذا المعنى يشير إلى مبدأ أساس في التوحيد، وهو إن كلَّ القوى في هذا الكون تتطلّق من قدرة الله تعالى، النار إذ تحرق إنما تحرق بإذن الله، والسكنين إذ تقطع إنما تقطع بأمر الله. لا يمكن للساحر أن يتدخل في عالم الخلقة خلافاً لِإرادة الله.

كلّ ما نراه من آثار وخصائص إنما هي آثار وخصوص جعلها الله سبحانه للموجودات المختلفة، ومن هذه الموجودات من يحسن الاستفادة من هذه الهمة الإلهية ومنهم من يسيء الاستفادة منها. و«الاختيار» الذي منحه الله للإنسان إنما هو وسيلة لاختباره وتكامله.

٥- السحر وتاريخه:

الحديث عن السحر وتاريخه طويل، ونكتفي هنا بالقول إن جذوره ضاربة في أعماق التاريخ، ولكن بداياته وتطوراته التاريخية يلفّها الفوضى ولا يمكن تشخيص أول من استعمل السحر.

ويشأن معناه يمكن القول: إنه نوع من الأعمال الخارقة للسعادة، تؤثر في وجود الإنسان، وهو أحياناً نوع من المهارة والخفة في الحركة وإيهام للأنساز، كما إنه أحياناً ذو طابع نفسي خيالي.

والسحر في اللغة له معنيان:

١- الخداع والشّمودة والحركة الماهرة.

٢- كل ما لطف ودقّ.

والراهن ذكر للفظ السحر ثلاثة معانٍ قرآنية:

الأول: الخداع وتخيلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعوذ بصرف الأ بصار

عما يفعله لخفة يده، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع.

الثاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من الترب إليه.

الثالث: هو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغيّر الصور والطباائع فيجعل الإنسان حماراً، ولا حقيقة لذلك^١.

نستنتج من دراسة ٥١ موضعًا من مواضع ذكر كلمة «سحر» في القرآن الكريم أن السحر ينقسم في رأي القرآن الكريم على قسمين:

١ - الخداع والشعبنة وخفة اليد وليس له حقيقة كما جاء في قوله تعالى: «فَإِذَا حِبَالْمُ وَعَصِيَّهُمْ يُحَبِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِخْرِهِمْ أَنَّهَا تَشْعُنِ»^٢ وقوله: «فَلَمَّا أَقْرَأَنَا سَحَرُوا أَغْيَنَ النَّاسَ وَأَسْتَرْهُبُوهُمْ»^٣ ويستفاد من هذه الآيات أن السحر ليس له حقيقة موضوعية حتى يمكنه التأثير في الأشياء، بل هو خفة حركة اليد ونوع من خداع البصر فيظهر ما هو خلاف الواقع.

٢ - يستفاد من آيات أخرى أن للسحر أثراً واقعياً، كقوله سبحانه: «فَيَسْتَعْلَمُونَ مِنْهَا مَا يُفَرَّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءَ وَزَوْجِهِ»، وقوله: «وَيَسْتَعْلَمُونَ مَا يَضْرُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ» كما مر في الآيات التي نحن بصددها.

وهل إن للسحر تأثيراً نفسياً فقط، أم يتعدى ذلك إلى الجسم أيضاً؟ لم تشر الآيات أعلاه إلى ذلك، ويعتقد بعض الناس أن هذا التأثير نفسي لا غير.

جدير بالذكر أن بعض ألوان السحر كانت تمارس عن طريق الإستفادة من خواص المواد الكيميائية والفيزيائية لخداع الناس. فيحدثنا التاريخ أن سحرة فرعون وضعوا داخل حبالهم وعصيّهم مادة كيميائية خاصة (ولعلها الزئبق)، كانت تتعرّك بتأثير حرارة الشمس أو أية حرارة أخرى، وتتحيى للمشاهد أنها حية. وهذا اللون من السحر ليس بقليل في عصرنا الراهن.

١- مفردات الراғب، مادة سحر.

٢- الأعراف، ١١٦.

السحر في رأي الإسلام

أجمعـت الفقهـاء عـلـى حـرـمة تـعـلـم السـحـر وـمـارـسـتـه، وجـاء عـنـ أـمـيرـ المـؤـمـنـينـ عـلـىـ مـطـلـبـهـ: «مـنـ تـعـلـمـ مـنـ السـحـرـ قـلـيلـاـ أـوـ كـثـيرـاـ فـقـدـ كـفـرـ وـكـانـ آخـرـ عـهـدـ وـبـرـبـهـ»^١.

ولـكـنـ كـمـاـ ذـكـرـنـاهـ يـجـوزـ تـعـلـمـ السـحـرـ لـإـطـالـ سـحـرـ السـحـرـةـ، بلـ يـرـتفـعـ الـجـواـزـ أـحـيـاـنـاـ إـلـىـ حدـ الـجـوـبـ الـكـفـائـيـ، لـإـحـبـاطـ كـيـدـ الـكـانـدـيـنـ وـالـحـيـلـوـلـةـ دونـ نـزـولـ الـأـذـىـ بـالـنـاسـ مـنـ قـبـلـ الـمـحـتـالـيـنـ. دـلـيـلـنـاـ عـلـىـ ذـلـكـ حـدـيـثـ روـيـ عنـ الـإـمـامـ أـبـيـ عبدـ اللهـ جـعـفرـ مـحـمـدـ الصـادـقـ^٢:

«كـانـ عـيـسـىـ بـنـ شـفـقـ سـاـحـرـاـ يـأـتـيـهـ النـاسـ وـيـأـخـدـ عـلـىـ ذـلـكـ الـأـجـزـ قـتـالـ لـهـ جـعـلـتـ فـدـاـكـ أـنـازـجـلـ كـانـتـ صـنـاعـيـ السـحـرـ وـكـنـتـ آخـدـ عـلـيـهـ الـأـجـزـ وـكـانـ مـقـاـمـيـ وـقـدـ حـجـجـتـ مـنـهـ وـمـنـ اللـهـ عـلـيـهـ يـلـقـائـكـ وـقـدـ ثـبـتـ إـلـىـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ فـهـلـ لـيـ فـيـ شـيـءـ مـنـ ذـلـكـ عـلـىـهـ قـتـالـ لـهـ أـبـوـ عـبـدـ اللـهـ خـلـ وـلـأـ تـقـدـ»^٣.

ويـسـتـفـادـ مـنـ هـذـاـ حـدـيـثـ أـنـ تـعـلـمـ السـحـرـ وـالـعـمـلـ بـهـ مـنـ أـجـلـ فـتـحـ وـحلـ عـقدـ السـحـرـ لـإـشـكـالـ فـيـهـ.

السحر في رأي التوراة

أـعـمـالـ السـحـرـ وـالـشـبـذـةـ فـيـ كـتـبـ الـمـهـدـ الـقـدـيمـ (التـورـاـةـ وـمـلـحـقـاتـهاـ)ـ هيـ أـيـضاـ ذـمـيـةـ غـيـرـ جـائزـةـ. فـالـتـورـاـةـ تـقـولـ: «لـاـ تـلـفـتـوـ إـلـىـ الـجـانـ وـلـاـ تـطـلـبـوـاـ التـوـابـ فـتـجـسـوـاـ بـهـمـ وـأـنـاـ الرـبـ إـلـهـكـ»^٤.

وـجـاءـ فـيـ مـوـضـعـ آخـرـ مـنـ التـورـاـةـ: «وـالـنـفـسـ الـتـيـ تـلـفـتـ إـلـىـ الـجـانـ وـإـلـىـ

١- وسائل الشيعة، الباب ٢٥، من أبواب ما يكتسب به، حديث ٧.

٢- وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٠٥، ح ٥.

٣- الكتاب المقدس سفر لاوبيين الإصلاح، ١٩، الرقم ٣١.

التوابع لترني ورائهم يجعل وجهي ضد تلك النفس واقطعها من شعبها^١.

ويقول قاموس الكتاب المقدس: «واضح أن السحر لم يكن له وجود في شريعة موسى، بل إن الشريعة شددت كثيراً على أولئك الذين كانوا يستمدون من السحر».

ومن الطريف أن قاموس الكتاب المقدس الذي يؤكد على أن السحر مذموم في شريعة موسى، يصرح بأن اليهود تعلموا السحر وعملوا به خلافاً لتعاليم التوراة فيقول: «... ولكن مع ذلك تسرّبت هذه المادة الفاسدة بين اليهود، فـأـمـنـ بـهـاـ قـوـمـ،ـ وـلـجـأـوـاـ إـلـيـهـ فـيـ وقتـ الحاجـةـ»^٢.

ولذلك ذمهم القرآن، وأدانهم لجشعهم وطمعهم وتهافتهم على متاع الحياة الدنيا.

السحر في عصرنا

توجد في عصرنا مجموعة من العلوم كان السحر في العصور السالفة يستغلونها للوصول إلى مآربهم.

١ - الإستفادة من الخواص الفيزياوية والكيمياوية للأجسام، كما ورد في قصة سحرة فرعون واستفادتهم من خواص الزئبق أو أمثاله لتحرير العمال والعصبي.

واضح أن الإستفادة من الخصائص الكيمياوية والفيزياوية للأجسام ليس بالعمل العرام، بل لابد من الإطلاع على هذه الخصائص لاستثمار مواهب الطبيعة، لكن المحرم هو استغلام هذه الخواص المجهولة عند عامة الناس لايهام الآخرين وخداعهم وتضليلهم، مثل هذا العمل من مصاديق السحر، (تأمل بدقة).

١ - الكتاب المقدس سفر لاوين الإصلاح ٢٠ الرقم ٦.

٢ - قاموس الكتاب المقدس، تأليف المستر هاكن الإنجليزي، ص ٤٧١.

٢ - الإستفادة من التنويم المغناطيسي، والهيبيتوبيزم، والمانية تيزم، والتله باـٰتي (الانتقال الأفكار من المسافات البعيدة).

هذه العلوم هي أيضاً إيجابية يمكن الإستفادة منها بشكل صحيح في كثير من شؤون الحياة. لكن السحرة كانوا يستغلونها للخداع والتضليل. ولو استخدمت هذه العلوم اليوم أيضاً على هذا الطريق المنحرف فهي من «السحر» المحرام.

عبارة موجزة: إن السحر له معنى واسع يشمل كل ما ذكرناه هنا وما أشرنا إليه سابقاً.

ومن الثابت كذلك أن قوة الإرادة في الإنسان تتخطى على طاقات عظيمة. وتزداد هذه الطاقات بالرياضيات النفسية، ويصل بها الأمر أنها تستطيع أن تؤثر على الموجودات المحيطة بها، وهذا مشهود في قدرة المترافقين على القيام بأعمال خارقة للعادة نتيجة رياضتهم النفسية.

جدير بالذكر أن هذه الرياضيات تكون مشروعة تارة، وغير مشروعة تارة أخرى. الرياضيات المشروعة تخلق في النفوس الظاهرة قوة إيجابية بناء، والرياضيات غير المشروعة تخلق قوة شيطانية، وقد تكون كلا القوتين قادرتين على القيام بأعمال خارقة للعادة، لكن الأولى إيجابية بناء، والأخرى سخربة هدامة.



الآيات

يَتَأْمِنُوا أَذْيَانَهُمْ وَأَمْنُوا لَا تَقُولُوا رُعِنَا وَقُولُوا أَنْظُرُنَا
وَأَسْتَغْوِيَ الْكُفَّارَ عَذَابَ الْيَمِينِ^{٦١} مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْنَكُمْ مَنْ خَيْرٌ مَنْ
رَبُّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ^{٦٢}

سبب التزوير

روي عن ابن عباس أنه قال: إن الصحابة كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ
لدى تلاوته الآيات وبيانه الأحكام الإلهية أن يتمهل في حديثه حتى يستوعبوا ما
يقوله، وحتى يعرضوا عليه أستلتهم، وكانوا يستعملون لذلك عبارة: «راعنا» أي
أمهلنا. واليهود حوروا معنى هذه الكلمة لتكون من «الرعونة» فتكون راعنا بمعنى
اجعلنا رعنا، واتخذوا ذلك وسيلة للسخرية من النبي وال المسلمين.
الآية تطلب من المسلمين أن يقولوا «انظرُنَا» بدلاً من «رَاعِنَا» لسد الطريق
 أمام طعن الأعداء.

وقال بعض المفسرين: إن عبارة «رَاعِنَا» في كلام اليهود سبة تعني «اسمع
ولما تسمع»، وكانوا يرددون هذه العبارة مستهزئين!.
وقيل إن اليهود كانوا يقولون بدلاً من رَاعِنَا «رَاعِينَا» = (راعي + نا)

ويغاطبون بذلك النبي ساخرين^١. وليس بين هذه العلل المذكورة لنزول الآية الكريمة تناقض، فقد تكون بأجمعها صحيحة.

التفسير

لا توفروا للأعداء فرصة الطعن:

الآية الكريمة تخاطب المسلمين قائلة: «يَا أَهْلَهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَأَنْهَمُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابُ أَلِيمٍ».

مما سبق من سبب نزول هذه الآية الكريمة نستنتج أنَّ على المسلمين أن لا يوفروا للأعداء فرصة الطعن بهم، وأن لا يتبعوا لهم بفعل أو قول ذريعة يسيئون بها إلى الجماعة المسلمة. عليهم أن يتجنبو حتى تردِّيد عبارات يستغلها العدو لصالحه. الآية تصرّح بالنهي عن قول عبارة تمكن الأعداء أن يستثروا أحد معانيها لتضليل معنيات المسلمين، وتأمرهم باستعمال الكلمة أخرى غير تلك الكلمة القابلة للتحريف ولطعن الأعداء.

حين يشدد الإسلام إلى هذا الحد في هذه المسألة البسيطة، فإن تكليف المسلمين في المسائل الكبرى واضح، عليهم في مواقفهم من المسائل العالمية أن يسدوا الطريق أمام طعن الأعداء، وأن لا يفتحوا ثغرة ينفذ منها المفسدون الداخليون والأجانب للإساءة إلى سمعة الإسلام والمسلمين.

جدير بالذكر أن عبارة راعنا - إضافة إلى ما فيها من معنى آخر استغلها اليهود - فيها نوع من سوء الأدب، لأنها من باب المفاعة، وباب المفاعة يفيد المبادلة والإشتراك، وهي لذلك تعني: راعنا لتراعيك، وقد نهى القرآن عن تردِّيدها^٢.

١- تفسير القرطبي، وتفسير المنار وتفسير الفخر الرازي، ذيل الآية المذكورة.

٢- تفسير الفخر الرازي، والمنار، ذيل الآية المذكورة.

الآية التالية تكشف عن حقيقة ما يكتنفه مجموعة من أهل الكتاب والمرجعيين من حقد وعداء للجماعة المؤمنة: «مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ»، وسواء ود هؤلاء أم لم يودوا فرحة الله لها سنة إلهية ولا تخضع للمسيول والأهواء: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْقُبْلَى الْغَظِيمُ».

الحاقدون لم يطقو أن يروا ما شمل الله المسلمين من فضل ونعمه، وما من عليهم من رسالة عظيمة، ولكن فضل الله عظيم.

* * *

بحث

مغزى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَنَاهُمْ»

أكثر من تمانين موضعًا خاطب الله المسلمين في كتابه الكريم بهذه العبارة، وكل هذه المواقع من القرآن الكريم نزلت في المدينة، ولا وجود لهذه العبارة في الآيات المكية، ولعل ذلك يعود إلى تشكل الجماعة المسلمة في المدينة، وإلى ظهور المجتمع الإسلامي بعد الهجرة. ولذلك خاطب الله الجماعة المؤمنة بعبارة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَنَاهُمْ». وهذا الخطاب يتضمن إشارة إلى ميثاق التسلیم الذي عقدته الجماعة

المسلمة مع ربها بعد الإيمان به، وهذا الميثاق يفرض على الجماعة الطاعة والإصياع لأوامر رب العالمين، والإستجابة لما يأتي بعد هذه العبارة من أحكام. جدير بالذكر أن كثيراً من المصادر الإسلامية بما في ذلك مصادر أهل السنة، روت عن الرسول ﷺ قوله: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ آتَيْهَا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَنَاهُمْ إِلَّا وَعَلَيْهِمْ رَأْسُهَا وَأَمْرُهَا»!^١

* * *

١ - الدر المختار، نقلًا عن أبي نعيم في «حلية الأولياء» عن ابن عباس.

الآيات

مَا نَسْخَ مِنْ آيَةٍ أُوْتَنِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلْمَ تَغْلِمَ
أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلْمَ تَغْلِمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
نَصِيرٌ ۝

التفسير

الغرض من النسخ
الآية الأولى تشير أيضاً إلى بعد آخر من أبعاد حملة التشكيك اليهودية ضد
ال المسلمين.

كان هؤلاء القوم يخاطبون المسلمين أحياناً قائلين لهم إن الدين دين اليهود
وأن القبلة قبلة اليهود، ولذلك فإن نبيكم يصلى تجاه قبليتنا (بيت المقدس)، وحينما
نزلت الآية ١٤٤ من هذه السورة وتغيرت بذلك جهة القبلة، من بيت المقدس إلى
مكة، غير اليهود طريقة تشكيكهم، وقالوا: لو كانت القبلة الأولى هي الصحيحة،
فلم هذا التغيير؟ وإذا كانت القبلة الثانية هي الصحيحة، فكل أعمالكم السابقة -إذن
- باطلة.

القرآن الكريم في هذه الآية يردد على هذه المزاعم وينير قلوب المؤمنين! . ويقول: «مَا نَسْخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِيْهَا ثُنَاثٍ يُخْتَبِرُ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا» ... وليس مثل هذا التغيير على الله بعسر! «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟!

الآية التالية تؤكد مفهوم قدرة الله سبحانه وتعالى وحاكميته في السماوات والأرض وفي الأحكام، فهو البصير بمصالح عباده: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، وفي هذه العبارة من الآية أيضاً تبييت لقلوب المؤمنين، كي لا تزلزل أمام حملات التشكيك هذه، وتستمر الآية في تعميق هذا التشبيت، مؤكدة أن المجموعة المؤمنة ينبغي أن تعتمد على الله وحده، وتستند إلى قوته وقدرته دون سواه، فليس في هذا الكون سند حقيقي سوى الله سبحانه: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

* * *

بحوث

١- هل يجوز النسخ في الأحكام؟

النسخ في اللغة الإزالة، وفي الإصطلاح تغير حكم شرعي واحتلال حكم آخر محله، من ذلك:

١- المسلمين كانوا يصلون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، واستمرا على ذلك ستة عشر شهراً، ثم نزل الأمر بتغيير القبلة، فوجب على المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبة.

٢- الآية ١٥ من سورة النساء قررت معاقبة الزانية بعد شهادة أربعة شهود بامساكها في البيت حتى الوفاة، أو يجعل الله لها سبيلاً، والآية الثانية من سورة

١- يحمل أيضاً ان تشير الآية إلى نسخ أحكام إسلامية أخرى، كما ذكر الفخر الرازي في تفسيره، وسيد قطب في ظلاله.

النور نسخت الآية المذكورة ويدلّت الحكم بعشرة جملة.

وهنا يطرح سؤال معروف بشأن سبب النسخ يقول: لو كان في الحكم مصلحة فلماذا نسخ؟ وإن لم يكن كذلك فلماذا شرع؟ لماذا لم تطرح الشريعة منذ البداية حكماً غير قابل للنسخ؟

علماء الإسلام أجابوا منذ القديم على هذا السؤال، وتقرير هذا الجواب باختصار كما يلي:

نعلم أن بعض احتياجات الإنسان ثابتة لا تقبل التغيير، لأنها ترتبط بفطرة الإنسان وطبيعته، وبعضها الآخر تتغير بتغير الزمان وظروف البيئة، وهذه المتغيرات قد تضمن سعادة الإنسان في زمن معين، لكنها تصبح عقبة أمام تقدم الفرد في زمان آخر.

قد يكون نوع من الدواء نافعاً للمريض في ظرف زمني معين، وقد لا يكون نافعاً -بل ضاراً- في مرحلة نقاوة المريض، لذلك يأمر الطبيب بدواء في وقت، ثم يأمر بقطمه والإمتناع عن تناوله في وقت آخر.

قد يكون درس معين مفيداً للطالب في مرحلة دراسية معينة، لكن هذا الدرس يصبح عديم الفائدة في المراحل الدراسية التالية. المنهج التعليمي الصحيح ينبغي أن ينظم الدروس بشكل يتناسب مع حاجة الطالب في كل مرحلة من مراحله الدراسية.

هذه المسألة تتضح أكثر في إطار القانون اللازم لتكامل الإنسان والمجتمع الإنساني، هذا القانون لا بد أن يتضمن متغيرات كي يكون المنهج التكاملی مفيداً لكل مراحل مسيرة المجتمع. وتزداد أهمية هذه التغيرات عند اندلاع الصراعات الاجتماعية والعقائدية، وتزداد ضرورة مواكبة متطلبات التغيير في كل مرحلة من مراحل التورة.

لابد من التأكيد أنَّ أصول الأحكام الإلهية ثابتة لا يعتريها التغيير، فالتوحيد

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ١

والعدالة الاجتماعية وسائر الأصول والمبادئ المشابهة ثابتة لا تتغير، وإنما يطرأ التغيير على المسائل الفرعية والثانوية.

ومن الضروري أن تؤكد أيضاً أن تكامل الدين قد يبلغ مرحلة يصبح فيها (الدين الخاتم)، وتصبح جميع حكماته ثابتة لا تتقبل التغيير (سنشرح مسألة خاتمية الرسالة في تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب).

اليهود، مع اعتراضهم على المسلمين بشأن نسخ حكم القبلة الأولى، أقرّوا النسخ في الأحكام الإلهية، واستناداً إلى ما جاء في مصادرهم الدينية.

تذكر التوراة أن كل الحيوانات كانت حلالاً لونج ^{بليلاً} حين نزل من سفيته، لكن هذا الحكم نُسخ في شريعة موسى، وحرّم قسم من الحيوانات.^١

٢- المقصود من الآية

الآية في اللغة العلامة، وفي القرآن لها معانٍ متعددة:

- ١ - مقاطع من القرآن، مفصلة عن بعضها بعلامات خاصة، وهذا المعنى للآية نجده في قوله تعالى: «تَلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوْهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ»^٢.
- ٢ - المعجزة سميت في القرآن آية كقوله سبحانه: «وَاضْسُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بِيَضَاءٍ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى»^٣.

٣ - الدليل على وجود الله أو المعاد كقوله: «وَجَعَلْنَا اللَّيلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ»^٤ وقوله: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاسِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْمَاءَ اهْتَرَأَتْ وَرَبَثَ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَهُu الْمُؤْمِنُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^٥.

٤ - الأشياء البارزة الملفتة للأنظار كالأنبياء الشاهقة، كما في قوله تعالى:

١- سفر التكوين، الفصل ٩، الفقرة ٢٥٢

٢- الإسراء، ١٢

٣- سفر التكوين، الفصل ٩، الفقرة ٢

٤- طه، ٢٢

٥- فصلت، ٣٩

«أَتَبْثُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَغْبُثُونَ»^١.

والمعنى المشترك بين كل هذه المعاني هو «العلامة».

وقوله سبحانه: «مَا نَسْخَ مِنْ آيَةٍ ...» يشير إلى نسخ الأحكام، فالحكم الناسخ خير من المنسوخ أو مثله، أو إنه يشير إلى نسخ معجزة الأنبياء، فيكون المعنى أن معجزة النبي التالي أفضح وأوضع من معجزة النبي السابق.

ثمة روايات في تفسير هذه الآية ذكرت أن المقصود من نسخ الآية هو وفاة الإمام ومجيء الإمام التالي بعده، وهذا طبعاً بيان مصدق من مصاديق الآية، لا تحديداً لمفهومها.

٣ - تفسير عبارة «فنسها»

جملة «تُنسِيَها» في الآية معروفة على جملة «تُنسَخ» وهي من مادة «أنسأ»^٢،
معني التأخير أو الحذف من الأذهان؟

فما هو معنى هذه العبارة في الآية الكريمة؟

المقصود من العبارة هو: ما ننسخ من آية أو نؤخر نسخها استناداً إلى صالح معينة ... نأت بخير منها أو مثلها

عبارة «تُنسَخ» تشير إلى النسخ على المدى القصير، وعبارة «تُنسِيَها» النسخ على المدى البعيد، (لاحظ بدقة).

ثمة احتمالات أخرى ذكرت في هذا المجال لا تبلغ أهميتها ما ذكرناه.

٤ - تفسير «أو مثيلها»

سؤال آخر يطرح في هذا المجال بشأن عبارة «أو مثيلها» فلو كان الحكم

١- الشعراء، ١٢٨.

٢- إن كانت بمعنى التأخير فهي من مادة (نسأ) وإن كانت بمعنى الحذف من الأذهان فهي من مادة (نسى).

التاسخ مثل الحكم المنسوخ فلا فائدة من هذا التغيير، النسخ تظهر فائدته حين يكون التاسخ خيراً من المنسوخ.
والجواب على ذلك هو أن الآية التاسخة لها آثار في زمانها كتلك الآثار التي كانت الآية المنسوخة في زمانها.

بعارة أوضح: قد يكون لحكم اليوم فوائد معينة، لكن هذه الفوائد لا تظهر لهذا الحكم غداً، ولابد أن ينسخ هذا الحكم بحكم آخر تكون له في زمن لاحق - على الأقل - نفس الفوائد التي كانت للمنسوخ في زمن سابق.

* * *

الآية

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَشْكُلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا شُكِّلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ
وَمَنْ يَتَبَدَّلْ إِنَّ الْكُفَّارَ بِالْأَعْيُنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلُ^٧

سبب النزول

تعددت الآراء في كتب التفسير حول سبب نزول هذه الآية الشريفة، إلا أنها متقاربة في المضمون والنتيجة.

فقد نقل عن ابن عباس أنه: جاء وهب بن زيد، ورافع بن حرملة إلى رسول الله ﷺ وقالا: إئتانا بكتاب من الله مرسل إلينا نقرأه لكي نؤمن بك، أو إجر الانهار لنا حتى تتبعك!

وقال بعض آخر إن جماعة من الاعراب جاءوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوه منه ما طلب بنو إسرائيل من موسى، فقالوا: أرنا الله جهرة.

وقال آخرون: إنهم طلبوه من رسول الله ﷺ أن يجعل لهم صنماً من شجرة خاصة (ذات أنواط) ليعبدوه كما قال بنو إسرائيل لموسى: (إجعل لنا إلهًا كمَا كُمْ آلهة)، والآية أعلاه نزلت جواباً لهؤلاء.

التفسير

حجج واهية

هذا الآية الكريمة، وإن كانت تخاطب مجموعة من المسلمين ضعاف الإيمان أو المشركين إلا أنها ترتبط أيضاً بموافق اليهود.

لعل هذا السؤال وجه إلى الرسول بعد تغيير القبلة، وبعد حملات التشكك التي شنها اليهود بين المسلمين وغير المسلمين، والله سبحانه في هذه الآية الكريمة نهى عن توجيه مثل هذه الأسئلة السخيفية «أَمْ ثَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ»؟!

مثل هذا العمل إعراض عن الإيمان واتجاه نحو الكفر، ولذلك قالت الآية: «وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفُرُ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّيْلُ».

الإسلام طبعاً لا يمنع طرح الأسئلة العلمية والمنطقية، ولا يحول دون طلب المعجزة من أجل اثبات صحة الدعوة، لأن مثل هذه الأسئلة والطلبات هي طريق الإدراك والفهم والإيمان. وهذه الآية الكريمة تشير إلى أولئك الذين يتذرون عن مختلف الحجج الواهية كي يتخلصوا من حمل أعباء الرسالة.

هؤلاء كانوا قد شاهدوا من الرسول معاجز كافية لإيمانهم بالدعوة و أصحابها، لكنهم يتقدمون إلى النبي بطلب معاجز اقتراحية أخرى!

المعجزة ليست المعاوية يد هذا وذاك كي تحدث وفق الميول والإقتراحات والمشتهيات، بل إنها ضرورة لازمة للإطمئنان من صدق أقوال النبي ﷺ، وليس مهمة النبي صنع المعاجز لكل من تهوى نفسه معجزة.

ثم هناك من الأسئلة ما هو بعيد عن العقل والمنطق، كرؤبة الله جهرة، وكطلب اتخاذ الصنم.

القرآن الكريم ينبه في هذه الآية بأن المجموعة البشرية التي لا تسلك طريق العقل والمنطق في استلتها ومطالبتها، سينزل بها ما نزل بقوم موسى.

الآيات

وَدَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرَوْنَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيَّانِكُمْ
كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاغْفُوا
وَأَضْفَغُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَإِذَا الزَّكُوَةَ وَمَا تَقدِّمُوا إِلَيْنَاهُ فِيمَا
خَيْرٌ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

التفسير

حسد و عناد

كثير من أهل الكتاب وخاصة اليهود لم يكتفوا باعراضهم عن الدين المبين، بل كانوا يودون أن يرتد المسلمون عن دينهم، ولم يكن ذلك إلا عن حسد يستعر في أنفسهم، تقول الآية: «وَدَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرَوْنَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيَّانِكُمْ
كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ».

وأمام هذه المواقف الدينية والنظارات الضيقية والأعمال التافهة والتوايا الخبيثة التي تحملها الفئة الكافرة، يحدد الإسلام موقف الجماعة المسلمة، على أساس من رحابة الصدر وسعة الأفق وبعد النظرية «فَاغْفُوا وَأَضْفَغُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ

على كل شيء وقويره.

هذا الامر الإلهي نزل حيث كان المسلمون بحاجة إلى بناء المجتمع الإسلامي. وفي تلك الظروف يوجب على المسلمين أن يلجأوا إلى سلاح العفو والصفح حتى يأتي الله بأمره.

كثير من المفسرين قالوا إن «أمر الله» في هذه الآية يعني «أمر الجهاد»، ولعل الجماعة المسلمة لم تكن على استعداد شامل لخوض معركة دامية حين نزلت هذه الآية، ولذلك قيل إن آيات الجهاد نسخت هذه الآية.

ولعل التعبير بالنسخ في هذا الموضع ليس ب صحيح لأن الآية تحمل في عبارتها الإطار الذي يحدّها بفترة زمنية محدودة.

الآية التالية تأمر المسلمين بحكمين هامين: إقامة الصلاة باعتبارها رمز ارتباط الإنسان بالله، وإيتاء الزكاة وهي أيضاً رمز التكافل بين أبناء الأمة المسلمة، وكلاهما ضروريان لتحقيق الانتصار على العدو: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الرُّكَّاةَ».

ثم تؤكد الآية على خلود العمل الصالح وبقائه: «وَمَا تَقْدُمُوا لَا تُنْفَسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَعْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ». والله سبحانه عالم بالسرائر، ويعلم دوافع الأفعال، ولا يضيع عنده أجر العاملين «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ بصير».

* * *

بحوث

- ١ - «اصفحوا» من «صفح»، وصفح الشيء عرضه وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجر، والأمر بالصفح هو الأمر بالإعراض، لكن عطفها على «فاغفروا» يفهم أنه أمر بالإعراض لا عن جفا، بل عن عفو وسامح. وهذا التعبير يوحى أيضاً أن المسلمين كانت لهم قدرة المقابلة وعدم الصفع.

لكن الأمر بالغفو والصفح يستهدف اتمام العجّة على المدّو، كي يهتدى من هو قابل للإصلاح. بعبارة أخرى: ممارسة القوّة ليست المرحلة الأولى في مواجهة المدّو، بل الغفو والصفح، فإن لم يُجد نفعاً فالسيف.

٢- عبارة «إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» قد تشير إلى أن الله قادر على أن ينصر المسلمين على أعدائهم بطرق غبية، ولكن طبيعة حياة البشر والكون قائمة على أن الأفعال لا تتم إلا بالتذرّع وبعد توفر المقدّمات.

٣- عبارة «حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ» قد تكون إشارة إلى توغل هؤلاء الحسدة في ذاتياتهم، فالحسد قد يتّخذ أحياناً طابع الدين والرسالة، لكن حسد هؤلاء لم يكن له حتى هذا الظاهر، بل كان ضيقاً شخصياً! .
ويحتمل أيضاً أن تكون إشارة إلى أن الحسد متجلّر في نفوسهم.

* * *

الآيات

وَقَالُوا لَن يَذْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ
أَمَانِيْهِمْ قُلْ هَاٰتُوا بِرْزَهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑤ بَلِيْ مَنْ أَسْلَمَ
وَجَهَهُ اللَّهُ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ⑥

التفسير

احتياط الجنّة!

القرآن في هاتين الآيتين يشير إلى ادعاء آخر من الإدعاءات الفارغة لمجموعة من اليهود والنصارى، «وَقَالُوا لَن يَذْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ»، ثم بجيئهم جواباً رادعاً قائلاً «تِلْكَ أَمَانِيْهِمْ» ثم تخاطب الآية رسول الله وتقول: «قُلْ هَاٰتُوا بِرْزَهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». بعد التأكيد على أن ادعاء هؤلاء فارغ لا قيمة له، وأنه مجرد أمنية تخامر

١ - واضح أن المقصود من «قالوا» ادعاء اليهود من جهة بأن الجنّة خاصة بهم، وادعاء النصارى من جهة أخرى بأن الجنّة حكر عليهم.

أذهانهم، يطرح القرآن المعيار الأساس لدخول الجنة على شكل قانون عام «بِلَّ منْ أَشْلَمْ وَجْهَهُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُنَّ فَلَهُ أَجْزَهُ عِنْدَ رَبِّهِ». ومن هنا فالمسئولون بهذا القانون هم في ظلال رحمة الله «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْزُنُونَ».

بعبرة موجزة: الجنة ومرضاة الله والسعادة الخالدة ليست حكراً على طائفة معينة، بل هي نصيب كل من يتتوفر فيه شرطان:

الأول: التسليم التام لله تعالى، أو الإنصياع لأوامره سبحانه، وعدم التفريق بين هذه الأوامر، أي عدم ترك ذلك القسم من الأوامر الذي لا ينسجم مع المصالح الفردية الذاتية.

الثاني: وهو ما يترتب على التسليم في المرحلة الأولى، من القيام بالأعمال الصالحة والإحسان في جميع المجالات.

والقرآن، بطرحه هذه الحقيقة، يرفض بشكل تام مسألة التصubض العنصري ويكسر طوق احتكار فئة معينة للسعادة، ويضع ضمنياً معيار الفوز متمثلاً بالإيمان، والعمل الصالح.

* * *

بحوث

١- «الأمني» جمع «أمنية» وهي الرجاء الذي لا يتحقق للإنسان، والأية تطرح أمنية واحدة من أمنيات أهل الكتاب، ولكن هذه الأمانة - أي أمانة احتكار الجنة - هي مصدر أمان أخرى، وبعبارة أخرى: أمنيتها لها فروع وإمتدادات، ولذلك عبر عنها القرآن بلغة (أمني).

٢- نسبت الآية الكريمة التسليم إلى (الوجه): «بِلَّ مَنْ أَشْلَمْ وَجْهَهُ ...»، وذلك يعود إلى أن الإنسان حين يستسلم لشيء، فأوضح مظاهر لهذا الاستسلام هو أن يولي وجهه تجاه ذلك الشيء. ومن المتحمل أيضاً أن «الوجه» يعني في الآية

الذات، ويكون المعنى أن هؤلاء أسلموا بكل وجودهم لأوامر الله.

٣- الآياتان المذكورتان تعلمان المسلمين عدم الإنجراف وراء الإدعاءات الباطلة غير القائمة على دليل، وتعلّمهم أن يطلبوا الدليل والبرهان من صاحب الإدعاء، وبذلك يسد القرآن الطريق أمام الإنجراف الأعمى وراء التقليد، و يجعل التفكير المنطقي سائدًا في المجتمع.

٤- ذكر عبارة **«وَهُوَ مُحْسِنٌ»** بعد طرح مسألة التسليم، إشارة إلى أن الإحسان بالمعنى الواسع للكلمة لا يتحقق إلا برسوخ الإيمان في النفوس. كما تفهم العبارة أن صفة الإحسان ليست طارئة في نفوس المؤمنين، بل هي خصلة نافذة في أعماق هؤلاء.

ونفي الخوف والحزن عن أتباع خط التوحيد سببه واضح، لأن هؤلاء يخافون الله دون سواه، بينما المشركون يخشون من كل ما يهدد مصالحهم الدنيوية التافهة، بل يخشون أموراً خرافية موهومة تقلّلهم وتقضّ مضاجعهم.

* * *

الآية

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ
النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَلَوُنَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ
قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ
الْقِيمَةُ فِيهَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝

سبب التزول

قال ابن عباس أنه لما قدم وقد نجران من النصارى على رسول الله ﷺ
آتتهم أخبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم
على شيءٍ، وجحد بنبوة عيسى وكفر بالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران: ليست
اليهود على شيءٍ، وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله هذه الآية.¹

التفسير

تعجب وتناقض

فيما مرتنا من آيات رأينا جانباً من الإدعاءات الفارغة التي أطلقها جمع من

1 - تفسير مجعع البيان، وتفسير القرطبي، وتفسير السنار في تفسير الآية المذكورة.

اليهود والنصارى، ورأينا أن هذه الإدعاءات الفارغة تستبعها روح احتكارية ضيقة، ثم وقوع في التناقضات.

تقول الآية: **«وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ»**.

عبارة «ليست على شيء» تعنى أن أفراد هذا الدين لا مكانة لهم ولا منزلة لدى الله سبحانه، أو تعنى أن هذا الدين لا وزن له ولا قيمة.
تم تضييف الآية: **«وَهُمْ يَتَلَوُونَ الْكِتَابَ»**.

أي إن هؤلاء لديهم الكتاب الذي يستطيع أن ينير لهم الطريق في هذه المسائل، ومع ذلك ينطلقون في أحکامهم من التحصّب واللجاج والعناد!!
ثم تقول الآية: **«كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْنِيمْ»**.

وهذه الآية الكريمة تجعل أقوال هذه المجموعة من أهل الكتاب المتعصبين شبيهة بأقوال الجهلة من الوثنين. بعبارة أخرى: هذه الآية تقرر أن المصدر الأساس للتحصّب هو الجهل والبعد عن العلم، لأن الجاحد مطوق بمحيطه المحدود، لا يقبل غيره، بل هو ملتتصق بما ملا ذهنه منذ صغره وإن كان خرافياً، ويرفض ما سواه.

تم اختتمت الآية بالتأكيد على أن الحقائق إن خفيت في هذه الدنيا، فهي لا تخفي في الآخرة حيث تتكشف كل الأوراق: **«فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُمْ يَتَّهِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهَا كَانُوا فِيهِ يَعْتَلُونَ»**.

وهذه الآية فيها أيضاً تثبيت للقلوب وطمأنة للنفوس، فهي تؤكد للمسلمين أن الطوائف التي تجهزت لمحاربتهم لا تتميز بالإنسجام والوحدة، بل إن مجتمعها يكفر بعضهم بعضاً، والذي يجمع بينهم على الظاهر هو الجهل، وبالتالي التحصّب الناشيء عن هذا الجهل.

الآية

وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَى
فِي خَرَابِهَا أُولَئِنَّكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَذْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي
الْأُدُنْيَا خَزْنٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ^٥

سبب النزول

روي عن ابن عباس أن الآية نزلت في «فطلوس» الرومي وجنده النصارى الذين حاربوا بني إسرائيل، وأحرقوا التوراة، وأسرروا الأبناء وهدموا بيت المقدس.

وعن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في الروم، غزوا بيت المقدس وسعوا في خرابه حتى أظهر الله المسلمين عليهم.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنها نزلت في قريش حين حالوا دون دخول الرسول عليه السلام مدينة مكة والمسجد الحرام.

وقيل إنها نزلت في مشركي مكة من هدموا الأماكن التي اتخذها المسلمون

للصلوة في مكة، بعد هجرة النبي ﷺ منها^١.

ولا يمنع أن يكون نزول الآية بسبب كل هذه الأحداث، وبذلك يكون كمل واحد من أسباب التزول المذكورة قد تناول بعدها واحداً من أبعاد المسألة.

التَّفْسِير

أظلم الناس

أسباب التزول توضح أن الآية تتحدث عن اليهود والنصارى والمرجعى، مع أن الآيات السابقة تتحدث أكثر ما تتحدث عن اليهود وأحياناً عن النصارى. على أي حال «اليهود» بوسوستهم بشأن مسألة تغيير القبلة، سعوا إلى أن يتبعهم المسلمون في صلاتهم نحو بيت المقدس، ليتفوقوا بذلك على المسلمين، وليحظروا من مكانة الكعبة^٢.

و«مرجعى مكة» بمعنىهم النبي ﷺ وال المسلمين زيارة الكعبة سعوا عملياً في هدم هذا البناء الإلهي.

و«النصارى» باستيلائهم على بيت المقدس والعبث فيه على ما ذكر ابن عباس سعوا في تخريبه.

القرآن يقول لهؤلاء جميعاً ولكل من يسلك طريقاً مشائياً لهؤلاء: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ مَنْ مَنَعَ مَسَايِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا».

القرآن الكريم أطلق على مثل هذا العمل اسم «الظلم الكبير»، وعلى العاملين اسم «أظلم الناس» وأي ظلم أكبر من تخريب قاعدة التوحيد، وصد الناس عن ذكر الله؟

ثم تقول الآية: «أَوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَذْهَلُوهَا إِلَّا خَالِفِينَ».

١- مجمع البيان، والميزان في تفسير الآية المذكورة.

٢- تفسير التغريزي، الآية المذكورة.

أي إن المسلمين والموحدين ينبغي أن يكونوا على درجة من القسوة والمقاومة بحيث لا يستطيع الظلمة أن يمدوأ أيديهم إلى هذه الأمان المقدسة، ولا يستطيعون أن يدخلوها جهراً بدون خوف أو خشية.

ومن المحتمل أيضاً أن الآية تقول: إن الظلمة لن يستطيعوا أبداً أن ينبعوا في الإستيلاء على هذه المراكز العبادية، بل إنهم سوف لا يستطيعون في المستقبل أن يدخلوا هذه المساجد إلا وهم خائفون مذعورون، تماماً كالمصير الذي لاقاه مشركون مكة بشأن المسجد الحرام.

والآية تبين بعد ذلك العقاب الذي ينتظر هؤلاء الظلمة من يريد أن يفصل بين الله وعباده: «لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْنٌ وَلَمْ فِي الْآخِرَةِ عَظِيمٌ».

* * *

بحثان

١ - تخريب المساجد

مفهوم الآية المذكورة واسع - دون شك - غير محدود بزمان أو مكان معينين. إنها مثل سائر الآيات التي نزلت في ظروف خاصة لكن حكمها ثابت على مرّالصور والدهور. فكل الذين يسعون بنوع من الأنواع في تخريب المساجد مشمولون بهذا الخزي والمذاب العظيم.

من الضروري أن تؤكد أن منع الذكر في مساجد الله والسعى في خرابها، لا يقتصر على هدم بنائهما، بل إن كل عمل يؤدي إلى القضاء على دور المسجد في المجتمع مشمول بهذه الآية.

وسوف نرى في الآية «إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ...»^١ أن المقصود من العمار - استناداً إلى الأحاديث والروايات الصريحة - ليس هو تشديد البناء فحسب، بل

الحضور فيها وأحياؤها بالذكر، هو نوع من المماران، بل أهم أنواع المماران. وفي النقطة المقابلة - إذن - يكون كل عمل يبعد الناس عن المساجد، ويبعد المساجد عن دورها ظلماً كبيراً.

ومن المؤسف أن عصرنا يشهد ظهور مجموعة جاهلة متغيبة متعصبة بعيدة عن المنطق، تطلق على نفسها اسم الوهابية تسعى في تخريب المساجد بحجج إحياء التوحيد!!

هؤلاء عمدوا إلى تخريب المساجد المبنية على قبور الأئمة والصالحين، والتي كانت مركزاً للذكر والدعاء والإرتباط بالله وبخط الصالحين من آل الله. ومن الغريب أنهم يمارسون هذه الأعمال تحت عنوان مكافحة الشرك مرتكبين بذلك أبغض الكبائر.

ولو افترضنا حدوث ما يخالف الشرع في بعض هذه الأماكن الدينية من قبل الجهلة، فيجب الوقوف بوجه مثل هذه الأعمال، لا أن تتجه الجهود إلى تخريب هذه القواعد التوحيدية، فهذا عمل يشبه عمل المشركين الجاهلين.

٢- أكبر الظلم

ومسألة أخرى تلفت النظر في هذه الآية، هي وصفها مثل هؤلاء الأفراد بأنهم أظلم الناس. وهم كذلك، لأن تعطيل المساجد وتخريبها ومنع ذكر الله فيها، يؤدي إلى ابتعاد الناس عن الدين، وبالتالي إلى عواقب سيئة و MAVASAH اجتماعية عظيمة. وصفة «الأظلم» ذكرها القرآن الكريم في مواضع أخرى للحكاية عن كبار أخرى، لكن كل هذه الذنوب تعود إلى أصل واحد هو صد الناس عن طريق التوحيد.

وسياقى شرح ذلك أكثر في المجلد الرابع من هذا التفسير عند الحديث عن الآية ٢١ من سورة الأنعام.

الآية

وَاللهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تُولُوا فُؤُلَمَ وَجْهَ اللهِ إِنَّ اللهَ
وُسْعٌ عَلَيْهِ ⑯

سبب النزول

اختللت الروايات في سبب نزول هذه الآية:

روي عن ابن عباس أن الآية ترتبط بتغيير القبلة، فعندما تغيرت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة بدأ اليهود يشككون قائلين: وهل من الممكن أن تتغير الكعبة؟ فنزلت الآية ترد عليهم وتقول إن المشرق والمغرب لله. وروي أيضاً: أن الآية نزلت في الصلاة المستحبة يستطيع الإنسان أن يوادها على راحليه أينما اتجهت الراحلة، دون اشتراط الاتجاه نحو القبلة.

وروي عن جابر أنَّ الرَّسُولَ ﷺ بَعَثَ جَمَاعَةً فِي غَزْوَةِ مَعْنَى لِلَّيْلِ وَلَمْ يَسْتَطِعُوا أَنْ يَعْرِفُوا الْجَهَةَ الْقِبْلَةَ، فَصَلَّتْ كُلُّ جَمْعَوْنَةٍ صَوْبَ جَهَةٍ، وَبَعْدَ طُلُوعِ الشَّفَنِ تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَقِلُّوا بِالْقِبْلَةَ سَأَلُوا النَّبِيَّ عَنْ ذَلِكَ فَنَزَّلَتِ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ (هذا الحكم له شروط طبعاً تذكره الكتب الفقهية).

ومن الممكن أن تكون أسباب النزول المذكورة كلها ثابتة للآية، أضف إلى

ذلك أن كل آية في القرآن لا تتحصر بأسباب نزولها، بل ينبغي أن يؤخذ مفهومها بشكل حكم عام، وربما استخرج منها أحكام متعددة.

التفسير

أينما توّلوا فثم وجه الله:

الآية السابقة تحدثت عن الطالبين الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسمون في خرايها، وهذه الآية تواصل موضوع الآية السابقة فتقول: «وَهُوَ
الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تُولُوا فَتْمَهُ وَجْهَ اللَّهِ».

تؤكد هذه الآية أن منع الناس عن إحياء المساجد لا يقطع الطريق أمام عبودية الله، فشرق هذا العالم وغريبه الله سبحانه، وأينما توّلوا وجوهكم فـ الله موجود. وتغيير القبلة تم ظروف خاصة، وليس له علاقة بمكان وجود الله، فالله سبحانه وتعالى لا يحده مكان، ولذلك تقول الآية بعد ذلك: «إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ». واضح أن المقصود بالشرق والمغرب في الآية ليس هو الجهاتين الخاصتين، بل هو كناية عن كل الجهات. كأن يقول أحد مثلاً: أعداء على ~~هم~~ سعوا للستخطية على فضائله، لكن فضائله انتشرت في شرق العالم وغريبه، (أي في كل العالم). ولعل سبب شيوخ استعمال الشرق والغرب في الكلام أن الإنسان يتعرف أولاً على هاتين الجهاتين، ثم يعرف بقية الجهات عن طريق هاتين الجهاتين.

وفي آية أخرى يقول القرآن الكريم: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا
يُسْتَضْفَنُونَ مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَقَارِبَهَا»^١

* * *

بحوث

١ - فلسفة القبلة

الله موجود في كل جهة ومكان، فلماذا وجب الإتجاه نحو القبلة في الصلاة؟ واضح أن الإتجاه نحو القبلة لا يعني تحديد ذات الباري تعالى في مكان وفي جهة، بل إن الإنسان موجود مادي، ولا بد أن يصل إلى باتجاه معين، ثم إن ضرورة الوحدة والتتنسيق في صفوف المسلمين تفرض اتجاههم في الصلاة نحو قبلة واحدة، وإلا ساد الهرج والفوضى، وتفرقت الصفوف وتشتتت.

أضف إلى ذلك أن الكعبة التي جعلت قبلة للمسلمين بقعة مقدسة ومن أقدم قواعد التوحيد، والإتجاه نحوها يواظب في النفوس ذكريات المسيرة التوحيدة.

٢ - عبارة **«وجه الله»** لا تعني هذا الوجه المتعارف، بل تعني ذات الله تعالى.

٣ - استدللت الروايات بهذه الآية على صحة الصلاة إلى غير القبلة لسو أو

اضطرار، وعلى صحة الصلاة على ظهر الراحلة.

(المزيد من التوضيح راجع وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، باب القبلة).

الآيات

وَقَالُوا أَتَخْدِ اللهُ وَلَدًا سَبِّحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَبِيلٌ^٣ بِدِينِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا
قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^٤

التفسير

خرافات اليهود والنصارى والمشركين
المسيحيون وجمع من اليهود والمشركون تبنوا عقيدة تافهة بشأن اتخاذ الله
ابناً.

قال سبحانه: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
ذَلِكَ قَوْلُهُمْ يَأْفُو هُمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَفَيْ يُؤْفَكُونَ».^١
وقال عزّ شأنه: «قَالُوا أَتَخْدِ اللهُ وَلَدًا سَبِّحَانَهُ هُوَ الْغَيْرُ».^٢
وهناك آيات أخرى ذكرت هذا المعتقد المنحرف.
وهذه الآية الكريمة التي نحن بصددها تقول: «وَقَالُوا أَتَخْدِ اللهُ وَلَدًا» ثم

تعجب عليهم أولاً بتنزيه الله عن هذه النسبة: «سُبْحَانَهُ»، فما حاجة الله إلى الولد؟ هل هو محتاج إلى المساعدة أو إلى بقاء النسل؟! نعم، لا يمكن نسبة أي إحتياج إلى الله «بِئْلَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» وجميع الكون خاضع له «كُلُّهُ قَاتِلُونَ».

وليس هو مالك جميع موجودات الكون فحسب، بل هو خالتها ... بل مبدعها أي موجدها دون إحتياج إلى مادة أولية في هذا الإيجاد «بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

ما حاجة الله إلى الولد وهو النافذ الإرادة في جميع الموجودات؟! «وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَعْوَلُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^١

* * *

بحوث

١- دلائل نفي الولد

نسبة الولد إلى الله سبحانه، هي دون شك وليدة سذاجة فكرية، قائمة على أساس مقارنة كل شيء بالوجود البشري المحدود.

الإنسان يحتاج إلى الولد لأسباب عديدة: فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج إلى توليد المثل لاستمرار نسله.

ومن جهة أخرى هو ذو قوة محدودة تضعف بالتدريب، ويحتاج لذلك - وخاصة في فترة الشيخوخة - إلى من يساعدته في أعماله.

وهو أيضاً ينطوي على عواطف وحب للانسين، وذلك يتطلب وجود فرد أنيس في حياة الإنسان، والولد يلبي هذه الحاجة.

واضح أن كل هذه الأمور لا يمكن أن تجد لها مفهوماً بشأن الله سبحانه، وهو خالق عالم الوجود وال قادر على كل شيء، وهو الأزلية الأبدية. أضف إلى ذلك، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسماً والله منزه عن ذلك.^١

٢ - تفسير «كُنْ فَيَكُونُ»

هذا التعبير ورد في آيات عديدة منها الآية ٤٧ و ٥٩ من سورة آل عمران، والآية ٧٣ من سورة الأنعام، والآية ٤٠ من سورة النحل والآية ٣٥ من سورة مريم، والآية ٨٢ من سورة يس، وغيرها، والمراد منها الإرادة التكوينية لله تعالى وحاكميته في الخليقة.

عبارة أوّلها: المقصود من جملة «كُنْ فَيَكُونُ» ليس هو صدور الأمر اللفظي «كُنْ» من قبل الله تعالى، بل المقصود تحقق إرادة الله سبحانه حينما تقتضي الإيجاد شيء من الأشياء، صغيراً بحجم الذرة كان، أم كبيراً بحجم السماوات والأرض، بسيطاً كان أم معقداً، دون أن يحتاج في ذلك الإيجاد إلى آية علة أخرى، ودون أن تكون هناك آية فترة زمنية بين الإرادة والإيجاد.

لا يمكن للزمان أن يفصل بين الأمر والكونية، ولذلك فإن الفاء في جملة «فَيَكُونُ»، لا تدل على تأخير زمني كما هو الحال في الجمل الأخرى، بل إنها تدل فقط على التأثير في الرتبة (الفلسفة أثبتت تأخر المعلول عن المعلمة، وهذا التأثر ليس زمنياً، بل في الرتبة - تأمل بدقة).

ليس المقصود أن الشيء يصبح موجوداً متى ما أراد الله ذلك، بل المقصود أن الشيء يصبح موجوداً بالشكل الذي أراده الله. على سبيل المثال، لو أراد الله أن يخلق السماوات والأرض في ستة أيام،

١ - هذه المسألة بحثناها في سورة الأنبياء، الآية ٢٦، المجلد العاشر من هذا التفسير.

لكان ذلك، دون زيادة أو نقص، ولو أراد أن توجد في لحظة واحدة لوجدت بأجمعها في لحظة واحدة، فذلك تابع لكيفية إرادته ولما يراه من مصلحة. ولو شاء الله - مثلاً - أن يبقى الجنين في رحم أمه تسعة أشهر وتسعة أيام ليطوي مراحل تكامله، لما زادت هذه المدة وما نقصت. أما لو شاء أن يطوي هذا الجنين مراحل تكامله خلال لحظة واحدة لحدث ذلك قطعاً، لأن إرادته علة تامة للخلية، ولا يمكن أن توجد فاصلة بين العلة التامة وجود المعلول.

٣- كيف يوجد الشيء من العدم؟

كلمة «بَدِيعُ» من «بدع»، والإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء منه، وفي الآية بمعنى إيجاد الشيء من غير مادة سابقة.^١

والسؤال الذي يطرح في هذا المجال يدور حول إمكان إيجاد الشيء من العدم، فكيف يمكن للعدم - وهو نقيض الوجود - أن يكون منشأ للوجود؟ وهذه هي الشبهة التي يوردها الماديون في مسألة «الإبداع» ليستنتجوا منها أن المادة الأصلية للعالم أزلية أبدية، ولا يطأ عليها وجود وعدم إطلاقاً.

الجواب

في المرحلة الأولى، يوجه نفس هذا الاعتراض إلى الماديين فهو لا يعتقدون أن مادة هذا العالم قديمة أزلية، ولم ينقص منها شيء حتى الآن، والذي نراه يتغير هو «الصورة» وحدها، لا أصل المادة. ونعن بدورنا نسأل: كيف وجدت الصورة الحالية للمادة ولم تكن موجودة من قبل؟ هل وجدت من العدم؟ إذا كان كذلك، فكيف يمكن للعدم أن يكون منشأ للوجود؟ (تأمل بدقة).

على سبيل المثال، يقول الماديون في لوحة زيتية مرسومة على ورقة أنَّ زيوت التلوين كانت موجودة، ونحن نسأل: كيف وجدت هذه «الصورة» التي لم تكن موجودة من قبل؟

كل جواب يقدمونه بشأن إيجاد «الصورة» من «العدم» نقدمه نحن أيضًا بشأن إيجاده «المادة».

وفي المرحلة الثانية، ينبغي التأكيد على أن خطأ الماديين ناتج عن كلمة «من». هؤلاء تصوروا قولنا: (أن العالم وجد من العدم) شبيه بقولنا (أن المنضدة وجدت من الخشب) حيث لا بد من وجود الخشب أولاً لكي توجد المنضدة. بينما جملة «وجود العالم من العدم» لا تعني ذلك. بل تعني «أن العالم لم يكن موجوداً ثم وجد». وهل في هذه العبارة تضاد أو تناقض؟!

وبالتعبير الفلسفي: كل موجود ممكن (الذى لا يملك الوجود ذاتياً) له جانبان: ماهية وجود، «الماهية» هي «المعنى الإعتبري» الذي يتساوى في نسبة للعدم والوجود. بعبارة أخرى، الماهية هي المقدار المشترك الذي تفهمه من ملاحظة وجود شيء وعدمه. فهذه الشجرة لم تكن موجودة سابقاً وهي موجودة الآن، والشخص الفلاني لم يكن موجوداً سابقاً وهو الآن موجود، وما أسندا إليه العالتين (الوجود والعدم) هي «الماهية».

من هنا يكون معنى قولنا (إن الله أوجد العالم من العدم) هو أنه سبحانه نقل الماهية من حالة العدم إلى حالة الوجود، وبعبارة أخرى وضع لباس «الوجود» على جسد «الماهية».^١

* * *

الآيات

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ نَأْتِيْنَا آيَةً
كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مُّثِلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ
بَيَّنَآ آيَاتِنَا لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ^{١٠} إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بِشِيرًا
وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئِلَ عَنْ أَضْحَبِ الْجَحِيمِ^{١١}

التفسير

حجج أخرى

بمناسبة ذكر حجج اليهود في الآيات السابقة، تتحدث الآية عن حجج
مجموعة أخرى من المعاندين ويبدو أنهم المشركون العرب فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ نَأْتِيْنَا آيَةً».

هؤلاء الجاهلون - أو الذين لا يعلمون - بتعبير الآية، طرحو طلبين بعيدين
عن المنطق، طلباً:

- 1 - أن يكلّمهم الله: «لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ».
- 2 - أن تنزل عليهم آية: «أَوْ نَأْتِيْنَا آيَةً».

والقرآن يجيب على هذه الطلبات التافهة قائلاً: «كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
مُّثِلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَآ آيَاتِنَا لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ».

لو أن هؤلاء يستهدون حقاً إدراك العقيقة، ففي هذه الآيات النازلة على رسول الله ﷺ دلالة واضحة بينة على صدق أقواله، فما الداعي إلى نزول آية مستقلة على كل واحد من الأفراد؟! وما معنى الإصرار على أن يكلمهم الله مباشرة؟!

مثل هذا الطلب تذكره الآية ٥٢ من سورة العنكبوت: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ افْرَادٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَقَ صَحْفًا مُّسَنَّرًا».

مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق، لأن تتحققه -إضافة إلى عدم ضرورته- مخالف لحكمة الباري سبحانه، لما يليه:
أولاً: إثبات صدق الأنبياء للناس كافة أمر ممكناً عن طريق الآيات التي تنزل عليهم.

ثانياً: لا يمكن للآيات والمعاجز أن تنزل على أي فرد من الأفراد، فذلك يتطلب نوعاً من اللياقة والإستعداد والظهورانية. فالأسلاك الكهربائية تحمل من التيار ما يتناسب مع ضخامتها. الأسلاك الرقيقة لا تحمل التيار العالي، ولا يمكن أن تتساوى بالأسلاك الضخمة القادرة على توصيل التيارات العالية. والمهندس يفرق بين الأسلاك التي تستقبل التيارات العالية من المولدات مباشرة، والأسلاك التي تنقل التيار الواطي داخل البيوت.

الآية التالية تخاطب النبي ﷺ، وتبين موقفه من الطلبات المذكورة وتقول: «إِنَّا أَزَّسْلَنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا».

فمسؤولية الرسول بيان الأحكام الإلهية، وتقديم المعاجز، وتوضيح الحقائق، وهذه الدعوة ينبغي أن تقرن بتبشير المهتدين وإنذار العاصين وهذه مسؤوليته أيتها الرسول، وأما الفتنة التي لا تذعن للحق بعد كل هذه الآيات فأنت غير مسؤول عنها: «وَلَا تُشْقِلْ عَنْ أَضْحَابِ الْجَمِيعِ».

بحثان

١- «تشابهت قلوبهن»

مرّ علينا في الآية أن القرآن يصف الحجج الواهية التي يطرحها المعاصرون لصاحب الرسالة الخاتمة، بأنها شبيهة بتلك التي كان يتذرع بها المنحرفون من الأمم السابقة، فقلوبهم متشابهة.

القرآن يشير بهذا التقرير واللوم إلى أنّ مرور الزمن ينبغي أن يكون عاملاً على زيادة وعي الأجيال البشرية، وعلى تفهم هذه الأجيال اللاحقة أكثر من السابقة لتعاليم الأنبياء، لكن مرور الزمن لا يرفع مستوى المنحرفين، بل يبقى خط الإنحراف واحداً متشابهاً على مرّ الأجيال وكأنها متعلقة بالآف الأعوام السالفة.

٢- أصلان تربويان

«البشرة» و«الإنذار» أو «التشجيع» و«التهديد» من أهم الأصول الازمة للتربية وللحركة الإجتماعية. ينبغي أن يلقى الفرد تشجيعاً على أعماله الصالحة، وتوجيهًا على أعماله الطالحة، كي يواصل مسيره الأول، ويسرّد عن ارتياحه السير الثاني.

«التشجيع» وحده لا يكفي لدفع الفرد والمجتمع على طريق التكامل، لأنّ الإنسان سوف يكون مطمئناً من عدم الخطر في حالة إرتكاب المعاصي. على سبيل المثال، نرى إرتكاب المعاصي بين النصارى الحالين أمراً عادياً، لأنّهم يعتقدون بالقدراء، أي بأنّ السيد المسيح عليه السلام قد صحيّ بنفسه لغفران ذنوب أتباعه، أو لإعتقادهم بأنّ أصحابهم قادرون أن يغفروا لهم ذنبهم بسبل شتى، منها منهم صكوك الغفران. أو يبيعون لهم الجنة مثل هؤلاء القوم يسمحون لأنفسهم إرتكاب الذنوب بسهولة. جاء في قاموس الكتاب المقدس: «...القدراء أيضاً إشارة إلى كفاراة دم

المسيح، الذي أخذ على عاتقه كل ذنبنا وتحمل ذنبناً في جسده على الصليب». هذا المنطق يجعل الأفراد دون شك جريئين على إرتكاب المعاصي. بعبارة أخرى، من يرى أن التشجيع وحده كاف لتربيّة الإنسان (طفلًا كان أم كبيراً)، وضرورة ترك التهديد والتقرير، فهو مجانب للصواب ومخطئ تماماً. وهكذا أولئك الذين يعتقدون أن التربية ينبغي أن تقوم على أساس التخويف والتأنيب لا غير.

الفريقيان المذكوران خاطئان في فهم الإنسان، حيث إن الإنسان يتجادله كل الخوف والرجاء، حيث الذات وكراهية الفناء، تحصيل المنفعة ودفع الضرر. وهل يمكن لموجود يحمل في ذاته هذين البعدين أن يربّي وفق بعد واحد؟! والتعادل ضروري بين هذين الجانبيين، فلو تجاوز التشجيع حدة لأدّى إلى التجربة والفلة، ولو تعدّى التخويف حدةً لبعث على اليأس والقنوط وانطفاء شعلة الشوق والتحرّك في النفوس.

مما سبق نفهم سبب إقتنان البشرية بالإذار أو «البشير» «النذير» في القرآن الكريم، فتارة تقدم كلمة البشير على النذير كآلية التي نحن بصددها: «بَشِّيرًا وَنَذِيرًا»، وتارة تقدم كلمة النذير كقوله تعالى في الآية ١٨٨ من سورة الأعراف: «إِنَّا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِّيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وأكثر الآيات القرآنية في هذا المورد تتقدّم فيها صفة البشير، ولعل ذلك يعود إلى أن رحمة الله من حيث المجموع سابقة على غضبه: «يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ».

الآيات

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّىٰ تَشْبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ
إِنَّ هُدًى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَفْوَاءَهُمْ بَغْدَ الدِّى
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ^١ الَّذِينَ
أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتَلَوَّنُهُ حَقًّا تِلَاقِيَهُ أَوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَسِيرُونَ^٢

أسباب النزول

روي عن ابن عباس بشأن نزول الآية الأولى أن يهود المدينة ونصارى نجران، كانوا يأملون أن تكون قبلة المسلمين موافقة دائمًا لقبتهم، فلما تغيرت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة يتصوروا من النبي الإسلام. ولعل بعض المسلمين لم يرق له هذا التغيير، لرغبتهم أن لا يحدث عملاً يؤدي إلى إزعاج اليهود والنصارى.^١

الآية الأولى نزلت لتعلن للنبي أن هذه الفتنة من اليهود والنصارى لا ترضى

١- تفسير أبي الفتوح الرازي، وتفسير النحر الرازي (مع اختلاف بسيط).

عنك بالإشتراك في قبلتهم ولا بأي شيء آخر، إلا أن تقبل كل^١ ما يتبعونه.
وقيل: إن الآية نزلت إثر إصرار النبي على إرضاء أهل الكتاب طمعاً في
قبولهم الإسلام، فنزلت الآية لتأكيد أن رضى هؤلاء غاية لا تدرك إلا بإعتراف
دينهم^٢.

وبشأن نزول الآية الثانية وردت روايات مختلفة، قيل إنها نزلت فيمن التحقق
بجعفر بن أبي طالب لدى عودته من العيشة وهم أربعون نفراً، إثنان وثلاثون من
أهل العيشة وثمانية رهبان فيهم «بحيرا» الراهب المعروف. وقيل إنها نزلت في
يهود أسلموا وحسن إسلامهم من أمثال: عبد الله بن سلام وسعید بن عمرو، وتمام
بن يهودا^٢.

التفسير

إرضاء هذه المجموعة محال
الآية السابقة رفعت المسئولية عن النبي ﷺ إزاء الصالحين المعاندين. والآية
أعلاه تواصل الموضوع السابق وتحاطب الرسول بأن لا يحاول شيئاً في كسب
رضا اليهود والنصارى لأنه: «وَلَنْ تَرْضِيَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَقَّ شَيْءٍ
عَلَيْهِمْ».

واجبك أن تقول لهم: «إِنَّ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْمُهْدِيُّ»، هدى الله هو الهدى البعيد عن
الخرافات وعن الأفكار التافهة التي تفرزها عقول الجهال، ويجب إتباع مثل هذا
الهدى الخالص.

ثم تقول الآية: «وَلَئِنْ أَتَبْغَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

٢ - تفسير أبي القتوض الرازي، ومجمع البيان.

١ - مجمع البيان، الآية المذكورة.

وبعد أن ذم القرآن الفتنة المذكورة من اليهود والنصارى، أشاد بأولئك الذين آمنوا من أهل الكتاب وانضموا تحت راية الرسالة الخاتمة «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتَلَوَّنَهُ حَقًّا تِلْأَوْتَهُ» - اي بالتفكير والتدبر ثم العمل به - «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» أي يؤمنون بالرسول الكريم ﷺ «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّاهِرُونَ».

هؤلاء كانوا قد تلوا كتابهم السماوي حقاً، وكان ذلك سبب هدايتهم، فهم قرأوا فيه بشارات ظهور النبي الموعود، وقرأوا صفاته المنطبقة مع صفات نبي الإسلام ﷺ فآمنوا به، والله مدحهم وأشاد بهم.

* * *

بحوث

١ - سؤال عن عصمة الأنبياء

العبارة القرآنية: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ» قد تشير سؤالاً بشأن عصمة الأنبياء، فهل يمكن للنبي ﷺ - وهو مخصوص - أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود والنصارى؟

في الجواب نقول: مثل هذه التعبيرات تكررت في القرآن الكريم، ولا تتعارض مع مقام عصمة الأنبياء، لأنها - من جهة - جملة شرطية، والجملة الشرطية لا تدل على تحقق الشرط.

ومن جهة أخرى، عصمة الأنبياء لا تجعل الذنب على الأنبياء محالاً، بل المخصوص له قدرة على إرتكاب الذنب، ولم يسلب منه الإختيار، ومع ذلك لم يتلوث بالذنوب. بعبارة أخرى: إن المخصوص قادر على الذنب، ولكن إيمانه وعلمه وتقواه بدرجة لا تجعله يتوجه إليها إلى ذنب. من هنا فالتحذيرات المذكورة بشأنهم مناسبة تماماً.

من جهة ثالثة، هذا الخطاب وإن اتجه إلى النبي ﷺ ولكن قد يكون موجهاً

إلى الناس جميعاً.

٢- للإسترضاء حدود

صحيح أن الإنسان الرسالي يجب أن يسعى بأخلاقه إلى جذب الأعداء إلى صفو الدعوة، لكن مثل هذا الموقف يجب أن يكون تجاه المخالفين المرنيين الليتين، أما الموقف تجاه المعاندين المتصلبين فينبغي أن يكون غير ذلك. لا يجوز إهدار الوقت مع هؤلاء، بل لا بد من الإعراض عنهم وتركهم.

٣- إن هدى الله هو الهدى

نفهم من الآية المذكورة أن القانون الوحديد القادر على إنقاذ البشرية هو قانون الهدایة الإلهیة، لأن علم البشر - مهما قدر له من التکامل - يبقى مخلوطاً بالجهل والشك والقصور في جهات مختلفة. والهدایة في ضوء مثل هذا العلم الناقص لا يمكن أن تكون هدایة مطلقة، ولا يستطيع أن يضع للإنسان برنامج «الهدایة المطلقة» إلا من له «علم مطلق»، ومن هو خال من الجهل والنقص، وهو الله وحده.

٤- حق التلاوة

عبر القرآن عن الفتنة المهتدية من أهل الكتاب بأنهم «يَتَلَوُنَّهُ حَقَّ تِلَاؤِهِ»، وهو تعبير عميق يرسم لنا سبيلاً واضحاً تجاه القرآن الكريم والكتب السماوية، فالناس أمام الآيات الإلهية على أقسام:

قسم يكرسون اهتمامهم على أداء الأنفاظ بشكل صحيح وعلى قواعد التجويد، ويشغل ذهنهم دوماً الوقف والوصل والإدغام والفتنة في التلاوة، ولا يهتمون إطلاقاً بمحنتي القرآن فما بالك بالعمل بها! وهؤلاء بالتعبير القرآني «كَمُتَّلِّ

الْجَيْرِ يَحْمِلُ أَنْسَارَهُ^١.

وَقْسَمْ يَتْجَازُ إِطَارَ الْأَنْفَاظِ، وَيَتْعَمِّقُ فِي الْمَعْانِي، وَيَدْقُقُ فِي الْمَوْضِعَاتِ الْقَرَائِيَّةِ، وَلَكِنْ لَا يَعْمَلُ بِمَا يَفْهَمُ!

وَقْسَمْ ثَالِثٌ، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ حَقًّا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ بِاعْتِبَارِهِ كِتَابُ عَمَلٍ، وَمِنْهُجًا كَامِلًا لِلْحَيَاةِ، وَيَعْتَبِرُونَ قِرَاءَةَ الْأَنْفَاظِ وَالتَّفْكِيرَ فِي الْمَعْانِي وَإِدْرَاكَ مَفَاهِيمِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ مَقْدِمَةً لِلْعَمَلِ، وَلَذِكَ تَصْحُو فِي نُفُوسِهِمْ رُوحٌ جَدِيدَةٌ كَلِمَا قَرَأُوا الْقُرْآنَ، وَتَتَصَادِعُ فِي دَاخِلِهِمْ عَزِيزَةٌ وَإِرَادَةٌ وَاسْتِعْدَادٌ جَدِيدٌ لِلأَعْمَالِ الصَّالِحةِ، وَهَذِهِ هِيَ التَّلَوَّةُ الْحَقَّةُ.

وَرَدَ عَنِ الْإِمَامِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ الصَّادِقِ ع فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «يُسَرِّتُونَ آيَاتِهِ، وَيَتَنَقَّلُونَ بِهِ، وَيَقْتَلُونَ بِأَخْكَابِهِ، وَيَرْجُونَ وَعْدَهُ، وَيَخْافُونَ وَعِيَّدَهُ، وَيَسْقُتُونَ يَقْصِصِيهِ، وَيَأْتِيُونَ بِأَوْامِرِهِ، وَيَتَهَوَّنُ بِنَوَاهِيهِ، مَا هُوَ إِلَّا هُوَ حَفْظُ آيَاتِهِ وَدَرْسُ حُرُوفِهِ، وَتَلَاقَةُ سُورَتِهِ وَدَرْسُ أَغْشَارِهِ وَأَحْمَاسِهِ^٢. حَفِظُوا حُرُوفَهُ وَأَضَاعُوا خُدُودَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ تَدْبِيرُ آيَاتِهِ وَالْعَقْلُ بِأَزْكَانِهِ». قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ مُبَارَكٌ لِيَتَذَكَّرُوا آيَاتِهِ»^٣.

* * *

١- الجمعة، ٥.

٢- المقصود من الأعشار والأخمس تقسيمات القرآن.

٣- الميزان، نفلاً عن إرشاد الدليلي.

الآياتان

يَنْبَغِي أَشْرَقُهُ يَلَّا نَعْمَقَ الْقَدْرَ أَنْعَثْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي
فَضَلَّتُكُمْ عَلَى الْعَالَمَيْنَ ⑤ وَأَنْقَوْتُهُ يَوْمًا لَا تَجِزِي نَفْسٌ عَنْ
نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبِلُ مِنْهَا عَذْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ
يُنَصَّرُونَ ⑥

التفسير

مرة أخرى يتوجه الخطاب الإلهي إلى بني إسرائيل ليذكرهم بالنعم التي أحاطوا بها، وخاصة نعمة تفضيلهم على أمم زمانهم، فتقول الآية: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نَعْمَقَ الْقَدْرَ أَنْعَثْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَلَّتُكُمْ عَلَى الْعَالَمَيْنَ» أي على كل من كان يعيش في ذلك الزمان.

كل نعمة تقتربن بمسؤولية، وتقتربن بالتزام وتكليف إلهي جديد، ولذلك قال سبحانه في الآية التالية: «وَأَنْقَوْتُهُ يَوْمًا لَا تَجِزِي نَفْسٌ شَيْئًا»... «وَلَا يُقْبِلُ مِنْهَا عَذْلٌ» أي غرامة أو فدية، «وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ» إلا بإذن الله، ولا يستطيع أحد غير الله أن يساعد أحداً «وَلَا هُمْ يُنَصَّرُونَ».

فكل سبل النجاة التي تتولون بها في هذه الدنيا موصدة يوم القيمة،

والطريق الوحيد المفتوح أمامكم هو طريق الإيمان والعمل الصالح، وطريق التوبة من الذنوب.

هذه المفاهيم مطروحة في الآيتين ٤٧ و ٤٨ من هذه السورة حيث تعرضا لها بالتفصيل، ونكتفي هنا بهذا القدر.

* * *

الآية

وَإِذْ أَبْتَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلْمَنَتِ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ
لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَلِ عَهْدِي
الظَّلِيلِينَ ⑤

التفسير

الإمامية قمة مفاحض إبراهيم عليه السلام

هذه الآية وما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبي الله الكبير إبراهيم عليه نبيتنا وعليه الصلاة والسلام، وعن بناء الكعبة وأهمية هذه القاعدة التوحيدية العابدية.

والهدف من هذه الآيات - وعددتها ثمانية عشرة آية - ثلاثة أمور:
أولاً: أن تكون مقدمة لمسألة تغيير القبلة التي ستطرح بعد ذلك، كي يعلم المسلمون أن هذه الكعبة من ذكريات إبراهيم محطم الأصنام، ولكي يفهموا أن التلويث الذي طرأ على الكعبة إذ حولها المشركون إلى بيت للأصنام، إنما هو تلويث سطحي لا يحط من قيمة الكعبة ومكانتها.
ثانياً: لفضح ادعاءات اليهود والنصارى بشأن انتسابهم لإبراهيم، وأنهم ورثة

دينه وطريقته، ولتوسيع مدى ابتعاد هؤلاء عن ملة إبراهيم.

ثالثاً: لتفهيم مشركي العرب أيضاً ببعدهم عن منهج النبي الكبير محطم الأصنام، والرّد على ما كانوا يتصورونه من ارتباط بينهم وبين إبراهيم.

الآية الكريمة تقول أولاً: **«وَإِذَا أَبْتَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلَمَاتٍ فَأَفَقَّهُنَّ»**.

هذه الفقرة من الآية تشير إلى الإختبارات المتالية التي اجتازها إبراهيم عليه السلام بنجاح، وتبين من خلالها مكانة إبراهيم وعظمته وشخصيته.

وبعد أن اجتاز هذه الإختبارات بنجاح استحق أن يمنحه الله الوسام الكبير **«قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً»**.

وهنا تمنى إبراهيم عليه السلام أن يستمر خط الإمامة من بعده، وأن لا يبقى محصوراً بشخصه **«قَالَ وَمَنْ ذُرَّيْقٌ»**.

لكن الله أجابه: **«قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»**.

وقد استجيب طلب إبراهيم عليه السلام في استمرار خط الإمامة في ذرئته، لكن هذا المقام لا يناله إلا الطاهرون المعصومون من ذرئته لا غيرهم.

* * *

بحوث

١- المقصود من «الكلمات»

من دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السلام، و ما أداه هذا النبي العظيم من أعمال جسمية استحق ثناء الله، نفهم أن المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات والمهام الثقيلة الصعبة التي وضعها الله على عاتق إبراهيم عليه السلام، فحملها وأحسن حملها، وأدى ما عليه خير أداء، وهي عبارة عن:

أخذ ولده إلى المذبح والإستعداد التام لذبحه، إطاعة لأمر الله سبحانه، إسكان الزوج والولد في واد غير ذي زرع بمكة، حيث لم يسكن فيه إنسان.

النهوض بوجه عبادة الأصنام وتحطيم الأصنام، والوقوف ببطولة في تلك المحاكمة التاريخية، ثم إلقاءه في وسط النيران. وثباته ورباطة جأشه في كل هذه المراحل.

الهجرة من أرض عبدة الأصنام والإبعاد عن الوطن، والإتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته ... وأمثالها.^١

كان كل واحد من هذه الإختبارات ثقيلاً وصعباً حقاً، لكنه بقوة إيمانه نجح فيها جميعاً، وأثبتت لياقته لمقام «الإمام». *

* * *

٢- من هو الإمام؟

يتبيّن من الآية الكريمة التي نحن بصددها، أن متنزلة الإمامة السنوحة لإبراهيم عليه السلام بعد كل هذه الإختبارات، تفوق متنزلة النبوة والرسالة.

ولتوسيع ذلك نقول: إن للإمامية معاني مختلفة:

١- الإمامة بمعنى الرئاسة والزعامة في أمور الدنيا، (قال بذلك فريق من علماء أهل السنة).

٢- الإمامة بمعنى الرئاسة في أمور الدين والدنيا، (قال بذلك فريق آخر من علماء أهل السنة).

٣- الإمامة بمعنى تحقيق المناهج الدينية بما في ذلك منهج الحكم بالمعنى الواسع للحكومة، وإجراء الحدود وأحكام الله، وتطبيق العدالة الاجتماعية، وتربية الأفراد في محتواهم الداخلي وفي سلوكهم الخارجي. وهذه المتنزلة أسمى من متنزلة النبوة والرسالة، لأن متنزلة النبوة والرسالة تقتصر على إبلاغ أوامر الله، والبشارة والإنذار، أمّا الإمامة فتشمل مسؤوليات النبوة والرسالة إضافة إلى

١- روی عن ابن عباس أنه استخرج اختبارات إبراهيم من أربع سور قرآنية فكانت ثلاثين موضعاً (تفسير المنار، تفسير الآية المذكورة)، وخلالصها ما ذكرنا.

«إجراء الأحكام» و«تربيـة النفوس ظاهرياً وباطنياً» (من الواضح أن كثيراً من الآباء كانوا يتمتعون بمنزلة الإمامة).

منزلة الإمامة هي في الحقيقة منزلة تحقيق أهداف الدين والهداية، أي «الإيصال إلى المطلوب»، وليس هي «إرادة الطريق» فحسب.

ومضافاً لما سبق فإن الإمامة تتضمن أيضاً على «الهداية التكوينية»، أي النفوذ الروحي للإمام، وتأثيره على القلوب المستعدة للهداية المعنوية (تأمل بدقة).

الإمام في ذلك يشبه الشمس التي تبعث الحياة في النباتات، فكذلك دور الإمام في بعث الحياة الروحية والمعنوية في الكائنات العية؟.

يقول سبحانه: **«هُوَ الَّذِي يَصْلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتَهُ لِتَخْرُجُكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا»** ^١.

ومن هذه الآية نفهم بوضوح أن رحمة الله الخاصة والمعونة الفيضة للملائكة بإمكانها أن تخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور.

هذا الموضوع يصدق على الإمام أيضاً، فالقوـة الروحـية للإمام وللأنبياء العاذرين على منزلة الإمامة وخلفائهم، لها التأثير العميق على تربية الأفراد المؤهـلين، وإخراجـهم من ظلمـات الجـهل والصلـالة إلى نورـ الـهـداـية.

لا شك أن المراد من الإمامة في الآية التي نحن بصدده تفسيرها هو المعنى الثالث للإمامـة، لأنـه يستفادـ من آيات متعددـة أنـ مفهـومـ «الإـمامـة» يـنـطـويـ عـلـىـ مـفـهـومـ «الـهـداـية»، كـتـولـهـ تعـالـىـ: **«وَجَعَلْنـاـ مـنـهـمـ أـفـةـ يـهـدـونـ بـأـمـرـنـاـ لـمـاـ صـبـرـواـ وـكـانـواـ يـأـتـيـنـاـ يـوـقـنـونـ»** ^٢.

هذهـ الـهـداـية لاـ تـعـنيـ إـرـادـةـ الطـرـيقـ، لأنـ إـيـراـهـيمـ ^{عـلـيـهـ السـلامـ} كانتـ لهـ قـبـلـ ذـلـكـ مـكـانـةـ

النبوة والرسالة، أي مكانة إرادة الطريق.

القرآن الواضحة تشير إلى أن منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهيم عليه السلام بعد الامتحانات المسيرة، وأجياد مراحل اليقين والشجاعة والإستقامة، هي غير منزلة البشرة والإبلاغ والإنذار.

إذن، الهدایة التي يتضمنها مفهوم الإمامة ما هي إلا «الإيصال إلى المطلوب» و«تحقيق روح الدين»، وتطبيق المنهاج التربوي في النفوس المستعدة. هذا الحقيقة يوضحها بإجمال حديث عريق المعنى روى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يقول:

«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخْدَدَ إِبْرَاهِيمَ عَنْدَأَقْبَلَ أَنْ يَسْتَخْدِهُ نَبِيًّا، وَإِنَّ اللَّهَ أَخْدَدَ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَسْتَخْدِهُ رَسُولًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَخْدَدَ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَسْتَخْدِهُ خَلِيلًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَخْدَدَ خَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَجْعَلَهُ إِمَامًا، فَلَمَّا جَمَعَ لَهُ الْأَشْيَاةَ، قَالَ: «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» قَالَ: فَلَمَّا عَطَيْتَهَا فِي عَنْبَرِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «وَمَنْ ذُرَّ بِي» قَالَ لَا يَتَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» قَالَ: لَا يَكُونُ الشَّيْءُ إِمَامًا إِلَّا قَيْقَ»^١.

* * *

٣- الفرق بين النبوة والإمامية والرسالة

يفهم من الآيات الكريمة والمأثور عن الموصومين، أن حملة المهام من قبل الله تعالى لهم منازل مختلفة:

- ١- منزلة النبوة: أي إسلام الوحي من الله، فالنبي هو الذي ينزل عليه الوحي، وما يستلمه من الوحي يعطيه للناس إن طلبوا منه ذلك.
- ٢- منزلة الرسالة: وهي منزلة إبلاغ الوحي، ونشر أحكام الله، وتربيـة الأفراد عن طريق التعليم والتوعية. فالرسول إذن هو المكلف بالسعـي في دائرة مهمته

١- أصول الكافي، ج ١، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة، ص ١٣٢.

الدعوة الناس إلى الله وتبلغ رسالته، وبذل الجهد لتبسيير فكري عقائدي في مجتمعه.

٣- منزلة الإمامة: وهي منزلة قيادة البشرية، فالإمام يسعى إلى تطبيق أحكام الله عملياً عن طريق إقامة حكومة إلهية وإسلام مقاليد الأمور الازمة. وإن لم يستطع إقامة الدولة يسعى قدر طاقتة في تنفيذ الأحكام.

بعبارة أخرى، مهمة الإمام تنفيذ الأوامر الإلهية، بينما تقصر مهمة الرسول على تبلیغ هذه الأوامر. وبتعبير آخر أيضاً، مهمة الرسول، إرادة الطريق، ومهمة الإمام «الإيصال إلى المطلوب» (إضافة إلى المهام الثقيلة الأخرى المذكورة). من نافلة القول أن كثيراً من الأنبياء كنبي الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام حازوا على المنازل الثلاث، كانوا يستلمون الوحي، ويلغون أوامر الله، ويسعون إلى إقامة الحكومة وتنفيذ الأحكام، وينهضون - بما لهم من تأثير روحي - بمهمة تربية النفوس.

الإمامية - بعبارة موجزة - هي منزلة القيادة الشاملة لجميع المجالات المادية والمعنوية والجسمية والروحية والظاهرة والباطنية. الإمام رئيس الدولة وزعيم المجتمع ومعلم الأخلاق وقائد المحتوى الداخلي للأفراد المؤهلين.

فهو بقوّته المعنوية يقود النفوس المؤهلة على طريق التكامل.

وبقدرتة العلمية يعلم الجهلة.

وبقوّة حكمته أو آية قوّة تنفيذية أخرى يطبق مبادي العدالة.

* * *

٤- الإمامة آخر مراحل مسيرة إبراهيم التكاملية

بما تقدم في بيان حقيقة الإمامة يتضح أنه من الممكن أن تكون لشخص منزلة النبوة وتبلغ الرسالة، بينما لا تكون له منزلة الإمامة. وهذه المنزلة تحتاج إلى مؤهلات كثيرة في جميع المجالات. وهي المنزلة التي نالها إبراهيم عليه السلام بعد كل

هذه الامتحانات والمواقف العظيمة، وكانت آخر مرحلة من مراحل مسيرة التكاملية.

من ذهب إلى أن الإمامة هي «أن يكون الفرد لائقاً ونموذجاً» فقط، ما فهم أن هذه الصفة كانت موجودة في إبراهيم عليه السلام منذ بداية النبوة.

ومن قال إن المقصود من الإمامة «أن يكون الفرد قدوة»، فاته أن هذه صفة جميع الأنبياء منذ ابتدائهم بدعة النبوة، ولذلك وجب أن يكون النبي مخصوصاً لأن أعماله قدوة للآخرين.

من هنا، فنزلة الإمامة أسمى مما ذكر، بل أسمى من النبوة والرسالة، وهي النزلة التي نالها إبراهيم من قبل الله بعد أن اجتاز الامتحان تلو الامتحان.

* * *

٥ - مَنِ الظالم؟

المقصود من «الظلم» في التعبير القرآني: «لَا يَنْالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل)، وقد استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمة، ويقع في النقطة المقابلة للعدل: وهو وضع الشيء في محله.

فالظلم إذن وضع الشخص أو العمل أو الشيء في غير مكانه المناسب.

ولما كانت نزلة الإمامة والقيادة الظاهرة والباطنية للبشرية نزلة ذات مسؤوليات جسيمة هائلة عظيمة، فإن لحظة من الذنب والمعصية خلال العمر تسبب سلب لياقة هذه النزلة عن الشخص.

لذلك نرى أنتم آل البيت عليهما السلام يثبتون بهذه الآية تعين الخلافة بعد النبي مباشرة على علي عليهما السلام وإنحصرها به، مشيرين إلى أن الآخرين عبدوا الأصنام في الجاهلية، وعلى علي عليهما السلام وحده لم يسجد لصنم. وأي ظلم أكبر من عبادة الأصنام؟! ألم يقل لقمان

لابنه: «يَا بْنَكَ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»^١

من هذه الإستدلالات ما رواه هشام بن سالم عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «قَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمَ نَبِيًّا وَلَيْسَ يَأْتِيَمْ حَتَّى قَالَ اللَّهُ: «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمامًا، قَالَ: وَمَنْ ذُرِّيَّقَ، فَقَالَ اللَّهُ لَا يَنْتَلُ عَنْهِي الظَّالِمُونَ»، مَنْ عَنَّدَ صَنَمًا أَوْ رَثَنَّا أَوْ يَكُونُ إِعْمَامًا»^٢.

وفي حديث آخر عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ: لَا أُغْنِيَكَ عَهْدًا لِلظَّالِمِ مِنْ ذُرِّيَّكَ، قَالَ: يَا رَبَّ وَمَنْ الظَّالِمُ مِنْ وَلِيِّ الْأَذْيَ ا لَّذِي لَا يَنْتَلُ عَهْدَكَ؟ قَالَ: مَنْ سَجَدَ لِصَنَمٍ مِنْ ذُرَوْنِي لَا أَجْحَلُهُ إِعْمَامًا أَبْدًا، وَلَا يَضْلُعَ أَنْ يَكُونَ إِعْمَامًا»^٣.

* * *

٦- تعين الإمام من قبل الله

من الآية مورد البحث نفهم ضمنياً أن الإمام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكون معيناً من قبل الله سبحانه، لما يلي:

أولاً: الإمامة ميثاق إلهي، وطبيعي أن يكون التعين من قبل الله، لأنه طرف هذا الميثاق.

ثانياً: الأفراد الذين تلبسو بعنوان الظلم، ومارسوا في حياتهم لحظة ظلم بحق أنفسهم أو بحق الآخرين، كأن تكون لحظة شرك مثلاً، لا يليقون للإمامية، فالإمام يجب أن يكون طيلة عمره معصوماً.

وهل يعلم ذلك في نفوس الأفراد إِلَّا اللَّهُ؟!

ولو أردنا بهذا المعيار أن نعين خليفة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، فلا يمكن أن يكون غير علي عليه السلام.

١- الفلان، ١٣.

٢- أصول الكافي، ج ١، باب «طبقات الأنبياء والرسل» حديث ١.

٣- أمالى الشيخ المفيد، ومناقب ابن المغاربى، تناولاً عن الميزان، تفسير الآية المذكورة.

جدير بالذكر أن صاحب «المنار» نقل عن أبي حنيفة قوله: أن الغلافة لا تليق إلا بالعلويين، ومن هنا أجاز الخروج على حكمة العباسين، ومن هنا أيضاً رفض منصب القضاء في حكمة خلفاء بنى العباس.

ويقول صاحب المنار أيضاً: إن أئمة المذاهب الأربع كانوا معارضين لحكام زمانهم، وكانوا يعتبرون أولئك الحكام غير لائقين لزعامة المسلمين، لأنهم ظالمون!.

ومن العجيب أن كثيراً من علماء أهل السنة في عصرنا هذا، يؤيدون ويدعمون الحكومات الظالمة المتاجرة المرتبطة إرتباطاً واضحاً جلياً ببعبة الكفر العالمية، والمفسدة في الأرض إفساداً لا يخفى على أحد، بل أكثر من ذلك يعتبرون هؤلاء الحكام «أولئك الأئمة» ويركتزون على وجوب طاعتهم!!

* * *

٧- جواب عن سؤالين

١- قلنا في تفسير معنى الإمامة أن عمل الإمام هو «الإيصال إلى المطلوب» و«تنفيذ المناهج الإلهية»، وهنا قد يقول قائل: إن هذا المعنى لم يتحقق في كثير من الأنبياء، بل لم يتحقق حتى بالنسبة للنبي الخاتم صلوات الله عليه وآله وسلامه والأئمة الأطهار في القياس العام، فقد كان يقف في مقابلهم دوماً أفراد ضالون مضلون.

جواباً على ذلك نقول: تعريفنا لعمل الإمام لا يعني أن الإمام يجز الأئمة قسراً نحو الحق، بل إن الأفراد يستطيعون -وهم مختارون- أن يهتدوا بما يمتلكه الإمام من قوة ظاهرية وباطنية، على شرط امتلاك هؤلاء الأفراد لللباقة والإستعداد.

وهذا كقولنا الشمس خلقت لاستمرار حياة الموجودات الحية، أو أن المطر يعمل على إحياء الأرض الميتة، تأثير الشمس والمطر له طابع عام، لكنه لا يصدق

إلا في الموجودات المستعدة لقبول هذا التأثير.

٢ - التفسير المذكور للإمام يستدعي أن يكون كل إمام نبياً ورسولاً أو لا، وبعد ذلك يبلغ درجة الإمامة. بينما لم يكن الخلفاء المعاصرون لنبي الإسلام عليه السلام كذلك.

نقول في الجواب: لا يلزم أن يكون الإمام قد بلغ حتماً منزلة النبوة والرسالة، فالذي اجتmetت فيه منزلة النبوة والرسالة والإمامية (مثل النبي الخاتم) يمكن ل الخليفة أن يواصل طريق الإمامة، وذلك حين تنتهي الحاجة إلى رسالة جديدة كما هو الحال بعد خاتم الأنبياء.

بعباره أخرى، حين تكون مرحلة إسلام الوحي الإلهي وتبلیغ جميع الأحكام قد انتهت وبقيت المرحلة التنفيذية، فإن خليفة النبي يستطيع أن يواصل الخط التنفيذي، ولا حاجة لأن يكون هذا الخليفة نبياً أو رسولاً.

* * *

٨- شخصية إبراهيم المثالية

ورد اسم إبراهيم عليه السلام في ٦٩ موضعًا من القرآن الكريم، تحدثت عنه آيات تتوزع بين خمس وعشرين سورة. والقرآن يتنبى كثيراً على هذا النبي الكريم ويذكره بصفات جليلة عظيمة.

إنه قدوة وأُسوة في كل المجالات، ونموذج للإنسان الكامل. مكانته في سُلْطَن معرفة الله ... ومنظمه الصريح أمام عبادة الأوّلان ... ونضاله العريض ضد الجبابرة ... وتضحياته على طريق الله، وصموده الفريد أمام عواصف الحوادث والإختبارات الصعبة ... كل واحدة من هذه الصفات تشكل النموذج الأعلى للسائرين على طريق التوحيد.

إِبْرَاهِيمَ كَمَا يَصِفُهُ الْقُرْآنُ مِنْ «الْمُخْسِنِينَ»^١، وَمِنْ «الْمُصَالِحِينَ»^٢، وَمِنْ «الْقَانِتِينَ»^٣، وَمِنْ «الصَّدِيقِينَ»^٤، وَ«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّلَهُ حَلِيمٌ»^٥، وَ«وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَقَى»^٦، ذُو سُخَاءٍ عَظِيمٍ وَشَجَاعَةٍ مُنْقَطَعَةٍ النَّظِيرِ.

فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ (خَاصَّةً فِي الْقَسْمِ الْأَخِيرِ مِنَ السُّورَةِ) سُنْنَاتُ الْحَدِيثِ فِي هَذَا الْمَجَالِ. (رَاجِعُ الْمَجْلِدِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ).

* * *

١- الصالات، ١٠٥.
٢- النحل، ١٢٢.

٤- مريم، ٤١.

٦- النجم، ٣٧.

١- الصالات، ١٠٥.

٢- النحل، ١٢٠.

٥- الأنبياء، ١١٤.

الآية

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَأَخْذَنُوا مِنْ مَقَامٍ
إِبْرَاهِيمَ مُصْلَى وَعَهَدْنَا إِلَيْهِ ابْرَاهِيمَ وَإِنْسَعِيلَ أَنْ طَهَرَا بَيْتِي
لِلظَّاهِرِينَ وَالْغَافِكِينَ وَالرُّكُعَ السُّجُودَ ⑤

التفسير

عظمة بيت الله

بعد الإشارة إلى مكانة إبراهيم عليه السلام في الآية السابقة، تناولت هذه الآية موضوع عظمة الكعبة التي وضع قواعدها إبراهيم عليه السلام، فهي تبدأ بالتذكير بعبارة «وَإِذْ» أي أذكروا: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا».

المثابة من التوب، أي عودة الشيء إلى حالته الأولى. ولما كانت الكعبة مركزاً يتجه إليه الموحدون كل عام، فهي محل لعودة جسمية وروحية إلى التوحيد والقطرة الأولى، ومن هنا كانت مثابة. وكلمة «مَثَابَةً» تتضمن معنى الراحة والاستقرار، لأن بيت الإنسان - وهو محل عودته الدائم - مكان للراحة والاستقرار، وهذا المعنى تؤكد له كلمة «أَمْنًا» التي تلي كلمة «مَثَابَةً» في الآية. وكلمة «لِلنَّاسِ» توضح أنه ملجاً عام لكل العالمين، ولكل الشعوب المحرومة. وهذه الصفة للبيت هي في الحقيقة استجابة لأحد مطالب إبراهيم عليه السلام من ربه

ما سيأتي.

ثم تضييف الآية: «وَأَنْجَدُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصْلِّي».

اختلف المفسرون في معنى «مقام إبراهيم»، قيل: إن كل العجم هو مقام إبراهيم. وقيل: إنه «عرفة» و«المشعر الحرام» و«الجمار الثلاث». وقيل: كل حرم مكة مقام.

ولكن يبدو من ظاهر الآية أن المقام هو مقام إبراهيم المعروف الكائن قرب الكعبة، وذهبت إلى ذلك الروايات وكثير من المفسرين. وعلى العجاج أن يصلوا خلفه بعد الطواف، ومن هنا كان هذا المقام «مصلى».

ثم تشير الآية إلى المسؤولية المعمودة إلى إبراهيم وابنه إسماعيل ﷺ بشأن تطهير البيت للطائفين والمجاورين والمصلين: «وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتَ لِلَّطَّافِينَ وَالْمُجَاوِرِينَ وَالْمُسْجُودِينَ».

وفي التطهير قيل: إنه التطهير من لونه وجود الأصنام. وقيل: إنه التطهير من الدنس الظاهر، كالدم وأحشاء الذبائح التي كان يلقى بها الجهلة في البيت. وقيل: إنه يعني إخلاص النية عند بناء البيت.

ولا دليل على تحديد مفهوم الطهارة، فهي تعني تطهير هذا البيت ظاهرياً ومعنوياً من كل تلويث.

لذلك نجد بعض الروايات فسرت التطهير في الآية بأنه تطهير الكعبة من المشركين، وبعضها بأنه تطهير البدن وإزالة الأدران.

* * *

بحثان

١- الآثار الاجتماعية والتربوية للبيت الأيمن:

الكببة - طبعاً للآية أعلى - ملاذ وبيت آمن، والإسلام وضع الأحكام المشددة بشأن إبعاد هذه الأرض المقدسة عن كل نزاع واشتباك وحرب وإراقة

دماء، وليس أفراد البشر آمنين هناك فحسب، بل الحيوانات والطيور آمنة أيضاً في هذه البقعة، ولا يحق لأحد أن يمسها بسوء.

وفي عالم يعجّ دوماً بالنزاع والصراع، يستطيع مثل هذا المركز الآمن أن يكون له الأثر العميق في حل المشاكل وفض النزاعات، إذ يستطيع الفرقاء المتنازعون أن يجلسوا حول طاولة واحدة عند هذا البيت الآمن، ويفتحوا بينهم حواراً قد يكون مقدمة لإزالة الخصومات والنزاعات.

وقد يتافق أن ترغب الأطراف المتنازعة في إجراء مباحثات، لكنهم لا يتفقون على مكان مقبول ومحترم وآمن لدى جميع الأطراف، والإسلام أقرَّ مكة لتكون مركزاً كهذا.

والاليوم، إذ المسلمين - مع الأسف الشديد - يسعانون من ألوان النزاعات والإختلافات حرّيّ بهم أن يستفيدوا من قداسة هذا البيت وأمنه لفتح باب المحادثات بينهم، ولرفع ما بينهم من اختلافات بفضل معنوية هذا المكان المقدس.^١

٢- بيت الله

وصفت الكعبة بأنها بيت الله، وعبرت الآية عن الكعبة «بَيْتِي». وواضح أن الله ليس بجسم، ولا يحده بيت، ولا يحتاج إلى ذلك، وهذه الإضافة هي «إضافة تشريفية» تبيّن قدسيّة الشيء الذي ينسب إلى الله، ولذلك كان شهر رمضان «شهر الله» وكانت الكعبة «بيت الله».



١- ببيان أمن أرض مكة لنا بعث آخر في تفسير الآية ٣٥ من سورة إبراهيم. (راجع المجلد السابع من هذا التفسير).

الآية

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَأَزْرُقْ أَهْلَهُ
مِنَ الْفَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ
فَأُمْتَنَعَ قَلِيلًا مُّمْ أَضْطَرَهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِشَّاسِ الْمَصِيرِ ⑥

التفسير

إبراهيم يدعورنه

في هذه الآية توجه إبراهيم إلى ربته بطلبين هامين لسكنة هذه الأرض المقدسة، أشرنا إلى أحدهما في الآية السابقة. القرآن يذكر بما قاله إبراهيم: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا».

وكما ذكرنا في الآية السابقة، استجاب الله لدعاء إبراهيم، وجعل هذه الأرض المقدسة مركزاً آمناً بالمعنى الواسع لكلمة لأمن. والطلب الآخر هو: «وَأَزْرُقْ أَهْلَهُ مِنَ الْفَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ».

وهكذا يطلب إبراهيم «الأمن» أولاً، ثم «المواهب الإقتصادية»، إشارة إلى أن الإقتصاد السالم لا يتحقق إلا بعد الأمن الكامل.

وللمفسرين آراء عديدة في معنى «الثمرات»، ويبدو أن معناها واسع يشمل النعم المادية والنعم المعنوية. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «هِيَ ثَرَاتُ الْقُلُوبِ» إشارة إلى جعل قلوب الناس تهوي إلى هذه الأرض.

إبراهيم في دعائه يقتصر على المؤمنين بالله واليوم الآخر، ولعل ذلك كان بعد أن قال له الله سبحانه: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» ففهم أن مجموعة من ذريته سيسلكون طريق الشرك والظلم، فاستثنىهم في دعائه.

والله سبحانه استجواب لإبراهيم طلبه الثاني أيضاً، ولكنه «قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتَمَّهُ قَلِيلًا» في الدنيا، «فَمَّا أَضْطَرَهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» في الحياة الآخرة.

هذه في الواقع صفة «الرحمانية» وهي الرحمة العامة للباري تعالى التي تشمل كل المخلوقات، صالحهم وطالعهم في الدنيا. أما الآخرة فهي عالم رحمته الخاصة التي لا ينالها إلا من آمن وعمل صالحًا.



الآيات

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقْبَلُ
مِنَّا أَنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ ﴿٥﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ
وَمِنْ ذُرْيَتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا أَنَّكَ
أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ أَنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾

التفسير

ابراهيم يبني الكعبة

فهم بوضوح من خلال آيات الذكر الحكيم أن بيت الكعبة كان موجوداً قبل إبراهيم، وكان قائماً منذ زمن آدم. تتحدث الآية ٣٧ من سورة إبراهيم عن لسان إبراهيم تقول: «رَبَّنَا إِنِّي أَشْكَنْتُ مِنْ ذُرْيَقِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ». وهذا الآية تدل على أن بيت الكعبة كان له نوع من الوجود حين جاء إبراهيم مع زوجه وابنه الرضيع إلى مكة.

وتقول الآية ٩٦ من سورة آل عمران: «إِنَّ أُولَئِيَتِ وُضْعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي يَبْكِهُ مُبَارَكَاهُ». ومن المؤكد أن عبادة الله وإقامة أماكن العبادة لم تبدأ في زمان إبراهيم، بل كانتا منذ أن خلق الإنسان على ظهر هذه الأرض.

عبارة الآية الأولى من الآيات محل البحث يؤكّد هذا المعنى، إذ يقول: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَعَالَى مِنْتَأْنَكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ». فاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ قد رفعا قواعد البيت التي كانت موجودة.

وفي خطبة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة، وهي المسماة بالقاصعة، يقول:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِخْتَرَ الْأَئِلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْقَالَمِ بِأَخْجَارٍ ... لَعْنَقَلَهَا بَيْتُهُ الْمَزَامِ ... ثُمَّ أَمْرَتْ آدَمَ لِلَّهِ وَزَوْلَدَهُ أَنْ يَتَنَوَّ أَغْطَافَهُمْ تَعْنُونَهُ ۱... ۲».

القرآن القرآنية والرواية تؤيد أن الكعبة بنيت أولاً بيد آدم، ثم انهدمت في طوفان نوح، ثم أعيد بناؤها على يد إبراهيم وإسماعيل^١.

في الآياتين التاليتين يتضرع إبراهيم وإسماعيل إلى رب العالمين بخمسة طلبات هامة. وهذه الطلبات المقدسة حين الإشتغال بإعادة بناء الكعبة جامدة ودقيقة بحيث تشمل كل احتياجات الإنسان المادية والمعنوية، وتتصحّ عن عظمة هذين النّبيين الكبيرين.

قالاً أولاً: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ».

ثم أضافاً: «وَمِنْ ذُرْيَتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ».

١- أي أن يطوفوا حوله.

٢- نهج البلاغة، سعي صالح، ص ٢٩٢ - (الخطبة القاصعة).

٣- صاحب السنار، ينكر هذا الموضوع بالمرة، ويرى أن إبراهيم وإسماعيل أول من بنى الكعبة، وهذا ما لا تؤيده الروايات ولا عبارات القرآن الكريم.

وطلباً تفهم طريق العبادة: «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا»، ليعبد الله حقّ عبادته.
تم طلباً التوبة: «وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ».

الآية الأخيرة تضمنت الطلب الخامس، وهو هداية الذرية «رَبَّنَا وَإِنَّا
رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَرْكِيمُهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفِيرُ
الْحَكِيمُ».

* * *

بحثان

١ - هدف بعثة الأنبياء

في الآيات أعلاه، بعد أن يطلب إبراهيم وإسماعيل من الله ظهور نبي
الإسلام، يذكران ثلاثة أهداف لبعثته:
الأول: تلاوة آيات الله على الناس، أي إيقاظ الأفكار والأرواح في ظل
الآيات الإلهية المبشرة والمنذرة.

«يتلو من تلا، أي اتبع الشيء بالشيء»، وسميت «التلاوة» كذلك لأنها قراءة
وفق تبع ونظم. هي مقدمة للبيضة والإعداد والتعليم والتربية.

الثاني: «تعليم الكتاب والحكمة» ولا تتحقق التربية إلا بالتعليم.
ولعل التفاوت بين «الكتاب» و«الحكمة» في أن الكتاب يعني الكتب
السماوية، والحكمة تعني العلوم والأسرار والصلل والنتائج الموجودة في
الأحكام، وهي التي يعلمها النبي أيضاً.

الثالث: «الترزية» وهو الهدف الأخير.
و«الترزية» في اللغة هي الإنماء، وهي التطهير أيضاً.
وبذلك يتلخص الهدف النهائي من بعثة الأنبياء في دفع الإنسان على مسيرة
التكامل «العلمي» و«العملي».

ينبغي التأكيد هنا على أنّ علوم البشر محدودة، مقترونة بآلاف الفجوات المبهمة والأخطاء الكبيرة، والإنسان أيضاً لا يطمئن بدقة إلى معلوماته، لأنّه شاهد أخطائه وأخطاء الآخرين.

من هنا كان من الضروري مجيء الأنبياء بعلومهم الحقة الخالية من الأخطاء المستمدّة من مبدأ الوحي إلى الناس، ليزيلوا أخطاءهم، ويملأوا فراغات جهلهم، ويعثروا فيهم اطمئناناً بعلمهم.

ويلزم التأكيد أيضاً على أن الشخصية البشرية تتكون من «عقل» و«غرائز»، ولذلك كان الإنسان بحاجة إلى «التربية» بقدر حاجته إلى «العلم»، وينبغي أن يتكمّل عقله، وأن تتجه غرائزه نحو هدف صحيح.

لذلك فإنّ الأنبياء معلمون، ومربيون، يزودون الناس بالعلم، وبال التربية.

٢- «التعليم» مقدم أو «التربية»؟ - في أربعة مواضع ذكر القرآن مسألة التربية والتعليم باعتبارهما هدف الأنبياء، وفي ثلاثة مواضع منها قدمت «التربية» على «التعليم» (البقرة، ١٥١ - آل عمران، ١٦٤ - الجمعة، ٢).

وفي موضع واحد تقدم التعليم على التربية (آل عمران، آية بعثتنا). ونعلم أن التربية لا تتم إلا بالتعليم.

لذلك حين يتقدّم التعليم على التربية في الآية فإنّما ذلك بيان للسلسل النطقي الطبيعي لها. وفي الموضع التي تقدّمت فيها التربية، فقد يكون ذلك إشارة إلى أنها الهدف، لأن الهدف الأصلي هو التربية، وما عدّها مقدمة لها.

٣- النبي من الناس - تعبير «منهم» في الآية «وَابْتُّ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ» يشير إلى أن قادة البشرية ينبغي أن يكونوا بشراً بنفس صفات البشر الغريزية، كي يكونوا القدوة الالاتقة في الجوانب العملية. ومن الطبيعي أنهم - لو كانوا من غير البشر - ما استطاعوا إدراك حاجات الناس والمشكلات العويصة الكامنة لهم في حياتهم، ولا أمكنهم أن يكونوا قدوة وأسوة لهم.

الآيات

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقِدْ
أَضْطَفَنَتْهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنْ أَصْنَلَحَيْنَ ◁ إِذْ قَالَ
لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَشْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ◁ وَوَصَّنِي بِهَا
إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَقُولُ يَسْبِي إِنَّ اللَّهَ أَضْطَقَ لَكُمُ الْدِينَ فَلَا
تُمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ◁

التفسير

إِبْرَاهِيمُ الْإِنْسَانُ النَّمُوذِجُ

الآيات السابقة ألمت الضوء على جوانب من شخصية إبراهيم عليهما السلام، فتحدثت عن بعض خدماته وطلباته الشاملة للجوانب المادية والمعنوية. من مجموع ما مرّ بهم أن الله سبحانه شاء أن يكون هذا النبي،شيخ الموحدين وقدوة الرساليين، على مر العصور. لذلك تقول الآية الأولى من آيات بحثنا هذا: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ»؟!

أليس من السفاهة أن يعرض الإنسان عن مدرسة الظهر والنقاء والفطرة والعقل وسعادة الدنيا والآخرة، ويتجه إلى طريق الشرك والكفر والفساد وضياع

العقل والإنحراف عن الفطرة وفقدان الدين والدنيا؟! ثم تضيف الآية: «وَلَقَدْ اضطُفَنَا فِي الدُّنْيَا إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ». نعم، إبراهيم عليه أصلحة الله في الدنيا ليكون «الأسوة» و«القدوة» للصالحين. الآية التالية تؤكد على صفة أخرى من صفات إبراهيم التي هي الواقع أساس بقية صفاتـه العظيمة وتقول: «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». هذا الإنسان المتحرر من الانشدادات الوضيعة يسارع إلى التسليم التام حال سماعه نداء ربـه: «أَسْلَمْ»، ولا يتواتـي في رفض كل أوهام زمانـه القائمة على عبادة النجوم والشمس والقمر، فيـتـركـها بعد أن رأـها مـحـكـومـةـ بالـقـوـانـينـ التـيـ تـسـودـ الخليـقةـ ويـقـولـ: «إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَيْنًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ»!

مرـيناـ فيـ الآـيـاتـ السـابـقـةـ أـنـ إـبـراهـيمـ وـإـسـمـاعـيلـ عـلـيـهـ الـثـلـاثـةـ بـعـدـ بـنـاءـ الـكـبـةـ طـلـبـاـ مـنـ اللهـ سـبـحـانـهـ أـنـ يـتـقـبـلـ أـعـمـالـهـماـ، ثـمـ بـعـدـ ذـلـكـ طـلـبـاـ أـنـ يـعـنـىـ عـلـيـهـماـ اللهـ بـنـعـمـةـ التـسـلـيمـ لـوـجـهـهـ الـكـرـيمـ: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ» وـمـثـلـ هـذـاـ طـلـبـاهـ لـذـرـيـتـهـماـ: «وَمـنـ ذـرـيـتـناـ أـمـةـ مـسـلـمـةـ لـكـ».

ذلك لأنـ الخطـوةـ الـأـوـلـىـ فـيـ سـمـوـ الشـخـصـيـةـ الـإـنـسـانـيـةـ الـطـهـرـ وـالـإـلـاـصـ، وـمـنـ هـنـاـ أـسـلـمـ إـبـراهـيمـ عـلـيـهـ الـثـلـاثـةـ وـجـهـهـ لـرـبـهـ دـوـنـ سـوـاـ، وـلـذـلـكـ عـرـفـ هوـ وـدـيـنـهـ بـهـذـاـ العنـوانـ. حـيـاةـ إـبـراهـيمـ عـلـيـهـ الـثـلـاثـةـ بـأـجـمـعـهـاـ كـانـتـ مـفـعـمـةـ بـأـعـمـالـ جـسـيـمـةـ نـادـرـةـ، نـضـالـهـ الـمـرـيرـ ضـدـ الـمـشـرـكـينـ، صـمـودـهـ الـكـبـيرـ فـيـ قـلـبـ النـيـرانـ، هـذـاـ الصـمـودـ الـذـيـ أـتـارـ إـعـجـابـ نـمـرـودـ الـطـاغـيـةـ نـفـسـهـ حـيـثـ رـاحـ يـرـددـ دـوـنـ وـعـيـ: «مـنـ اتـخـذـ إـلـهـاـ فـلـيـسـخـذـ إـلـهـاـ مـيـثـلـ إـلـهـ إـبـراهـيمـ»؟

وكـذـلـكـ إـسـكـانـ الزـوـجـ وـالـطـفـلـ الرـضـيعـ فـيـ تـلـكـ الـأـرـضـ الـجـاهـةـ الـقـاحـلةـ ...

وال المقدس، وبناء الكعبة، وتقديم الولد على مذبح التضحية والفتداء استجابة لأمر الله تعالى ... كل واحدة من هذه الأعمال قمة من سلسلة قمم حياة إبراهيم عليه السلام. ووصيحة إبراهيم بنيه في أواخر أيام حياته تجسيد آخر لهذه الحياة الشامخة: «وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بْنَيْهِ وَيَعْقُوبَ» ... فكل من إبراهيم ويعقوب وصيا أبناءه مما بالقول: «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اضطَّلَ لَكُمُ الدِّينُ فَلَا تَمُونُنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ». لعل القرآن الكريم، بنقله وصيحة إبراهيم، يريد أن يقول للإنسان إنه مسؤول عن مستقبل أبنائه، عليه أن يهتم بمستقبلهم المعنوي قبل أن يهتم بمستقبلهم المادي.

يعقوب كإبراهيم وصيحة أيضاً أبناءه، بنفس هذه الوصايا، وأكده لأبنائه أن رمز نجاحهم يتلخص في جملة واحدة، هي التسليم لرب العالمين. ربما يعود ذكر اسم يعقوب هنا من بين سائر الأنبياء، إلى أن اليهود والنصارى كانوا يعتقدون بانتسابهم إلى يعقوب بشكل من الأشكال، فأرادت الآية أن توضح لهم أن خط الشرك الذي يسلكونه لا يتناسب مع منهج يعقوب، وهو منهج التسليم المensus لرب العالمين.



الآيات

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ أَبَانِكَ إِسْرَاهِيمَ وَإِنَّنَا عَيْلٌ وَإِنَّنَاهَا وَحْدَةٌ وَمَنْ خَنَّ لَهُ مُسْلِمُونَ ④ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَمَّا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشَرِّلُونَ عَلَيْهِ كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑤

سبب النزول

كان جمع من اليهود يعتقدون أن يعقوب عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه أن يعتنقوا اليهودية (بتحريفاتها السائدة خلال عصر البعثة المباركة)، والله سبحانه أنزل هذه الآية^١.

التفسير

كما رأينا في سبب النزول، وظاهر الآية يدل على ذلك أيضاً، كان جمع من

١ - تفسير أبي الفتوح الرازي، آية البحث.

منكري الإسلام ينسبون ما لا ينفي نسبته إلى النبي يعقوب، والقرآن يرد عليهم بالقول: «أَمْ كُتُمْ شُهَدَاءِ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ؟!»

هذا الذي نسبوه إليه ليس ب صحيح، بل الذي حدث آنذاك «إِذْ قَالَ لِتَبَّيْهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَغْدِي؟»

في الجواب «قَالُوا تَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهُ أَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَتَخْنُنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

أجل فإن يعقوب لم يوص أبناءه بشيء غير التوحيد والتسليم لرب العالمين والذي هو الأساس لبرنامج الأنبياء.

من الآية يبدو أن قلقاً ساور يعقوب لدن أن حضرته الوفاة بشأن مستقبل أبنائه، وعبر عن قلقه هذه متسائلاً: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَغْدِي؟» وإنما قال: «مَا تَعْبُدُونَ...» ولم يقل «مَنْ تَعْبُدُونَ...» لتلوث البيئة الاجتماعية آنذاك بالشرك والوثنية، أي بعبادة الأشياء من دون الله. فأراد يعقوب أن يفهم ما في قراره نفوس أبنائه من ميول واتجاهات، وبعد أن استمع الجواب اطمأن نفسه.

ويلفت النظر هنا أن إسماعيل لم يكن أباً ليعقوب ولا جده، بل عمه، بينما الآية استعملت كلمة «آباء»، ويتبين من ذلك أن كلمة «الأب» تطلق أيضاً على «العم» توسيعاً، ومن هنا نقول بالنسبة لازر، الذي ذكره القرآن باعتباره والد إبراهيم، أنه لا يمنع أن يكون عم إبراهيم لا والده. (تأمل بدقة).

آخر آية في بحثنا، تجيب على توهّم آخر من توهّمات اليهود، فكثير من هؤلاء كانوا يستندون إلى مفاخر الآباء والأجداد وقرب منزلة أسلافهم من الله تعالى، فلا يرون بأساساً في انحرافهم هم ظانين أنهم ناجون بوسيلة أو تلك الأسلاف. يقول القرآن: «يَتَّلَقَ أُمَّةٌ قَذْ خَلَتْ لَمَّا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشَنَّلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وبذلك أرادت الآية أن توجه أنظار هؤلاء إلى أعمالهم وسلوكياتهم وأفكارهم، وتصرفهم عن الإنغماض في الإفتخار بالماضي.

هذه الآية - وإن اتجهت في الخطاب إلى فئة اليهود، أهل الكتاب في عصر البعثة - تناطينا نحن المسلمين أيضاً، وتطرح أمامنا مبدأ، إن الفتى من يقول لها أنا إذا ليس الفتى من يقول كان أبي

* * *

الآيات

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ قُولُوا إِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِنَّنِي عَلَىٰ وَإِنَّ حَقَ وَيَسْعُقُونَ
وَالْأَشْبَاطَ وَمَا أُوْقِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوْقِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ
رِّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٢﴾ فَإِنَّمَا امْنَوْا
بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلُّوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ ﴿٣﴾

سبب التزول

عن ابن عباس أن جماعة من علماء اليهود ونصارى أهل نجران خاصموا
أهل الإسلام، كل فرقة تتقول إنها أحق بدین الله من غيرها، فقالت اليهود: نبينا
موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وقالت النصارى: عيسى
أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وكل فريق منها قال للمؤمنين:
كونوا على ديننا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

التفسير

نحن على حق لا غيرنا!

التمحور والإنعماس في الذاتية يؤدي إلى أن يحتكر الإنسان الحق لنفسه، ويعتبر الآخرين على باطل، ويُسعى إلى أن يجرهم إلى معتقداته الآية الأولى تتحدث عن مجموعة من أهل الكتاب يحملون مثل هذه النظرة الضيقة، ونقلت عنهم القول: **«وَقَالُوا كُنُوتُهُودًا أَوْ نَصَارَى تَهَذَّبُوا»**. ففيه عليهم القرآن مؤكداً أن الأديان المحرفة لا تستطيع إطلاقاً أن تهدي الإنسان **«قُلْ بَلْ مِلْهَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»**.

الدين الخالص هو اتباع الخط التوحيدى الخالص غير المشوب بالشرك. ورعاية هذا الأساس أهم معيار للتمييز بين الأديان الصحيحة والأديان المنحرفة. يعلمنا الإسلام أن لا نفرق بين الرسل، وأن نحترم رسالاتهم، لأن المبادئ الأساسية للأديان الحقة واحدة، موسى وعيسى كانوا أيضاً من أتباع ملة إبراهيم ... أي من أتباع الدين التوحيدى الخالص من الشرك، وإن حرف المغرضون من أتباعهما ما جاء به، وجعلوه مشوياً بالشرك. و(كلامنا هذا لا يتناهى طبعاً مع إيماننا بأن البشرية يجب أن تتبع آخر الأديان السماوية أي الإسلام).

الآية التالية تأمر المسلمين أن **«قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَتَّقُوتَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوْقِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوْقِيَ الْبَيْوَنَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا تَنْرُقُ بَيْنَ أَهْدِ مِنْهُمْ وَلَا هُنَّ لَهُ مُسْلِمُونَ»**.

لا يجوز أن تنطلق من محور الذاتية في الحكم على هذا النبي أو ذاك، بل يجب أن ننظر إلى الأنبياء بمنظار رسالي، ونعتبرهم جميعاً رسل رب العالمين ومعلمى البشرية، قد أدى كلُّ منهم دوره في مرحلة تاريخية معينة، وكان هدفهم واحداً، وهو هداية الناس في ظل التوحيد الخالص والحق والعدالة. ثم يضيف القرآن قائلاً: **«فَإِنْ آمَنُوا بِهِ مَا آمَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلُوا فَإِنَّا**

هم في شقاقٍ).

ولو تخلى هؤلاء عن عنصريتهم وذاتياتهم، وأمنوا بجميع أنبياء الله فقد اهتدوا أيضاً، وإن فقد ضلوا سواء السبيل.

و«الشقاق» النزاع وال الحرب، وفسرت في الآية بالكفر وبالضلالة، وبالابتعاد عن الحق والإتجاه نحو الباطل، وكل هذه المعانى تعود إلى حقيقة واحدة.

ذكر بعض المفسرين أن الآية السابقة التي ساوت بين عيسى وسائر الأنبياء.

أثارت اعتراض جمع من النصارى وقالوا: إن عيسى ليس كسائر الأنبياء، بل هو ابن الله، فنزلت هذه الآية لتوكيد على انعراج هؤلاء وأنهم في شقاق.

ثم ثبتت الآية على قلوب المؤمنين وتبعدت فيهم الثقة والطمأنينة بالقول:

«فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ الشَّيْعَ لآقواهم «القليل» بمؤامراتهم.

* * *

بحوث

١- وحدة دعوة الأنبياء

في مواضع عديدة أكد القرآن على أن هدف الأنبياء واحد، ولا انقسام في خط النبوات، فكل الأنبياء ينذرون عن منع الوحي الإلهي، ولذلك يوصي القرآن باحترام جميع الأنبياء، لكن هذا لا يمنع - كما قلنا - أن تتسع كل رسالة جديدة تنزل من الله سبحانه الرسالات السابقة، والإسلام خاتم الرسالات السماوية.

أنبياء الله كالمعلمين، ربى كل منهم البشرية في فصل دراسي، وبعد انتهاء المرحلة الدراسية الخاصة به يسلم المجتمع البشري إلى معلم آخر ليجتاز الأفراد مرحلة دراسية أعلى، ومن هنا فالمجتمع البشري مكلف بتحمل مسؤوليات ما يأتي به آخر نبي، وهذا لا يتعارض مع كون سائر الأنبياء على حق.

٢- من هم الأسباط؟

الأسباط جمع سبط، والأسباط أحفاد يعقوب، وهم اثنا عشر سبطاً من اثني عشر ابناً، أو أنهم قبائل من بنى إسرائيل، والسبط في اللغة: الجماعة يرجعون إلى أب واحد، والسبط (على وزن درج) قد يأتي بمعنى: الشجر، والأسباط الذين هم من شجرة واحدة، ويقال: سبط عليه العطا، إذا تابع عليه حتى يصل بعضه ببعض. المقصود من الأسباط - إذن - ليس أبناء يعقوب، فهو لاء ارتکبوا جميعاً ذنبًا بحق أخيهم ولا يصلحون للنبوة، بل المقصود قبائل بنى إسرائيل، أو أحفاد يعقوب من كان لهم أنبياء. ولما كان بين هؤلاء الأسباط أنبياء، فالآية عدتهم بين أولئك الذين نزلت عليهم آيات الله.

٣- الحنيف

الحنيف، من مادة حَنَفَتْ: أي مال عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، وبه سميت الحنيفية، لأنها مالت عن اليهودية والنصرانية. وعكس ذلك «جَنَفَتْ» أي مال عن الطريق المستقيم إلى الإنحراف. ولهذا السبب كان أحد معاني الحنيف هو المستقيم والذي لا عوج فيه.

وللمسيرين آراء في الحنيفية، منها حجج بيت الله، وأتباع الحق، وأتباع إبراهيم، والإخلاص في العمل، وكلها ترجع إلى معنى عام وشامل، ما ذكره المفسرون مصاديق لذلك.



الآيات

صِبَغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَخْسَنَ مِنَ اللَّهِ صِبَغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَنِيدُونَ ﴿١﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿٢﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَغْفُورُبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ أَمَّا اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَمَ شَهَدَهُ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَنِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَذَ خَلَثَ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشَتَّلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤﴾

التفسير

التخلّي عن غير صبغة الله:

بعد الدّعوة التي وجهتها الآيات السابقة لاتّباع الأديان بشأن إنتهاج طريق جميع الأنبياء، أول آية في بحثنا تأمرهم جميعاً بترك كل صبغة، أي دين، غير «صبغة الله»!^۱

۱ - «صِبَغَة» منصورية على أنها مفعول مطلق لفعل محنوف أي (اصطبغوا) صبغة الله، أو أنها بدل من «ملة إبراهيم»

ثم تضييف الآية: «وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صِبَغَةً؟! أَيْ لَا أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صِبَغَةً، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» في اتباع ملة إبراهيم التي هي صبغة الله، وقيل المعنى: من نحن له عابدون يجب أن تتبع صبغته، لا ما صبغتنا عليه الآباء والأجداد! وبهذا أمر القرآن بالتخلي عن الصبغات العنصرية والطائفية والذاتية وعن كل الصبغات المفرقة، والإتجاه نحو صبغة الله.

ذكر المفسرون أن النصارى دأبوا على غسل أبنائهم بعد ولادتهم في ماء أصفر اللون، ويسمونه غسل التعميد، ويجعلون ذلك تطهيراً للسمولد من الذنب الذاتي الموروث من آدم!

القرآن يرفض هذا المعتقد الخاوي، ويقول: من الأفضل أن تتركوا هذه الصبغات الظاهرية الغرافية المفرقة، وتصلبوا بصبغة الله، لتظهر روحكم. ما أجمل تعبير «الصبغة» في هذه الآية! وما أروع هذه الدعوة إلى الإصطباغ بصبغة الله!

لو حدث ذلك ... لو اختارت البشرية صبغة الله ... أي صبغة الظهر والتقوى والعدالة والمساواة والأخوة ... صبغة التوحيد والإخلاص ... لاستطاعت أن تستأصل جذور الشرك والنفاق والتفرقة ... إنها في الحقيقة الصبغة التي لا لون بها وتطهر الإنسان من جميع الألوان.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: أن «صبغة الله» هي الإسلام، وهذا إشارة إلى ما ذكرناه.

كان اليهود وغيرهم يجاجون المسلمين بصور شتى، كانوا يقولون: إنَّ جميع الأنبياء مبعوثون منا، وإن ديننا أقدم الأديان، وكتابنا أعرق الكتب السماوية.

^٤ في الآيات المتقدمة، أو منعرل به لفعلم معذوف والتقدير (اتبعوا صبغة الله) والله أعلم!

٢ - نور الثقلين، ج ١، من ١٢٢.

١ - مجمع البيان، الآية.

وكانوا يقولون: إن عنصرنا أسمى من عنصر العرب، ونحن المؤهلون لحمل الرسالة لا غيرنا، لأن العرب أهل أوتار.

وكانوا يدعون أحياناً أنهم أبناء الله وأن الجنة لهم لا لغيرهم. القرآن يرد على كل هذه الأقوال ويقول: **«أَنْجَحُونَا فِي الْهُوَّةِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ»**.

فالله سبحانه ليس رب شعب أو قبيلة معينة، إنه رب العالمين. واعلموا أيضاً أن لا امتياز لأحد على غيره إلا بالأعمال، وكل شخص رهن أعماله **«وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ»**.

مع فارق، هو إن كثيراً منكم يشركون في توحيدهم: **«وَخَنَّ لَهُ مُخْلِصُونَ»**. الآية التالية تعجب على واحد آخر من هذه الإدعاءات الفارغة وتقول: **«أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَسْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى؟!؟!**

ثم تعجب الآية عن هذا الإدعاء بشكل رائع فتقول: **«قُلْ إِنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِّ اللَّهِ؟!** فما أعلم أنهم ما كانوا يهوداً ولا نصارى.

وقد تعلمون أنتم أيضاً أن هؤلاء الأنبياء أدوا رسالتهم قبل موسى وعيسى. وإن كنتم لا تعلمون فاطلاق مثل هذه الأقوال بدون علم وتشييت تهمة وذنب، وكتمان للحقيقة **«وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ كَمْ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ»**. اعلموا أنه **«وَمَا أَلْهَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْلَمُونَ»**.

حين يتنهج الإنسان خط العناد واللجاج فإن إعراضه عن الحقيقة لا حد له، ينكر أبسط المسلمات، ويرفض أوضح الواضحات. والآية تذكر نموذجاً لذلك في هذه المجموعة التي بلغ بها العناد واللجاج أن تعتبر أنبياء الله - الذين سبقو موسى وعيسى من أمثال إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - من اليهود أو النصارى. وبذلك يكتمون حقيقة واضحة لها إرتباط بإيمان الناس ومعتقداتهم، ولذلك يصف

القرآن هؤلاء الذين يكترون الحقائق بأنهم أظلم الناس، لأنه لا ظلم أكبر من كتمان الحقائق عن الناس عمدًا، وجز الآخرين إلى طريق الضلال.

في آخر آية من الآيات التي نحن بصددها يقول سبحانه لهؤلاء القوم المنوذين الجدليين: افترضوا أن ادعاءاتكم صحيحة، فهذا لا يعود عليكم بالتفع لأنَّه {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْتَأْنُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

الأُمّة الحية ينبغي أن تعتمد على أعمالها لا على ذكريات تاريخها، والإنسان يجب أن يستند إلى فضائله، لا أن يجترّ مفاخر الآباء والأجداد.

* * *

الجزء الثاني
من

القرآن الكريم

من الآية مائة واثنتين وأربعين

إلى الآية مائة وسبعين وثمانين من

سورة البقرة

الآية

سَيَقُولُ الْسَّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١﴾

التفسير

تغيير القبلة

هذه الآية وأيات تالية تتحدث عن حادث مهم من حوادث التاريخ الإسلامي، كان له آثاره الكبيرة في المجتمع آنذاك.
رسول الإسلام ﷺ صلى صوب (بيت المقدس) بأمر ربه مدة ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة في مكة، وبسبعة أشهر في المدينة بعد الهجرة. ثم تغيرت القبلة، وأمر الله المسلمين أن يصلوا تجاه (الكعبة).

وأختلف المفسرون في المدة التي صلى خلالها المسلمون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، فذكروا مدةً مختلفة تتراوح بين سبعة أشهر وسبعة عشر شهراً.
كانت الجماعة المسلمة تتعرض خلال كل هذه المدة (مدة صلاة المسلمين تجاه بيت المقدس) إلى لوم اليهود وتقييمهم، وكان اليهود يقولون عن المسلمين:

إن هؤلاء غير مستقلين لأنهم يصلون تجاه قبالتنا، وهذا دليل أننا على حق. كانت هذه الأقوال تلزم الرسول وصحابه، فالامر الإلهي يوجب أن يصلوا تجاه بيت المقدس، واليهود لا ينفكُون يرشقون المسلمين بوابل تهمهم وتقرعهم. وببلغ الأمر أن الرسول ﷺ بدأ يقلب وجهه في السماء انتظاراً للوحى. واستمر الانتظار مدة، حتى نزل الوحي يأمر بتبديل القبلة، كان الرسول ﷺ في مسجد «بني سالم» يصلِّي الظهر، فما إن أتَم ركعتين حتى أمر جبرائيل أن يأخذ بعهد الرسول ويدير وجهه تجاه الكعبة^١.

لم يكتفَ اليهود بعد هذا التغيير عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الإعلامية بشكل آخر، بدأوا يلقون التشكيكات بشأن هذا التغيير، والقرآن الكريم يتحدث عن هذه الإعتراضات: **﴿وَسَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا لَا هُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ أَلْيَ كَانُوا عَلَيْهَا﴾**.

بدأوا يرددون: لو كانت القبلة الأولى هي الصحيحة فلِمَ هذا التغيير؟ وإن كانت الثانية صحيحة فلماذا صلَّى المسلمون أكثر من ثلاثة عشر عاماً تجاه بيت المقدس؟!

والله سبحانه يجيب على هذا الإعتراض، فأمر رسوله أن **﴿Qَلْلُ اللَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾**. فليس لمكان قداسة ذاتية، إنما يكتسب قداسته بإذن الله، وكل مكان ملك الله، والمهم هو الطاعة والإسلام لرب العالمين.

تغير القبلة في الواقع مرحلة من مراحل الاختبار الإلهي، وكل مرحلة خطوة على الصراط المستقيم نحو الهدایة الإلهیة.

* * *

بحوث

- ١ - «السفهاء» جمع «سفيه» أطلقت في الأصل على من خفت حركة جسمه، وقيل: زمام سفيه، أي كثير الإضطراب خفيف الوزن. ثم استعملت الكلمة في خفة النفس لنقصان العقل في الأمور الدينية والدنيوية.
- ٢ - ذكرنا أن مسألة «النسخ» في الأحكام وتغيير المنهج التربوي بتغير المراحل الزمانية ليست مسألة غريبة جديدة في تاريخ الرسالات. لكن هؤلاء القوم العنودين الجدليين من اليهود اتخذوا من هذا التغيير ذريعة لـ إعلامهم المضاد، والقرآن يجيئهم بشكل يفهمهم.
- ٣ - جملة «يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» لا تعني كما ذكرنا أن هداية الله ليس لها حساب، لأن المشيئة الإلهية تنطلق من «حكمة» الله، ومن محاسبات المصالح والمفاسد.

* * *

الآية

وَكَذِلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ
عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ إِمَّا يَنْقِلِبُ عَلَى عَقِبِيهِ وَإِنْ
كَانَتْ لُكْيَرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ
إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرٌ وَفُرْحٌ ۝

التفسير

الأمة الوسط

هذه الآية تشير إلى جانب من أسباب تغيير القبلة، تقول أولاً: «وَكَذِلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا» أي كما جعلنا القبلة وسطاً، كذلك جعلناكم أمة في حالة اعتدال، لا يشوبها إفراط ولا تفريط في كل جوانب حياتها.

أما سبب كون قبلة المسلمين قبلة وسطاً، فلان النصارى - الذين يعيش معظمهم في غرب الكرة الأرضية - يولون وجوههم صوب الشرق تقريباً حين يتوجهون إلى قبتهم في بيت المقدس حيث مسقط رأس السيد المسيح. واليهود - الذين يتواجدون غالباً في الشامات وبابل - يتوجهون نحو الغرب تقريباً حين يقفون تجاه بيت المقدس.

أما «الكعبة» فكانت بالنسبة للمسلمين في المدينة تجاه الجنوب، وبين المشرق والمغرب، وفي خط وسط.

وهذا ما يفهم من عبارة «وَكَذِلِكَ»، وإن كان للمفسرين آراء أخرى في هذه العبارة لا تخلو من مناقشة.

القرآن يؤكد أن المنهج الإسلامي في كل أبعاده - لا في بعد القبلة فقط - يقوم على أساس التوازن والإعتدال.

والهدف من ذلك «لِتَكُونُوا شُهَدًا عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا».

و«شهادة» الأمة المسلمة على الناس، و«شهادة» النبي على المسلمين، قد تكون إشارة إلى الأسوة والثَّدْوَة، لأن الشاهد يُنتخب من بين أزكي الناس وأمثلهم.

فيكون معنى هذا التعبير القرآني أن الأمة المسلمة نموذجية بما عندها من عقيدة ومنهج، كما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ فرد نموذجي بين أبناء الأمة.

الأمة المسلمة بعملها وتطبيقها المنهج الإسلامي تشهد أن الإنسان بقدوره أن يكون رجل دين ورجل دنيا ... أن يكون إنساناً يعيش في خضم الأحداث الاجتماعية وفق معايير روحية ومعنوية. الأمة المسلمة بمعتقداتها ومناهجها تشهد بعدم وجود أي تناقض بين الدين والعلم، بل إن كلاً منها يخدم الآخر.

ثم تشير الآية إلى واحد آخر من أسرار تغيير القبلة فتقول: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْنَا إِلَّا لِتَغْلِمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِنْ يَنْقِلِبَ عَلَى عَقْبَيْهِ».

الآية لم تقل: يتبعك، بل قالت: «يَتَّبِعُ الرَّسُولَ» إشارة إلى أن هذا الإتباع إنما هو تسليم لأمر الله، وكل امتناع إنما هو عصيان وتمرد على الله، ولا يصدر ذلك إلا عن مشرك جاهلي.

وبعبارة «مَنْ يَنْقِلِبَ عَلَى عَقْبَيْهِ» تعني في الأصل الرجوع على مؤخر

الرجل، وتعني هنا الإنكماش والتراجع.

ثم تضييف الآية: «وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ». .

لولا الهدایة الإلهیة، لما وجدت فی نفس الإنسان روح التسلیم المطلق أمام أوامر الله. المهم أن يكون الإنسان المسلم مستسلماً إلى درجة لا يحسّ معها بعقل مثل هذه الأوامر، بل يشعر بذلك حلاوتها.

وأمام وسوسـة الأعداء المضلـلين والأـصدقاء الجـاهـلين، الذين راحـوا يـشكـكونـ في صـحة ما سـبقـ من العـبـادـاتـ قبلـ تـغـيـيرـ القـبـلـةـ، تـقولـ الآـيـةـ: «وَمَا كـانـ اللـهـ لـيـضـعـ إـعـانـكـمـ إـنـ اللـهـ بـإـلـئـاسـ لـرـؤـفـ رـحـيمـ».

فـأـوـامـرـ اللهـ مـثـلـ وـصـفاتـ الطـبـيبـ لـكـلـ مرـحـلـةـ منـ مـراـجـلـ الـعـلاـجـ نـسـخـةـ خـاصـةـ، وـكـلـهاـ شـافـيـةـ وـافـيـةـ تـضـمـنـ سـعادـةـ الإـنـسـانـ وـسلامـتـهـ، وـالـعـملـ بـأـجـمـعـهاـ صـحـيـعـ لـغـبـارـ عـلـيـهـ.

* * *

بحوث

١- أسرار تغيير القبلة

تغيـيرـ القـبـلـةـ منـ بـيـتـ المـقـدـسـ إـلـىـ الـكـبـيـةـ أـثـارـ لـدـىـ الجـمـيعـ تـسـاؤـلـاتـ عـدـيدـةـ، أـولـئـكـ الـذـيـنـ قـالـواـ إـنـ الـأـحـکـامـ يـنـبـغـيـ أـنـ تـبـقـيـ ثـابـتـةـ رـاحـواـ يـتسـاءـلـونـ عـنـ سـبـبـ هـذـاـ التـغـيـيرـ، فـلـوـ كـانـتـ القـبـلـةـ الصـحـيـحةـ هـيـ الـكـبـيـةـ، فـلـمـاـ لـمـ يـؤـمـرـ الـمـسـلـمـونـ بـالـصـلـاـةـ نـحـوـهـاـ مـنـذـ الـبـدـءـ، وـإـنـ كـانـتـ بـيـتـ المـقـدـسـ فـلـمـ هـذـاـ التـغـيـيرـ؟ـ!

وـأـعـدـاءـ الإـسـلـامـ وـجـدـواـ فـرـصـةـ سـانـحةـ لـبـثـ سـوـمـهـمـ وـلـإـعـلـامـهـمـ الـمضـادـ. قـالـواـ إـنـ تـغـيـيرـ القـبـلـةـ تـمـ بـدـافـعـ عـنـصـريـ، وـزـعـمـواـ أـنـ النـبـيـ اـتـجـهـ أـوـلـأـ إـلـىـ قـبـلـةـ الـأـنـبيـاءـ السـابـقـينـ، ثـمـ عـادـ إـلـىـ قـبـلـةـ قـوـمـهـ بـعـدـ تـحـقـيقـ اـنـصـارـاتـهـ!ـ وـقـالـواـ إـنـ مـحـمـدـ أـنـهـ يـقـيـنـ أـرـادـ استـطـافـ أـهـلـ الـكـتـابـ بـاـنـتـخـابـهـ بـيـتـ المـقـدـسـ قـبـلـةـ لـهـ، وـلـمـاـ يـئـسـ مـنـهـ استـبـدلـ

الكعبة بها.

واضح مدى القلق والاضطراب الذي تركه هذه الوساوس على مجتمع لم يتغلل نور العلم والإيمان في كل زواياه، ولم يتخلص بعد تماماً من رواسب الشرك والعصبية.

لذلك تصرّح الآية أعلاه أن تغيير القبلة إختبار كبير لتمييز المؤمنين من المشركين.

لا نستبعد أن يكون أحد أسباب تغيير القبلة ما يلي:
لما كانت الكعبة في بداية البعثة المباركة بينماً لأصنام المشركين، فقد أمر المسلمين مؤقتاً بالصلة تجاه بيت المقدس، ليتحقق الإنصال التام بين الجبهة الإسلامية وجبهة المشركين.

وبعد الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، حدث الإنصال الكامل بين الجبهتين، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار وضع القبلة. حينئذ عاد المسلمون إلى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأعرق مركز للأنبياء.

ومن الطبيعي أن يستقل الصلاة نحو بيت المقدس لأولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصيد المعنوي لقوميتهم، وأن يستقلوا أيضاً العودة إلى الكعبة بعد أن اعتادوا على قبّلتهم الأولى (بيت المقدس).

المسلمون بهذا التحرّل وُضعوا في بوقة الإختبار، لتخلصهم مما علق في نفوسهم من آثار الشرك، ولتنقطع كل انشداداتهم بماضيهم المشرك، ولتنمو في وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر الله سبحانه.

إن الله سبحانه ليس له مكان ومعلم - كما ذكرنا - والقبلة رمز لوحدة صفوف المسلمين ولإحياء ذكريات خط التوحيد، وتغييرها لا يغير شيئاً، المهم هو إسلام الكامل أمام الله، وكسر أوثان التعصّب واللجاج والأنانية في النفوس.

٢- الأفة الوسط

«الوسط» ما توسط بين شيئين، وبمعنى الجميل والشريف، والمعنيان يعودان ظاهراً إلى حقيقة واحدة لأن الجمال والشرف فيما اعتقد وابتعد عن الإفراط والتفرط.

ما أجمل التعبير القرآني عن الأمة المسلمة ... الأمة الوسط.

الوسط: المعتدلة في «المقيدة» لا تسلك طريق «الغلو» ولا طريق «التقصير والشرك»، لا تتحوّل منحى «الجبر» ولا «التفويض»، ولا تؤمن «بالتشبه» في صفات الله ولا «بالتعطيل».

مُعْتَدِلَةٌ فِي «القييم المادية والمعنوية» لَا تُغْطِّي فِي عَالَمِ الْمَادِيِّ وَتُنْسِي الْمَعْنَوَيَاتِ، وَلَا تُغْرِقُ فِي الْمَعْنَوَيَاتِ وَتُتَنَسِّي الْمَادِيَاتِ. لِيُسْتَ كَعُمُّظِ الْيَهُودِ لَا يَفْهَمُونَ سُوَى الْمَادِيِّ، وَلِيُسْتَ كَرْهَبَانِ النَّصَارَى يَتَرَكُونَ الدُّنْيَا تَمَامًاً.

مُعْتَدِلَةٌ فِي «الجانب الْعَلَمِيِّ» ... لَا تُرْفَضُ الْحَقَائِقُ الْعَلَمِيَّةُ، وَلَا تَقْبِلُ كُلَّ نَعْرَةٍ تَرْفَعُ بِاسْمِ الْعِلْمِ.

مُعْتَدِلَةٌ فِي «الرَّوابِطِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ» لَا تُضْرِبُ حَوْلَهَا حَصَارًا يَعْزِلُهَا عَنِ الْعَالَمِ، وَلَا تَفْقَدُ اسْتِقْلَالَهَا وَتَذَوَّبُ فِي هَذِهِ الْكِتَلَةِ أَوْ تَلَكَّ، كَمَا نَرَى الْذَّائِبِينَ فِي الشَّرْقِ وَالْغَربِ الْيَوْمِ!

مُعْتَدِلَةٌ فِي «الجانب الْأَخْلَاقِيِّ» ... فِي عِبَادَتِهَا ... فِي تَفْكِيرِهَا ... وَفِي جَمِيعِ أَبْعَادِ حَيَاتِهَا.

الْمُسْلِمُ الْحَقِيقِيُّ لَا يَمْكُنُ إِطْلَاقًا أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا ذَا بَعْدٍ وَاحِدٍ، بَلْ هُوَ إِنْسَانٌ ذُو أَبْعَادٍ مُخْتَلِفةٍ ... مُفْكِرٌ، مُؤْمِنٌ، عَادِلٌ، مُجَاهِدٌ، مَكَافِعٌ، شَجَاعٌ، عَطُوفٌ، وَاعٌ، فَعَالٌ، ذُو سَمَّاحٍ.

عِبَارَةُ الْأَمَّةِ الْوَسْطَ تُوضَّحُ مِنْ جَانِبِ مَسَأَلَةِ شَهَادَةِ الْأَمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، لَأَنَّ مِنْ يَقْفُلُ عَلَى خَطْ الْوَسْطِ يَسْتَطِعُ أَنْ يَشَهِّدَ كُلَّ الْخَطُوطِ الْإِنْعَرَافِيَّةِ الْمُتَجَهَّةِ نَحْوِ

اليمين واليسار.

ومن جانب آخر تحمل العبارة دليلها وتقول: «إِنَّمَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ لَا تَكُونُمْ مُعْتَدِلُونَ وَأَنْكُمْ أُمَّةٌ وَسَطٌ»^١.

٣- الأُفَةُ الشَّاهِدَةُ

لواجتمعت الصفات التي ذكرناها للأمة الوسط في أمّة، فهذه الأمّة دون شك رائدة للحق، وشاهدة على الحقيقة، لأن منهجها تشكل الميزان والمعيار لتمييز الحق عن الباطل.

ورد عن أمّة أهل البيت عليهم السلام قوله: «نَحْنُ الْأُمَّةُ الْوُسْطَى، وَنَحْنُ شُهَدَاءُ اللَّهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ وَجَجَجَهُ فِي لَزْضِهِ ... نَحْنُ الشُّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ ... إِنَّا يَرْجِعُ الْفَالِي وَسَنَا يُرْجِعُ الْمُفْسَرَ»^٢ مثل هذه الروايات - كما ذكرنا - لا تحدد المفهوم الواسع للآية، بل تبين المصدق الأمثل للأمة الوسط، وتعطي نموذجاً متكاملاً لها.

٤- عِلْمُ الله

عبارة «لَنْقُلَمَ مَنْ يَتَبَعُ الرَّسُولَ ...» وأمثالها من التعبيرات القرآنية، لا تعني أن الله لم يكن يعلم شيئاً، تم علم به بعد ذلك، بل تعني تحقق هذه الواقعيات. بعبارة أوضح، الله سبحانه يعلم منذ الأزل بكل الحوادث والموجودات، وإن ظهرت بالتدريج على مسرح الوجود. فحدوث الموجودات والأحداث لا يزيد الله علماً، بل إن هذا الحدوث تحقق لما كان في علم الله. وهذا يشبه علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم. ثم يتحول التصميم إلى بناء عملي. والمهندس يقول حين ينفذ تصميمه على الأرض: أريد أن أرى عملياً ما كان في

علمي نظرياً. (علم الله يختلف دون شك عن علم البشر اختلافاً كبيراً كما ذكرنا ذلك في بحث صفات الله، وإنما ذكرنا هذا المثال للتوضيح).

عبارة «وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ» توضح حقيقة الصعوبة في مخالفة العادة الجارية، وفي التخلص من سيطرة العواطف غير الصحيحة، إلّا على الذين آمنوا بالله حقاً، واستسلموا لأوامره.



الآية

قَدْ نَرَى تَنَلِّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيْتَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا
فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُوا
وُجُوهَكُمْ شَطَرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لَيَغْلَمُونَ أَنَّهُ الْحُقْقُ
مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَنِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٤﴾

التفسير

كل الوجوه شطر الكعبة

ذكرنا أن بيت المقدس كان قبلة الأولى المؤقتة لل المسلمين. والرسول ﷺ كان ينتظر الأمر الإلهي بتغيير القبلة، خاصة وأن اليهود استغلوا مسألة اشتراك المسلمين معهم في القبلة، ليوجهوا سهام إعلامهم المضاد للمجموعة المسلمة، مرددين أن المسلمين لا استقلال لهم، وأنهم لا يعرفون معنى القبلة وإنما اقتبسوا منها، وأن قبولهم قبلتنا يعني اعترافهم بديتنا وأمثال هذه الأقاويل.

الآية تشير إلى هذه المسألة وتقول:

«قَدْ نَرَى تَنَلِّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيْتَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطَرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُوا وُجُوهَكُمْ شَطَرَهُمْ».

ذكرت الرواية - كما أشرنا من قبل - أن هذا الأمر الإلهي نزل في لحظة

حساسة ملفتة للأظفار، حين كان الرَّسُولُ والْمُسْلِمُونَ يؤدون صلاة الظهر. فأخذ جبراينيل بذراع الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأدار وجهه نحو الكعبة. وتذكر الرواية أن صفو المسلمين تغيرت على أثر ذلك، وترك النساء مكانهن للرجال وبالعكس. (كان اتجاه بيت المقدس نحو الشمال تقريباً، بينما كان اتجاه الكعبة نحو الجنوب). من المفيد أن نذكر أنَّ تغيير القبلة من علامات نبي الإسلام المذكورة في الكتب السابقة. فقد كان أهل الكتاب على علم بأن النبي المبعوث «يصلِّي إلى القبلتين».

لذلك تضيف الآية: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَغْلَبُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ». أضف إلى ذلك أن دلائل نبوة رسول الإسلام، تحرره من التأثير بعادات يتبناها الاجتماعية، وتركه الكعبة التي كانت موضع تقديس العرب، واتجاهه نحو قبلة أقلية محدودة.

ثم تقول الآية: «وَمَا أَنَّ اللَّهَ يُغَافِلُ عَمَّا يَعْمَلُونَ».

فهؤلاء الذين يكتمون ما جاء في كتبهم بشأن تغيير قبلة نبي الإسلام، ويستغلون هذه الحادثة لإثارة ضجة بوجه المسلمين، بدل أن يتخدوها دليلاً على صدق دعوى النبي، سيلاقون جزاء أعمالهم، والله ليس بغافل عن أعمالهم ونياتهم.

* * *

بحوث

١- نظم الآيات

محتوى هذه الآية يبيّن بوضوح أنها نزلت قبل الآية التي سبقتها في الترتيب القرآني. ذلك لأن القرآن لم تجمع آياته حسب نزوله، بل كان ترتيب الآيات يتم استناداً إلى مناسبات معينة بتعيين من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبأمر من الباري سبحانه.

(ومن تلك المناسبات مثلاً رعاية الأولوية وأهمية الموضوعات).

٢- انتظار صعباً

يستفاد من هذه الآية أن النبي ﷺ كان مرتبطاً بالкуبة إرتباطاً خاصاً، ومنتظراً لأمر تغيير القبلة، ولعلنا نستطيع أن نتلمس سبب ذلك في إرتباط النبي ﷺ بابراهيم عليهما السلام، أضف إلى ذلك أن الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأنه ﷺ كان يعلم بوقوع هذا التغيير، وكان يتربّع حدوثه.

وهنا تبرز ظاهرة الإسلام المطلق للرسول، حيث لم يتردد على لسانه طلب بهذا الشأن، بل كان يقلب طرفه في السماء منتظراً بتلهف نزول الوحي. وتعبير «السماء» في الآية قد يشير إلى انتظاره هبوط «جبرائيل» من الأعلى، وإلا ف الله لا مكان له، وهكذا وحيه المرسل.

٣- معنى الشطر

يثير الإلتئمات أن الآية لم تأمر المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبة، بل «شطر المسجد الحرام».

لعل ذلك يعود إلى صعوبة بل تعذر محاذاة الكعبة على المصليين البعيدين عن الكعبة. لذلك ذكر المسجد الحرام بدل الكعبة لأنه أوسع، ثم كلمة «شطر» تعني السمت والجانب، وبذلك كان الإتجاه شطر المسجد الحرام عملاً ميسوراً للجميع، وخاصة لصفوف الجماعة الطويلة التي يزيد طولها غالباً على طول الكعبة. بديهي أن المحاذاة الدقيقة للكعبة - وحتى للمسجد الحرام - عمل صعب على المصليين البعيدين، لكن الوقوف شطراه يخلو من كل صعوبة^١.

١- من المفسرين من قال إن أحد معاني «شطر»: النصف، ومن هنا فإن معنوه «شطر المسجد الحرام» يساوي به

٤ - خطاب عام

كل خطابات القرآن هي دون شك - شاملة لكل المسلمين - وإن اتجهت إلى النبي ﷺ (اللهم إلهي في مواضع دل الدليل على أنها خاصة بالنبي)، من هنا يطرح سؤال بشأن سبب اتجاه الآية التي نحن بصددها في الخطاب إلى النبي تارة تأمره أن يصلّي شطر المسجد العرام، وتارة أخرى إلى عامة المسلمين.

هذا التكرار قد يعود إلى أن تغيير القبلة مسألة مثيرة حساسة، ومن الممكن أن تؤدي الضجة التي تثيرها هذه المسألة إلى اضطراب بين المسلمين، وقد يتذرع بعض في وسط هذه الضجة بأن الخطاب «فول وجهك» موجه إلى النبي خاصة، فلا يصلّي تجاه الكعبة. لذلك خاطبت الآية الرسول مرة وعامة المسلمين مرّة أخرى لتأكد أن هذا التغيير غير خاص بالرسول، بل يشمل عامة المسلمين أيضاً.

٥ - هل الهدف من هذا التغيير تحقيق رضى النبي؟

عبارة «قِبَلَةُ تَرْضَاهَا» قد توهم أن هذا التغيير تم إرضاءً للنبي ﷺ، ويزول هذا التوهم لو علمنا أن بيت المقدس كان قبلة مؤقتة، وأن النبي كان ينتظر القبلة النهائية، وبصدور أمر التغيير وضع حد لطعن اليهود من جهة، وتوفرت أرضية استمالة أهل العجائز المرتبطين إرتباطاً خاصاً بالکعبـة نحو الإسلام من جهة أخرى، كما أن إعلان بيت المقدس قبلة أولى أزال عن الإسلام الطابع القومي، وأسقط اعتبار الأصنام المتواجدة في الكعبـة.

٦ - الكعبـة مركز دائرة كبرى

لو نظر شخص من خارج الكرة الأرضية إلى المسلمين المسلمين لرأى دوائر

مفهوم «وسط المسجد العرام» ونعلم أن الكعبـة تقع وسط المسجد العرام. (التفسير الكبير، الفخر الرازي، الآية المذكورة).

متعددة بعضها داخل بعض وتضيق بالتدرج لتصل إلى المركز الأصلي المتمثل بالكعبة. وهذه الصورة توضح محورية ومركزية بيت الله العرام. وهذه ظاهرة مميزة في الإسلام دون سواه من الأديان.

جدير بالذكر أن ضرورة اتجاه المسلمين شطر المسجد العرام كان باعتباره على تطور علم الهيئة وعلم الجغرافيا والذلك عند المسلمين بسرعة مدهشة خلال المصور الإسلامية الأولى، لأن معرفة جهة القبلة في مختلف بقاع الأرض ما كانت متيسّرة من دون معرفة بهذه العلوم.



الآية

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كُلًّا إِيمَانًا مَا تَبِعُوا
قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا يَعْصُمُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ
وَلَئِنْ أَتَبَغَتْ أَهْوَاءُهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمْ
أَظْلِمَنِي ﴿١﴾

التفسير

لا يرضون بأي ثمن

مررنا في تفسير الآية السابقة أن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لا يمكن أن يثير شبهة حول النبي، بل إنه من دلالات صحة دعواه، فأهل الكتاب قد قرأوا عن صلاة النبي الموعود إلى قبلتين، لكن تعصيهم منهم من قبول الحق، والإنسان، حين لا يواجه المسائل بقناعات مسبقة، يكون مستعداً للتفاهم ولتصحيح تصوراته بالدليل والمنطق، أو عن طريق إرادة المعجزة.

أما حينما يكون قد كون له رأياً مسبقاً قاطعاً، وخاصة حين يكون مثل هذا الفرد جاهلاً متعصباً، فلا يمكن تغيير رأيه بأي ثمن.

لذلك تقول الآية: **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كُلًّا إِيمَانًا مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**. فلا تتبع نفسك إذن، لأن هؤلاء يأبون الإستسلام للحق، ولا توجد فيهم روح طلب العقيقة.

كل الأنبياء واجهوا مثل هؤلاء الأفراد، وهم إنما أثرياء متفذون، أو علماء منحرفون، أو جاهلون: متعصبون.

ثم تضييف الآية: «وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ».

أي إن هؤلاء لا يستطيعون مهما أفعلوا من ضجيج، أن يغيروا أمرًا آخرًا قبلة المسلمين، فهذه هي القبلة الثابتة النهاية.

وهذا التعبير القاطع الحاسم أحد سبل الوقوف بوجه الضجيج المفتعل، ومن الضروري في مثل هذه الظروف أن يعلن الإنسان المسلم أمام الأعداء كلامه صريحة قوية، مؤكداً أنه لا ينتهي أمام هذه الإنفعالات.

ثم تقول الآية: «وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ».

لا النصارى بتبعين قبلة اليهود، ولا اليهود بتبعين قبلة النصارى. ولمزيد من التأكيد والحسن ينذر القرآن النبي ويقول: «وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمْنَ الظَّالِمِينَ».

وفي القرآن يكثر مثل هذا اللون من الخطاب التهديدي للنبي بأسلوب القضية الشرطية، والهدف من ذلك ثلاثة أشياء:

الأول: أن يعلم الجميع عدم وجود أي تمييز بين الناس في إطار القوانين الإلهية، وحتى الأنبياء مشمولون بهذه القوانين. ومن هنا فهو صدر عن النبي - على الفرض الحال - إنحراف، فسيشمله العقاب الإلهي، مع استحالة صدور ذلك عن النبي (بعبارة أخرى القضية الشرطية لا تدل على تحقق الشرط).

الثاني: أن يتتبّع الناس إلى واقعهم، فإذا كان ذلك شأن النبي، فمن الأولى أن يكونوا هم أيضاً واعين لمسؤولياتهم، وأن لا يستسلموا إطلاقاً لميول الأعداء وضجأنهم المفتعلة.

الثالث: أن يتضح عدم قدرة النبي على تغيير أحكام الله، وعدم إمكان الطلب إليه أن يغير حكماً من الأحكام، فهو عبد أيضاً خاضع لأمر الله تعالى.

الآياتان

الَّذِينَ هَا أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَغْلِمُونَ ۚ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْمُغَلِّمِينَ ۖ

التفسير

يعرفون حق المعرفة ولكن ...

استمراراً ل الحديث القرآن عن تعصب مجموعة من أهل الكتاب ولجاجهم،
تقول الآية: «الَّذِينَ هَا أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ». إنهم يعرفون النبي ﷺ وأسمه وعلماته من خلال كتبهم الدينية، «وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَغْلِمُونَ».

وهناك طبعاً فريق سارع لاعتناق الإسلام بعد أن رأى هذه الصفات والعلامات فينبي الإسلام، مثل عبد الله بن سلام وهو من علماء اليهود، ونقل عنه بعد إسلامه قوله «أنا أعلم به مني بابني»^١.

هذه الآية تبيّط اللثام في الواقع عن حقيقة هامة، هي إن صفات النبي الإسلام

١- المنار، ج ٢، والتفسير الكبير للبغوي الرازي، في تفسير الآية.

الجسمية والروحية وخصائصه كانت بقدر من الوضوح في الكتب السماوية السابقة، بحيث ترسم الصورة الكاملة في أذهان المعلمين على هذه الكتب. وهل من الممكن أن تصرح الآية بوجود اسم النبي وعلاماته في كتب أهل الكتاب إذا لم تكن بالفعل موجودة عندهم؟! لا يدل عدم معارضته علماء اليهود لهذا التصريح، بل اعتراف بعضهم به واستسلامهم للحق، أن اسم النبي الخاتم وصفاته كانت معروفة لديهم؟!

هذه الآيات -إذن- دليل على صدق دعوة الرّسول وصحة نبوته. ثم تؤكّد الآية ما سبق أن طرحته بشأن تغيير القبلة، أو بشأن أحكام الإسلام بشكل عام: «أَلْهَقُوا مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْمُنْتَرِّينَ» أي المتردددين. وبهذه العبارة ثبتت الآية فواد النبي، وتنبه عن أي تردّي أمام افتراءات الأعداء بشأن تغيير القبلة وغيرها، وإن جنّد هؤلاء الأعداء كل طاقاتهم للمحاربة. المخاطب في الآية وإن كان شخص النبي ﷺ، ولكن الهدف هو تربية البشرية كما ذكرنا من قبل، فمن المؤكد أن النبي المتصل بالوحي الإلهي لا يعتريه تردد، لأن الوحي بالنسبة له ذو جانب حسي وعن البقين.

* * *

الآية

وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُولَّاهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَئِنَّ مَا تَكُونُوا
يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

التفسير

لكل أمة قبلة

هذه الآية الكريمة ترد على الضجة التي أثارها اليهود حول تغيير القبلة وتقول: «وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُولَّاهَا»;

كان للأنبياء على مر التاريخ وجهات عديدة يولونها، وليس القبلة كأصول الدين لا تقبل التغيير، ولا أمراً تكوينياً لا يمكن مخالفته، فلا تطيلوا الحديث في أمر القبلة، وبدل ذلك «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»، لأن معيار القيمة الوجودية للإنسان هي أعمال البر والخير.

مثل هذا المعنى تضمنته الآية ١٧٧ من هذه السورة: «أَيْسَ الْبَرُّ أَنْ شُوَّلَا
وُجُوهُكُمْ قِبْلَةَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبَرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمُلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ».

إن كنتم تريدون اختبار الإسلام أو المسلمين، فاخبروهم بهذه الأمور لا بمسألة تغيير القبلة.

ثم تغير لهجة الآية إلى نوع من التحذير والتهديد لأولئك المفترين، والتشجيع للمحسن فتقول: «أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً» في تلك المحكمة الكبرى حيث يتلقى كلُّ جزاء عمله.

لا يتساوى المفترون والمشاغبون المخربون مع المحسنين المؤمنين، ولا يدأ من يوم ينال كل فريق جزاءه.

وقد يحال بعض أن جمع الناس لمثل هذا اليوم عجيب، فكيف تجتمع ذرات التراب المتناثرة لترتدي ثانية حلَّة الحياة؟! لذلك تعجب الآية بالقول: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

هذه العبارة الأخيرة في الآية بمثابة الدليل على العبارة السابقة: «أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً».

* * *

بحثان

١- يوم يجتمع أصحاب المهدى ﷺ

ورد عن أئمَّة أهل البيت عـلـيـهـمـالـحـلـمـةـ في تفسير «أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً» أن المقصود بهم أصحاب المهدى ﷺ.

من ذلك ما ورد في «روضة الكافي» عن «الإمام الباقي» ^{رض} أنه تلا الفقرة المذكورة من الآية ثم قال: «يغنى أضعاب القائم الثلائة والبغضعة عشر زوجاً، وهم والله الأئمَّة المعدودة». قال: «يغتيمون وأفوه في ساعة واحدة فترى كفرع الخريف»^١.

وروى عن الإمام علي بن موسى الرضا ^ع أيضاً: «وَذَلِكَ وَاللَّهُ أَنَّ لَوْ قَامَ قَائِمًا يجتمعُ اللَّهُ إِلَيْهِ جَمِيعَ شَيْعَتِنَا مِنْ جَمِيعِ الْبَلْدَاتِ»^٢.

١- أي يجتمعون كاجتماع قطع الصحب الغرافية لدى هوب الريح.

٢- نور القلوب، ج ١، ص ١٣٩. ٣- مجمع البيان، الآية.

هذا التفسير للآية دون شك يتحدث عن «بطن» الآية، والأحاديث ذكرت أن لكلام الله ظاهراً لعامة الناس، وباطناً لخاصةهم.

بعباره أخرى؛ هذه الروايات تشير إلى حقيقة، هي إن الله القادر على أن يجمع الناس من ذرات التراب المتباشرة في يوم القيمة، لقادر على أن يجمع أصحاب المهدى في ساعة بسهولة، من أجل انقاذ الشرارة الأولى للشورة العالمية الرامية إلى إقامة حكم الله على ظهر الأرض، وإزالة الظلم والمعدان عن وجهها.

٢ - عباره **«وَلِكُلٌّ وِجْهَةٌ هُوَ مُؤْلِيهَا»** فسرناها سابقاً بأنها إشارة للقبلات المتعددة للأمم. ومن المفسرين من توسع في المعنى وقال إنها تعبر عن القضاء والقدر التكوينيين أيضاً (تأمل بدقة!).

ولو خلت الآية مما يحيطها من قرائين قبلها وبعدها لأمكن مثل هذا التفسير، لكن القرآن تدل على أن المراد هو المعنى الأول. ولو افترضنا أن الآية تشير إلى المعنى الثاني، فلا تعني إطلاقاً القضاء والقدر الجبريين، بل القضاء والقدر المنسجمين مع الإرادة والإختيار^١.

* * *

١ - تفسير الميزان، ج ١، ص ٣٢١.

٢ - لمزيد من التوضيح راجع (انكىزه بيدايش مذهب) = دافع وجود الدين، فصل القضاء والقدر.

الآيات

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلْ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَنِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ④ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلْ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُوا وُجُوهَكُمْ شَطَرَهُ لِئَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشُوْهُمْ وَأَخْشُوْنِي وَلَا إِنَّمَا نَسْعَى عَلَيْكُمْ وَلَقَلَّكُمْ شَهِيدُونَ ⑤

التفسير

الخوف من الله فقط

هذه الآيات تتبع الحديث عن مسألة تغيير القبلة وتنتائجها.

آلية الأولى تأمر النبي ﷺ وتقول: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ»... من آية مدينة، وأية ديار «فَوَلْ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ». ولمزيد من التأكيد تقول الآية: «وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ».

وتنتهي الآية بتهديد المتأمرين: «وَمَا اللَّهُ بِغَنِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

هذه التأكيدات المتواتلة في الآية وفي الآية التالية تبيّن أن مسألة تغيير القبلة كانت صعبة ونقيلة على مجموعة من المسلمين حديثي العهد بالإسلام، كما كانت

ذرية بيد أعداء الإسلام اللجوجين لبث سموهم. مثل هذه الحالة تتطلب دائماً موقفاً قاطعاً حاسماً ينهي كل شك ورببة، من هنا توالت التأكيدات القرآنية القارعة لتبعث العزم واليقين في نفوس الأتباع، وتعمق اليأس والخيبة بين الأعداء. وهذا أسلوب اتبعه القرآن في موقف عديدة. إضافة إلى ما سبق، فالتكرار في هذه الآيات يتضمن أيضاً أحكاماً جديدة. على سبيل المثال، الآيات السابقة وضحت حكم القبلة في المدينة التي يسكنها المسلمون. وهذه الآية والأية التاليةأوضحت الحكم لدى السفر والخروج من المدن والديار.

الآية التالية كررت الحكم العام بشأن التوجه إلى المسجد الحرام في أي مكان: «وَمِنْ خَيْثُ خَرَجْتَ فَوْلُ وَجْهَكَ شَطْرُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ». صحيح أن هذه العبارة القرآنية تخاطب النبي ﷺ، لكنها تقصد دون شك مخاطبة عامة المسلمين، ولمزيد من التأكيد تخاطب الجملة التالية المسلمين وتقول: «وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرَهُ».

تم تشير الآية إلى ثلاث مسائل هامة:

١- إلحاد المعارضين - تقول الآية: «إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ». قبل تغيير القبلة كانت السنة المعارضين من اليهود والشركين تقذف المسلمين باليتهم والحجج، اليهود يعترضون قائلين: إن النبي الموعود يصلى إلى قبلتين، وهذه العلامة غير متوفرة في محمد ﷺ، والشركون يعترضون على النبي ﷺ قائلين: كيف ترك محمد الكعبة وهو يدعي أنه بعث لإحياء ملة إبراهيم. هذا التغيير أنهى كل هذه الاعتراضات.

لكن هذا لا يمنع الأفراد اللجوجين المعاندين أن يصرروا على مواقفهم، وأن يرفضوا كل منطق، لذلك تقول الآية: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ». فهو لا يستقيمون على طريق، حتى اتجهتم صوب بيت المقدس للصلوة

اتهومكم بالذبالة وعدم الأصالة، وحين عدلتم إلى الكعبة وصفوكم بعدم البابات! هؤلاء المفترون ظالمون حقاً ... ظالمون لأنفسهم، وظالمون لمن يقطعون عليه طريق الهدى.

٢ - حين وصف الآية هؤلاء المعاندين أنهم ظالمون، فقد يشير هذا الوصف خوفاً في نفوس البعض لذلك قالت الآية: **﴿فَلَا تَخْشُوْهُمْ وَأَخْشُوْنِي﴾**. وهذه الفقرة من الآية تطرح أصلاً عاماً أساسياً من أصول التربية التوحيدية الإسلامية، هو عدم الخوف من أي شيء سوى الله (أو بعبارة أصح الخوف فقط من معصية الله)، وإذا ترسخ هذا المبدأ التربوي في نفوس الجماعة المسلمة، فلن تفشل ولن تنهرم قط.

أما المتظاهرون بالإسلام فهم يخافون من «الشرق» تارة، ومن «الغرب» تارة أخرى، ومن «المنافقين الداخلين» ومن «الأعداء الخارجيين» ومن كل شيء سوى الله. وهؤلاء دائمًا أذلاء ضعفاء مهزومون.

٢- آخر هدف ذكر لتغيير القبلة هو إبعام النعمة: **«وَلَا تُمْنِعُنِي عَلَيْكُمْ وَلَقَلْكُمْ تَهْتَدُونَ»**.

تغير القبلة كان في الواقع نوعاً من التربية والتكامل والنعمه لل المسلمين كي يتعرفوا على الانضباط الإسلامي ويتخلصوا من التقليد والتعصب، فالله سبحانه أمر المسلمين في البداية أن يصلوا تجاه بيت المقدس كي تتعزل صفوف المسلمين - كما قلنا - عن صفوف المشركين الذين كانوا يقدسون الكعبة. وبعد الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية صدر الأمر بالصلاحة نحو الكعبة ... نحو أقدم بيت توحيدى، وبذلك تحقق اجتياز مرحلة من مراحل تكامل المجتمع الإسلامي.

• • •

الآيات

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مَّنْكُمْ يَتَلَوَّ عَلَيْهِمْ إِذَا سِنَّا
وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُهُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ ﴿١٩٨﴾ فَإِذْ كُرِّبُونِيْ أَذْكُرُهُمْ وَأَشْكُرُهُمْ وَلَا تَكُفُّرُونِ ﴿١٩٩﴾

التفسير

مهمة رسول الله:

ذكرت الفقرة الأخيرة من الآية السابقة أن أحد أسباب تغيير القبلة هو إتمام النعمة على الناس وهدائهم، والآية أعلاه ابتدأت بكلمة «كما» إشارة إلى أن تغيير القبلة ليس هو النعمة الوحيدة التي أنعمها الله عليكم، بل من علیكم بنعم كثيرة «كما أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مَّنْكُمْ».

كلمة «منكم» قد تعني أن الرسول بشرًا مثلكم، والإنسان وحده هو القادر على أن يكون مربي البشر وقدوتهم وأن يتحسس آمالهم وألامهم، وتلك نعمة كبرى أن يكون الرسول بشراً «منكم».

وقد يكون المعنى أنه منبني قومكم ووطنكم، فالعرب الجاهاليون قوم متغصبون عنصريون. وما كان بالإمكان أن يخضعوا النبي من غير قومهم، كما قال سبحانه في الآيتين: (١٩٨ و ١٩٩) من سورة الشعرا: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ

الأَغْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ).

كان هذا طبعاً المرحلة الأولى من الدعوة، وفي المراحل التالية أُقيمت مسائل القومية والوطن (الجغرافي)، وربّي الإسلام أبناءه على أساس مبادئ «العالمية» كوطن، و«الإنسانية» كقومية.

بعد ذكر هذه النعمة يشير القرآن إلى أربع نعم عادت على المسلمين ببركة هذه النبي ﷺ:

١ - **«يَتَلَوُ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا**»، ويتلوا من التلاوة، أي من إتيان الشيء متوايلاً، والإتيان بالعبارات المتواالية (وبنظام صحيح) هي التلاوة.

النبي ﷺ إذن يقرأ عليكم آيات الله متالية، لتنفذ إلى قلوبكم، ولإعداد أنفسكم إلى التعليم والتربية.

٢ - **«وَيُزَكِّيْكُمْ**.

و«الزكية» هو الزيادة والإ إنماء، أي إن النبي بفضل آيات الله يزيدكم كما لا ماديًّاً ومعنوياً، وينتهي أرواحكم، ويرثي في أنفسكم الظهر والفضيلة، ويزيل ألوان الرذائل التي كانت تغمر مجتمعكم في العاھلية.

٣ - **«وَيَعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**.

التعليم طبعاً مقدم بشكل طبيعي على التربية، ولكن القرآن - كما ذكرنا - يقدم التربية في مواضع تأكيداً على أنها هي الهدف النهائي.

الفرق بين «الكتاب» و«الحكمة» قد يكون بلحاظ أن الكتاب إشارة إلى آيات القرآن والوحى الإلهي النازل على النبي بشكل إعجازي، والحكمة حديث النبي ﷺ وتعاليمه المسماة بالسنة.

وقد يكون الكتاب إشارة إلى أصل التعاليم الإسلامية، والحكمة إشارة إلى أسرارها وعللها ونتائجها.

ومن المفسرين من احتمل أن «الحكمة» إشارة إلى الحالة والملكة الحاصلة من تعاليم الكتاب. وبامتلاكها يستطيع الفرد أن يضع الأمور في نصابها! صاحب «المنار» يرفض أن يكون معنى الحكمة «السنة»، ويستدل على رفضه بالآية الكريمة «ذَلِكَ مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ»^٢.

لكتنا نعتقد أن الحكمة لها معنى واسع يشمل الكتاب والسنة معاً، أما استعمالها القرآني مقابل «الكتاب» (كما في هذه الآية) فيشير إلى أنها «السنة» لا غير.

٤ - **وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** وهذا الموضوع طرحته الفقرات السابقة من الآية، حيث دار الحديث عن تعليم الكتاب والحكمة. لكن القرآن عاد فأكمل ذلك في فقرة مستقلة تبيّناً على أن الأنبياء هم الذين يبيّنون لكم المعارف والعلوم، ولو لاهم لخفي كثير من ذلك عليكم. فهم لم يكونوا قادة أخلاقيين واجتماعيين فحسب، بل كانوا هداة طريق العلم والمعرفة، وبدون هدايتهم لم يكتب النضج للعلوم الإنسانية.

بعد استعراض جانب من النعم الإلهية في الآية، تذكر الآية التالية أن هذه النعم تستدعي الشكر، وبالاستناد إلى الصيغة من هذه النعم يؤدي الإنسان حق شكر البارئ تعالى: **فَإِذَا ذُكِرْتُمْ فَذَكِّرُوهُنِّي وَأَشْكُرُوا هُنَّى وَلَا تَكُفُّونَ**.

واضح أن عبارة **فَإِذَا ذُكِرْتُمْ فَذَكِّرُوهُنِّي** لا تشير إلى معنى عاطفي بين الله وعباده كما يقول الناس لبعضهم ذلك. بل تشير إلى أصل تربوي وتكويني، أي ذكروني ... اذكروا الذات المقدسة التي هي معدن الخيرات والحسنات والمبرات ولتطهير أرواحكم وأنفسكم، وتكون قابلة لشمول الرحمة الإلهية. ذكركم لهذه الذات المقدسة يجعل تحرركم أكثر إخلاصاً ومضاء وقوّة واتحاداً.

كذلك المقصود من **«الشُّكْرُ وَدُمُّ الْكُفَّارِ»** ليس تحريك اللسان بعبارات

الشكر، بل المقصود استثمار كل نعمة في محلها وعلى طريق نفس الهدف الذي خلقت له، كي يؤدي ذلك الى زيادة الرحمة الإلهية.

* * *

بحثان

١- أقوال المفسرين في تفسير «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ»
للمفسرين آراء متنوعة في تفسير هذه الآية، وفي بيان كيفية ذكر العبد وذكر الله.

الفخر الرازي في تفسيره لخصها في عشرة:

- ١- أذكروني «بالإطاعة» كي أذكركم «برحمتي». والشاهد على ذلك قوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُنْهَمُونَ»^١.
- ٢- أذكروني «بالمدح» كي أذكركم «بالإجابة»، دليل ذلك قوله تعالى: «أَدْعُونِي أَشْتَجِبْ لَكُمْ».
- ٣- أذكروني «بالثناء والطاعة» لأذكركم «بالثناء والنعمة».
- ٤- أذكروني في «الدنيا» لأذكركم في «الآخرة».
- ٥- أذكروني في «الخلوات» كي أذكركم في «الجمع».
- ٦- أذكروني «لدى وفور النعمة» لأذكركم في «الصعب».
- ٧- أذكروني «بالعبادة» لأذكركم «بالعون»، والشاهد على ذلك قوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَغْفِرُ».
- ٨- أذكروني «بالمجاهدة» لأذكركم «بالهدایة»، الشاهد على ذلك قوله

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ١ سبحانه في الآية ٦٩ من سورة العنكبوت: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَّهُمْ سُبُّلَنَا». ٩ - أذكروني «بـالصدق والإخلاص» لأذركم «بالخلاص ومزیداً للإختصاص».

١٠ - أذكروني «بالربوبية» لأذركم بالرحمة. دليل ذلك مجموع آيات سورة الحمد.^١

كل واحدة من التفاسير المذكورة هي طبعاً مظهر من مظاهر المعنى الواسع للآية. ولا تقترن هذه المظاهر على ما سبق فيشمل المعنى أيضاً: أذكروني «بـالشكر» لأذركم «بـزيادة النعمة» كما ورد في قوله سبحانه: «لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»^٢

كل ذكر الله - كما قلنا - له أثر تربوي في وجود الإنسان إذ يجعل روحه مستعدة لنزول بركات جديدة متناسبة مع طريقة الذكر.

٢- المقصود من ذكر الله

من المؤكد أن ذكر الله ليس بتحريك اللسان فقط، بل اللسان ترجمان القلب، الهدف هو التوجّه بكل الوجود إلى ذات الباري سبحانه، ذلك التوجّه الذي يصون الإنسان من الذنب ويدعوه إلى الطاعة.

ومن هنا ورد في أحاديث عديدة عن المعصومين: أن ذكر الله ليس باللسان فحسب، ومن ذلك حديث عن الرسول ﷺ يوصي به علياً قائلاً: «ثَلَاثٌ لَا تُطِيقُهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ: الْمُوَاتَاهُ لِلْأَخِي فِي مَالِهِ، وَإِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَسْبِهِ، وَذِكْرُهُ

١- التفسير الكبير، الفخر الرازي، ج ٤، ص ١٤٤، مع شيء من التصرف.

٢- إبراهيم، ٧.

الله على حال، ولَيْسْ هُوَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا حَمْدُ لَهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَكِنْ إِذَا وَرَدَ عَلَى مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ خَافَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَهُ وَتَرَكَهُ»^١.

على أية حال، لا ينبغي أن نغفل عن الروعة في هذا الإقتران ... الله سبحانه على عظمته وجلاله وجبروته يقرن ذكره بذكر عبده الضعيف المحدود الصغير، إنه تكرييم ما بعده تكرييم للإنسان.

* * *

الآيات

يَتَأْكِلُهَا الَّذِينَ ءاْمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٥﴾ وَلَا تَقُولُوا إِنَّمَا يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَخْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦﴾

سبب النزول

روي عن ابن عباس بشأن نزول الآية الثانية إنها نزلت في قتلى بدر، وعددهم أربعة عشر، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. وبعد انتهاء الغزوة قال بعض المسلمين عن هؤلاء الشهداء إنهم «أموات» فنفت الآية عن ذلك.

التفسير

الشهداء أحياء

الآيات السابقة عرضت مفاهيم التعليم والتربيـة والذكر والشكر، وهي مفاهيم ذات معنى واسع جداً، وتتضمن أغلب التعاليم الدينية، وفي الآية الأولى من آياتيـة بحثنا دار الحديث حول الصبر الذي لا تتحقق المفاهيم السابقة بدونه.

تقول الآية أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ». واجهوا المشاكل والصعاب بهاتين القوتين، فالنصر حليفكم: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ).

خلافاً لما يتصور بعض الناس «الصَّبر» لا يعني تحمل الشقاء وقبول الذلة والإسلام للعوامل الخارجية، بل الصبر يعني المقاومة والثبات أمام جميع المشاكل والحوادث.

لذلك قال علماء الأخلاق إن الصبر على ثلاثة شعب:
 الصبر على الطاعة: أي المقاومة أمام المشاكل التي تعترى طريق الطاعة.
 الصبر على المعصية: أي الثبات أمام دوافع الشهوات العادمة وارتكاب المعصية.

الصبر على المصيبة: أي الصمود أمام الحوادث المرأة وعدم الإنهايار وترك الجزء والفرز.

قلما كرر القرآن موضوعاً وأكده عليه كموضوع «الصبر»، ففي سبعين موضعاً قرآنياً تقربياً دار الحديث عن الصبر. بينها عشرة تختص وبالتالي ^{بـ} بالثبات.
 تاريخ العظماء يؤكد أن أحد عوامل انتصارهم - بل أهمها - صبرهم واستقامتهم. والأفراد الفاقدون لهذه الصفة سرعان ما ينهزمون وينهارون. ويمكن القول أن دور هذا العامل في تقدم الأفراد والمجتمعات يفوق دور الإمكانيات والكفاءات والذكاء ونظائرها.

من هنا طرح القرآن هذا الموضوع بعبارات مؤدية كقوله تعالى: «إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْزِئُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»^١
 وفي موضع آخر يقول سبحانه بعد أن ذكر الصبر أمام الحوادث: «إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»^٢

من خصائص الصبر أن بقية الفضائل لا يكون لها قيمة بدونه، لأن السد

والرصيد في جميعها هو الصبر، لذلك يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وَعَلَيْكُمْ بِالصَّابَرِ فَإِنَّ الصَّابَرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَائِنٌ أَمْ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا خَيْرٌ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسٌ مَقْعَدٌ وَلَا فِي إِيمَانٍ لَا صَبَرٌ مَقْعَدٌ».^١

الروايات الإسلامية ذكرت أن أسمى مراحل الصبر ضبط النفس تتجلّى في مقاومة الإنسان عند توفر وسائل المعااصي والذنوب.

الآية التي يدور حولها بحثنا تؤكد للجماعة المسلمة الثائرة في صدر الإسلام خاصة أن الأعداء يحيطونهم من كل حدب وصوب، وتأمّلهم أن يستعينوا بالصبر أمام العوادث، فنتيجة ذلك استقلال الشخصية والإعتماد على النفس والثقة بالذات في كف الإيمان باشة. وتاريخ الإسلام يشهد بوضوح أن هذا الأصل كان أساس كل الانتصارات.

الموضوع الآخر الذي أكدت عليه الآية أعلاه باعتباره السند الهام إلى جانب الصبر هو «الصلاوة». وروي أن علي عليهما السلام: «كَانَ إِذَا أَهَانَهُمْ قَرْعٌ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ ثُمَّ تَلَّهُ هُذِيَ الْأَيَّةُ: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّابَرِ وَالصَّلَاةِ...».^٢

ولا عجب في ذلك، فالإنسان حين يرى نفسه أمام عواصف المشاكل المضنية، ويحسّ بضعفه في مواجهتها، يحتاج إلى سند قوي لا متناه يعتمد عليه. والصلاحة تحقق الارتباط بهذا السند، وتخلق الطمأنينة الروحية الازمة لمواجهة التحديات.

فالآية أعلاه تطرح مبدأين هامين: الأول - الإعتماد على الله، ومظهره الصلاة، والآخر - الإعتماد على النفس، وهو الذي عبرت عنه الآية بالصبر. وبعد ذكر الصبر والإستقامة تتحدث الآية التالية عن خلود الشهداء، الذين يجسدون أروع نماذج الصابرين على طريق الله.

تقول الآية: «وَلَا تَقُولُوا مَنْ يَقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ» ثم تؤكد هذا المفهوم ثانية بالإستدراك «بَلْ أَحْيَاهُ وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ».

في كل حركة - أساساً - تنزوzi مجموعة محبة للغاية، وتبتعد عن الأمة التائرة، ولا تكتفى هي بالتقاعس والتکاسل، بل تسعى إلى تبييض عزائم الآخرين وبث الرخوة والتماهل في المجتمع. وما أن تظهر حادثة مؤلمة حتى يعربون عن أسفهم وينقمون على الحركة التي أدت إلى هذه الحادثة، غافلين أن كل هدف مقدس يحتاج إلى تضحيات، وتلك سنة كونية.

القرآن الكريم يتحدث عن مثل هذه الفتنة كراراً ويؤذن لهم بشدة.

ثمة أفراد من هؤلاء كانوا يتظاهرون بالتأسف والتالم على (موت) شهيد من شهداء الإسلام في المعركة، ويعانون بذلك القلق والاضطراب في النفوس. والله سبحانه يرد على هذه الأقاويل السامة بالكشف عن حقيقة كبرى هي إن الذين يضحون بأنفسهم في سبيل الله ليسوا بأموات ... هؤلاء أحياء ... ويتعمدون بنعم الله ورضوانه، لكن البشر المحدودين في عالم العُّـن لا يدركون هذه الحقائق.

* * *

بحوث

١- خلود الشهداء

للمسيرين آراء مختلفة في معنى حياة الشهداء وخلودهم. ظاهر الآية يشير دون شك إلى أنهم يتمتعون بنوع من الحياة البرزخية الروحية، لأن أجسامهم قد تلاشت، فهم يعيشون تلك الحياة بجسم مثالي^١ كما يقول الإمام الصادق عليه السلام^٢.

١- سترح ذلك في تفسير الآية ١٠٠ من سورة (المؤمنون). «وَمَنْ وَرَأَهُمْ بِرَزْخٍ إِلَى يَوْمٍ يَعْتَنُونَ».

٢- تفسير نور التقلىن، ج ٣، ص ٥٥٩.

من المفسرين من قال إنها «حياة غيبة» خاصة بالشهداء لا تتوفّر لدينا تفاصيلها وخصائصها.

وقيل إن الحياة المذكورة في الآية تعني الهدایة، والموت يعني الضلال، فتكون الآية قد نهت عن وصف الشهداء بالضلال، بل هم مهتدون. وقيل إن الشهداء أحياء لأن هدفهم حي ورسالتهم حية.

ولكن مع الاخذ بنظر الاعتبار التفسير الأول للحياة يتضح أن المعانى في الآخرى غير مقبولة. فلا حاجة لأن تتكلّف التفسيرين التاليين، ولا أن الحياة البرزخية مختصة بالشهداء، فهم يحيون حياة بروزخية روحانية، ويستعمون كذلك بالقرب من رحمة الله وبأنواع نعمه.

٢- الشهادة سعادة في الإسلام

قرر الإسلام مسألة الشهادة ويبين منزلتها العظيمة في الآية أعلاه وأيات أخرى لتكون عاملًا فعاليًا على ساحة المواجهة بين الحق والباطل. وهذا العامل أمضى من أي سلاح وأقوى من كل المؤثرات، وهو قادر على أن يجاهه أخطر الأسلحة وأفتكها في عصرنا الراهن، وتجربة الثورة الإسلامية في إيران أثبتت ذلك بوضوح. وقد شاهدنا بأم أعيننا إنتصار المندفعين نحو الشهادة - بالرغم من ضعف إمكاناتهم المادية - على أعلى القوى المتجمّرة.

ولو أقينا نظرة على تاريخ الإسلام، والملاحم التي سطّرها المسلمين في جهادهم الدائمي، والتضحيات التي قدمها المجاهدون على طريق الرسالة، لائفينا أن الدافع الأساس لكل هذه التضحيات هو درس الشهادة الذي لقنه الإسلام لأبنائه، وبموجبه آمنوا أن الشهادة على طريق الله وطريق الحق والمعدالة لا تعنى النقاء، بل السعادة والحياة الخالدة.

المقاتلون الذين تلقوا مثل هذا الدرس في مثل هذه المدرسة الكبرى، لا

يُقاسون بالمقاتلين العاديين الذين ينفّرون في صيانة أرواحهم. أولئك يحاربون من أجل الرسالة ويندفعون بشوق عظيم نحو كسب وسام الشهادة.

٣- الحياة البرزخية وبقاء الروح

هذه الآية تثبت بوضوح بقاء الروح والحياة البرزخية للبشر (الحياة بعد الموت وقبلبعث)، وتؤكّد بصرامة على أولئك الذين ينكرون تعرض القرآن للحياة البرزخية وبقاء الروح.

سنفصل الحديث في هذا الموضوع، وفي موضوع خلود الشهداء ومتزلّتهم العظيمة، في المجلد الثاني من هذا التفسير عند تناولنا الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.



الآيات

وَلَنَبْلُونَكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُمُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفُسِ وَالْأَنْزَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ
مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَجُعُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ
مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهَدُّدُونَ ﴿٨﴾

التفسير

الدنيا دار اختبار إلهي

بعد ذكر مسألة الشهادة في سبيل الله، والحياة الخالدة للشهداء، ومسألة الصبر والشك ... وكلها من مظاهر الإختبار الإلهي، تعرضت هذه الآية للإختبار الإلهي العام، ولمظاهره المختلفة، باعتباره سنة كونية لا تقبل التغيير «وَلَنَبْلُونَكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُمُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْأَنْزَاتِ».

ولما كان الانتصار في هذه الإختبارات، لا يتحقق إلا في ظل الثبات والمقاومة، قالت الآية بعد ذلك «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ».

فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الإمتحانات،

لا غيرهم.

الآية التالية تعرف الصابرين وتقول: «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ

وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

الإقرار التام بالعبودية المطلقة لله، يعلمنا أن لا نحزن على ما فاتنا، لأنه سبحانه مالكتنا ومالك جميع ما لدينا من موهاب، إن شاء منحنا إياها، وإن استوجب المصلحة أخذها منا، وفي المنحة والمحنة مصلحة لنا.

والإلتقاء المستمر إلى حقيقة عودتنا إلى الله سبحانه، يشعرنا بزوال هذه الحياة، وبأن نقص المواهب المادية ووفرها غرض زائل، ووسيلة لارتفاع الإنسان على سلم تكامله، فاستشعار العبودية والعودة في عبارة «إِنَّا لِهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» له الأثر الكبير في تعميق روح المقاومة والإستقامة والصبر في النفس. واضح أن المقصود من قول هذه العبارة ليس ترديدها باللسان فقط، بل استشعار هذه الحقيقة، والإلتقاء إلى ما تنطوي عليه من توحيد وإيمان.

وآخر آية في بحثنا هذا، تتحدث عن الألطاف الإلهية الكبرى، التي تشمل الصابرين الصامدين المتخرجين بنجاح من هذه الامتحانات الإلهية: «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ»^١.

هذه الصلوات والرحمة تجعل هؤلاء على بصيرة من أمرهم، في مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق والأخطار، لذلك تقول الآية: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهَتَّدُونَ». وبهذه العبارات المختصرة المقتضبة، يطرح القرآن مسألة الامتحان الكبير بأبعاد المختلفة، وعوامل النجاح فيه ونتائجها.

* * *

١ - قيل إن الصلوات هنا ألوان التكريم والتأييد ورفعة المقام، وعن ابن عباس أنها غفران الذنوب (المختار، ج ٢، ص ٤٠)، وواضح أن الصلوات لها مفهوم واسع يشمل هذه الأمور وسائر النعم الإلهية.

بحوث

١ - لماذا الإختبار الإلهي؟

في مجال الإختبار الإلهي تطرح بحوث كثيرة، وأول ما يتadar للذهن في هذا المجال هو سبب هذا الإختبار. فنحن نختبر الأفراد لنفهم ما نجهله عنهم. فهل أن الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى مثل هذا الإختبار لعباده، وهو العالم بكل الغمايا والأسرار؟! وهل هناك شيء خفي عنه حتى يظهر له بهذا الامتحان؟!

والجواب أن مفهوم الإختبار الإلهي يختلف عن الإختبار البشري. إختباراتنا البشرية - هي كما ذكرت آنفاً - تستهدف رفع الإبهام والجهل، والإختبار الإلهي قصده «التربية».

في أكثر من عشرين موضعًا تعدد القرآن عن الإختبار الإلهي، باعتباره سنة كونية لا تنقض من أجل تفجير الطاقات الكامنة، وتقليلها من القوة إلى الفعل، وبالتالي فالإختبار الإلهي من أجل تربية العباد، فكما أن الفولاذ يستخلص من شوائبه عند صهره في الفرن، كذلك الإنسان يخلص وينقى في خضم الحوادث، ويصبح أكثر قدرة على مواجهة الصعاب والتحديات.

الإختبار الإلهي يشبه عمل زارع خير، ينشر البذور الصالحة في الأرض الصالحة، كي تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعة وتبداً بالنمو، ثم تصارع هذه البذرة كل المشاكل والصعاب بالتدريج، وتسقاوم الحوادث المختلفة كالرياح العاتية والبرد الشديد والحر اللافح، لتخرج بعد ذلك بنتة مزهرة أو شجرة مثمرة، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب.

ومن أجل تصعيد معنويات القوات المسلحة، يؤخذ الجنود إلى مناورات وحرب إصطناعية، يعانون فيها من مشاكل العطش والجوع والحر والبرد والظروف الصعبة والحواجز المنيعة. وهذا هو سرُّ الإختبارات الإلهية.

يقول سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز: «وَلَيَسْتَأْنِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيَمْحُصَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»^١.

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في بيان سبب الإختبارات الإلهية: «... قَدْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ، وَلَكِنَّ لِتَظَاهَرِ الْأَفْعَالُ الَّتِي يَهْتَاجُ إِلَيْهَا يُسْتَحْقَقُ التَّوَابُ وَالْعِقَابُ»^٢. أي أن الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معياراً للثواب والعقاب، فلا بد أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، والله يختبر عباده ليتجلى ما يضمروننه في أعمالهم، ولكي تنتقل قابلياتهم من القوة إلى الفعل، وبذلك يستحقون الثواب أو العقاب.

لو لم يكن الإختبار الإلهي لما تفجرت هذه القابليات، ولما أمرت الكفاءات، وهذه هي فلسفة الإختبار الإلهي في منطق الإسلام.

٢- الإختبار الإلهي عام

نظام الحياة في الكون نظام تكامل وتربيـة، وكل الموجودـات الحية تطـوي مـسـيرـة تـكـاملـها، حتى الأشـجار تـعبـر عن قـابـليـاتـها الكـامـنةـ بالـأـثـمارـ، منـ هـنـاـ فـإـنـ كـلـ البـشـرـ، حتى الأنـبـيـاءـ، مـشـمـولـونـ بـقـانـونـ الإـخـتـارـ الإـلـهـيـ كـيـ تـنـجـليـ قـدـراتـهـمـ. الـإـمـتـاحـاتـ تـشـمـلـ الـجـمـيعـ وـإـنـ اـخـتـلـفـ شـدـدـتـهـاـ وـبـالـتـالـيـ تـخـتـلـفـ نـتـائـجـهـاـ أـيـضـاـ، يـقـولـ سـبـحـانـهـ: «أـخـسـبـ النـاسـ أـنـ يـتـرـكـوـاـ أـنـ يـقـولـواـ آـمـنـاـ وـهـمـ لـاـ يـفـتـشـونـ»^٣. الـقـرـآنـ يـعـرـضـ نـمـاذـجـ لـإـخـتـارـاتـ الـأـنـبـيـاءـ إـذـ يـقـولـ: «وـإـذـ اـتـلـ إـبـرـاهـيمـ رـبـهـ»^٤. وـيـقـولـ فـيـ مـوـضـعـ آـخـرـ بـشـأنـ إـخـتـارـ سـلـيـمانـ: «فـلـمـ زـاهـ مـسـتـقـرـاـ عـنـهـ قـالـ: هـذـاـ مـنـ فـضـلـ رـبـيـ لـيـتـلـوـنـيـ، أـشـكـرـ أـمـ أـكـفـرـ ...»^٥.

١- نهج البلاغة، الكلمات الفصار، رقم ٩٢

٢- آل عمران، ١٥٤

٣- المنكوبـ، ٤٢

٤- البقرة، ١٢٤

٥- التملـ، ٤٠

٣- طرق الإختبار

ذكرت الآية أعلاه نماذج مما يختبر به الإنسان، كالخوف والجوع والأضرار المالية والموت ... لكن سبل الإختبار الإلهي لا تنحصر بما تقدم فذكر القرآن منها في موضع آخر: البنين، والأنبياء، وأحكام الله، بل حتى بعض ألوان الرؤيا: «وَبَنَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ»^١.

نعلم أن الناس إزاء الإختبارات الإلهية على نوعين: متفوق في الامتحان، وخاسر.

فحينما تسود حالة «الخوف» مثلاً، ترى جماعة يتراجعون كي لا يصيّبهم سوء، فينفضون أيديهم من المسؤولية، أو يلتجأون إلى المداهنة أو التماس الأعذار، كقولهم الذي يحكى القرآن: «تَعْشَى أَنْ تُصْبِتَنَا دَائِرَةً»^٢.

ونمة جماعة تتفى كالطود الأشم أمام كل المخاوف، تزداد توكلًا وإيماناً، وهؤلاء الذين يقول عنهم القرآن: «أَلَذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ، فَزَادُهُمْ إِعْنَانًا وَقَالُوا حَسْبَنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^٣.

وهكذا موقف الناس من ألوان الامتحانات الأخرى، يعرض القرآن نماذج لموقف الناجحين والفاشلين في الإختبار الإلهي، سنتناولها في مواضعها.

٤- عوامل النجاح في الامتحان

هنا يتعرض الإنسان لاستئهام آخر، وهو أنه اذا كان القرار أن يتعرض جميع أفراد البشر للامتحان الإلهي، فما هو السبيل لاحراز النجاح والتوفيق في هذا الامتحان؟ القرآن يعرض هذه السبيل في القسم الأخير من آية بحثنا وفي آيات أخرى:

١- الأنبياء، ٥٢.

٢- العنكبوت، ١٧٣.

٣- آل عمران، ١٧٣.

١- أهم عامل للانتصار أشارت إليه الآية بعبارة: «وَبَشَّرَ الصَّابِرِينَ»، فالآية تبشر بالنجاح أو لئن الصابرين المقاومين، ومؤكدة أن الصبر رمز الانتصار.

٢- الالتفات إلى أن نكبات الحياة ومشاكلها مهما كانت شديدة وقاسية فهي مؤقتة وعابرة وهذا الادراك يجعل كل المشاكل والصعاب عرضاً عابراً وسحابة صيف، وهذا المعنى تضمنته عبارة: «إِنَّ اللَّهَ وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

«كلمة الاسترجاع» هذه خلاصة كل دروس التوحيد، والانقطاع إلى الله، والإعتماد على ذاته المقدسة في كل شيء وفي كل زمان، وأولياء الله ينطلقون من هذا التعليم القرآني، فيسترجعون لدى المصائب كي لا تهزهم الشدائـد، وكـي يجتازوا مرحلة الاختبار بسلام في ظل الإيمان بـمالكـة الله والرجوع إليه.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في تفسير الإسترجاع: «إن قولنا: إنا لله أقربُّ از على أئمَّتنا باللهِ، وقولنا: إنا إلينه راجعون أقربُّ از على أئمَّتنا باللهِ». ^١

٣- الاستمداد من قوة الإيمان والأنطاف الإلهية عامل مهم آخر في اجتياز الإختبار دون اضطراب وقلق وفقدان للتوازن. فالسائرون على طريق الله يتقدّمون بخطوات ثابتة وقلوب مطمئنة لوضوح النهج والهدف لديهم. وترافقهم الهدایة الإلهیة في اختيار الطريق الصحيح، يقول سبحانه: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِيۤا لَهُدِيَّنَّهُمْ سُبْلَنَا»^٢.

٤- التدقيق في تاريخ الأسلاف، وإمعان النظر في مواقفهم من الإختبارات الإلهية، عامل مؤثر في إعداد الإنسان لاجتياز الامتحان الإلهي بنجاح.

لوعر الإنسان بأن ما أصيب به ليس حالة شاذة، وإنما هو قانون عام شامل لكل الأفراد والجماعات، لهن الخطب عليه، ولتفهم العالة بوعي، ولا جحたز المرحلة بمقاومة وثبات. ولذلك يثبت الله سبحانه على قلب نبيه والمؤمنين

باستعراض تاريخ الماضين، وما واجهه الأنبياء، والفنانات المؤمنة من محن ومصائب خلال مراحل دعوتهم، يقول سبحانه: «وَلَقَدِ اسْتَهِزَ بِرُّسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ»^١.

ويقول تعالى: «وَلَقَدِ كُذِبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِبُوا وَأَوْذَا حَقَّ أَثَامُهُمْ نَصَرْنَاهُمْ»^٢.

٥- الالتفات الى حقيقة علم الله سبحانه بكل مجريات الأمور، عامل آخر في التشفيت وزيادة المقاومة.

المتسابقون في ساحة اللعب يشعرون بالإرتياح حينما يعلمون أنهم في معرض أنظار أصدقائهم من المتفرجين، ويندفعون بقوة أكثر في تحمل الصعب. إذا كان تأثير وجود الأصدقاء كذلك، فما بالك بتأثير استشعار رؤية الله لما يجري على الإنسان وهو على ساحة الجهاد والمحنة؟! ما أعظم القوة التي يمنعها هذا الاستشعار لمواصلة طريق الجهاد وتحمل مشاق المحنة!

حين واجه نوح عليه أعظم المصائب والضفوط من قومه وهو يصنع الفلك، جاءه نداء التشفيت الإلهي ليقول له: «وَاصْنِعِ الْفُلُكَ إِنِّي بِأَعْسِنَا»^٣.

عبارة «بِأَعْسِنَا» كان لها - دون شك - وقع عظيم في نفس هذا النبي الكريم، فاستقام وواصل عمله حتى المرحلة النهاية دون الالتفات إلى تقويع الاعداء واستهزائهم.

ورداً عن سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما أجمعان قال بعد أن تفاقم الخطب أمامه في كربلاء، واستشهد أصحابه وأهل بيته: «هُوَ عَلَيْهِ مَا تَرَكَ فِي أَنَّهُ بِعِنْدِهِ اللَّهُ»^٤.

١- الأنعام، ١٠.

٢- الاتمام، ٣٤.

٤- بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٤٦.

٣- هود، ٣٧.

٥- الاختبار بالخير والشر

الإمتحان الإلهي لا يجري عن طريق الحوادث الصعبة القاسية فحسب، بل قد يمتحن الله عبده بالخير ويوفر النعمة، كما يقول سبحانه: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَتَتَّهَّى﴾^١

ويقول سبحانه على لسان نبيه سليمان: «هذا من فضل ربي ليتلوني،أشكر أمن
أكفر»!

وهنا ينبغي أن نشير إلى عدة مسائل أحدها: أنه ليس من الضروري أن يختبر جميع الناس بجميع وسائل الاختبار، بل من الممكن أن يكون إختبار كل فتاة بلون من الامتحان يتاسب مع الوضع الفردي والاجتماعي لتلك الفتاة.

والآخرى؛ أنه من الممكن أن يجتاز الإنسان بعض الامتحانات، بينما يفشل فى امتحانات أخرى.

وقد يكون امتحان فرد من الأفراد موضع امتحان فرد آخر، كأن يكون موت ولد لإنسان موضع امتحان أصدقائه وأقاربه، ليرى مدى اتخاذهم موقف المواساة من أصحابهم.

وأخيراً، فالاختبار الإلهي - كما ذكرنا - شامل عام يدخل في نطاقه حتى الآنساء نبلة، بل إن اختبارهم بسبب نقل مسؤوليتهم أشد بكثير من اختبار الآخرين.

القرآن الكريم يعرض صوراً لاختبارات شديدة مرّ بها الأنبياء عليهما السلام وبعضهم مرّ بمراحل طويلة شاقة قبل وصوله إلى مقام الرسالة، كي يكون على أسم الاستعداد لتحمل أعباء قيادة أمته.

وبين أتباع مدرسة الأنبياء نماذج رائعة للصابرين المحتسبين، كل واحد منهم قدوة على ساحة الامتحان الإلهي.

فقد روي «أن أم عقبيل كانت امرأة في البادية فنزلت علنيها ضيقان وكان ولدها عقبيل من الأيل فأخربت يائة ازد حيث عليه الأيل فرمث به في البئر فهلك فقالت المرأة للناعي انزل وأطعم ذمام القوم ودعنت إلينه كبساً فذبحة وأصلحة وقرب إلى القوم الطعام فجعلوا يأكلون ويسعدون من صبرها (قال الزاوي) فلما فرغنا خرجت إلينا وقالت يا قوم هل فيكم من يغشى من كتاب الله شيئاً؟ قلت: نعم. قالت: فاقرأ على آيات أنجزت بها عن ولدي نفراً: «رَبُّ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ إِلَى قَوْلِهِ الْمُهَنَّدُونَ».

«فقالت السلام عليكم، ثم صفت قدميها وصلت ركعات ثم قالت: اللهم إني قتلت ما أمرتني فاجعذلي ما وعدتني. ولو بقي أحد لاحد - قال قتلت في نفسك لبقي ابني لم أجتني إليه - فقلت لبني محمد عليهم السلام لأميته، فخرجت»^١

* * *

الآية

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَنَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ أَعْتَمَرَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطْوَفَ بِهَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ
عَلِيمٌ^٦

التزول

كان المشركون في الجاهلية يأتون مكة لأداء مناسك الحج، وكانت هذه المناسك ذات أصل إبراهيمي مع كثير من التحريف والخرافات والشرك. فكانت المناسك عبارة عن الوقوف بعرفات والاضحية والطواف والسعى بين الصفا والمروة. ولكن بشكل خاص بالجاهليين.

وجاء الإسلام وأصلاح هذه المناسك، وظهرت مما على بها من تحريف، وأقر ما كان صحيحاً منها ومن جملتها السعي بين الصفا والمروة.

واستناداً إلى روايات المؤرخين من الشيعة وأهل السنة أن المشركين كانوا يسعون بين الصفا والمروة، وقد وضعوا على الصفا صنماً اسمه «أساف»، وعلى المروة صنماً آخر سموه «نائلة» وكانوا يتمسحون بهما لدى السعي، من هنا خال المسلمين أن السعي بين الصفا والمروة عمل غير صحيح، وكرهوا أن يفعلوا ذلك. الآية المذكورة نزلت لتعلن أن الصفا والمروة من شعائر الله، وتلوينها بالشرك على

يد الجاهلين لا يبرر إعراض المسلمين عن السعي بينهما.

واختلف المفسرون في وقت نزول الآية، منهم من قال إنها نزلت في (عمرهقضاء) في السنة السابعة للهجرة، وكان من شروط النبي ﷺ مع المشركين في هذه السفرة رفع الصنمين من الصفا والمروءة، وقد عملوا بهذا الشرط، لكنهم أعادوهما إلى محلهما. وهذا أدّى إلى كراهة المسلمين والسعى بين الصفا والمروءة، فنزلت الآية لتهابهم عن هذه الكراهة.

وقيل إنها نزلت في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة. ومن المؤكد أن مكة كانت في هذه السنة خالية من الأصنام. ومن هنا يلزمنا أن نعتبر كراهة المسلمين السعي بين الصفا والمروءة بسبب السوابق التاريخية لهذين المكانين حيث انتصب فيها «أساف ونائلة».

* * *

التفسير

أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر

هذه الآية الكريمة تستهدف إزالة ما علق في ذهن المسلمين ونفوسهم من رواسب بشأن الصفا والمروءة كما مرّ في سبب التزول، وتقول للMuslimين: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ».

ومن هذه المقدمة تخرج الآية بنتيجة هي: «فَإِنْ حَجَّ أَبْيَاثَ أَوْ اغْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوَّفَ بِهَا».

لا ينبغي أن تكون أعمال المشركين الجاهلين عاملاً على إيقاف العمل بهذه الشعيرة، وعلى تقليل شأن وقدسيّة هذين المكانين.

تم تقول الآية أخيراً: «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِ».

فإله يشكر عباده المتطوعين للخير بأن يجازيهم خيراً، وهو سبحانه عالم

بسرائرهم، يعلم من تعلق قلبه بهذه الأصنام ومن تبرأ منها.

* * *

بحوث

١- الصفا والمروءة

الصفا والمروءة أسمان لجبلين صغيرين في مكة، يقعان اليوم بعد توسيع المسجد الحرام، في الضلع الشرقي للمسجد، في الجهة التي يقع فيها الحجر الأسود ومقام إبراهيم.

يفصل بين الجبلين ٤٢٠ متراً تقريباً، والمسعى اليوم بدل بصالحة كبيرة مسافة ذات طابقين يسعى الحجاج فيها، وارتفاع الصفا خمسة عشر متراً، والمروءة ثمانية أمتار.

واللقطان اليوم علمان لهذين الجبلين، وفي الأصل الصفا هي الصخرة الملساء القوية المختلطة بالحصى والرمل، والمروءة الصخرة القوية المترجلة. والشعائر جمع شعيرة أي العلامة، وشعائر الله أي العلامات التي تذكر الإنسان بالله، وتعيد إلى الأذهان ذكريات مقدسة.

و«اعتمر» أي أدى العمرة، والمرأة في الأصل الملحقات الإضافية في البناء، وفي الشريعة تطلق على الأعمال الخاصة، التي يؤدinya المسلم إلى جانب أعمال الحج، أو يؤدinya لوحدها في العمرة المفردة. وبينها وبين أعمال الحج أوجه اشتراك وافتراق.

٢- من أسرار السعي بين الصفا والمروءة

صحيح أن قراءة تاريخ حياة عظماء التاريخ يدفع الإنسان إلى الإقتداء بهم، لكن هناك طريقاً أكثر تأثيراً، وهو مشاهدة المعالم الأثرية التي كافع عليها هؤلاء

الرجال، وسجلوا فيها بطولاتهم.

هذه المعالم هي في الواقع ليست مثل كتب التاريخ الميتة، بل هي تاريخ حي ناطق، يستطيع أن يُحَلِّق بالإنسان عبر القرون والأعصار، ليجعله يعيش مع الحوادث الماضية بكل مشاعره.

الأثر التربوي لهذه المشاهدات أعمق بكثير من تأثير الكتب والمحاضرات وأمثالها ... فهنا الشعور لا الإدراك، والتصديق لا التصور، والعينية لا الذهنية. من جهة أخرى، قلّ أن يوجد بين الأنبياء نبيٌّ كإبراهيم عليه السلام، خاض ألوان النضال وتعرض لأنواع الامتحان، حتى قال القرآن عَنْهَا أختبر به: «إِنَّ هَذَا لَهُؤُلَاءِ الْمُبِينُ».!

وهذه المعاناة الطويلة التي عاشها إبراهيم هي التي أهلته لأن ينال مقام «الإمامية».

مناسك العج تجسد في الأذهان دورة كاملة من مشاهد كفاح إبراهيم ومراحل تكامله التوحيدى وعبوديته وتضحياته وإخلاصه. لوفهم المسلمين - لدى أدائهم مناسك العج - روح العج وأسراره، وتعمقوا في جوانبه «الرمزية» لكان العج دورة تربوية في حقل معرفة الله والتوبة والشخصية الإنسانية.

بعد هذه المقدمة نعود إلىخلفية التاريخية للصفوة والمروة. إبراهيم عليه السلام بلغه الكبر ولم يُرزق ولداً، فدعى ربَّه أن لا يتركه فرداً، فاستجاب له، ورزقه من جاريته هاجر ولدَه سَمَاء «إسماعيل». لم تستطع «سارة» زوجته الأولى أن تطبق الحالة الجديدة، وقد رزق إبراهيم ولداً من غيرها، فأمر الله إبراهيم أن يهاجر بالطفل والأم إلى مكة حيث الأرض

القاحلة المجدبة آنذاك، ويسكنهما هناك.

امتثل إبراهيم أمر ربه، وذهب بهما إلى صحراء مكة وأسكنهما في تلك الأرض، وهم بالرجوع، فضجّت زوجته بالبكاء، إذ كيف تستطيع أن تعيش امرأة وحيدة مع طفل رضيع في مثل هذه الأرض؟!

بكاء هاجر ومعه بكاء الطفل الرضيع هرّ إبراهيم من الأعماق، لكنه لم يزد على أن ناجي ربّه قالاً: «رَبَّنَا إِنِّي أَشْكَنْتُ مِنْ ذُرْيَّيْ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ تِينَتَكَ الْمُحْرَمِ رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَازْرُقْهُمْ مِنَ الْثَّرَابِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ»^١، ثم ودع زوجه وطفله بحزن وألم عميقين.

لم يمض وقت طويلاً حتى نفذ طعام الأمّ وماؤها، وجفت لبنها. بكاء الطفل أضرم في نفس الأم ناراً، ودفعها لأن تبحث بقلق واضطراب عن الماء. اتجهت أولاً إلى جبل «الصفا» فلم تجد للماء أثراً، لفت نظرها بريق ما عند جبل «العروة» فأسرعت إليه فوجده سراباً، ثم رأت عند المروة بريقاً لدى الصفا أسرعت إليه فما وجدت شيئاً، وهكذا جالت سبع مرات بين الصفا والعروة بحثاً عن الماء. وفي النهاية، وبعد أن أشرف الطفل على الموت، انفجرت عند رجله فجأة عين زمز، فشرب الطفل وأمه ونجيا من الموت المحقق.

الماء، رمز الحياة، وانفجار العين جزء الطيور من الآفاق نحو هذه الأرض، والقوافل شاهدت حركة الطيور، فاتجهت هي أيضاً نحو الماء وببركة هذه العائلة تحولت أرض مكة إلى مركز حضاري عظيم.

ويقع جوار الكعبة حجر إسماعيل حيث مدفن تلك المرأة وابنتها، وعلى الحاج أن يضمّه إلى البيت في طوافه، أي يعبّ على الحاج أن يطوفوا خارج هذه الحجر وكأنه جزء من الكعبة.

في الصفا والمروة درس في التضحية بكل غال ونفيس، حتى بالطفل الرضيع، من أجل المبدأ والعقيدة.

السعى بينهما يعلمنا أن نعيش دانماً أمل النجاح والإنتصار، حتى في أشد لحظات الشدة، فهاجر بذلك سعيها وجاءها رزق الله من حيث لا تحتسب.

السعى بين الصفا والمروة يقول لنا: إن هاتين الشعيرتين كانتا يوماً وكراً لصنمين من أصنام العرب، وأصبحتا اليوم معلمين من معالم التوحيد بفضل جهاد رسول الله ﷺ، من حق جبل الصفا أن يفخر ويقول: أنا أول منطلق لدعوة رسول الله ﷺ، فحينما كانت مكة تقطّ في ظلمات الشرك ويزغ من عندي فجر الهدایة. واعلموا أيها الساعون بين الصفا والمروة أن رسول الله ﷺ صعد يوماً على هذا الجبل ليذيع الدعوة وتحجج بيته على النهيج المحتدي الإبراهيمي. وإنه لدرس لكم يعلمكم أن تسيراً على طريق الحق دونما يأس، وإن قل الناصر والمجيب.

السعى بين الصفا والمروة يقول لنا: اعرفوا قدر نعمة هذا الدين وهذا المركز التوحيدى، فثمة أفراد حفظوا الشريعة وشعائرها لنا بدمائهم على مر التاريخ. من أجل إحياء كل تلك الأحاسيس والمشاعر في النفوس، أمر الله العجيج أن يسعوا سبع مرات بين الصفا والمروة.

أضف إلى ما تقدم أن السعى يقضى على كبر الإنسان وغروره، فلا أثر للتباخر والتضليل في السعى، بل لا بد من قطع هذه المسافة ذهاباً ومجيئاً مع كافة الناس، وبنفس لباس الناس، وبهرولة أحياناً!! ولذلك ورد في الروايات أن السعى ينفاث للمتكبرين.

على أية حال، بعد أن ذكرت الآية أن الصفا والمروة من شعائر الله، أكدت عدم وجود جناح على من يطوف بهما في الحج والعمرة، والطواف بين الصفا والمروة هو السعى بينهما، لأن الحركة التي يعود فيها الإنسان إلى حيث ابتدأ هي

طوف وإن لم تكن الحركة دائيرية.

* * *

٣- جواب على سؤال

لفظ «لا جناح» يشير إلى عدم حرمة السعي بين الصفا والمروة وجواز ذلك، وقد يسأل سائل عن سبب وجوب السعي في الفقه الإسلامي، بينما الآية تبيّحه فقط؟

الجواب على هذا السؤال نفهمه بوضوح من سبب نزول الآية. فالMuslimون كرروا السعي بين الصفا والمروة، بعد أن شاهدوا بأم أعينهم مدى عبث المشركين بهذا المكان، ومدى تلوينهم إياها بالأصنام. فخالوا أن من غير اللائق بالMuslim أن يسعى في هذا المكان.

جاءت الآية لتقول لهم: إن الصفا والمروة من شعائر الله، وعبارة «لا جناح»^١ لإزالة ما تصوروه من كراهة لهذا العمل.

وثنّة تعبيرات مشابهة ذكرها القرآن لأحكام أخرى كصلة المسافر في قوله تعالى: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَنْقُضُوا مِنَ الصَّلَاةِ»^٢. ونعلم أن القصر واجب في صلة المسافر، لا جائز. بشكل عام قد تستعمل كلمة (لا جناح) لإزالة التوهم بحرمة الشيء أو بكراته، وهذا المعنى يؤكده حديث عن الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام في كتاب «من لا يحضره الفقيه».

٤- معنى التطوع

التطوع في اللغة: قبول الطاعة والإنصياع للأوامر، وفي الفقه يطلق على

١- (الجناح) في الأصل البطل نحو اتجاه معين، وقيل للذنب جناح لأنّه يبعد بالإنسان عن طريق الحق. (قاله الراغب في المفردات). ٢- النساء، ١٠١.

الأعمال المستحبة، من هنا ذهب أغلب المفسرين إلى تفسير «وَمَنْ تطَوعَ...» بالحج المستحب والعمرة المستحبة، أو الطواف، أو أي عمل مستحب آخر. فالعبارة تعني إذن أن الله شاكر لمن يعمل الخيرات امتثالاً لأوامره سبحانه، والله علیم بكل هذه الأعمال.

ومن المحتمل أيضاً أن تكون العبارة تأكيداً لما سبقها، ويكون المقصود بالتطوع حينئذ قبول الطاعة في أداء الأعمال الشاقة.

معنى العبارة، على هذا، على الحجاج السعي بين الصفا والمروة بكل ما فيه من مشاق ورغم كراهتكم لذلك ... هذه الكراهة الناتجة عن سوء تصرف الجاهليين بهذا المكان المقدس.

٥- شكر الله

ينبغي الإلتفات هنا إلى عبارة الشاكر في الآية، وهو تعبير في غاية الروعة، وإنه لتكريم ما بعده تكريماً للإنسان، أن يشكره الله على أعماله الخيرة. وحين يكون الله شاكراً لعبده على برّه، فمن الأولى أن يكون العبد شاكراً لربه على نعمه التي لا تحصى، وشاكرًا لمن أحسن إليه من العباد.

* * *

الآياتان

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَى مِنْ بَعْدِ
مَا يَبَيِّنُهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَأْلَغُهُمُ اللَّهُ وَيَأْلَغُهُمْ
اللَّهُنَّعُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝

سبب التزول

روى جلال الدين السيوطي عن ابن عباس، أن عدداً من المسلمين أمثال «معاذ بن جبل» و«سعد بن معاذ» و«خارجة بن زيد» سألوا أighbors اليهود عن مسائل في التوراة قد ترتبط بظهور النبي الخاتم صلوات الله عليه وآله وسلامه، فأبى الأighbors أن يجيبوا وكتموا ما عندهم من علم.^١

التفسير

حرمة كتمان الحق

الآية - وإن خاطبت كما في أسباب التزول، علماء اليهود - غير محدودة

١- طياب النقول في أسباب التزول، ص .٢٢

بمخاطبيها، بل تبين حكماً عاماً بشأن كاتمي الحق.
الآية الكريمة تتحدث عن هؤلاء بشدة وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهَدِيَّ مِنْ بَعْدِ مَا يَبَيِّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَئِكَ يَلْعَبُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَبُهُمُ الْلَاعِنُونَ».

فإله سبحانه وعباده الصالحون ولأنكتم المقربون يلغون من يكتم الحق، وبعبارة أخرى، كل أنصار الحق يغضبون على من كتم الحق. وأية خيانة للعالم أكبر من محاولة العلماء كتمان آيات الله المرودعة عندهم من أجل مصالحهم الشخصية ولتضليل الناس.

وعبرة «مِنْ بَعْدِ مَا يَبَيِّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ» إشارة إلى أن هؤلاء الأفراد يصادرون في الواقع جهود الأنبياء وتضحيات أولياء الله الصالحين، وهو ذنب عظيم.

وال فعل (يلعن) تكرر في الآية للتأكيد، واستعمل بصيغة المضارع لبيان استمرار اللعن، ومن هنا فإن لعنة الله ولعنة اللاعنين تلاحق هؤلاء الكاتمين لآيات الله باستمرار، وذلك أقسى صور العقاب.

«البيانات» و«الهدى» لهما معنى واسع يشمل كل وسائل الهدایة والتوعية والإيقاظ وإنقاذ الناس.

ولما كان القرآن كتاب هداية، فإنه لا يغلق منافذ الأمل والتوبة أمام الأفراد ولا يقطع أملهم في العودة مهما ارتكبوا في الذوبان، لذلك تبين الآية التالية طريق النجاة من هذا الذنب الكبير وتقول: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَابُ الرَّّحِيمُ».

عبارة «أَنَا التَّوَابُ الرَّّحِيمُ» جاءت بعد عباره «فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ» للدلالة على كثرة محبة الله، وسبق عطفه على عباده الثنائيين. فيقول سبحانه لهؤلاء: إن تبتم، أي عدتكم إلى نشر الحقائق، فأنا أعود أيضاً إلى إغراق الرحمة والمواهب

عليكم.

ومن الملفت للنظر، أن الله لم يقل أنه يقبل التوبة من من تاب، بل يقول: من تاب فأنا أيضاً أتوب عليه، والفرق في التعبيرين واضح، فالثاني فيه من التودّد والتحنن وإغراق اللطف ما لا يمكن وصفه.

تم استعمال الضمير (أنا) في هذا الموضع يستهدف نوعاً من التودّد وبيان الارتباط المباشر بين المتكلم والسامع وخاصة اذا قال عظيم من العظام: «أنا أتكلف لك بالعمل الفلاني» حيث يختلف عما لو قال: «سنقوم نحن بإنجاز العمل» فالمحبة الكامنة في الأسلوب الأول غير خافية على أحد.

وكلمة «تَوَّاب» صيغة مبالغة تبعث الأمل في نفوس المذنبين وتعزق أستار اليأس، عن سماء أرواحهم خاصة وأنها اقتربت بكلمة (رحيم) التي تشير إلى الرحمة الالهية الخاصة.

* * *

بحوث

١- مفاسد كتمان الحق

كتمان الحقائق من المسائل التي عانت منها المجتمعات البشرية على مر التاريخ، وكان لها دوماً آثار سيئة عميقـة استمرت قرونـاً واعصارـاً. ويتحمل تبعـة هذه المساويـ، دون شك أو لـكـ العلمـاءـ الذينـ يـعلـمـونـ تلكـ الحقـائقـ ويـكتـمـونـهاـ. لـعلـ القرآنـ لمـ يـهدـدـ وـيـذـمـ فـتـةـ كـمـاـ هـدـدـ وـذـمـ هـذـهـ الفتـةـ الكـاتـمـةـ لـلـحقـائقـ. وـلـمـ لـاـ؟ـ فـإـنـ عـلـمـ هـؤـلـاءـ يـجـرـ أـجيـالـاـ مـتـعـاقـبـةـ إـلـىـ طـرـيقـ الضـلـالـ وـالـفـسـادـ، كـمـاـ نـشـرـ

الـحقـائقـ يـدـفـعـ بـالـأـمـمـ إـلـىـ طـرـيقـ الـهـدـاـيـةـ وـالـصـلـاحـ.

الـبـشـرـيـةـ تـمـيلـ لـلـحـقـائـقـ بـفـطـرـتـهـاـ، وـكـتـمـانـ الـحـقـائـقـ عـنـهاـ يـعـنيـ صـدـ الـبـشـرـيـةـ عـنـ طـرـيقـ تـكـاملـهـاـ النـطـرـيـ المرـسـومـ لـهـاـ.

لو أن علماء اليهود والنصارى أعلنا ما عندهم من حقائق بشأن التبليغ ^{اللهم}، ونشروا ما جاء في المهدىين من بشارى حول رسول الإسلام، لانضوى أهل الكتاب تحت راية الإسلام، ولا يصحوا مع المسلمين أمة واحدة. كتمان الحقائق لا ينحصر دون شك في كتمان علامات النبوة والبشرى بالتبليغ ^{اللهم}، بل يشمل كتمان كل حقيقة تستطيع أن تدفع الناس إلى الفهم الصحيح بالمعنى الواسع لهذه الكلمة.

السكتون في مواضع يجب فيها البيان قد يكون من مصاديق كتمان الحق، وذلك يكون في موارد يحتاج الناس فيها بشدة إلى فهم الحقائق ويستطيع العلماء فيها أن يلتبوا هذه الحاجة.

عبارة أخرى: نشر الحقائق التي يعاني منها الناس لا يتوقف على السؤال، وما يذهب إليه صاحب المنار من أن كتمان الحقائق يكون في مواضع السؤال ليس ب صحيح. خاصة وأن القرآن لا يتحدث عن كتمان الحقائق فحسب، بل يتحدث في مواضع أخرى عن تبيين الحقائق أيضاً، وهذا يرد على أولئك الذين يلتزمون جانب الصمت أمام الإنحرافات بحجج عدم وجود سائل يطرح عليهم سؤالاً بشأن تلك الإنحرافات. يقول سبحانه:

«وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيقَاتَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لِتَبَيَّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُونَهُ»^١.

جدير بالذكر أن إيهام الناس بالسائل الفرعية، لصرف أنظارهم عن المسائل الأساسية الحياتية نوع من كتمان الحقائق. إذا لم يشمله فرضاً تعبير «كتمان الحقائق» فهو مشمول حتماً بملاك وفلسفة كتمان الحق.

٢- كتمان الحق في الأحاديث

حملت الأحاديث بشدة أيضاً على كاتمي الحق، فروي عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَمْ أَلْحِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامِ مِنْ تَارٍ»^١. ونعيد هنا القول أن ابتلاء الناس بمسألة الحاجة إلى بيانها يحل محل السؤال. وبيان الحقائق في هذه الحالة واجب.

وَسَأَلَ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«مَنْ شَرَّ خَلْقَ اللَّهِ بَعْدِ إِبْلِيسَ وَفَرْعَوْنَ؟ قَالَ: الْعَلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا، هُمُ الْمُظَهَّرُونَ لِلْجَاهِيلِيَّةِ، الْكَافِرُونَ لِلْحَقَائِيقِ، وَفِيهِمْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْلَّاعِنُونَ»^٢

٣- معنى اللعن

اللعن في الأصل: الطرد والإبعاد المزوج بالغضب والإستياء. فاللعن الإلهي إذن بإبعاد الإنسان عن رحمة الله، وعن جميع المawahib المقدمة على عباده. وما قيل بشأن تقسيم اللعن إلى: لعن في الآخرة، وهو العذاب والعقوبة، ولعن في الدنيا وهو سلب التوفيق، إنما هو من قبيل بيان المصدق، لا حصر اللعن بهذين القسمين.

وكلمة (اللاعنون) لها معنى واسع لا يقتصر على الملائكة والمؤمنين، بل يشمل كل الموجودات التي تحدث بلسان القال أو الحال. وفي بعض الروايات نرى أن كل الموجودات تدعوا لطلب العلم كقول المعموم: «وَإِنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ الْحُوَّتِ فِي الْبَحْرِ»^٣.

١- مجمع البيان، في تفسير الآية.

٢- الاحتجاج للطبرسي، نقلأً عن نور الثقلين، ج ٢، ص ١٣٩.

٣- أصول الكافي، ج ١، باب ثواب العالم والمتعلم.

وإن استغرت هذه الموجودات لطالب العالم، فمن الطبيعي أن تلعن كاتبها.

٤- كلمة (تَوَّاب) صيغة مبالغة من تاب: عاد، وتبين حقيقة افتتاح باب التوبة أمام الإنسان، حتى ولو انخدع الإنسان بوساوس الشيطان بعد توبته، فيستطيع أن يتوب ثانية ويعود إلى الله ويكشف ما عنده من الحق، فالله تَوَّاب، ولا يجوز اليأس من رحمته وعفوه.

* * *

الآيات

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَا تُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ ﴿٦﴾ خَلِدُوا فِيهَا لَا يُخْفَى عَنْهُمْ
الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُمْ كُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ
الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

التفسير

الذين ماتوا وهم كفار

تحديث الآيات السابقة عن نتيجة كتمان الحقائق، وهذه الآيات تكمل الموضوع السابق، وتتناول جزاء الذين يواصلون طريق الكفر والكتمان والعناد إلى آخر عمرهم.

تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَا تُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ».

هؤلاء أيضاً مثل كاتمي الحق، مستحقون للعنة الله والملائكة وجميع الناس، مع اختلاف هو أن هؤلاء الم世人ين على الكفر حتى نهاية حياتهم لا رجعة لهم طبعاً ولا توبة.

ثم تقول الآية التالية إن هؤلاء الكفار الم世人ين على كفرهم حتى اللحظات

الأخيرة من حياتهم: «خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخْفَى عَنْهُمُ الْقَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ». ولما كان التوحيد ينهي كل هذه المصائب، فالآية الثالثة تطرح هذا الأصل وتقول: «وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ».

تم تؤكد هذا الأصل وتقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

بعد ذلك تصف الآية الله بأنه «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» لتقول إن الله الذي تشمل رحمته العامة كل الموجودات، ورحمته الخاصة المؤمنين، هو اللائق بالعبودية لا الموجودات المحتاجة.

* * *

بحوث

١ - يوضع القرآن في مواضع متعددة، أن الذين ماتوا على كفرهم لا نجاة لهم، وهذا أمر طبيعي، لأن سعادة الحياة الآخرة وشقاؤها نتيجة مباشرة لما ادخره الإنسان من أعمال في هذه الحياة. ومن أحرق جناحيه في الحياة الدنيا بنار الكفر والإعراض لا يستطيع طبعاً أن يحلق في الآخرة، ولا بدّ من سقوطه في درك الجحيم. واضح أيضاً أن هذا الفرد سيقى على وضعه هذا في عالم الآخرة، لأن ذلك العالم ليس عالم الحصول على وسيلة.

هذا يشبه إنساناً فقد عينيه بسبب جنوحه واتباعه الشهوات والاهواء عالماً عامداً، فلا بد له أن يعيش أعمى طول حياته.

وبديهي أن هذا مصير الكافرين الذين سلكوا طريق الكفر عن علم وعمد. (وسنوضح مسألة الخلود أكثر في تفسير الآيتين ١٠٧ و ١٠٨ من سورة هود، في المجلد السابع من هذا التفسير).

٢ - الآية الثالثة في بحثنا هذا تبين أحدية الله بشكل ينفي كل شرك وإنحراف. قد نرى أحياناً موجودات منفردة في صفة من صفاتها، لكن هذه الموجودات

تتفرد في صفة أو عدة صفات. أما الله فهو أحد في ذاته، وأحد في صفاته، وأحد في أفعاله، أحديته لا تقبل التعدد عقلاً، إنه أحد أزله وأبدى لا تؤثر الحوادث على أحديته. إنه أحد في الذهن وخارج الذهن. إنه أحد في أحديته!

٣- لا يكفي لعن الله!

الآية أعلاه ذكرت أن الذين ماتوا وهم كفار، مشمولون بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وهنا قد يسأل سائل: أليست لعنة الله كافية؟ الجواب واضح، فلعنة الملائكة والناس زيدت على لعنة الله للتتأكد، ولبيان كراهة الناس لمثل هؤلاء المذنبين.

ولو قيل لهم ذكرت الآية (الناس) بشكل عام، بينما يوجد بين الناس من هم شركاء في الجريمة، وهؤلاء لا يلعنون أولئك المجرمين؟ والجواب: إن هؤلاء أيضاً كارهون لأعمال أولئك، فهؤلاء يكرهون مثلاً كتمان الحقائق عنهم، ويلعنون من يستر عنهم الحقيقة، لكنهم يفعلون هم أيضاً هذه السيئة إن اقتضت مصلحتهم ذلك.

* * *

الآية

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ الَّيلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ مَا يَنْقُعُ النَّاسُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ
السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْنَبَاهُ أَلَّا زَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ
ذَائِبَةٍ وَتَصْرِيفَ الرِّينَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْخَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَأَيْنَتِ لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

التفسير

مظاهر عظمة الله في الكون

آخر آية في المبحث الماضي دارت حول توحيد الله، وهذه الآية تقدم الدليل على وجود الله ووحدانيته.

قبل أن ندخل في تفسير الآية، لابد من مقدمة موجزة. حيشما كان «النظم والإنسجام»، فهو دليل على وجود العلم والمعرفة، وأينما كان «التنسيق» فهو دليل على الوحدة. من هنا، حينما نشاهد مظاهر النظم والإنسجام في الكون من جهة، والتنسيق ووحدة العمل فيه من جهة أخرى، نفهم وجود مبدأ واحد للعلم والقدرة صدرت منه كل هذه المظاهر.

حينما نمعن النظر في الأغشية الستة للعين الباصرة ونرى جهازها البديع،

تفهم أن الطبيعة العميماء الصماء لا يمكن إطلاقاً أن تكون مبدأ مثل هذا الأثر البديع، ثم حينما ندقق في التعاون والتنسيق بين هذه الأغشية، والتنسيق بين العين بكل أجزائها وبين جسم الإنسان، والتنسيق الفطري الموجود بين الإنسان وبين سائر البشر، والتنسيق بين بني البشر وبين كل مجموعة نظام الكون، نعلم أن كل ذلك صادر من مبدأ واحد، وكل ذلك من آثار وقدرة ذات مقدسة واحدة.

ألا تدل القصيدة الجميلة العميقة المعنى على ذوق الشاعر وفريحته؟!

ألا يدل التنسيق الموجود بين قصائد الديوان الواحد على أنها جميعاً صادرة من قريحة شاعر مقتدر واحد؟

بعد هذه المقدمة نعود إلى تفسير الآية، هذه الآية الكريمة تشير إلى ستة أقسام من آثار النظم الموجود في عالم الكون، وكل واحد آية تدل على وحدانية المبدأ الأكبر.

١- «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...»

من العلامات الدالة على ذات الله المقدسة وعلى قدرته وعلمه ووحدانيته، السماء وكربات العالم العلوى، أي هذه العليارات من الشموس المشرقة والنجوم الثابتة والسيارة، التي ترى بالعين المجردة أو بالتلسكوبات، ولا يمكن رؤية بعضها بأقوى أجهزة الإرصاد لبعدها الشاسع الشاسع للغاية، والتي تتناظم مع بعضها في نظام دقيق مترابط.

وهكذا الأرض بما على ظهرها من حياة، تتجلى بظاهر مختلف و تتلبس بلباس آلاف الأنواع من النبات والحيوان.

ومن المدهش أن عظمة هذا العالم وسعته وامتداده تظهر أكثر كلما تقدم العلم، ولا ندري المدى الذي سيبلغه العلم في فهم سعة هذا الكون!

يقول العلم لنا اليوم: إن في السماء آلافاً مؤلفة من المجرات، ومنظومتنا الشمسية جزء من واحدة من المجرات، وفي مجرتنا وحدها مئات الملايين من

الشموس والنجوم الساطعة، وحسب دراسات العلماء يوجد بين هذه الكواكب مليون كوكب مسكون بbillions الموجودات الحية؟
حقاً ما أعظم هذا الكون! وما أعظم قدرة خالقه!!

٢- «وَالْخِلَافُ اللَّيلُ وَالنَّهَارُ ...»

من الدلالات الأخرى على ذاته المقدسة وصفاته المباركة تعاقب الليل والنهاي، والظلمة والنور بنظام خاص، فينقص أحدهما بالتدريج ليزيد في الآخر، وما يتبع ذلك من تعاقب الفصول الأربع، وتكامل النباتات وسائر الأحياء في ظل هذا التكامل.

لو انعدم هذا التغير التدريجي، أو انعدم النظام في هذا التدرج، أو انعدم تعاقب الليل والنهاي لانفتحت الحياة من وجه الكرة الأرضية، ولو بقيت واستمرت فرضاً -لأصابتها الفوضى والخطف!

٣- «وَالْقُلُكُ الَّتِي تَحْبِرُ فِي الْبَحْرِ يَا يَنْفَعُ النَّاسَ»

الإنسان يمخر عباب البحار والمحيطات بالسفن الكبيرة والصغرى، مستخدماً هذه السفن للسفر ولنقل المtau. وحركة هذه السفن خاصة الشراعية منها تقوم على عدة أنظمة:

الأول، نظام هبوب الرياح على سطح مياه الكرة الأرضية، فهناك الرياح القارية التي تهب من القطبين الشمالي والجنوبي نحو خط الإستواء وبالعكس وتدعى «البزه» و«كتنر البزه»؟؟ . وهناك الرياح الإقليمية التي تهب وفق نظام معين، وتعتبر قوة طبيعية لتعريف السفن نحو مقاصدها.

١- «الاختلاف» قد يعني التعاقب أي مجيء شيء وذهاب آخر، وقد يعني الزيادة والتقصان في الليل والنهاي، وعلى المعنى تحدث الآية من نظام خاص للليل والنهاي لا يمكن أن يكون قائماً على الصدفة، ومن دون تدخل وجود عالم قادر في ذلك. ولهذا ورد في القرآن الكريم، هذا المعنى في موارد متعددة كدنيل على الذات المقدسة.

وهكذا خاصية الخشب، أو خاصية القوّة الدافعة التي يسلطها الماء على الأجسام الغاطسة فيه، فيجعل هذه السفن تطفو على سطح الماء.
أضف إلى ذلك خاصية القطبين المغناطيسيين للكرة الأرضية، التي تساعد البحارة باستخدام البوصلة أن يعرفوا اتجاههم في وسط البحار، إضافة إلى استفادتهم من نظام حركة الكواكب في معرفة جهة السير.

كل هذه الأنظمة تساعدهم على الإستفادة من الفلك^١، وتعطي دليلاً محسوساً على قدرة الله وعظمته، وتعتبر آية من آيات وجوده.

استعمال المحركات الوقودية بدل الأشرعة في السفن اليوم، لم يقلل أهمية هذه الظاهرة، بل زادها عجباً ودهشة، إذ نرى اليوم السفن العملاقة التي تشبه مدينة بجميع مرافقها، تطفو على سطح الماء وتتنقل بفنادقها وساحات لعبها وأسواقها، بل ومدارج للطائرات فيها ... على ظهر البحار والمحيطات.

٤- «وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَائِبٍ ...».

من مظاهر قدرة الله وعظمته المطر الذي يعيي الأرض، فتهتز ببركته وتنمو فيها النباتات وتحيا الدواب بحياة هذه النباتات، وكل هذه الحياة تنتشر على ظهر الأرض من قطرات ماء لا حياة فيها.

٥- «وَتَصْرِيفُ الرِّيَاحِ ...»، لا على سطح البحار والمحيطات لحركة السفن فحسب، بل على الجبال والهضاب والسهول أيضاً لتلقيع النباتات فتخرج لنا نمارها اليانعة.

وتارة تعمل على تحريك أمواج المحيطات بصورة مستمرة ومخضها مخض السقاء لا يجاد محيط مستعد لنمو وحياة الكائنات البحرية.

١- الفلك، هي السفينة أو السفن، فاللفظ مفرد وجمع.

وأخرى تقوم بتعديل حرارة الجو وتلطيف المناخ بتنقلها حرارة المناطق الاستوائية إلى المناطق الباردة، وبالعكس.

وأحياناً تقوم بنقل الهواء الملوث الفاقد للأوكسجين من المدن إلى الصحاري والغابات لمنع تراكم السموم في الفضاء.

أجل فهوب الرياح مع كل تلك البركات والفوائد علامة أخرى على حكمة الباري ولطفه الدائم.

٦- «وَالسَّحَابُ الْمُسَخِّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» والسحب المتراكمة في أعلى الجو، المحملة ب مليارات الأطنان من المياه خلافاً لقانون الجاذبية، والمتحركة من نقطة إلى أخرى دون ايجاد خطر، من مظاهر عظمة الله سبحانه.

إضافة إلى أن هذا الودق (المطر) الذي يخرج من خلال السحاب يسقي الأرض، وبحياة الأرض تحيا النباتات والحيوانات والإنسان، ولو لا ذلك لتحولت الكورة الأرضية إلى أرض مقرفة موحشة. وهذا مظهر آخر لعلم الله سبحانه وقدرته. وكل تلك العلامات والمظاهر «لَا يَأْتِي لِقَوْمٍ يَقْعِلُونَ»، لا للغافلين الصم البكم

العمي.



الآيات

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً إِجْحَوْنَاهُمْ كَعْبَ
اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُ حُبَّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ
يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝ إِذْ
تَبَرَّأُ الَّذِينَ أَتَبَعُوا مِنَ الَّذِينَ أَتَبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَنَقَطَعَتْ
بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أَتَبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ
كَمَا تَبَرَّءُونَا كَذَلِكَ يُرِيمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتِ عَلَيْهِمْ وَمَا
هُمْ بِخَرِيجِينَ مِنَ النَّارِ ۝

التفسير

أنمة الكفر يتبرّرون من أتباعهم!

تناولت الآيات السابقة دلائل وجود الله سبحانه وإثبات وحدانيته، عن طريق عرض مظاهر لنظام الكون. وهذه الآيات تتحدث عن أولئك الذين أعرضوا عن كل تلك الدلائل الواضحة، وساروا على طريق الشرك والوثنية وتعدد الآلهة .. عن أولئك الذين يحنون رؤوسهم تعظيماً أمام الآلهة المزيفة، ويتعشقونها ويشغفون بها حتّى لا يليق إلا بالله سبحانه مصدر كل الكمالات وواهب جميع النعم.

تقول الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا» .
ولم يتتخذ المشركون هؤلاء الأنداد للعبادة فحسب، بل «يُجِبُونَهُمْ كَحْبَ اللَّهِ».
(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًّا لِّهِ)، لأنهم أصحاب عقل وإدراك، يفهمون أن الله سبحانه
مصدر كل الكلمات، وهو وحده اللائق بالحب، ولا يحبون شيئاً آخر إلا من
أجله. وقد غمر الحب الإلهي قلوبهم حتى أصبحوا يرددون مع أمير المؤمنين
على سبيله: «فَهَبْنِي صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ، فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ؟!» .

الحبُّ الحقيقِي يتجهُ دائمًا نحو نوع من الكمال، فالإنسان لا يحبُّ العدم والنقص، بل يسعى دوماً وراء الوجود والكمال، ولذلك كان الأكمل في الوجود والكمال أحق بالحب.

الآية أعلاه تؤكد أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكافرين لمعبوداتهم.
ولم لا يكون كذلك؟! فلا يستوي من يحب عن عقل وبصيرة، ومن يحب عن
حاجة، وخرافة وتحتها.

حُبَّ الْمُؤْمِنِينَ ثَابِتٌ عَمِيقٌ لَا يَتَزَلَّ، وَحُبُّ الْمُشْرِكِينَ سَطْحِيٌّ تَافِهٌ لَا بَقَاءَ لَهُ
وَلَا إِسْتِرَادٌ.

لذلك تقول الآية: «وَلَا يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ، أَنَّ الْوَعْدَ اللَّهُ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ» لرأوا سوء فعلهم وسوء عاقبتهم.^٣

في هذه اللحظات تزول حجب الجهل والغور والفلة من أمام أعينهم، وحين يرون أنفسهم دون ملجاً أو ملاذ، يتوجهون إلى قادتهم ومعبوديهم، ولا ت حين ملاذ بغير الله **إِذْ تَبَرُّ الَّذِينَ أَتَيْعُوا مِنَ الَّذِينَ أَتَبَعُوا، وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَسَقَطُّعُتْ بِهِمْ**

١- الأئمَّاد جمع (نَدٌ) وهو (المُتَّلِّ)، وقال جمِعُ عُلَمَاءِ الْلَّهِ، هُوَ الْمُتَّلُ الْمُتَّبَاهُ فِي الْجُوَهِرِ، أَيْ إِنَّ الْمُشَرِّكِينَ كَانُوا يَمْقُدُونَ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَئمَّادَ يَتَحَلَّ الصَّفَاتُ الْإِلَهِيَّةُ!

٢- من دعاء علي عليه السلام المعروفي على لسان كميل بن زياد المعروف بدعاء (كميل).

٢- هذا على تفسير «لو» شرطية وجواهها ممحوّف، ومن المفسّرين من قال إن «لو» هنا للتنوي.

الأَنْبَابُ).

واضح أن المعبودين هنا ليسوا الأصنام الحجرية أو الخشبية، بل الطغاة الجبارون الذين استعبدوا الناس، فقدم لهم المشركون فروض الولاء والطاعة، واستسلموا لهم دون قيد أو شرط.

هؤلاء الغافلون المغفلون حين يروا ما حلّ بهم يمتنون أنفسهم: «وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّوا مِنْنَا» لكنها أمنية لا تتحقق، وعبرت آية أخرى عن مثل هذا التمني على لسان كافر يقول لمعبوده المزيف: «حَقٌّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ يَئِنِي وَيَبْتَلِكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فِيْشَ الْقَرَبَيْنِ» !

ثم تقول الآية: «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْنَاهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ».

ليس لهم إلا أن يتحسرون، يتحسرون على أموالهم التي كنزوها واستفاد منها غيرهم ... وعلى فرصة الهدایة والتوجة التي هيئت لهم فلم يستثمروها ... وعلى عبادتهم لأنهم زانفة بدل عبادة الله الواحد الأحد.

لكنها حسرة غير نافعة ... فالليوم الجزاء على ما جنته يد الإنسان من أخطاء، وليس يوم تلافي الأخطاء.

* * *

الآيات

يَتَأْكِلُونَ إِنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
خُطُوطِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُمْ عَدُوٌ مُّبِينٌ^٦ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوْءِ
وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَنْهَا عَنِ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^٧

سبب النزول

عن ابن عباس أن طوائف من العرب مثل ثقيف وحزاعة، حرموا على أنفسهم بعض النباتات والحيوانات دونما ذليل، (ونسبوا التحرير إلى الله أيضاً)، فنزلت الآيات تنهاهم عن ذلك.

التفسير

خطوات الشيطان!

ذمت الآيات السابقة الشرك والمشركين، وأحد أنواع الشرك إيكال أمر التقين والتشريع وتقرير الحلال والحرام إلى غير الله.

الآلية أعلاه اعتبرت هذا العمل شيطانياً وقالت: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا في الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوطِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُمْ عَدُوٌ مُّبِينٌ».

تكرر في القرآن طلب الإستفادة من الأطعمة، وورد الطلب عادة مقيداً

بالحلال وبالطيب.

و«الحلال» ما أبىع تناوله، والطيب ما طاب ووافق الطبع السليم، ويقابله «الخبيث» الذي يشمأز منه الإنسان.

و«الخطوات» جمع «خطوة» وهي المرحلة التي يقطعها الشيطان للوصول إلى هدفه وللتغريب بالناس.

عبارة «لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» تكررت خمس مرات في القرآن الكريم، وكانت في موضعين بشأن الاستفادة من الأطعمة والرزق الإلهي. وهي تحذير من استهلاك هذه النعم الإلهية في غير موضعها. وحتى على الاستفادة منها على طريق العبودية والطاعة لا الفساد والطفيان في الأرض.

النهي عن اتباع خطوات الشيطان في استئمار مواهب الطبيعة، توضحه آيات أخرى تنهى أيضاً عن الإفساد في استئمار ما وبهه الله للناس، كقوله تعالى: «كُلُّوا وَاشْرُبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَغُوَّثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ»^١، وك قوله سبحانه «كُلُّوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغُوا فِيهِ»^٢.

هذه الموارب والإمكانات ينبغي أن تكون طاقة دافعة نحو الطاعة لا وسيلة لارتكاب الذنب.

عبارة «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» تكررت في القرآن الكريم عشر مرات بعد الحديث عن الشيطان، كي تحفز الإنسان، وتجعله متاهباً لمجابهة هذا العدو اللدود الظاهر.

الآية التالية تؤكد على عداء الشيطان، وعلى هدفه المتمثل في شقاء الإنسان، وتقول: «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَنْتَهُوا عَنِ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

منهج الشيطان يتلخص في ثلاثة أبعاد هي: السوء، والفحشاء، والتقول على الله.

الفحشاء من «الفحش»، وهو كل عمل خارج عن حد الإعتدال، ويشمل كل المنكرات والقبائح المبغضة والملئية. واستعمال هذه المفردة حالياً بمعنى الأفعال المنافية للنفحة هو من قبيل استعمال اللفظ الكلي في بعض مصاديقه. عبارة «تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» قد تشير إلى تحريم بعض الأطعمة المحلاة، كما مرّنا في سبب التزول. وهو عمل بعض القبائل العربية في العاشرية، وقيل: إن رواسبه كانت باقية في ذهن بعض المسلمين الجدد^١. وقد يتسع معناها ليشمل الشرك والتشبيه بالله أيضاً.

على أية حال، العبارة تشير إلى القول غير القائم على العلم، وهو قول شيطاني مذموم، خاصة إذا كان متضمناً نسبة شيء إلى الله. الإسلام يحث دوماً على الإنطلاق من العقل والمنطق في اتخاذ المواقف وفي إصدار الأحكام، ولو كان دأب أفراد المجتمع ذلك لزال من المجتمع الشقاء. كل ما دخل في الأديان الإلهية من تحرير ومسخ إنما كان على يد أفراد بعيدين عن المنطق، والجانب الأكبر من الإنحرافات العقائدية يعود إلى عدم رعاية هذا الأصل، لذلك كان محوراً من محاور النشاط الشيطاني بعنوان مستقل -في مقابل السوء والفحشاء- في الآية المذكورة.

* * *

بحوث

١- أصل الحقيقة:

هذه الآية تدل على أنَّ الأصل في كل الأغذية الموجودة على ظهر الأرض

الحلية، والمستنثنة هي الأغذية المحرمة. من هنا فإن العرمة تحتاج إلى دليل لا الحلية. وهذا ما يقتضي، أيضاً طبيعة الخليقة. إذ لا بدّ من وجود تنسيق بين القوانين التشريعية والقوانين التكوينية.

عبارة أوضاع ما خلقه الله لا بدّ أن ينطوي علىفائدة لعباده. من هنا فلا معنى أن يكون الأصل الأوّلي للأطعمة على ظهر الأرض التحرير. فكل غذاء إذن حسب هذه الآية الكريمة حلال مالم تثبت حرمته بدليل صحيح، ومادام لا يشكل ضرراً على الفرد والمجتمع.

٢- الإنحرافات التدريجية

عبارة «خطوات الشّيطان» قد تشير إلى مسألة تربوية دقيقة، هي إن الإنحرافات تدخل ساحة الإنسان بشكل تدريجي، لا دفعي فوري. فتلّوّت شاب بالقمار، أو شرب الخمر، أو بالمخدرات مثلاً يتم على مراحل: يشترك أولاً متفرجاً في جلسات الخماريين أو المقامرين، ظاناً أنه عمل اعتيادي لا ضير فيه.

ثم يشترك في القمار للترويع عن النفس (دون ربح أو خسارة)، أو يتناول شيئاً من المخدرات بحجة رفع التعب أو المعالجة أو أمثالها من العجج. وفي الخطوة الأخرى يمارس العمل المحرم قاصداً أنه يمارسه مؤقتاً. وهكذا تتّوالى الخطوات واحدة بعد أخرى ويصبح الفرد مقامراً محترفاً أو مدمناً خطراً.

وساوس الشّيطان تدفع بالفرد على هذه الصورة التدريجية نحو هاوية السقوط، وليست هذه طريقة الشّيطان الأصلي فحسب، بل كل الأجهزة الشّيطانية تنفذ خططها المشؤومة على شكل «خطوات» لذلك يعذر القرآن كثيراً من اتخاذ الخطوة الأولى على طريق الإنزلاق.

جدير بالذكر أن الأعمال الخرافية غير القائمة على أساس منطقى اعتبرتها الصووص الإسلامية من «خطوات الشيطان».

وقد ورد في رجل أقسم أن يذبح ابنه، قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «ذلك من خطوات الشيطان».^١

وعن الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام: «كُلُّ مَيْنَ بِسْعَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ».^٢

وعن الإمام الصادق أيضاً: «إِذَا حَلَّتِ الرَّجُلُ عَلَى شَيْءٍ وَالَّذِي حَلَّتِ عَلَيْهِ إِثْيَاءً خَيْرٌ مِنْ تَزْكِيَّةِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلَا كَفَارَةَ لَهُ وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ».^٣

٣- الشيطان عدو قديم

الآية الكريمة وصفت الشيطان أنه «عدو مبين»، وذلك إنما لعدائه لأدم بعد أن أبى السجود له، وخسر كل شيء على أثر ذلك. وإنما بسبب إغواته الواضح لبني البشر ودفعهم على طريق الإجرام. وواضح أن هذا الدفع لا يصدر إلا من عدو لدود.

أو لأن الشيطان أعلن عداه صراحة للإنسان، وعاهد نفسه على إغواتهم إذ قال: «لَا غُوَيْنَهُمْ أَجْعَنَّ».

٤- طريقة الوسوسة الشيطانية

الآية الكريمة تحدثت عن أمر الشيطان: فقالت: «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ...» وهذا الأمر هو الوسوسه الشيطانية. وقد يطرح سؤال بشأن هذه الأوامر الشيطانية إذ لا يحسّ الإنسان بأمر خارجي يصدر إليه حين يرتكب

١- تفسير الميزان، ج ١، ص ٤٢٨.

٢- نفس المصدر.

١- نفس المصدر.

٢- نفس المصدر.

السيئات، ولا يتلمس سعيًا شيطانياً لإضلالة.

الجواب هو أن هذه «الوسوسة» تأثير خفي عبرت عنه بعض الآيات بالإيحاء: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُؤْمِنُونَ إِلَى أَوْلَيَّاً مِّنْهُمْ»^١. والإيحاء من «الوحى» الذي هو تأثير غيبى خفى أو التأثيرات اللاواعية أحياناً.

وثمة فرق بين «الإلهام الإلهي» و«الوسوسة الشيطانية» هو إن الإلهام الإلهي لانسجامه مع الفطرة الإنسانية ومع تركيب الجسم والروح، يترك في النفس حالة انبساط وانشراح.

بينما الوسوسة الشيطانية لتناقضها مع الفطرة الإنسانية السليمة، تجعل القلب يحس بظلم وانزعاج وتقل. وإن لم يحدث فيه مثل هذا الإحساس قبل ارتكاب السيئة فإنه يحس بها بعد الإرتكاب. هذا هو الفرق بين الإلهامات الشيطانية والإلهامات الإلهية.

* * *

الآيات

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَبْعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَنْتَنَا
عَلَيْهِ أَبَاءُنَا أَوْلَوْ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلُ الَّذِي يَتَعَقَّبُهَا لَا يَسْمَعُ
إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمُ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

التفسير

التقليد الأعمى

تشير الآية إلى منطق المشركين الواهبي في تحرير ما أحل الله، أو عبادة الأوّان وتقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَبْعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَنْتَنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا».

ويدين القرآن هذا المنطق الغرافي، القائم على أساس التقليد الأعمى لعادات الآباء والأجداد، فيقول: «أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» أي إن اتباع الآباء صحيح لو أنهم كانوا على طريق العقل والهداية. أما إذا كانوا لا يعقلون ولا يهتدون، فما اتبعهم إلّا تركيز للجهل والضلالة.

الإنسان الجاهلي لا يستند إلى قاعدة ايمانية يحسن معها بوجوده وبشخصيته وبأصالته، لذلك يستند إلى مفاخر الآباء وعاداتهم وتقاليدهم، ليصطفع له شخصية

كاذبة وأصالة موهومة. وهذه عادة الجاهلين قديماً وحديناً في تعصيمهم القومي وخاصة في ما يتعلق بأسلافهم.

الإسلام أدان المنطق الرجعي القائم على تقديس ما عليه الآباء والأجداد، لأنّه ينفي العقل الإنساني. ويرفض تطور التجارب البشرية، ويصادر الموضوعية في معالجة قضايا السلف.

هذا المنطق الجاهلي يسود اليوم - ومع الأسف - في بقاع مختلفة من عالمنا، ويظهر هنا وهناك بشكل «صنم» يوحى بعادات وتقاليد خرافية مطروحة باسم «آثار الآباء» ومؤامرة باسم الحفاظ على المآثر القومية والوطنية، مشكلاً بذلك أهم عامل لانتقال الخرافات من جيل إلى جيل آخر.

لا مانع طبعاً من تحليل عادات الآباء وتقاليد them، فما انسجم منها مع العقل والمنطق حُيظَّ، وما كان وهماً وخرافة لفظ. المقدار المنسجم مع العقل والمنطق من العادات والتقاليد يستحق الحفظ والصيانة باعتباره تراثاً قومياً. أما الإسلام التام الأعمى لتلك العادات والتقاليد فليس إلا الرجعية والحمامة.

جدير بالذكر أن الآية أعلاه تتحدث عن آباء هؤلاء المشركين وتقول عنهم إنهم لا يعلمون، ولا يهتدون. وهذا يعني إمكان الإقتداء بآثريين. فمن كان يملك الفكر والعقل والعلم، ومن كان قد اهتدى بالعلماء.

أما أسلاف هؤلاء فلم يكونوا يعلمون، ولم يكونوا قد اهتدوا بمن يعلم وهذا اللون من التقليد الأعمى هو السبب في تخلف البشرية لانه تقليد الجاهل. الآية التالية تبين سبب تعصب هؤلاء وإعراضهم عن الإنصياع لقول الحق تقول: **«وَمَنِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَنِلَ الَّذِي يَتْبَعُ عِمَّا يَشْعَرُ إِلَّا دُعَاءً وَيَنْدَاءً»**. تقول الآية: إن مثلك في دعوة هؤلاء المشركين إلى الإيمان ونبذ الخرافات والتقليد الأعمى كمن يصبح بقطيع الفنم (الإنقاذهم من الخطر) ولكن الإنعام لا تدرك منه سوى أصوات غير مفهومة.

أجل هؤلاء الكفار والمشركين كالحيوانات والانعام التي لا تسمع من زاعيها الذي يريدها الخير سوى أصوات مبهمة. ثم تضييف الآية لمزيد من التأكيد والتوضيح أن هؤلاء «صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»^١.

ولذلك يتمسكون بالتقاليد الخاطئة لآبائهم، ويعرضون عن كل دعوة بناءة. وقيل في تفسير الآية أيضاً إن معناها: مثل الذين يدعون أصنامهم وألهتهم الكاذبة كالذى يدعو البهائم، لا الحيوانات تفهم النداء ولا تلك الأصنام، لأن هذه الأصنام صماء بكماء عمياً لا تعقل. أكثر المفسرين على التفسير الأول للآية، والروايات الإسلامية تؤيده ونحن على ذلك أيضاً.

* * *

بحثان

١ - سبل المعرفة

يحتاج الإنسان في ارتباطه بالخارج دون شك إلى سبل، تسمى سبل المعرفة. أهم هذه السبل العين والأذن للرؤية والسماع، واللسان للسؤال. لذلك، بعد أن تصف الآية هؤلاء بأنهم صم بكم عمى، تستتبع باستعمال فاء التفريغ وتقول: «فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ». من هنا يقرر القرآن أن أساس العلوم العين والأذن واللسان، العين والأذن للفهم المباشر، واللسان لإقامة الارتباط بالأخرين وكسب علومهم.

١ - وفقاً لهذا التفسير فإن المعنى بحاجة إلى تقدير، ففي الأصل: مثل الداعي للذين كفروا إلى الإيمان ... وعلى هذا تكون جملة «صم بكم عمى فهم لا يعقلون» وصفية لهؤلاء الأشخاص الذين فقدوا جميع آليات الإدراك عملياً. لأنهم فقدوا العين والأذن واللسان ولكن بما أنهم لم يتضرروا بها بالوجه الصحيح، فكانوا قد فقدوها.

والفلسفة أثبتت أيضاً حقيقة انطلاق العلوم غير الحسية أيضاً من العلوم الحسية، وهو بحث واسع لا مجال هنا لشرحه. (المزيد من التوضيح عن نعمة أدوات المعرفة راجع المجلد الثامن من هذا التفسير، في شرح الآية ٧٨ من سورة التحل).^١

٢- نعق الغراب:

إذا صوت دون أن يمدّ عنقه، فإذا مدد عنقه وحركها ثم صاح قيل: نفق
(بالغين).^١

ثم توسعوا في نعق لتشمل كل صوت تنادي به البهائم، وواضح أن هذه البهائم لا تفهم شيئاً من هذا النداء وإن أبدت ردّ فعل تجاه هذا النداء، فإنما هو لدويّ هذا الصوت وطريقة أدائه الخاصة.

* * *

١- مجمع البيان، تفسير الآية مورد البحث.

الآيات

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَأَشْكُرُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانَ تَعْبُدُونَ ﴿١﴾ إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ
وَالدَّمْ وَلَكُمُ الْخِنْزِيرُ وَمَا أُهْلِكَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطَرَّ غَيْرُ بَاعِ
وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾

التفسير

الطيبات والخباث

القرآن ينبعج أسلوب التأكيد والتكرار بأشكال مختلفة في معالجه للإنحرافات المズمنة. وفي هذه الآيات عودة إلى مسألة تحريم المشركين في الجاهلية لبعض الأطعمة دونما دليل. مع فارق هو أن الخطاب يتوجه في هذه الآيات إلى المؤمنين، بينما خاطبت الآيات السابقة جميع الناس.

تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانَ تَعْبُدُونَ».

هذه النعم الطيبة المحللة المناسبة مع الفطرة الإنسانية السليمة قد خلقت لكم، فلم لا تستفيدون منها؟!

هذه الأطعمة تمنحكم القوة على أداء مهامكم، وتذكركم بشكر خالقكم

وعبادته.

لو قارنا هذه الآية بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ»^١ لفهمنا تكتفين:

تقول الآية هنا: «مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ»، بينما تقول تلك «مِمَّا فِي الْأَرْضِ». ولعل هذا الاختلاف يشير إلى أن النعم الطيبة مخلوقة أصلًا للمؤمنين، وغير المؤمنين يتناولون هذه الأطعمة ببركة المؤمنين، كالماء الذي يستعمله البستاني لسقي أشجاره وأغراضه، بينما تستفيد من هذا الماء أيضاً الأعشاب والنباتات الطفيلية.

والآخرى، أن الآية تقول لامة الناس: «كُلُوا... وَلَا تَتَبَرَّغُوا خَطُوطَ الشَّيْطَانِ» وهذه الآية تخاطب المؤمنين وتقول: «كُلُوا... وَاشْكُرُوا اللَّهَ» أي لا تكتفي هذه الآية بالطلب من المؤمنين أن لا يسيئوا الاستفادة من هذه النعم، بل تعدهم على حسن الاستفادة منها.

فالمتوقع من الناس العاديين أن لا يذنبوا في استهلاك هذه النعم، بينما المتوقع من المؤمنين أن يستثمروها في أفضل طريق.

وقد يثير تكرار التأكيد في القرآن الكريم على الاستفادة من الأطعمة الطيبة تساولاً عن سبب هذا التكرار. أمّا لو عدنا إلى تاريخ العصر الجاهلي لفهمنا السبب. فالجاهليون قد حرموا على أنفسهم بعض الأطعمة دونما دليل، وتناقلت أجيالهم هذا التحرير وكأنه وحي منزل، ونسبوه أحياناً بصراحة إلى الله، والقرآن استهدف إقتلاع جذور هذه الأفكار الخرافية من أذهانهم.

تم إن التركيز على كلمة «طيب» يتضمن أيضاً دعوة إلى اجتناب ما خبث من الأطعمة، كالميّة والوحش والحشرات، وكالمسكرات السائدة بين الناس بشدة.

في تفسير الآية ٣٢ من سورة الأعراف تحدثنا بالتفصيل عن استثمار المؤمنين الأطعمة الطيبة والزينة المعقولة (المجلد الخامس من هذا التفسير). الآية التالية تبين بعض ألوان الأطعمة المحرمة، وتقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَكَ يَدَهُ لِغَيْرِ اللَّهِ».

تذكر الآية ثلاثة أنواع من اللحوم المحرمة إضافة إلى الدم، وهي من أكثر المحرمات انتشاراً في ذلك العصر، في بعضها خبث ظاهر لا يخفى على أحد كالميته والدم ولحم الخنزير، وفي بعضها خبث معنوي كالي التي ذبحت من أجل الأصنام.

الحصر في الآية بكلمة «إنما» هو «حصر إضافي» لا يستهدف منه بيان جميع المحرمات، بل نفي ما ابتدعوه بشأن بعض اللحوم المحللة. بعبارة أخرى، هؤلاء الجاهليون حرموا بعض الأطعمة الطيبة استناداً إلى ما توارثوه من خرافات وأوهام، لكنهم بدلاً من ذلك كانوا يعمدون عند قلة الطعام إلى أكل الميته أو الخنزير أو الدم.

القرآن يقول لهؤلاء إن هذه هي الأطعمة المحرمة لا تلك (وهذا هو معنى الحصر الإضافي).

ولئن كانت بعض الضرورات تدفع الإنسان إلى تناول الأطعمة المحرمة حفظاً لحياته، فقد استثنى الآية هذه الحالة وقالت: «فَنَّ أَضْطُرُهُ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِنْ شَاءَ عَنِيهِ».

ومن أجل أن تقطع الآية الطريق أمام من يتذرع بالإضطرار، أكدت على كون المضطر «غير باغ» و«لَا عاد». والباغي هو الطالب، والمراد هنا طالب اللذة والعادي هو المتجاوز للحد، أي المتجاوز حدَ الضرورة، فالرخصة هنا إذن لمن لا يريده اللذة في تناول هذه الأطعمة، ولا يتجاوز حدَ الضرورة اللازم لنجاته من

الموت.

ولأن معنى النبي الظلم أيضاً ذهب بعض المفسرين إلى أن الرخصة منسوحة لأنك الذين يضطرون خلال سفر محلل، لا خلال سفر المعصية. فالمسافرون لهدف غير مشروع قد يجب عليهم تناول الأطعمة المحرمة لحفظ النفس من التلف، إلا أن هذا العمل يكتب في صحيفة أعماله من الذنوب. بعبارة أخرى: هؤلاء العاصون قد يجب عليهم عقلاً في أسفارهم المحرمة أن يتناولوا شيئاً من الأطعمة المحرمة لدى الإضطرار، لكن هذا الوجوب لا يرفع عنهم المسئولة، لأنهم أجبروا على ذلك وهم على مسیر خاطيء. وهناك روايات تذكر أن الآية تشير إلى السائرين على طريق الخروج على إمام المسلمين، فهو لا مستثنون من هذه الرخصة. وهذه الروايات تشير في الواقع إلى نفس الحقيقة المذكورة، وهكذا الأمر في أحكام صلاة المسافر، فالمسافر يقصر الصلاة في السفر إلا ما كان سيراً حراماً، ولذلك يستدل بعبارة (غير باغ ولا عاد) للحكيمين معاً، حكم صلاة المسافر، وحكم ضرورة تناول اللحوم المحرمة^١ وفي الختام تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» فإن الله الذي حرم تلك الأطعمة أباح تناولها في موارد الضرورة برحمته الخاصة.

* * *

بحوث

١- فلسفة تحريم اللحوم المحرمة:

الأغذية المحرمة التي ذكرتها الآية الكريمة أعلى لها - كسائر المحرمات الإلهية - فلسفتها الخاصة. وقد شرعت إنطلاقاً من خصائص الإنسان جسمياً

^١- روى عن الإمام الصادق عليه السلام: «أَنَّ (الباغي) مُرْدَافِيَتُ الْمُهْنِدِ عَلَى سَبِيلِ الشَّرِئِ، وَ(النَّادِي) مُرْدَافِيَتُ الشَّارِقِ، وَهَذَانِيَتُهُنَّ مِنْ رَحْمَةِ أَكْلِ الْبَيْتَةِ وَتَقْرِيرِ الصَّلَاةِ». (وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٥٠٩)

وروحياً، والروايات الإسلامية ذكرت علل بعض هذه الأحكام، والعلوم الحديثة أematت اللثام أيضاً عن بعض هذه العلل.

على سبيل المثال، روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «...أَمَّا الْمِيَّتَةُ فَإِنَّهُ لَمْ يَسْتَلِ
مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا ضَعَفَ بِذَنْبِهِ، وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ، وَانْقَطَعَ نُشُورُهُ، وَلَا يَمْوَثُ أَكِيلُ الْمِيَّتَةِ إِلَّا قَبَاهُ»^١.

ولعل هذه المفاسد تعود إلى أن جهاز الهضم لا يستطيع أن يচنع من الميّة دماً سالماً حيّاً، إضافة إلى أن الميّة مرتع أنواع الميكروبات، والإسلام اعتبر الميّة نجسة، كي يبتعد عنها المسلم فضلاً عن عدم تناولها.

والهرم الثاني في هذه الآية «الدم»، وشرب الدم له مفاسد أخلاقية وجسمية، فهو وسط مستعد تماماً لتكاثر أنواع الميكروبات.

الميكروبات التي تدخل البدن تتوجه أول ما تتجه إلى الدم، وتتخذه مركزاً لنشاطهم، ولذلك اتخذت الكريات البيضاء مواقعها في الدم للوقوف بوجه توغل هذه الأحياء المجهرية في الدم المرتبط بكل أجزاء الجسم.

وحين يتوقف الدم عن الحركة وتنتهي الحياة فيه، يتوقف نشاط الكريات البيض أيضاً، ويصبح الدم على بذلك وسطاً صالحًا لتكاثر الميكروبات دون أن تواجه عقبة في التكاثر. ولذلك نستطيع القول إن الدم - حين يتوقف عن الحركة - يكون أكثر أجزاء جسم الإنسان والحيوان تلواناً.

ومن جهة أخرى ثبتاليوم في علم الأغذية، أن الأغذية لها تأثير على الأخلاق والمعنويات عن طريق التأثير في الغدد وإيجاد الهرمونات. ومنذ القديم ثبت تأثير شرب الدم على تشديد قسوة الإنسان، وأصبح ذلك مضرب الأمثال. لذلك نرى الرواية عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام تقول:

«أَمَّا الدَّمُ فَإِنَّهُ يُورِثُ الْقَسْوَةَ فِي الْقَلْبِ وَقَلْةَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ حَقَّ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يَسْتَلِ

ولده ووالديه ولا يؤمن على حيمه ولا يؤمن على من يصحبه»^١.

ثالث: المحرمات المذكورة في الآية «لحم الخنزير».

الخنزير - حتى عند الأوروبيين المولعين بأكل لحمه - رمز التحلل الجنسي.

وهو حيوان قذر للغاية، وتأثير تناول لحمه على التحلل الجنسي لدى الإنسان مشهود.

حرمة تناول لحمه صرحت بها شريعة موسى عليه السلام أيضاً، وفي الأنجليل شبهه المذنبون بالخنزير، كما أن هذا الحيوان مظهر الشيطان في القصص.

ومن العجيب أن أنساً يرون بأعينهم قذارة هذا الحيوان حتى إنه يأكل عذرته، ويعلمون احتواء لحمه على نوعين خطرين من الديدان، ومع ذلك يصرّون على أكله.

دودة «التريشين» التي تعيش في لحم هذا الحيوان تتکاثر بسرعة مدهشة، وتبيض في الشهر الواحد خمسة عشر ألف مرة، وتسبب للإنسان أمراضًا متنوعة كنقر الدم، والغثيان، وحemic خاصة، والإسهال، وألام المفاصل، وتتوتر الأعصاب، والحكمة، وتجمع الشحوم داخل البدن، والإحساس بالتعب، وصعوبة مضاع الطعام وببلعه، والتنفس و....

وقد يوجد في كيلو واحد من لحم الخنزير (٤٠٠) مليون دودة من هذه الديدان !! ولذلك أقدمت بعض البلدان الأوروبية في السنوات الماضية على منع تناول لحم هذا الحيوان.

وهكذا تتجلّى عظمة الأحكام الإلهية ببرور الأيام أكثر فأكثر.

يقول البعض أن العلم تطور بحيث استطاع أن يقضي على ديدان هذا الحيوان، ولكن على فرض أننا استطعنا بواسطه العقاقير، أو بالاستفادة من العرارة

الشديدة في طبخه، إلا أن أضراره الأخرى ستبقى. وقد ذكرنا أن للأطعمة تأثيراً على أخلاق الإنسان عن طريق تأثيرها على الغدد والهرمونات وذلك الأصل. علمي مسلم، وهو أن لحم كل حيوان يحوي صفات ذلك الحيوان أيضاً. من هنا تبقى للحم الخنزير خطورته في التأثير على التحلل الجنسي للأكلين، وهي صفة بارزة في هذا الحيوان.

ولعل تناول لحم هذا الحيوان أحد عوامل التحلل الجنسي في أوروبا.

رابع، المحرمات في الآية «مَا أَهْلَ بِهِ لِفَيْرُ اللَّهِ»، وهي الحيوانات التي تذبح على غير اسم الله، والتي كانت تقدم للأصنام في الجاهلية.

وتحريم لحوم هذه الحيوانات لا يلزم بالضرورة أن تكون لها اضرار صحية حتى؟ يقال: إن ذكر اسم الله أو غير الله حين الذبح لاربط له بالامور الصحية. فليس من العhtm أن تكون للحم آثار صحية حتى تكون محمرة. لأن المحرمات في الاسلام لها أبعاد مختلفة، فتارة بسبب الصحة وحفظ البدن وأخرى يكون للتحريم جانب معنوي وأخلاقي وتربوي، فهذه اللحوم تبعد الإنسان عن الله، ولها تأثير نفسي وتربوي سلبي على الأكل، لأنها من سن الشرك والوثنية وتعيد إلى الذهن تلك التقاليد الخرافية.

٢- التكرار والتاكيد

تحريم المواد الأربع المذكورة تكرر في أربع سور من القرآن، سورتين مكثتين (الأنعام، ١٤٥ والنحل، ١١٥) وسورتين مدنثتين (البقرة، ١٧٣ والمائدة، ٣).

يبدو أن تحريم هذه اللحوم أعلن أولاً في أوائلبعثة، ثم أعلن ثانية في أواخر إقامة الرسول ﷺ في مكة، وتكرر الإعلان ثلاثة في أوائل الهجرة إلى المدينة، ثم أعيد التأكيد رابعة في أواخر عمر الرسول في سورة المائدة وهي آخر

سور القرآن.

كل هذا التأكيد يعود إلى أهمية الموضوع وإلى ما في هذه المواد من أخطار جسمية وروحية، وإلى اتساع نطاق تلوث الناس آنتز بها.

٣- حقن الدم

واضح أن تحريم تناول الدم في الآية لا يشمل موارد الاستفادة المعقولة من هذه المادة مثل حقن الدم لإنقاذ العرجى والمرضى، كما لا يتوفى لدينا دليل على حرمة بيع الدم وشرائه في هذه الموارد، لأنها موارد استفادة عقلانية مشروعة عامة.

* * *

الآيات

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَسْتَرُونَ بِهِ
مَنَا قَلِيلًا أَوْ لَتِنَكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا أَثَارٌ وَلَا يَكُلُّهُمْ
اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَوْ لَتِنَكَ
الَّذِينَ أَشْرَرُوا أَضْلَلَةً بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمُغْفِرَةِ فَمَا
أَصْبَرْهُمْ عَلَى النَّارِ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ
الَّذِينَ أَخْتَلُفُوا فِي الْكِتَابِ لَنِي شَقَاقٌ بَعِيدٌ ۝

سبب النزول

أجمع المفسرون على نزول هذه الآية في أهل الكتاب، وقيل إنها نزلت خاصة في علماء اليهود. فقد كانوا قبل ظهور الإسلام يبشرؤن بصفات النبي المرتقب وبعلماته. وبعدبعثة خاف هؤلاء الأخبار على مصالحهم فكفوا عن طريقتهم السابقة، وكتموا ما عندهم في التوراة من صفات النبي، فنزلت الآيات تؤنيهم.

التفسير

إدانة كتمان الحق مرة أخرى

هذه الآيات تأكيد على ما مر في الآية ١٥٩ بشأن كتمان الحق. وهي - وإن

كانت تخاطب أهبار اليهود - لها مفهوم عام، لا يقتصر - كما ذكرنا مراراً - على سبب نزولها. فسبب نزول - في الواقع - وسيلة لبيان الأحكام الكلية العامة، ومصداق من مصاديق الحكم الكلي للآية.

فكل الذين يكتمون أحكام الله وما يحتاجه الناس من حقائق طلباً للرثافة أو الثروة، قد ارتكبوا خيانة كبرى، وعليهم أن يعلموا أنهم باعوا حقيقة نفيسة بثمن بخس، وهي تجارة خاسرة.

الآية الأولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ مَنَا قَلِيلًاً أَوْ لَيْكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بَطْوَنِهِمْ إِلَّا النَّارَ».

هذه الهدايا والعطایا التي ينالونها من هذا الطريق نيران محرقة تدخل بطونهم. هذا التعبير يوضح ضمniaً مسألة تجسيم الأعمال في الآخرة وتدل على أن الأموال المكتسبة عن هذا الطريق المحرّم، هي في الواقع نيران تدخل في بطونهم وستجسم بشكل واقعي في الآخرة.

ثم تتعرض الآية إلى عقاب معنوي سينال هؤلاء أشدّ من العقاب المادي، وتقول: «وَلَا يَكُلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَمْ يَعْذَابُ أَلَيْهِمْ».

وفي موضع آخر ذكر القرآن مثل هذا اللون من العقاب لأولئك الذين ينكثون عهد الله من أجل مصالح تافهة، فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثُمَّ نَأَلِيلًاً أَوْ لَيْكَ لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْتَهِ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَمْ يَعْذَابُ أَلَيْهِمْ».

يستفاد من هذه الآية والأية التالية أن واحدة من أعظم المواهب الإلهية في الآخرة أن يكلم الله المؤمنين تلطقاً لهم، أي إن المؤمنين سينالون في الآخرة نفس المنزلة التي نالها أنبياء الله في الدنيا، وسيلتذذون بما التذ به الأنبياء من تكليم إلهي

المنزلة التي نالها أنبياء الله في الدنيا، وسيلتذون بما التذ به الأنبياء من تكليم إلهي ... وأية لذة أعظم من هذه اللذة؟! أضف إلى ذلك إن الله ينظر إليهم بعين لطفه، ويظهر لهم بماء عفوه ورحمته، وأية نعمة أعظم من هذه النعمة؟!

بدينهي أن تكليم الله عباده لا يعني أن الله له جسم ولسان، بل إنه بقدرته الواسعة يخلق في الفضاء أمواجاً صوتية خاصة قابلة للسمع والإدراك، (كما كلام الله موسى عند جبل الطور)، أو أنه يتكلم مع خاصة عباده بلسان القلب عن طريق الإلهام.

على أية حال، هذا اللطف الإلهي الكبير، وهذه اللذة المعنية المنقطعة النظر، للعباد المخلصين الذين ينطقون بالحق ويعرفون الناس بالحقائق، ويسألونه بعهودهم ومواثيقهم، ولا يضلونه برسائلهم من أجل مصالحهم المادية. وقد يسأل سائل عن تكليم الله المجرمين يوم القيمة، استناداً إلى ما ورد في الآيات كقوله تعالى: «قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ»^١. وهذا جواب من الله لأنّه يطلبون الخروج من النار. ومثل هذا الحوار نجده في الآيتين ٣٠ و ٣١ من سورة العنكبوت.

والجواب: أن المقصود من التكليم في آيات بحتنا، هو تكليم عن لطف وحبّ واحترام، لا عن تحفيز وطرد وعقوبة فذلك من أشدّ الجزاء. من الواضح أن عبارة «يُشَرِّقُونَ بِهِ ثُمَّا قَلِيلًا» لا تعني السماح بأن يشتروا به ثمناً باهظاً، فالمعنى أن الثمن المادي مهما زاد فهو تافه لا قيمة له أمام كتمان الحق، حتى ولو كان الثمن الدنيا وما فيها.

الآية التالية تحدد وضع هذه المجموعة وتبيّن نتيجة صفتها الخاسرة وتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْرَوُا الضُّلَالَةَ بِالْمُهْدَىٰ وَالْقَدَابَ بِالْمُغَيْرَةِ».

فهؤلاء خاسرون من ناحيتين: من ناحية تركهم الهدایة و اختيار الضلال، ومن ناحية حرمانهم من رحمة الله واستحقاقهم بدل ذلك العقاب الإلهي، وهذه مبادلة لا يقدم عليها إنسان عاقل.

لذلك تتحدث الآية عن هؤلاء بلغة التعجب وتقول: **«فَأَضْبَرُهُمْ عَلَىٰ النَّارِ؟!»**

آخر آية في بحثنا تقول إن ذلك التهديد والوعيد بالعذاب لكتابي الحق، يعود إلى أن الله أنزل القرآن بالدلائل الواضحة، حتى لم تبق شبهة لأحد: **«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ»**.

مع ذلك فإن زمرة معرفة تعمد إلى كتمان الحقائق صيانة لصالحها، وتشير إلى اختلاف في الكتاب السماوي لتصيد في الماء العكر.

مثل هؤلاء الذين يشرون إلى اختلاف في الكتاب السماوي بعيدون عن الحقيقة: **«وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَقُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ»**.

كلمة «شقاق» تعني في الأصل الشق والإقصال، ولمل المراد به أن الإيمان والتقوى ونشر الحقائق رمز وحدة المجتمع الإنساني، أما الخيانة وكتمان الحقائق فعامل التفرقة والتباعد والإنشقاق لا الإنشقاق السطحي الذي يمكن التغافل عنه بل البعيد والميق.

* * *

الآية

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُؤْلُوا وُجُوهَكُمْ قِبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءاَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمُكْتَسَكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذُوِّ الْقُزْبَنِ وَالْيَسَمَنِ
وَالْمَسْكِينَ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالشَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَءَاتَى الرَّكَوْنَةَ وَالْمَوْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَنْهُدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبُلَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَجِئْنَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٤٢﴾

النزول

تغير القبلة أثار بين الناس ضجة، وخاصة بين اليهود والنصارى الذين كانوا يرون في اتباع المسلمين لقبلتهم سند افتخار لهم. القرآن الكريم رد في الآية ٤٢ من هذه السورة على اعتراضاتهم في قوله تعالى: «سيقول السفهاء ...» وفي هذه الآية يطرح المعيار الصحيح لتقدير المجموعة البشرية.

التفسير

أساس البر

ذكرنا في تفسير آيات تغير القبلة، أن النصارى كانوا يتوجهون في عباداتهم

نحو الشرق واليهود نحو الغرب، وقرر الله الكعبة قبلة لل المسلمين، وكانت في اتجاه الجنوب وسطاً بين الإنجاهين.

ومرّ بنا الحديث عن الضجة التي أثيرت بين اعداء الإسلام والمسلمين الجدد بشأن تغيير القبلة.

الآية أعلاه تخاطب هؤلاء وتقول: «أَتَيْسَ الْبَرُّ أَنْ تُؤْلُوا وَبِعُوهُكُمْ قِبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

«البر» في الأصل التوسيع، ثم أطلق على أنواع الإحسان، لأن الإنسان بالإحسان يخرج من إطار ذاته ليتسع ويصل عطاوه إلى الآخرين. و«البر» بفتح الباء، فاعل البر، وهي في الأصل الصحراء والمكان القسيع، وأطلقت على المحسن بنفس النهاية السابقة.

ثم يبين القرآن أهم أصول البر والإحسان وهي ستة، فيقول: «وَلَكِنَّ الْبَرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمُلَائِكَةَ وَالْكِتَابِ وَالثَّيَّبِينَ».

هذا هو الأساس الأول: الإيمان بالمبدأ، والمعاد، والملائكة المأمورين من قبل الله، والمنهج الإلهي، والنبيين الدعاة إلى هذا المنهج. والإيمان بهذه الأمور يعني وجود الإنسان، ويغلق فيه الدافع القوي للحركة على طريق البناء والأعمال الصالحة.

جدير بالذكر أن الآية تقول: «وَلَكِنَّ الْبَرَّ مَنْ ...» ولم تقل ولكن البر بفتح الباء، أو البر بصيغة اسم الفاعل. أي أن الآية استعملت المصدر بدل الوصف، وهذا يفيد بيان أعلى درجات التأكيد في اللغة العربية. فحين يقول أحد: على ^{الله} هو العدل في عالم الإنسانية. فهو يقصد أنه عادل للغاية وأن العدالة قد ملأت وجوده بحيث أن من يراه فكأنما لا يرى سوى العدالة مجسدة. وحين يقول: بني أمية ذلّ الإسلام، فيعني أن كل وجودهم ذلّ للإسلام.

ثم تذكر الآية الإنفاق بعد الإيمان، وتقول: «وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذُوِي التَّقْرِبَةِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ».

إنفاق المال ليس بالعمل اليسير على الجميع، خاصة إذا بلغ الإنفاق درجة الإيثار، لأن حب المال موجود بدرجات متفاوتة في كل القلوب. وعبارة «على حُبِّهِ» إشارة إلى هذه الحقيقة. هؤلاء يندفعون للإنفاق رغم هذا الحب للمال من أجل رضا الله سبحانه.

الآية عدلت ستة أصناف من المحتاجين إلى المال:

ذكرت بالدرجة الأولى ذوي القربي، ثم اليتامي والمساكين، ثم أولئك الذين اعترتهم الحاجة مؤقتاً كأبناء السبيل وهو المسافر المحتاج، ثم تذكر الآية بعد ذلك السائلين إشارة إلى أن المحتاجين ليسوا جميعاً أهل سؤال. فقد يكونون متعففين لا تبدو على سيمائهم الحاجة. لكنهم في الواقع محتاجون، وعن هؤلاء قال القرآن في موضع آخر: «يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءٌ مِّنَ الْتَّعْقِفِ»^١.

ثم تشير الآية إلى الرقيق الذين يتعلّقون إلى الحرية والاستقلال بالرغم من عدم احتياجهم المادي وتأمين نفقتهم على عهدة مالكيهم.

والأسأل الثالث من أصول البر: إقامة الصلاة: «وَأَقامَ الصَّلَاةَ». والصلة إن أدّها الفرد بشروطها وحدودها، وبأخلاق وخصوص، تصدّه عن كل ذنب وتدفعه نحو كل سعادة وخير.

والأسأل الرابع: أداء الزكاة والحقوق المالية الواجبة: «وَآتَى الزَّكَوَةَ».

فالآية سبق أن ذكرت الإنفاق المستحب، وهنا تذكر الإنفاق الواجب. بعض الناس يكثر من المستحبات في الإنفاق ويتساهل في الواجب، وبعضهم يلتزم

بالواجب فقط ولا ينفق درهماً في إيتار. والمحسنون الحقيقيون هم الذين ينفقون في المجالين معاً.

يلفت النظر أن الآية ذكرت عبارة «عَلَى حُبِّهِ» بعد الإنفاق المستحب. ولم تذكر ذلك مع الزكاة الواجبة. ولعل ذلك يعود إلى أن أداء الحقوق الواجبة وظيفة إلهية وإجتماعية، والفرد - في منطق الإسلام - شركاً في أموال الأغنياء، ودفع المال للشريك لا يحتاج إلى العبارة المذكورة.

الخامس من الأصول: الوفاء بالعهد: «وَالْمُؤْفُونَ يَعْهِدُهُمْ إِذَا عَاهَدُوهُمْ»، فالثقة المتبادلة رأس مال الحياة الإجتماعية. وترك الوفاء بالعهد من الذنب التي تزلزل الثقة وتوهن عرى العلاقات الإجتماعية، من هنا وجوب على المسلم أن يلتزم بثلاثة أمور تجاه المسلم والكافر، وإزاء البر والفاجر، وهي: الوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، واحترام الوالدين^١.

الأساس السادس والأخير من أسس البر في نظر الإسلام: الصبر «وَالصَّابِرُونَ فِي الْبُلْأَاءِ (حال الفقر والمسكنة) وَالضُّرَاءِ (حال المرض) وَجِينَ الْبَأْسِ (حال القتال مع الأعداء)»^٢.

ثم تؤكد الآية على أهمية الأسس الستة وعلى عظمتها من يتجلّى بها، فتقول: «أَوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».

صدقهم يتجلّى في انتظام أعمالهم وسلوكهم مع إيمانهم ومعتقداتهم، وتتجلى تقواهم في التزامهم بواجبهم تجاه الله وتتجاه المحتاجين والمحرومين وكل المجتمع الإنساني.

١- أصول الكافي، ج ٢، باب البر بالوالدين، ص ١٢٩، حديث ١٥.

٢- الأباء من المؤسّ وهو الفقر، والضراء تعني الألم والمرض، وحين البأس أي حين الحرب (مجمع البيان، الآية).

والملفت للنظر أن الصفات الست المذكورة تشمل الأصول الإعتقادية والأخلاقية والمناهج العملية. فتضمنت الآية كل أُسس العقيدة، وكذلك أشارت إلى الإنفاق والصلة والزكاة بين المناهج العملية، وهي أُسس ارتباط المخلوق بالخالق، والمخلوق بالخالق. وفي العقل الأخلاقي ركزت الآية على الوفاء بالعهد، وعلى الصبر والإستقامة والثبات، وهي أساس كل الصفات الأخلاقية السامية.

* * *

الآيات

يَتَأْمِنُ الَّذِينَ ءامَنُوا كُبَيْرٌ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلِ إِخْرُجُ
بِالْحُرُجِ وَالْقَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْقَبُ بِالْأَنْقَبِ فَنَّ عَنِّهِ مِنْ أَخِيهِ شَنَةٌ
فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَإِذَا هُوَ إِلَيْهِ يَأْخُسِنُ ذَلِكَ تَغْنِيفٌ مَّنْ رَبِّكُمْ
وَرَحْمَةٌ فَنَّ أَغْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ^{٦٥} وَلَكُمْ فِي
الْقِصاصِ حِيَزٌ يَتَأْوِي إِلَيْهِ لَقْلُوكُمْ تَتَقَوَّنَ^{٦٦}

سبب النزول

شاع بين القبائل العربية انتقام قبيلة من قبيلة أخرى، ولم يكن لهذا الانتقام حدود، فقد يقتل رجل فتهدد قبيلته قتل كل رجال قبيلة القاتل، فنزلت الآية وشرعت حكم القصاص.

وهذا الحكم الإسلامي جاء ليقرر الموقف من عرفين قائمين عن العرب، عرف يرى حتمية القصاص، وعرف يرى حتمية الدية. فجاءت الآية لتقرر القصاص عند عدم موافقة أولياء المقتول علىأخذ الدية، وإن وافقوا فالدية.

التفسير

في القصاص حياة

الآيات السابقة طرحت المنهج الإسلامي في «البر»، وهنا يقدم القرآن

الكريم - وهكذا في الآيات التالية - مجموعة من الأحكام الإسلامية، إكمالاً لبيان المنهج الإسلامي في الحياة.

تبدأ هذه الأحكام من مسألة حفظ حرمة الدماء، وهي مسألة هامة في الحياة الاجتماعية، فتنفي العادات والتقاليد الجاهلية، وتقول للمسؤولين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ».

عبارة «كُتِبَ عَلَيْكُمُ» تبيّن أهمية الموضوع، وتحمي بالتأكيد عليه، وذكرت في آيات أخرى بشأن الصوم والوصية، ولا يكتب من المسائل عادة إلا ما كان قاطعاً وجاداً.

و«القصاص» من «قص»، يقال قص أثره: أي تلاه شيئاً بعد شيء. ومنه القصاص لأنّه يتلو أصل الجنابة ويتبعه، وقيل هو أن يفعل بالثاني مثل ما فعله هو بالأول، مع مراعاة المماطلة، ومنهأخذ القصاص كأنّه يتبع آثارهم شيئاً بعد شيء^١.

الآية كما ذكرنا تستهدف بيان العوقف الصحيح من المجرم، ولفظ القصاص يدلّ على إزالة عقوبة بالمجرم مماثلة لما ارتكبه هو، لكن الآية لا تكتفي بذلك، بل بذلت التفاصيل فقالت: «الْحُرْمَةُ بِالْحُرْمَةِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى».

وسنوضح إن شاء الله مسألة قصاص الأنثى بالأنثى، ونبين أنّ الرجل قاتل المرأة يمكن إزالة عقوبة القتل بحقه ضمن شروط.

ثم تبيّن الآية أنّ القصاص، حق لأولياء المقتول، وليس حكماً إلزامياً فإن شاؤوا أن يغفوا ويأخذوا الديمة، وإن شاؤوا ترك الديمة فلهم ذلك، وتقول: «فَإِنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» وبعد تبدل حكم القصاص عند عفو أولياء المقتول إلى دية «فَاتِّبَاعٌ بِالْمَغْرُوفِ» أي فعل العافي اتباع بالمعروف، وهو أن لا يُنسدّد في طلب الديمة وينظر من عليه الديمة «وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ» أي على المغفور عنه أن يبادر إلى

دفع الديمة عند الإمكان، وأن لا يماطل.

التصحية إلى من له الديمة أن لا يشدد في طلبه، وأن يستوفي حقه بشكل معقول ... وعلى من عليه الديمة أن يؤدّيها بإحسان، وأن لا يسوّف ويماطل. تم تؤكد الآية على ضرورة الالتزام بعدود ما أقره الله، وعدم تجاوز هذه الحدود: **«ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةً فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ»**. وهذا الامر بالقصاص وبالعفو يشكل تركيباً انسانياً منطقياً. فهو من جهة يدين التقليد السائد في الجاهلية الأولى والجاهليات التالية إلى يومنا هذا القاضية بالانتقام للمقتول الواحد بقتل الآلاف.

ومن جهة أخرى، يفتح باب العفو أمام المذنب، مع الحفاظ على احترام الدم وردع القاتلين.

ومن جهة ثالثة، لا يحق للطرفين بعد العفو وأخذ الديمة التعدّي، خلافاً للجاهليين الذين كانوا يقتلون القاتل أحياناً حتى بعد العفو وأخذ الديمة. الآية التالية قصيرة العبارة وافرة المعنى، تجيب على كثير من الأسئلة الطروحة في حقل القصاص، ويقول: **«وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَيَاةٌ يَا أُولَئِكَ الْأَتَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّعَونَ»**.

هذه الآية بكلماتها العشر، تضع الإطار العام - ببلاغة وفصاحة متناهيتين - للقصاص في الإسلام، وتبيّن أن القصاص ليس انتقاماً، بل السبيل إلى ضمان حياة الناس.

إنه يضمن حياة المجتمع، إذ لو انعدم حكم القصاص، وتشجع القتلة القساة على تعريض أرواح الناس للخطر - كما هو الحال في البلدان التي ألغت حكم القصاص - لارتقت إحصائيات القتل والجريمة بسرعة.

وهو من جهة أخرى، يصون حياة القاتل، بعد أن يصده إلى حد كبير عن

إرتكاب جريمة.

كما أنه يصون المجتمع يجعله قانون المماثلة من الانتقام والإسراف في القتل على طريقة التقاليد الجاهلية التي تبيح قتل الكثير مقابل فرد واحد. وهو بذلك يصون حياة المجتمع.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن القصاص مشروط بعدم العفو عن القاتل فهذا الشرط نافذة أمل للحياة أيضاً بالنسبة للقاتل.

وعبارة «أَقْلُكُمْ تَتَّقُونَ» تحذير من كل عدو ان تكميل هذا الحكم الإسلامي العادل الحكيم.

* * *

بحوث

١- القصاص والعفو تركيب عادل

النظرة الإسلامية نظرة شاملة في كل المجالات، قائمة على احتساب جميع جوانب الأمر الذي تعالجه. مسألة صيانة دم الأبرياء عالجها الإسلام بشكل دقيق بعيد عن كل إفراط أو تفريط، لا كما عالجتها الديانة اليهودية المحرقة التي اعتمدت القصاص، ولا الديانة المسيحية المحرقة التي ركزت على العفو... لأن في الأولى خسونة وانتقاماً، وفي الثانية تشجيعاً على الإجرام.

ولو افترضنا أن القاتل والمقتول أخوان أو قريبان أو صديقان، فإن الإجبار على القصاص يدخل لوعة أخرى في قلب أولياء المقتول، خاصة إذا كان هؤلاء من ذوي العواطف الإنسانية المرهفة. وتحديد الحكم بالعفو يؤدي إلى تجزؤ المجرمين وتشجيعهم.

لذلك ذكرت الآية حكم القصاص باعتباره أساساً للحكم، ثم ذكرت إلى

جانبه حكم العفو.

بعباره أوضح، ين لأولياء المقتول أن ينتخبو أحد ثلاثة أحكام:

- ١- القصاص.
- ٢- العفو دونأخذ الديمة.
- ٣- العفو معأخذ الديمة (وفي هذه الحالة تشرط موافقة القاتل أيضاً).

٢- هل يتعارض القصاص مع العقل والعواطف الإنسانية؟

ثمة فتنة يحلو لها أن توجه إلى الإسلام - دون تفكير - باعتراضات وكثير شبهاً، خاصة بالنسبة لمسألة القصاص. يقول:

- ١- الجريمة لا تزيد على قتل إنسان واحد، والقصاص يؤدي إلى تكرار هذا العمل الشنيع.
 - ٢- القصاص ينمّ عن روح الإنتقام والتشفّي والقسوة، ويجب إزالة هذه الروح عن طريق التربية، بينما يعمق القصاص هذه الروح.
 - ٣- القتل لا يصدر عن إنسان سالم، لابد أن يكون القاتل مصاباً بمرض نفسي، ويجب علاجه، والقصاص ليس بعلاج.
 - ٤- قوانين النظام الاجتماعي يجب أن تتطور مع تطور المجتمع. ولا يمكن لقانون سُنّ قبل أربعة عشر قرناً أن يطبق اليوم.
 - ٥- من الأفضل الإستفادة من القاتل بتشغيله في معسكرات العمل الإجباري، وبذلك تستفيد من طاقاته ونصون المجتمع من شروره.
- هذا ملخص ما يوجه للقصاص من اعترافات.

الجواب

لو أمعنا النظر في آيات القصاص، لرأينا فيها الجواب على كل هذه

الإعتراضات: «ولكم في القصاص حياة يا أولي الآلباب».

فالحياة الاجتماعية لا يمكن أن تطوي مسيرتها الحياتية التكاملية، دون إغفال العوامل المضرة الهدامة فيها. ولما كان القصاص في هذه الموضع يضمن استمرار الحياة والبقاء، فإن الشعور بضرورة القصاص أودع على شكل غريزة في وجود الإنسان.

أنظمة الطب والزراعة والرعي قائمة على أساس هذا الأصل العقلي، وهو إزالة الموجودات المضرة الخطرة. فترى الطب يجيز قطع العضو الفاسد إذا شكل خطورة على بقية أعضاء الجسد، وتقتلع النباتات والأغصان المضرة من أجل استمرار نمو النباتات المفيدة بشكل صحيح.

أولئك الذين يرون في الإقصاص من القاتل قتلاً لشخص آخر، ينظرون إلى المسألة من منظار فردي. ولو أخذوا بنظر الإعتبار مصلحة المجتمع، وعلموا ما في القصاص من دور في حفظ سائر أفراد المجتمع وتربيتهم، لأعادوا النظر في أقوالهم.

إزالة مثل هؤلاء الأفراد الخطرين المضرين من المجتمع، كقطع العضو الفاسد من جسد الإنسان، وكقطع النفنن المضر من الشجرة. ولا أحد يعرض على قطع ذلك العضو وهذا النفنن. هذا بشأن الإعتراض الأول.

وبالنسبة إلى الإعتراض الثاني، لابد من الإلتفات إلى أن تشريع القصاص لا إرتباط له بمسألة الإنقاص. لأن الهدف من الإنقاص إطفاء نار الغضب المتوجبة لمسألة شخصية، بينما القصاص يستهدف الحيلولة دون استمرار الظلم في المجتمع، وحماية سائر الأبرياء.

وبشأن الإعتراض الثالث القائل إن القاتل مريض نفسياً، ولا تصدر هذه الجريمة من إنسان طبيعي، لابد أن نقول: هذا الكلام صحيح في بعض الموضع،

والإسلام لم يشرع حكم القصاص للقاتل المجنون وأمثاله، ولكن لا يمكن اعتبار العرض عذراً لكل قاتل، إذ لا يخفى ما يجرّ إليه ذلك من فساد، ومن تشجيع القتلة على إرتكاب جرائمهم.

ولو صرّ هذا الإستدلال بالنسبة للقاتل، لصح أيضًا بشأن جميع المعذين على حقوق الآخرين. لأن الإنسان العاقل المعذل لا يعتدي إطلاقاً على الآخرين. وبذلك يجب حذف كل القوانين الجزائية، ويجب إرسال المعذين وال مجرمين إلى مستشفيات الأمراض النفسية بدل السجون.

أما ادعاء عدم إمكان قبول قانون القصاص اليوم بسبب تطور المجتمع، و بسبب قدم هذا القانون، فمردود أمام إحصائيات الجرائم الفظيعة التي ترتكب في عصرنا الراهن، وأمام التجاوزات الوحشية التي تنتشر في بقاع مختلفة من عالمنا بسبب العروب وغير العروب.

ولو أتيح للبشرية أن تقيم مجتمعاً إنسانياً متطوراً تطوراً حقيقياً، فإن مثل هذا المجتمع يستطيع أن يلجمـا إلى العفو بدل القصاص، فقد أقرّ الإسلام بذلك، ومن المؤكد أن المجتمع المتتطور في آفاقه الإنسانية سيفضل عفو القاتل. أما في مجتمعاتنا المعاصرة حيث ترتكب فيها أفعال العرائم تحت عناوين مختلفة، فإن إلغاء قانون القصاص لا يزيد في جرائم المجتمع إلا اتساعاً وضراوة.

وتحول حفظ القتلة في السجون، فإن هذه العملية لا تحقق هدف الإسلام من القصاص. فالقصاص - كما ذكرنا - يستهدف حفظ حياة المجتمع، والعيلولة دون تكرار القتل والجريمة. السجون وأمثالها لا تستطيع أن تتحقق هذا الهدف (خاصة السجون العالية التي هي أفضل من أكثر بيوت المجرمين). ولا أدلى على ذلك من ارتفاع إحصائيات جرائم القتل خلال فترة قصيرة، في البلدان التي ألغت حكم الإعدام. ولو كانت أحكام السجن عرضة للتقلص بسبب أحكام العفو - كما هو

سائد اليوم - فإن المجرمين يعمدون إلى ارتكاب جرائمهم دون تغوف أو تردد.

٣- هل انتقص قانون القصاص المرأة؟

قد يظن البعض أن قانون القصاص الإسلامي قد انتقص المرأة حين قرر أن «الرجل» لا يقتل «بالمرأة»، أي إن الرجل - قاتل المرأة - لا يقتضي منه.

وليس الأمر كذلك، مفهوم الآية لا يعني عدم جواز قتل الرجل بالمرأة، بل - كما هو مبين في كتب الفقه - يجوز لأولياء المقتولة أن يطلبوا القصاص من الرجل القاتل، بشرط أن يدفعوا نصف دينه.

عبارة أخرى: المقصود من عدم قصاص الرجل بالمرأة، هو القصاص دون شرط، أما إذا دفعت نصف دينه فيجوز قتله.

واضح أن دفع نصف دية الرجل القاتل، لا يعني إنتقصان الإسلام للمرأة، بل يعني جبران الضرر العالى الذي يصيب عائلة الرجل القاتل بعد قتله، (تأمل بدقة). ولمزيد من التوضيح نقول: الرجال يتحملون غالباً مسؤوليات إعالة الأسرة، ويؤمنون ثقافتها الاقتصادية، ولا يخفى الفرق بين أثر غياب الرجل وغياب المرأة على العائلة اقتصادياً، ولو لم يراع هذا الفرق لأصبت عائلة المقتضى منه بأضرار مالية، ولو قمت في حرج اقتصادي، ودفع نصف الديمة يتحول دون تزلزل تلك العائلة اقتصادياً. ولا يسمح الإسلام أن يتعرض أفراد أسرة لخطر اقتصادي وتقطط حقوقهم تحت شعار «المساواة».

قد تكون امرأة في أسرتها عضوة فعالة اقتصادياً أكثر من الرجل، ولكن الأحكام والقوانين لا تقوم على أساس الحالات الإستثنائية، بل على أساس الوضع العام، وفي هذه الحالة يجب أن تقارن كل الرجال بكل النساء. (تأمل بدقة).

٤ - يلفت النظر أيضاً في الآية عبارة «من أخيه»، فالقرآن يركز على مفهوم

الأخوة بين المسلمين، حتى يطلق هذا التعبير على القاتل. وبهذا التعبير يضرب القرآن على وتر العاطفة الأخوية بين المسلمين، كي يشجع أولياء المقتول على العفو !!

هذا طبعاً بالنسبة للقاتل الذي انزلق في هاوية الجريمة في ظروف عصبية خاصة، وندم بذلك على فعلته. أما المجرمون الذي يفخرون بجرائمهم، ولا يشعرون بندم على ما ارتكبوا فلا يستحقون اسم الأخ ولا العفو.



الآيات

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ
لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَقِيْنَ ۝ فَإِنْ بَذَلَهُ
بَعْدَمَا سِعَةً فَإِنَّمَا عَلَى الَّذِيْنَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝
فَإِنْ خَافَ مِنْ مُوْصِيْجَنَّاً أَوْ إِنَّمَا فَاضْلَعَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِنْمَاعَ عَلَيْهِ إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝

التفسير

الوصية بالمعروف

الآيات السابقة ذكرت تشريع القصاص، وهذه الآيات تذكر تشريع الوصية، باعتباره جزءاً من النظام المالي، وتذكر بأسلوب الحكم الإلزامي فنقول: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ».

ثم تضيف الآية أن هذه الوصية كتبت «حَقًّا عَلَى الْمُتَقِيْنَ». ذكرنا أن تعبير «كُتِبَ عَلَيْكُمْ» يدل على الوجوب، من هنا كان هذا التعبير وقع بحث لدى المفسرين في هذه الآية، ولهم فيها أقوال مختلفة:
١- جاء في الآية الكريمة بشأن كتابة الوصية كونها «حَقًّا عَلَى الْمُتَقِيْنَ»، من

هنا فإنها مستحبة استحباباً مؤكدأً، ولو كانت واجبة لقالت الآية، «**حَقًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**».

٢ - قيل أيضاً: إن هذه الآية نزلت قبل نزول أحكام الإرث، وكانت الوصية آتتُ واجبة، كي لا يقع نزاع بين الورثة. ثم نسخ هذا الوجوب بعد نزول آيات الإرث، وأصبح حكماً استحبابياً. وفي تفسير «العياشي» حديث يؤيد هذا الاتجاه.

٣ - يحتمل أيضاً أن يكون حديث الآية عن موارد الضرورة وال الحاجة، أي حين يكون الإنسان مدياناً، أو في ذمته حق، والوصية واجبة في هذه الحالات. يبدو أن التفسير الأول أقرب من بقية التفاسير.

يلفت النظر أن الآية الكريمة عبرت عن المال بكلمة «**خَيْرٌ**» فقالت: «إِن تَرَكَ خَيْرًا». وهذا يعني أن الإسلام يعتبر الثروة المستحصلة عن طريق مشروع، والمستخدمة على طريق تحقيق منافع المجتمع ومصالحه خيراً وبركة. ويرفض النظارات الخاطئة التي ترى الثروة شرًّا ذاتياً، ويرد على أولئك المتظاهرين بالزهد، القائلين إن الزهد مساواً للفرقة، مسببين بذلك ركود المجتمع الإسلامي اقتصادياً، ومؤذين بعواقبهم الإنزواتية إلى فسح المجال لاستثمار الطامعين خيرات أمتهم.

هذا التعبير يشير ضمنياً إلى مشروعية الثروة، لأن الأموال غير المشروعة ليست خيراً بل شراً وبالأ.

ويستفاد من بعض الروايات أن تعبير «**خَيْرٌ**» يراد به الأموال الموفورة، لأن المال اليسير لا يحتاج إلى وصية، ويستطيع الورثة أن يقسموه بينهم حسب قانون الإرث. بعبارة أخرى المال اليسير ليس بشيء يستدعي أن يفصل الإنسان ثلثه

عن طريق الوصية^١.

وجملة «إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتَ» تبيّن آخر فرصة للوصية، وهذه الفرصة الأخيرة إن فاتت أيضاً فلا فرصة بعدها ... أي لا مانع أن يكتب الإنسان وصيته قبل ذلك، بل يستفاد من الروايات أن هذا عمل مستحسن.

ولا قيمة لتلك التصورات المتشائمة من كتابة الوصية، فالوصية إن لم تكن باعثاً على طول العمر، لا تبعث إطلاقاً على تقريب أجل الإنسان! بل هي دليل على بعد النظر وتحسب الاحتمالات.

تقيد الوصية «بِالْمَعْرُوفِ» إشارة إلى أن الوصية ينبغي أن تكون موافقة للعقل من كل جهة، لأن «الْمَعْرُوفُ» هو المعروف بالحسن لدى العقل. يجب أن تكون الوصية متعلقة في مقدارها وفي نسبة توزيعها، دون أن يكون فيها تمييز، دون أن تؤدي إلى نزاع وإنحراف عن أصول الحق والعدالة.

حين تكون الوصية جامعة للخصائص المذكورة فهي محترمة ومقدسة، وكل تبديل وتغيير فيها محظوظ وحرام. لذلك تقول الآية التالية: **«فَقَنِّ بَذَّلَهُ بَعْدَ مَا سَعَى فَإِنَّمَا إِنْهَا عَلَى الَّذِينَ يَسْدُلُونَهُمْ»**.
ولا يظنّن المحررون المتلاعبون أن الله غافل عما يفعلون، كلاماً «إِنَّ اللَّهَ سَيِّئَ عَلَيْهِمْ».

ولعل هذه الآية تشير إلى أن تلاعب «الوصي» (وهو المسؤول عن تنفيذ الوصية) لا يصدر أجر الموصي. فالموصي ينال أجره، والإثم على الوصي المحرّف في كمية الوصية أو كيفيتها أو في أصلها.

ويحتمل أيضاً أن الآية تبرىء ساحة غير المستحقين الذين قسم بينهم الإرث عند عدم التزام الوصي بمقاد الوصية. وتقول إن هؤلاء (الذين لا يعملون

بتلاعب الوصي) لا إيمان عليهم، بل الإيمان على الوصي المحرّف، ولا تناقض بين التفسيرين، فالآية تجمع التفسيرين معاً.

بين القرآن فيما سبق الأحكام العامة للوصية، وأكده على حرمة كل تبديل فيها، ولكن في كل قانون إستثناء، والآية الثالثة من آيات بحثنا هذا تبين هذا الإستثناء وتقول: «فَنَّ حَافَ مِنْ مُوصِّي جَنَفاً أَوْ إِثْمَا فَأَضْلَعَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

الإستثناء يرتبط بالوصية المدونة بشكل غير صحيح، وهنا يحق للوصي أن يتبينه الموصي على خطئه إن كان حياً، وأن يعدل الوصية إن كان ميتاً، وحدد الفقهاء مواضع جواز التعديل فيما يلي:

١- إذا كانت الوصية تتعلق بأكثر من ثلث مجموع الثروة، فقد أكدت نصوص المعصومين على جواز الوصية في الثالث، وحضرت ما زاد على ذلك^١.

من هنا لو وصى شخص بتوزيع كل ثروته على غير الورثة الشرعيين، فلا تصح وصيته، وعلى الوصي أن يقلل إلى حد الثالث.

٢- إذا كان في الوصية ما يؤدي إلى الظلم والإيمان، كالوصية بإعانته مراكز الفساد، أو الوصية بترك واجب من الواجبات.

٣- إذا أدت الوصية إلى حدوث نزاع وفساد وسفك دماء، وهنا يجب تعديل الوصية بإشراف الحاكم الشرعي.

عبرت الآية «بالجتنب» عن الإنحرافات التي تصيب الموصي في وصيته عن سهو، و«بالإثم» عن الإنحرافات العمدية.

عبارة «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» تشير إلى ما قد يقع فيه الوصي من خطأ غير عمدي عند ما يعدل الوصية المنحرفة، وتقول: إن الله يغفو عن مثل هذا الخطأ.

* * *

بحوث

١- فلسفة الوصية

الإرث يوزع حسب القانون الإسلامي بنسب معينة على عدد محدود من الأقارب، وقد يكون بين الأقارب والأصدقاء والمعارف من له حاجة ماسة إلى المال، ولكن لا سهم له في قانون الإرث. وقد يكون بين الورثة من له حاجة أكبر إلى المال من بقية الورثة.

من هنا وضع الإسلام قانون الوصية إلى جانب قانون الإرث، وأجاز للمسلم أن يتصرف في ثلث أمواله (بعد الوفاة) بالشكل الذي يرشد لملء هذا الفراغ. أضف إلى ما سبق، قد يرغب إنسان أن يعمل بعد مماته الخيرات التي ما أتبىع لها أن يعملها في حياته، ومنطق العقل يفرض أن لا يحرم هذا الشخص من مثل هذا العمل الخيري.

الوصية غير محصورة بالموارد المذكورة طبعاً، بل على الإنسان أن يشخص في وصيته ما لديه من أمانات وما عليه من ديون وأمثالها، حتى لا يبقى في أمواله شيء، منهم من حقوق الناس وحقوق الله.

النصوص الإسلامية أكدت على ضرورة الوصية كثيراً، من ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ: «ما يتبيني لامرٍ مُسلِّمٌ أنْ يَبْيَطَ لِيَلَهٗ إِلَّا وَوَصِيَّةٌ تَحْتَ رَأْسِهِ»^١ والمقصود بوضع الوصية تحت الرأس إعدادها وتهيئتها طبعاً. وفي رواية أخرى: «مَنْ مَاتَ بِغَيْرِ وَصِيَّةٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلَيَّةً»^٢.

٢- العدالة في الوصية

في الروايات الإسلامية تأكيد وافر على «عدم الجور» و«عدم الضرار» في

الوصية، يستفاد منها جميماً أن تتعدي الحدود الشرعية المنطقية في الوصية عمل مذموم ومن كبائر الذنوب.

روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «من عدل في وصيته كان كمن تصدق بها في حياته، ومن خاز في وصيته لئلا الله عز وجل يوم القيمة وهو عنده مفترض»^١.

والجور في الوصية هو الوصية بأكثر من الثالث، وحرمان الورثة من حقهم المنشروع، أو التمييز بين الورثة بسبب عواطف شخصية سطحية. وأوصت النصوص الإسلامية أيضاً بعدم الوصية بالثالث إن كان الورثة فقراء محتاجين، وتقليل النسبة إلى الرابع وإلى الخامس^٢.

موضوع العدالة في الوصية يبلغ درجة من الأهمية نراها في هذه الرواية: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ تَوَقَّى وَلَهُ صِنْبَةٌ صِفَارٌ وَلَهُ سِتَّةُ مِنَ الرَّقِيقِ فَأَعْنَقَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِ وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ غَيْرُهُمْ فَلَمَّا عِلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ سَأَلَ قَوْمَهُ مَا صَنَعْتُمْ بِصِفَارِكُمْ قَالُوا دَفَنَاهُ قَالَ أَمَا إِنِّي لَوْ عَلِمْتُهُ مَا تَرَكْتُكُمْ تَدْفَنُونَهُ مَعَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ تَرَكْ وَلَدَهُ صِفَارًا يَتَكَبَّرُونَ النَّاسُ»^٣.

٣- الوصايا الواجبة والمستحبة

الوصية وإن كانت مستحبة بطبيعة حالها - كما أشرنا إليه - ولكن قد تكون واجبة لأمور طارئة، مثل أن يكون على الإنسان حقوق واجبة للناس أو الله قصر في أدانها، أو كانت عنده أمانات وديون أو مثل ذلك بحيث لو لم يوص احتمل ضياع حقوق الناس بذلك، وأهم من الكل أن يكون للإنسان مكانة خاصة في المجتمع لو لم يوص لمن بعده وقعت اضطرابات وأمور مؤسفة ففي جميع هذه الصور تجب الوصية.

١- وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٥٩.
٢- وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٦٠.

٣- سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٥٩، مادة وصي.

٤- الوصية قابلة للتغيير خلال الحياة

القوانين الإسلامية أجازت للموصي أن يعيد النظر في وصيته مادام على قيد الحياة. وجواز هذا التغيير يشمل الوصي وكيفية الوصية. ذلك لأن مرور الزمان قد يغير نظرات الموصي، ويغير المصالح المرتبطة بالوصية.

٥- جدير بالذكر أن الإنسان ينبغي أن يجعل وصيته وسيلة لتلافي ما مضى من تقدير، وأن يتودّد بها إلى من جفاه من أقاربه أيضاً. وفي الروايات أن قادة الإسلام كانوا يوصون خاصة لمن جفاهم من أقاربهم ويخصصون لهم مبلغاً من المال، كي يعيدوا ما انقطع من أواصر الودّ، ويحررون عبيدهم، أو يوصون بتحريرهم.

الآيات

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُم تَسْتَقُونَ ﴿١﴾ أَيَّامًا مَغْدُودَةٍ فَنَ كَانَ
مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فِعْدَةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرَى وَعَلَى الَّذِينَ
يُطِيقُونَهُ فِدْيَةً طَعَامٌ مِسْكِينٌ فَنَ تَطْوعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنَّ
تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَغْلُمُونَ ﴿٢﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي
أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ
فَنَ شَهَدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلَا يُصْنَعُهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ
فِعْدَةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرَى يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ
وَلَا تُكْلِلُوا الْعِدَةَ وَلَا تُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَكُمْ وَلَا عَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٣﴾

التفسير

الصوم مدرسة التقوى

في سياق طرح مجموعة من الأحكام الإسلامية، تناولت هذه الآيات أحكام واحدة من أهم العبادات، وهي عبادة الصوم، وبلهجة مفعمة بالتأكيد قالت الآية:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

ثم تذكر الآية مباشرة فلسفة هذه العبادة التربوية، في عبارة قليلة الأنفاظ، عميقة المحتوى، وتقول: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ».

نعم، الصوم - كما سيأتي شرح ذلك - عامل فعال لتربيه روح التقوى في جميع المجالات والأبعاد.

لما كانت هذه العبادة مقرونة بمعاناة وصبر على ترك اللذائذ المادية، وخاصة في فصل الصيف، فإن الآية طرحت موضوع الصوم بأساليب متنوعة لتهيئ روح الإنسان لقبول هذا الحكم.

تبتدئ الآية أولاً بأسلوب خطابي وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاهُ وَهُوَ نَاءٌ يفتح شغاف القلب، ويرفع معنويات الإنسان، ويشحذ همه، وفيه لذة قال عنها الإمام الصادق عليه السلام: «لَذَّةُ مَا فِي النَّدَاءِ - أَيْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا - أَزَالَ تَسْفِيَةَ الْجَنَادِيَّةِ وَالْقَنَاءِ»^١.

ثم تبين الآية أن الصوم فريضة كتبت أيضاً على الأمم السابقة. ثم تبين الآية فلسفة الصوم وما يعود به على الإنسان من منافع، لتكون هذه العبادة محبوبة ملتخصة بالنفس.

الآية التالية تتوجه أيضاً إلى التخفيف من تعب الصوم وتقول: «أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ» فالفرضية لا تحتل إلا مساحة صغيرة من أيام السنة. ثم تقول «فَنَّى كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعَدَّهُ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ»، فالمريض والمسافر مغفون من الصوم، وعليهما أن يقضيا صومهما في أيام أخرى. ثم تصدر الآية عفواً عن الطاعنين في السن، وعن المرضى الذين لا يرجى شفاوهم، وترفع عنهم فرضية الصوم ليدفعوا بدلها كفاره، فتقول: «وَعَلَى الَّذِينَ

يُطِيقُونَهُ فِدْيَةً طَقَامٌ مِّسْكِينٍٰ ١.

ثم يقول الآية «فَمَنْ تَطَوعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ» ٢ أي من تطوع للإطعام أكثر من ذلك فهو خير له.

وأخيراً تبين الآية حقيقة هي: «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

استدل بعض بهذه الآية على أن الصوم كان في بداية التشريع واجباً تخبيرياً، وكان المسلمون مخيرين بين الصوم والفدية، ثم نسخ هذا الحكم بعد أن تعمّد المسلمون على الصوم وأصبح واجباً عيناً، ولكن ظاهر الآية يدلّ على تأكيد آخر على فلسفة الصوم، وعلى أن هذه العبادة -كسائر العبادات- لا تزيد الله عظمة أو جلالاً، بل تعود كل فوائدها على الناس.

الشاهد على ذلك ما جاء في القرآن من تعبير مشابه لذلك، كقوله سبحانه بعد ذكر وجوب صلاة الجمعة: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ٣.

وقوله تعالى: «وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِتَوْمِهِ أَعْبُدُ دُولَةً وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ٤.

بهذا تبين أن عبارة «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ» موجهة إلى كل الصائمين لا إلى

١- «يُطِيقُونَهُ» من «الطرق» وهو الحلة التي تلقى على المدى، أو توجد عليه بشكل طبيعي (لطريق العلام) نم أطلقت الكلمة على نهاية الجهد والطاقة، والضير في «يُطِيقُونَهُ» يعود على الصوم، أي الذين يبذلون غالباً طاقتهم لدى الصوم، أو بعبارة أخرى: الذين يجهد هم الصوم ويقتل عليهم، وهو الطاعون في السن والمرضى الذين لا يرجى علاجهم، فهو لا معفون من الصوم وعليهم أن يدفعوا الفدية بدل ذلك (وعلى المرضى الذين يشفون أن يقضوا صومهم).

وقيل «الذين يُطِيقُونَهُ» يعني الذين كانوا يطيقونه، ولم يعودوا اليوم قادرين على الصوم (وهذا المعنى جاء في بعض الروايات).

٢- قبل في عبارة «تَطَوعَ شَيْءاً» إليها إشارة إلى الصوم المستحب، وقيل أيضاً: إنها تأكيد على أن الصوم ينبغي أن يكون عن رغبة وطوعية، لا عن إجبار وإكراه.

٣- الجمعة، ٩.

٤- المنكبوت، ١٦.

مجموعة خاصة.

آخر آية في بحثنا تتحدث عن زمان الصوم وبعض أحكامه ومحطياته تقول:
«شَهْرُ رَمَضَانَ» هو الشهر الذي فرض فيه الصيام.
وهو **«الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُدًى لِلنَّاسِ وَبُشِّرَاتٍ مِنَ الْمُهْدَى وَالْفَرَقَانِ»**، أي
معيار معرفة الحق والباطل.

ثم تؤكد ثانية حكم المسافر والمريض وتقول: **«فَتَنَ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيَصُمُّهُ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّهُ مِنْ أَيَّامِ أُخْرَى»**.^١

تكرار حكم المسافر والمريض في هذه الآية والأية السابقة، قد يكون سبب
كراهية بعض المسلمين أن لا يصوموا أيام شهر رمضان حتى ولو كانوا مرضى أو
مسافرين. والقرآن بهذا التكرار يفهم المسلمين أن الصوم في حالة السلام والحضر
حكم إلهي، والإفطار في حال السفر والمرض حكم إلهي أيضاً لا تجوز مخالفته.
وفي آخر الآية إشارة أخرى إلى فلسفة تشريع الصوم، تقول: **«لَا يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْأَيْنَرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُنْزَرَ»**. فالصوم - وإن كان على الظاهر نوعاً من التضييق
والتحدي - مؤداء راحة الإنسان ونفعه على الصعيدين المادي والمعنوي،
(وسيأتي تفصيل ذلك في بحث فلسفة الصوم).

ولعل هذه العبارة إشارة إلى أن الأوامر الإلهية ليست كأوامر العاكم الظالم،
ففي الصوم رخص حيشما كان فيه مشقة على الصائم، لذلك رفع تكليف الصوم -
على أهميته - عن المريض والمسافر والضعيف.

ثم تقول الآية: **«وَلَا تُكْحِلُوا الْعِدَّةَ»** أي يلزم على كل إنسان سليم أن يصوم
شهرأ، فذلك ضروري لتربيه جسمه ونفسه. لذلك وجب على المريض والمسافر
أن يقضى ما فاته من شهر رمضان ليكمل العدة، وحتى الحائض - التي أُعفيت من

١- أي من كان في حضر فليصم شهر رمضان، وقيل إن جملة **«فَتَنَ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ»** تعني رؤية الهلال، وهو
بعد، والحق ما ذكرناه وروايات أئمة أهل البيت تؤيد ذلك.

قضاء الصلاة - غير مغففة عن قضاء الصوم.

والعبارة الأخيرة من الآية تقول: «وَلَا تُكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَأْكُمْ وَلَا غَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» لتكبروه على ما وفر لكم من سبل الهدایة، وتشكروه على ما أنعم عليكم.

الشكير في الآية مسبوق بكلمة «لَقَلْ»، لكن التكبير مؤكّد بشكل قاطع غير مسبوق بترجمة وقد يعود الاختلاف في التعبير إلى أن عبادة (الصوم) هي على كل حال تكبير لله وتعظيم له سبحانه، أما الشكر - وهو إنفاق النعم في مواضعها والإستفادة من الآثار العملية للصوم - فله شروط أهمها الإخلاص التام، وفهم حقيقة الصوم، والإطلاع على أبعاده وأعماقه.

* * *

بحوث

١- الآثار التربوية والاجتماعية والصحية للصوم

للصوم أبعاد متعددة وأثار غزيرة مادية ومعنوية في وجود الإنسان، وأهمها
البعد الأخلاقي، التربوي.

من فوائد الصوم الهامة «تلطيف» روح الإنسان، و«تقوية» إرادته،
و«تعديل» غرائزه.

على الصائم أن يكتف عن الطعام والشراب على الرغم من جوعه وعطشه،
وهكذا عليه أن يكتف عن ممارسة العمل الجنسي، ليثبت عملياً أنه ليس بالحيوان
الأسير بين المعلم والمضجع، وأنه يستطيع أن يسيطر على نفسه الجامحة وعلى
أهوائه وشهواته.

الأثر الروحي والمعنوي للصوم يشكل أعظم جانب من فلسفة هذه العبادة.
مثل الإنسان الذي يعيش إلى جوار أنواع الأطعمة والأشربة، لا يكاد يحس

بجوع أو عطش حتى يمده إلى ما لا يُدْه طاب كمثل شجرة تعيش إلى جوار نهر وفي الماء، ما إن يقطع عنها الماء يوماً حتى تذبل وتصفر.

أما الأشجار التي تنبت بين الصخور وفي الصحاري المفقرة، وتتعرض منذ أوائل إنباتها إلى الرياح العاتية، وحرارة الشمس المحرقة حيناً، وببرودة الجرّة الباردة حيناً آخر، وتواجه دائماً أنواع التحديات، فإنها أشجار قوية صلبة مقاومة.

والصوم له مثل هذا الأثر في نفس الإنسان، فبهذه القيود المؤقتة يمنحه القدرة وقوه الإرادة وعزيمة الكفاح، كما يبعث في نفسه النور والصفاء بعد أن يسيطر على غرائزه الجامحة.

بعارة موجزة: الصوم يرفع الإنسان من عالم البهيمية إلى عالم الملائكة وعبارة «لَقَلْكُمْ تَتَّقُونَ» تشير إلى هذه الحقائق.

وهكذا الحديث المعروف: «الصَّوْمُ جُنَاحٌ مِّنَ النَّارِ»^١ يشير إلى هذه الحقائق. وعن علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن طريق مجابهة الشيطان، قال: «الصَّوْمُ يُسْوِدُ وَجْهَهُ، وَالصَّدَقَةُ تُكْسِرُ ظَهْرَهُ، وَالْحُسْنَى فِي اللَّهِ وَالْمُواضِيَةُ عَلَى الْفَقْلِ الصَّاغِي يَقْطَعُ دَأْرَهُ، وَالإِشْتَفَارُ يَقْطَعُ وَرَبِيَّهُ»^٢؟

وفي نهج البلاغة عرض لفلسفة العبادات، وفيه يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وَالصَّيَامُ ابْتِلَاءٌ لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ»^٣.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ لِلْجَنَّةِ بَاباً يُدْعَى الرَّئْسَانَ، لَا يَدْخُلُ فِيهَا إِلَّا الصَّالِحُونَ».

يقول المرحوم الصدوق في «معاني الأخبار» معلقاً على هذا الحديث: إنما سمي هذا الباب بالريان لأن مشقة الصائم إنما تكون في الأغلب من العطش،

١- بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٦.

٢- بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٥.

٣- نهج البلاغة، الكلمات الفضلاء، رقم ٢٥٢.

وعند ما يدخل الصائمون من هذا الباب يرتوون حتى لا يظمأوا بعده أبداً!
الأثر الاجتماعي للصوم لا يخفى على أحد. فالصوم درس المساواة بين
أفراد المجتمع. الموسرون يحسّنون بما يعانيه الفقراء المعاسرون، وعن طريق
الاقتصاد في استهلاك المواد الغذائية يستطيعون أن يهبو المساعدتهم.

قد يمكن تحسين الأغذية بما يعانيه الفقراء عن طريق الكلام والخطابة،
لكن المسألة حين تتخذ طابعاً حسيناً عينياً لها التأثير الأقوى والأبلغ. الصوم يمنع
هذه المسألة الهامة الاجتماعية لوناً حسيناً، لذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام في
جواب عن سؤال بشأن علة الصوم: «إِنَّمَا فَرَضَ اللَّهُ الصِّيَامَ لِيَشْتَوِيَ بِهِ الْفَقِيرُ وَالْقَيْرُ،
وَذَلِكَ إِنَّ الْفَقِيرَ لَمْ يَكُنْ لِيَجِدَ مَسْكُونَ قَبْرَخَمَ الْقَبْرِ، وَإِنَّ الْفَقِيرَ كُلُّهُ أَزَادَ شَيْئاً قَدَرَ عَلَيْهِ
فَأَزَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُسْوِي بَيْنَ خَلْقِهِ، وَأَنْ يُنْذِيقَ الْفَقِيرَ مَسْكُونَ الْجَمِيعِ وَالْأَلْمَ، لِيَرْقَى عَلَى الْصَّعِيفِ
وَتَرْخَمَ الْجَمِيعَ».^١

ترى، لو أن الدول الفنية في العالم صامتت عدة أيام في السنة وذاقت مرارة
الجوع، فهل يبقى في العالم كل هذه الشعوب الجائعة؟

الأثار الصحية للصوم

أهمية «الإمساك» في علاج أنواع الأمراض ثابتة في الطب القديم والحديث.
البحوث الطبية لا تخلو عادة من الحديث عن هذه المسألة، لأن العامل في كثير من
الأمراض الإسراف في تناول الأطعمة المختلفة. المواد الغذائية الزائدة تتراكم في
الجسم على شكل مواد دهنية، وتدخل هي والمواد السكرية في الدم، وهذه المواد
الزائدة وسط صالح لتكاثر أنواع البكتيريا والفيروسات والأمراض، وفي هذه الحالة يكون
الإمساك أفضل طريق لمكافحة هذه الأمراض، وللحقضاء على هذه المزاييل

المتراكمة في الجسم.

الصوم يحرق الفضلات والبقعات المتراءكة في الجسم، وهو في الواقع عملية تطهير شاملة للبدن، إضافة إلى أنه استراحة مناسبة لجهاز الهضم وتنظيف له، وهذه الاستراحة ضرورية لهذا الجهاز الحساس للغاية، والمنهمك في العمل طوال أيام السنة.

بدينهي أن الصائم ينبغي أن لا يكثر من الطعام عند «الإفطار» و«السحور» حسب تعاليم الإسلام، كي تتحقق الآثار الصحية لهذه العبادة، وإلا فقد تكون النتيجة معكوسة.

العالم الروسي «الكسي سوفورين» يقول في كتابه: «الصوم سهل ناجع في علاج أمراض فقر الدم، وضعف الأمعاء، والإلتهابات البسيطة والمزمنة، والدمامل الداخلية والخارجية، والسل، والاسكليروز، والروماتيزم، والنقرس والإستسقاء، وعرق النساء، والخرار (تناثر الجلد)، وأمراض العين، ومرض السكر، وأمراض الكلية، والكبد والأمراض الأخرى». العلاج عن طريق الإمساك لا يقتصر على الأمراض المذكورة، بل يشمل الأمراض المرتبطة بأصول جسم الإنسان وخلاياه مثل السرطان والسفليس، والسل والطاعون أيضاً !

عن رسول الله ﷺ قال: «صوموا تصحوا» .
وعنه ﷺ أيضاً: «النفقة بيت كل داء واحميقة رأس كل دواء» .

٢- الصوم في الأمم السابقة

يظهر من النصوص الموجودة في التوراة والإنجيل، أن الصوم كان موجوداً

١- كتاب «الصوم طريقة حديثة لعلاج الأمراض»، ص ٦٥، الطبعة الأولى.

٢- بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٥.

٣- بحار الأنوار، ج ١٤، من الطبعة القديمة.

بين اليهود والنصارى، وكانت الأمم الأخرى تصوم في أحزانها وما مأساتها، فقد ورد في «قاموس الكتاب المقدس»: «الصوم بشكل عام وفي جميع الأوقات كان متداولاً في أوقات الأحزان والتوابع بين جميع الطوائف والملل والمذاهب».^١ ويظهر من التوراة أن موسى عليه صام أربعين يوماً، فقد جاء فيها: «أَفَتُ في الجبل أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً لَا أَكُلُّ حَبْزًا وَلَا أَشَرَّبُ مَاءً».^٢

وكان اليهود يصومون لدى التوبة والتضرع إلى الله: «اليهود كانوا يصومون غالباً حينما تناح لهم الفرصة للإعراب عن عجزهم وتواضعهم أمام الله، ليعرفوا بذنبوهم عن طريق الصوم والتوبة، وللحصول على رضا حضرة القدس الإلهي».^٣ «الصوم الأعظم مع الكفارة كان على ما يبدو خاصاً يوم من أيام السنة بين طائفة اليهود، طبعاً كانت هناك أيام أخرى مؤقتة للصوم بمناسبة ذكرى تخريب أورشليم وغيرها».^٤

السيد المسيح عليه صام أيضاً أربعين يوماً كما يظهر من «إنجيل»: «ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إيليس فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاء أخيراً».^٥

ويبدو من نصوص إنجليل «لوقا» أن حواري السيد المسيح صاموا أيضاً.^٦ وجاء في قاموس الكتاب المقدس أيضاً: «... من هنا كانت حياة الحواريين والمؤمنين مملوءة بالابتعاد عن اللذات وبالأتعاب وبالصوم».^٧ بهذا نستطيع أن نجد في نصوص الكتب الدينية القديمة (حتى بعد تحريفها) شواهد على ما جاء في القرآن الكريم «كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

١- قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٢٧، الفصل ٩، الرقم ٩.

٤- نفس المصدر.

٦- إنجليل لوقا، الإصلاح الخامس، الرقم ٢٥ - ٣٣.

٢- قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٢٨.

٤- إنجليل متى، الإصلاح الرابع، الرقم ١ و ٢.

٧- قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٢٨.

٣- امتياز شهر رمضان

هذا الشهر - إنما اختير شهرًا للصوم - لأنه يمتاز عن بقية الشهور. والقرآن الكريم بين مزية هذا الشهر في الآية الكريمة بأنه «الذِّي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ» أي القرآن الذي يفصل الصالح عن الطالع ويضمن سعادة البشرية. وفي الروايات الإسلامية أن كل الكتب السماوية: «التوراة» و«الإنجيل» و«الزبور» و«الصحف» و«القرآن» نزلت في هذا الشهر^١. فهو إذن شهر تربية وتعليم، لأن التربية غير ممكنة دون تعليم صحيح، ومنهج الصوم التربوي يجب أن يكون مرافقاً لوعي عميق منطلق من تعاليم السماء لتطهير الإنسان من كل أثم.

في آخر جمعة من شهر شعبان، ألقى رسول الله ﷺ خطبة أعدّ فيها المسلمين لاستقبال شهر رمضان المبارك قال فيها:

«أَئْنَا النَّاسُ إِنَّمَا قَدْ أَقْبَلُ إِلَيْكُمْ شَهْرُ اللَّهِ بِالْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، شَهْرٌ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُ الشُّهُورِ، وَأَيَّامُهُ أَفْضَلُ الأَيَّامِ، وَلِيَالِيهِ أَنْصَلُ الْلَّيَالِي، وَسَاعَاتُهُ أَفْضَلُ السَّاعَاتِ، هُوَ شَهْرٌ ذُرْعَيْمٌ فِيهِ إِلَى ضِيَافَةِ اللَّهِ، وَجِيلَمٌ فِيهِ مِنْ أَهْلِ كَرَامَةِ اللَّهِ. أَنْتَمْ كُمْ فِيهِ تَسْبِيحٌ، وَتَوْمِكُمْ فِيهِ عِبَادَةٌ، وَعَمَلُكُمْ فِيهِ مُثْبُولٌ، وَدُعَاؤُكُمْ فِيهِ مُشَجَّبٌ فَالْأَسْلَوْلُ اللَّهُ رَبُّكُمْ بِيَنَّاتٍ صَادِقَةٍ، وَقُلُوبٌ طَاهِرَةٌ أَنْ يُوَقِّنُكُمْ لِصِيَامِهِ وَتَلَاقِهِ كِتَابِهِ، فَإِنَّ الشَّقَّ مَنْ حَرَمَ عَفْرَانَ اللَّهِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْفَطِيمِ، وَإِذْ كُرُوا بِحُمُوعِكُمْ وَعَطَشِكُمْ فِيهِ جُمُوعَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَعَطَشِهِ، وَتَصَدَّقُوا عَلَى فَقْرَائِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ، وَقُرْبُوا إِبْيَارِكُمْ، وَازْحَوْا صِقَارِكُمْ، وَصَلُوْا أُرْخَامِكُمْ، وَاخْفَظُوا أَسْتِنَتِكُمْ، وَغَصُّوا عَمَّا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ أَبْصَارِكُمْ، وَعَمَّا لَا يَحِلُّ الإِشْبَاعُ إِلَيْهِ أَنْهَاءِكُمْ، وَخَتَّسُوا عَلَى أَيْتَامِ النَّاسِ يَتَحَذَّنُ عَلَى أَيْتَامِكُمْ...»^٢.

٤- قاعدة «لا حرج»

آيات بحثنا فيها إشارة إلى أن الله يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر،

١- وسائل الشيعة، ج ٧، أبواب أحكام شهر رمضان، الباب ١٨، الحديث ١٦.

٢- وسائل الشيعة، ج ٧، الباب ١٨ من أبواب أحكام شهر رمضان، ج ٢٠.

وهذه الإشارة تدور طبعاً هنا حول موضوع الصوم وفوائده وحكم المسافر والمريض، لكن أسلوبها العام يجعلها قاعدة تشمل كل الأحكام الإسلامية، ويصيّر منها سندأ لقاعدة «لا حرج» المعروفة.

هذه القاعدة تقول: لا تقوم قوانين الإسلام على المشقة، وإن أدى حكم إسلامي إلى حرج ومشقة، فإنه يرفع عنه مؤقتاً، ولذلك أجاز الفقهاء التيمم لمن يشق عليه الوضوء، والصلوة جلوساً لمن يشق عليه الوقوف.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم، يقول سبحانه: **«هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»^١**.

وعن الرسول ﷺ قال: **«يُعِثِّرُ عَلَى الشُّرُّيْعَةِ السَّهْلَةُ»**.

* * *

الآية

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا
دَعَانِ فَلَيَسْتَحِي بُوالي وَلَيُؤْمِنُوا بِي لَعْنَهُمْ يَرْسُدُونَ^٦

سبب التزول

سأل رجل رسول الله ﷺ عن الله سبحانه، أهو قريب ليناجيه بصوت خفي
أم بعيد ليدعوه بصوت مرتفع؟ فنزلت الآية.^١

التفسير

سلاح اسمه الدعاء

بعد أن ذكرت الآيات السابقة مجموعة هامة من الأحكام الإسلامية، تناولت هذه الآية موضوع الدعاء باعتباره أحد وسائل الارتباط بين العباد والمعبد سبحانه. ومجيء هذه الآية في سياق الحديث عن الصوم، يعطيه مفهوماً جديداً، إذ أن الدعاء والتقرب إلى الله روح كل عبادة.

هذه الآية تخاطب النبي ﷺ وتقول: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ».

١ - مجمع البيان، في تفسير الآية.

إنه أقرب مما تتصورون، أقرب منكم إليكم، بل «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَنْبِلِ الْوَرِيدِ»^١.

ثم تقول الآية: «أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ»،
إذن «فَلَيَسْتَجِيبُوا لِي، وَلَيُؤْمِنُوا بِي، لَعَلَّهُمْ يَرْشَدُونَ».

ويلفت النظر في الآية، أن الله سبحانه أشار إلى ذاته المقدسة سبع مرات، وأشار إلى عباده سبعاً! مجدداً بذلك غاية لطفه وقربه وإرتباطه بعباده.

روى عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الدُّعَاءُ يَرْدُ القَضَاءَ بَعْدَ مَا أُتُومُ بِإِنْزَامِهِ فَأَكْثِرُ مِنَ الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ مِيقَاتُ كُلِّ رَحْمَةٍ وَمِيقَاتُ كُلِّ خَاجَةٍ وَلَا يَتَنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بِالدُّعَاءِ وَإِنَّهُ أَيْسَ بَابٍ يَنْكُثُ قُوَّةُ إِلَيْوْشَكَ أَنْ يَنْتَهِ لِصَاحِبِهِ»^٢.

نعم، إنه قريب منا، وكيف يتعد وهو سبحانه «يَحْمُلُ بَيْنَ الْمَرْءَ وَقَلْبِهِ»^٣.

* * *

بحوث

١- فلسفة الدعاء

أولئك الجاهلون بحقيقة الدعاء وآثاره التربوية والنفسية، يطلقون أنواع التشكيك بشأن الدعاء.

يقولون: الدعاء عامل مخدر، لأنه يصرف الناس عن الفعالية والنشاط وعن تطوير الحياة، ويدفعهم بدلاً من ذلك إلى التوسل بعوامل غيبية.

ويقولون: إن الدعاء تدخل في شؤون الله، والله يفعل ما يريد، وفعله منسجم مع مصالحنا، فما الداعي إلى الطلب منه والتضرع إليه؟!

١- ق. ١٦.

٢- أصول الكافي، ج ٢، كتاب الدعاء (باب إن الدعاء يرد البلاء)، الحديث ٧.

٣- الأنفال، ٢٤.

ويقولون أيضاً: إن الدعاء يتعارض مع حالة الإنسان الراضي بقضاء الله المستسلم لإرادته سبحانه!

هؤلاء -كما ذكرنا- يطلقون هذا التشكيك لجهلهم بالآثار التربوية والنفسية والإجتماعية للدعاء، فالإنسان بحاجة أحياناً إلى الملجأ الذي يلوذ به في الشدائـد، والدعاء يضيء نور الأمل في نفس الإنسان.

من يبتعد عن الدعاء يواجه صدمات عنيفة نفسية وإجتماعية. وعلى حد تعبير أحد علماء النفس المعروفين:

«ابتعاد الأمة عن الدعاء يعني سقوط تلك الأمة! المجتمع الذي قمع في نفسه روح الحاجة إلى الدعاء سوف لا يبقى مصوناً عادة من الفساد والزوال».

ومن نافلة القول أنه من العبث الإكتفاء بالدعاء لدى الصباح وقضاء بقية اليوم كالوحش الكاسـر، لابد من مواصلة الدعاء، ومن اليقظة المستمرة، كي لا يزول أثره العميق من نفس الإنسان». ^١

وأولئك الذين يصفون الدعاء بأنه تحديري لم يفهموا معنى الدعاء، لأن الدعاء لا يعني ترك العلل والوسائل الطبيعية واللجوء بدلها إلى الدعاء، بل المقصود أن نبذل نهاية جهدنا للإستفادة من كل الوسائل الموجودة، بعد ذلك إن انسدت أمامنا الطرق، وأعيتنا الوسيلة، نلـجـأ إلى الدعاء، وبهذا اللجوء إلى الله يحيـيـ فيـ أـنـفـسـنـاـ رـوـحـ الـأـمـلـ وـالـعـرـكـةـ، وـنـسـتـمـدـ مـنـ عـوـنـ الـمـبـدـأـ الـكـبـيرـ سـبـحـانـهـ.

الدعاء إذن لا يحل محل المـوـاـمـلـ الطـبـيـعـيـةـ.

«الـدـعـاءـ -إـضـافـةـ إـلـىـ قـدـرـتـهـ فـيـ بـثـ الـطـمـآنـيـنـةـ فـيـ النـفـسـ -يـؤـديـ إـلـىـ نـوـعـ مـنـ النـشـاطـ الـدـمـاغـيـ فـيـ إـلـيـانـ، وـإـلـىـ نـوـعـ مـنـ الـإـنـشـارـ وـالـإـبـسـاطـ الـبـاطـنـيـ وـأـحـيـانـاـ إـلـىـ تـصـيـدـ رـوـحـ الـبـطـوـلـةـ وـالـشـجـاعـةـ فـيـهـ. الدـعـاءـ يـتـجـلـيـ بـخـصـائـصـ مـشـخـصـةـ فـرـيدـةـ

... صفاء النظرة، وقوّة الشخصية، والإِنْشراح والسرور، والتقة بالنفس، والإِستعداد للهداية، واستقبال العوادث بصدر رحب، كل هذه مظاهر لكتن عظيم دفين في نفوسنا. وانطلاقاً من هذه القوّة يستطيع حتى الأفراد المتخلّفون أن يستثمروا طاقاتهم العقلية والأُخلاقية بشكل أفضّل، وأكتر. لكن الأفراد الذين يفهمون الدعاء حق فهمه قليلون جداً - مع الأسف - في عالمنا اليوم^١.

مَمَّا تقدّم تفهم الرد على من يقول أن الدعاء يخالف روح الرضا والتسلّيم، لأن الدعاء - كما ذكرنا - نوع من كسب القابلية على تحصيل سهم أكبر من فيض الله اللامتناهي.

بعبارة أخرى: الإنسان ينال بالدعاء لياقة أكبر للحصول على فيض الباري تعالى. واضح أن السعي للتكامل ولكسب مزيد من اللياقة هو عنin التسلّيم أمام قوانين الخلقة، لا عكس ذلك.

أضف إلى ذلك، الدعاء نوع من العبادة والخضوع والطاعة، والإنسان - عن طريق الدعاء - يزداد ارتباطاً بالله تعالى، وكما أن كلّ العبادات ذات أثر تربوي كذلك الدّعاء له مثل هذا الأثر.

والقائلون أن الدعاء تدخل في أمر الله وأن الله يفعل ما يشاء، لا يفهمون أن المواهب الإلهية تتدفق على الإنسان حسب استعداده وكفاءته ولি�اقته، وكلما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

لذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ عِنْدَ أَفْئِيْعَزَّ وَجْلَ مُتَّرْزَلَةً لَا يَتَّسَّلَ إِلَّا مِنْ أَنْتَهَى»^٢. ويقول أحد العلماء: «حينما ندعوا فإننا نربط أنفسنا بقوة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها»^٣.

١- الدعاء للكسيس كاريل.

٢- أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣٨، باب فضل الدعاء والحمد عليه، حدیث ٣.

٣- آئین زندگی (فارسی)، ص ١٥٦.

ويقول: «إنَّ أحدث العلوم الإنسانية - أعني علم النفس - يعلمُنا نفس تعاليم الأنبياء، لماذا؟ لأنَّ أهْ طباء النفسيين أدركوا أنَّ الدعاء والصلوة والإيمان القوي بالدين يزيل عوامل القلق والاضطراب والخوف والهيجان الباعثة على أكثر أمراضنا»!^١

٢- المفهوم الحقيقي للدعاء

علمنا أن الدعاء إنما يكون فيما خرج عن دائرة قدرتنا، بعبارة أخرى الدعاء المستجاب هو ما صدر لدى الاضطرار وبعد بذل كل الجهود والطاقات «أَمَّنْ يُحِبُّ الظَّفَرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ»؟ يتضح من ذلك أن مفهوم الدعاء طلب تهيئة الأسباب والعوامل الخارجية عن دائرة قدرة الإنسان، وهذا الطلب يتوجه به الإنسان إلى من قدرته لا متناهية ومن يهون عليه كل أمر.

هذا الطلب طبعاً يجب أن لا يصدر من لسان الإنسان فقط، بل من جميع وجوده، واللسان ترجمان جميع ذرات وجود الإنسان وأعضائه وجوارحه. يرتبط القلب والروح باهله عن طريق الدعاء إرتباطاً وثيقاً، ويكتسبان القدرة عن طريق اتصالهما المعنوي بالعبد الكبير، كما تتصل قطرة من الماء بالبحر الواسع العظيم.

جدير بالذكر أن هناك نوعاً آخر من الدعاء يردده المؤمن حتى فيما اقتدر عليه من الأمور، ليعبر به عن عدم استقلال قدرته عن قدرة الباري تعالى، ولبيك دأنت العلل والعوامل الطبيعية إنما هي منه سبحانه، وتحت إمرته. فإن بحثنا عن الدواء لشفاء دائنا، فإنما نبحث عنه لأنَّه سبحانه أودع في الدواء خاصية الشفاء (هذا نوع آخر من الدعاء أشارت إليه الروايات الإسلامية أيضاً).

عبارة موجزة: الدعاء نوع من التوعية وإيقاظ القلب والعقل، وإرتباط داخلي بمبدأ كل لطف وإحسان، لذلك نرى أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَ قُلْبٍ لَوْا»^١. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ بَظَاهِرِ قُلْبٍ سَاوِي»^٢.

٣- شروط استجابة الدعاء

دراسة شروط استجابة الدعاء توضح لنا كثيراً من الحقائق الفامضة في مسألة الدعاء، وتبين لنا آثاره البناءة، والروايات الإسلامية تذكر شروطاً لاستجابة الدعاء منها:

- ١- ينبغي لمن يدعوا أن يسعى أولاً لتطهير قلبه وروحه، وأن يتوب من الذنب، وأن يقتدي بحياة قادة البشرية الآلهيين. عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِيَّاكُمْ أَنْ يَسْأَلَ أَخْدُوكُمْ رَبُّهُ شَيْئاً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ حَقِّيْ يَتَذَكَّرُ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَالْمُذَحَّةُ لَهُ وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ، وَالْإِغْرِافُ بِالذَّنَبِ، ثُمَّ الْمَسَأَةُ»^٣.
- ٢- أن يسعى الداعي إلى تطهير أمواله من كل غصب وظلم، وأن لا يكون طعامه من حرام. عن رسول الله عليه السلام قال: «مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ يُسْتَجَابَ دُعَاءً فَلْيُطْبِعْ مَطْعَمَةً وَمَكْسَبَهُ»^٤.
- ٣- أن لا يفترق الدعاء عن الجهاد المستمر ضد كل ألوان الفساد، لأن الله لا يستجيب من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عن النبي عليه السلام: «تَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَايُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَسْلَطَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ فَيَذْعُو جِنَاحَيْكُمْ فَلَا

١- أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٤٢ باب الإقبال على الدعاء، الحديث ١.

٢- سفينة البحار، ج ١، ص ٤٤٨ و ٤٤٩.

٣- نفس المصدر.

٤- نفس المصدر.

يُسْتَخَابُ لَهُمْ^١!

ترك هذه الفريضة الإلهية (فريضة المراقبة الاجتماعية) يؤدي إلى خلو الساحة الاجتماعية من الصالحين، وتركها للمفسدين، وعند ذاك لا أثر للدعاة، لأن هذا الوضع الفاسد نتيجة حتمية لأعمال الإنسان نفسه.

٤- العمل بالمواثيق الإلهية، الإيمان والعمل الصالح والأمانة والصلاح من شروط استجابة الدعاة، فمن لم يف بعهده أمام بارته لا ينبغي أن يتوقع من الله استجابة دعائه.

جاء رجل إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام، وشكى له عدم استجابة دعائه، فقال

الإمام:

«إِنَّ قُلُوبَكُمْ خَانَتْ بِشَكَانٍ حِضَالَ:
أَوْلَاهَا: إِنَّكُمْ عَرَفْتُمُ اللَّهَ فَلَمْ تُؤْدُوا حَقَّهُ كَمَا أَوْخَبَ عَلَيْكُمْ، فَمَا أَغْنَيْتُكُمْ شَرِيفَتَكُمْ شَيْئًا.
وَالثَّانِيَةُ: إِنَّكُمْ آمَثْمُ بِرَسُولِهِ ثُمَّ خَالَقْتُمُ سُتْنَةً، وَآمَثْمُ شَرِيقَتَهُ فَأَيْنَ مَرَّةً إِيَّاهُنَّكُمْ؟!
وَالثَّالِثَةُ: إِنَّكُمْ قَرَأْتُمْ كِتَابَةَ الْمُزَلَّ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَفْتَلُوا بِهِ، وَقُلْتُمْ سَيِّغْنَا رَأْطَفْنَا ثُمَّ خَالَقْتُمُ
وَالرَّابِعَةُ: إِنَّكُمْ قُلْتُمْ تَخَافُونَ مِنَ النَّارِ، وَأَنْتُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ تَقْدَمُونَ إِلَيْهَا بِمَعَاصِيكُمْ فَأَيْنَ
خَوْفُكُمْ؟!

وَالخَامِسَةُ: إِنَّكُمْ قُلْتُمْ تَوَغَّبُونَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنْتُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ تَفْعَلُونَ مَا يَنْبَغِي لَكُمْ مِنْهَا
فَأَيْنَ رَغْبَيْكُمْ فِيهَا؟

وَالسَّادِسَةُ: إِنَّكُمْ أَكَلْتُمْ نِفَقَةَ الْمَوْلَى فَلَمْ تَشْكُرُوا عَلَيْهَا!
وَالسَّابِعَةُ: إِنَّ اللَّهَ أَمْرَكُمْ بِعَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ، وَقَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌ فَاقْتِدُوهُ
عَدُوُّهُمْ، فَعَادَيْتُمُهُ بِلَا قَوْلٍ، وَوَالْيَسُودُ بِلَا مَحَالَةٍ».
وَالثَّامِنَةُ: إِنَّكُمْ جَعَلْتُمْ عَيْوبَ النَّاسِ نَضْبَتْ أَعْيُنَكُمْ وَعَيْنَوْكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ تَلُومُونَ

مَنْ أَتَيْتُمْ أَحَقُّ بِاللَّهِمَّ مِنْهُ فَأَلَيْ دُعَاءَ يُشَجَّبُ لَكُمْ مَعَ هَذَا، وَقَدْ سَدَدْتُمْ أَبْوَابَهُ وَطَرِيقَهُ فَأَتَقْرَبُ
اللَّهُ وَأَضْلِلُوكُمْ أَغْنَاهَاكُمْ وَأَخْلِصُوكُمْ وَأَمْرُوكُمْ وَأَنْهَوكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُشَجَّبُ
اللَّهُ لَكُمْ دُعَاءَكُمْ»^١.

هذا الحديث يقول بصراحة: إن وعد الله باستجابة الدعاء وعد مشروط لا مطلق. مشروط بتنفيذ المواثيق الإلهية، وإن عمل الإنسان بهذه المواثيق الثمانية المذكورة فله أن يتوقع استجابة الدعاء، وإلا فلا. العمل بالأمور الثمانية المذكورة باعتبارها شرطاً لاستجابة الدعاء كافي لتربيه الإنسان ولإبداله طاقاته على طريق مشر بناء.

٥ - من الشروط الأخرى لاستجابة الدعاء العمل والسعى، عن علي عليه السلام: «الداعي بلا عقل كالزامي بلا وثير»^٢.

الوتر بحركته يدفع السهم نحو الهدف، وهكذا دور العمل في الدعاء. من مجموع شروط الدعاء المذكورة نفهم أن الدعاء لا يغنينا عن التوسل بالعوامل الطبيعية، بل أكثر من ذلك يدفعنا إلى توفير شروط إستجابة الدعاء في أنفسنا، ويحدث بذلك تغييراً كبيراً في حياة الإنسان وتتجديداً لمسيرته، وإصلاحاً لనواصه.

أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الإسلامي أنه مخدّر؟!

* * *

الآيات

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ
وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَسَابَ
عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالَّذِنَّ بَشِّرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ
وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَيَّّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَثْيَضُ مِنَ الْخَنِطِ
الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُّمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْأَيْلَلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ
وَأَنْتُمْ عَنِ الْكُفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

سبب التزول

روي أن الأكل كان محرماً في شهر رمضان بالليل بعد النوم، وكان النكاح حراماً بالليل والنهار في شهر رمضان. وكان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له مطعم بن جبير شيئاً ضعيفاً، وكان صائماً، فأبطأه عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلما انتبه قال لأهله: قد حرم على الأكل في هذه الليلة. فلما أصبح حضر حفر الخندق فأغمي عليه، فرأه رسول الله ﷺ فرق له. وكان قوم من الشباب ينكحون بالليل سراً في شهر رمضان، فأنزل الله هذه

الآية فاحل النكاح بالليل في شهر رمضان، والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر^١.

التفسير

رخصة في أحكام الصوم

مررنا في سبب نزول الآية أن النكاح كان محظياً في ليالي شهر رمضان إضافة إلى نهاره، وأن الأكل والشرب كانوا محرمين في الليل أيضاً بعد النوم، ولعل ذلك كان اختباراً للجيل الإسلامي الأول وإعداداً له كي يتقبل أحكام الصوم الثابتة.

الآية الكريمة تتضمن أربعة أحكام إسلامية في حقل الصوم والاعتكاف. تقول أولاً: «أحل لَكُمْ لَيْلَةِ الصِّيَامِ الرَّفَثُ^٢ إِلَى نِسَائِكُمْ».

ثم تذكر الآية سبب الحكم فتقول: «هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ». واللباس يحفظ الجسم من الحر والبرد وأنواع الأخطار من جهة، ويستر عيوب الجسم من جهة أخرى، أضف إلى أنه زينة للإنسان، وتشبيه الزوج باللباس يشمل كل هذه الجوانب.

الزوجان يحفظ كل منهما الآخر من الإنحراف والعيوب، ويوفر كل منهما سبل الراحة والطمأنينة للأخر، وكل منهما زينة للأخر.

هذا التعبير يوضح غاية الارتباط المعنوي بين الرجل والمرأة ومساواتهما في هذا المجال، فالتعبير جاء للرجل كما جاء للمرأة بدون تغيير.

ثم يبين القرآن سبب تغيير هذا القانون الإلهي ويقول: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ».

فإله سبحانه وسم علىكم الأمر وخفقه، وجعل فيه رخصة بلطشه ورحمته، كي

١- مجمع البيان، في تفسير الآية.

٢- الرفت: هو الحديث المكتوف عن المسائل الجنسية، واستعير لمعنى الجماع كما في الآية.

لاتنلوا بالذنب.

﴿فَالآنْ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

وهذا الأمر لا يعني طبعاً الوجوب، بل هو رخصة بعد المنع، أو هو بتعبير الأصوليين «الأمر عقيب الخطر»، ويدل على الجواز.

عبارة **﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** إشارة إلى أن الإستفادة من هذه الرخصة الكائنة في مسير قوانين الخلقة وحفظ النظام وبقاء النسل لا مانع فيها. ثم تبين الآية الحكم الثاني وتقول: **﴿وَكُلُوا وَاشْرُبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَثِيلُ** من **﴿الْمُنْيَطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.**

للمسلم -إذن- أن يأكل ويشرب في الليل، حتى إذا طلع الفجر يمسك. وتبين الآية الحكم الثالث: **﴿تُمَّ أَغْوِيَ الصَّيَامَ إِلَى اللَّيلِ﴾.**

هذه الجملة تأكيد على حظر الأكل والشرب والنكاح في أيام شهر رمضان للصائمين، وتشير إلى أن الحظر يبدأ من طلوع الفجر وينتهي عند الليل. تطرح الآية بعد ذلك الحكم الرابع وتقول: **﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمِسَاجِدِ﴾.**

هذا الحكم يرتبط بالاعتكاف، وهو شبيه بالإستثناء من الحكم السابق، ففي الاعتكاف الذي لا تقل مدته عن ثلاثة أيام، لا يحق للمعتكف الصائم أن يباشر زوجته لا في الليل ولا في النهار.

في ختام الآية عبارة تشير إلى كل ما ورد فيها من أحكام تقول: **﴿هُنَّكُمْ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾** لأن الاقتراب من الحدود يبعث على الوسوسة، وقد يدفع الإنسان إلى تجاوز الحدود والوقوع في الذنب. نعم، **﴿كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.**

بحوث

١- الحدود الإلهية:

بعد أن ذكرت الآية الكريمة بعض أحكام الصوم والاعتكاف، عبرت عن هذه الأحكام بالحدود الإلهية، وهي الحدود بين العلال والحرام ... بين الممنوع والمباح. ومن الملفت للنظر أن الآية لم تقل لا تتجاوزوا هذه الحدود، بل قالت: **﴿فَلَا تَنْزِهُوهُا﴾**، لأن الاقتراب منها يؤدي إلى إثارة الوساوس، وقد يؤدي أحياناً إلى تجاوز هذه الحدود.

لذلك نهى الإسلام عن الولوج في مناطق تؤدي إلى إنسلاق الإنسان في المحرمات، كالنهي مثلاً عن الاشتراك في مجالس شرب الخمر حتى مع عدم التلوث بالخمرة، أو النهي عن الاختلاء بالمرأة الأجنبية.

هذا النهي ورد في النصوص الإسلامية تحت عنوان «حماية الحمى». ورد عن رسول الله ﷺ قال: **إِنَّ جَنَّةَ اللَّهِ مَحَارَمَةٌ، فَمَنْ يَرْتَعِهِ حَوْلَ الْجَنَّةِ يُوشَكُ أَنْ يَقْعُدَ فِيهِ**^١.

من هنا فالمتقون لا يتجنبون أنفسهم الوقوع في المحرمات فحسب، بل يسعون إلى عدم الاقتراب من حافة الحرام.

٢- الاعتكاف:

الukoof والإعتكاف أصله اللزوم، يقال: عكتفت بالمكان، أي أقمت به ملازماً له، وهو في الشرع اللبس في المساجد للغبادة، وأقله ثلاثة أيام يصوم خلالها المعتكف ويكتف عن بعض المباحات.

هذه العبادة لها الأثر العميق على تصفية الروح والقرب من الله، وذكرت كتب الفقه آدابها وشروطها، هذه العبادة مستحبة، وقد تتخذ أحياناً في ظروف استثنائية

١- تفسير الصافي، في تفسير الآية المذكورة.

طابع الوجوب. في الآية التي نبحث فيها ورد ذكر أحد شروط الإعتكاف وهو حظر النكاح ليلاً ونهاراً، وهذه الإشارة جاءت لترتبطها بمسألة الصوم.

٣- طلوع الفجر:

الفجر في الأصل شق الشيء شقاً واسعاً، وسمى الصبح فجرأ لأنَّه فجر الليل. وعبرت الآية عن الفجر أيضاً بأسلوب «**حَقَّ يَتَبَيَّنُ لَكُمُ الْخِيطُ الْأَيْضُ** من **الْخِيطِ الْأَسْوَدِ**». ومن الظريف أنَّ «عدي بن حاتم» قال للنبي: إني وضعت خيطين من شعر أبيض وأسود فكنت أنظر فيما فلا يتبيَّن لي، فضحك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى رؤيت نواجذه ثم قال: «**إِنَّ ابْنَ حَاتَمَ إِنَّمَا ذَلِكَ بِتَبَاضُ النَّهَارِ وَسَوَادَ اللَّيلِ فَانْتَدِهِ الصَّوْمُ مِنْ هَذَا التَّوْقِتِ**»^١.

وهذا التعبير يوضح أيضاً الفرق بين الصبح الصادق والصبح الكاذب: لأنَّ الفجر فجران: الفجر الكاذب وهو على شكل عمود من الضوء يظهر في السماء كذنب السرحان (التعلب)، وبعده يظهر الفجر الصادق وهو بياض شفاف أفقى يظهر في أفق السماء كخط أبيض يظهر إلى جوار الخيط الأسود. وهذا هو الصبح الصادق وبه يتعلق حكم الصوم والصلة. ولا يشبه الفجر الكاذب.

٤- التقوى، هي الأولى والآخر: في أول آية ترتبط بأحكام الصوم ورد ذكر التقوى على أنها الهدف النهائي للصوم، وفي آخر آية أيضاً وردت عبارة «**لَعَلَّهُمْ يَتَّقَوْنَ**» وهذا يؤكد أن كل مناهج الإسلام وسيلة ل التربية الروح والتقوى والفضيلة والإرادة والإحساس بالمسؤولية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات

٣	الأمثل من جديد
٥	المقدمة
٦	متى بدأ تفسير القرآن؟
٧	خطر التفسير بالرأي
٨	متطلبات المصر
١٠	الأمثل بين التفاسير
١٢	خصائص هذا التفسير
١٣	الصحوة الإسلامية المعاصرة وزيادة الحاجة إلى تفسير القرآن

سورة الحمد

١٧	خصائصها
٢٠	محظى السورة
٢٢	لماذا سميت فاتحة الكتاب؟
٢٣	سؤال
٢٥	تفسير الآيات: ١ - ٧
٢٨	بحوث
٢٨	١ - هل البسملة جزء من السورة؟
٢١	٢ - لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالى
٢٢	٣ - الرحمة الإلهية الخاصة وال العامة
٢٤	لهم لئم ترددية حفقات الله في البشرية؟
٢٦	تفسير الآية: ٢
٢٦	العالم مغمور في رحمته

٤٠	بحثان
٤٠	١ - رفض الآلهة
٤٢	٢ - ربوبية الله طريق لمعرفة الله
٤٤	تفسير الآية: ٣
٤٥	تفسير الآية: ٤
٤٥	الركيزة الثانية: الإيمان ب يوم القيمة
٤٩	تفسير الآية: ٥
٤٩	الإنسان بين يدي الله
٥٠	بحوث
٥٠	١ - هو المستعان وحده
٥١	٢ - استعمال صيغ الجمع في تعبير الآيات
٥١	٣ - الاستعانة به في كل الأمور
٥٣	تفسير الآية: ٦
٥٣	السير على الصراط المستقيم
٥٥	ما هو الصراط المستقيم؟
٥٨	تفسير الآية: ٧
٥٨	خطآن منحر فان!
٥٩	بحثان
٥٩	١ - من هم (الذين أَنْعَثْتَ عَلَيْهِمْ)؟
٦٠	٢ - من هم (المُفْضُوبُ عَلَيْهِمْ)، ومن هم (الصَّالِحُونَ)؟

سورة البقرة

٦٥	محتوى سورة البقرة
٦٦	فضيلة هذه السورة
٦٨	تفسير الآيتين: ١ - ٢
٦٨	تحقيق في الحروف المقطعة في القرآن
٦٩	الأدب في العصر الجاهلي
٧٠	شاهد ناطق

بحوث	٧٢
١ - لماذا الأشارة إلى البعيد؟	٧٢
٢ - معنى الكتاب	٧٢
٣ - ما هي الهدایة؟	٧٣
٤ - لماذا اختصت هدایة القرآن بالمعتقين؟	٧٤
تفسير الآيات: ٣-٥	٧٥
آثار التقوى في روح الإنسان وبدنه	٧٥
١ - الإيمان بالغيب	٧٦
٢ - الإرتباط بالله	٧٨
٣ - الإرتباط بالناس	٧٩
٤ - الإيمان بالأنبياء	٨٠
٥ - الإيمان بيوم القيمة	٨١
بحثان	٨٣
١ - مواصلة طريق الإيمان والعمل	٨٣
٢ - ما هي حقيقة التقوى؟	٨٣
تفسير الآيتين: ٦-٧	٨٥
المجموعة الثانية: الكفار المعاندون	٨٥
بحوث	٨٦
١ - سلب قدرة التشخيص ومسألة العبر	٨٦
٢ - لماذا يصرّ الأنبياء على هداية هؤلاء، إذا كانوا لا يهتدون؟	٨٨
٣ - الختم على القلوب	٨٩
٤ - المقصود من «القلب» في القرآن	٩٠
٥ - لماذا جاءت «فُلُوِيهِمْ» و«أَبْصَارُهُمْ» بصيغة الجمع، و«سَمْعُهُمْ» بصيغة المفرد؟	٩١
تفسير الآيات: ٨-١٦	٩٣
المجموعة الثالثة: المنافقون	٩٣
بحوث	٩٦
١ - ظهور التناق وأسبابه	٩٦
٢ - ضرورة معرفة المنافقين في كل مجتمع	٩٨

٩٩	٣ - سعة معنى النفاق
١٠٠	٤ - مؤامرة المنافقين
١٠١	٥ - خداع الضمير
١٠٢	٦ - التجارة الخاسرة
١٠٥	تفسير الآيتين: ١٧ - ٢٠
١٠٥	مثالان راتنان لوصف حالة المنافقين
١١١	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٢
١١٢	يتم الأرض والسماء
١١٦	بحث
١١٦	الشرك في أشكال مختلفة
١١٨	تفسير الآيتين: ٢٣ - ٢٤
١١٨	القرآن معجزة خالدة
١٢٠	بحوث
١٢٠	١ - لماذا يحتاج الأنبياء إلى المعجزة؟
١٢١	٢ - القرآن معجزة نبى الإسلام الخالدة
١٢٢	٣ - هل تحدى القرآن؟
١٢٤	٤ - هل جيء بمثله؟
١٢٥	٥ - شهادات حول القرآن
١٢٩	تفسير الآية: ٢٥
١٢٩	خصائص يتم العجنة
١٣١	بحوث
١٣١	١ - «الإيمان» و«العمل»
١٣٢	٢ - الأزواج الطهارة
١٣٢	٣ - النعم المادية والمعنوية في الجنة
١٣٤	تفسير الآية: ٢٦
١٣٥	هل الله يضرب المثل؟!
١٣٧	بحوث
١٣٧	١ - أهمية المثال في بيان الحقائق

١٣٧	٢ - لماذا التمثيل بالمعوضة؟
١٣٩	٣ - هداية الله وإضلاله
١٤٠	٤ - الفاسقون
١٤١	٢٧ - تفسير الآية:
١٤١	الخاسرون الحقيقيون
١٤٣	بحثان
١٤٣	١ - أهمية صلة الرحم في الإسلام
١٤٥	٢ - القطع بدل الوصل
١٤٦	٢٩ - ٢٨ - تفسير الآيتين:
١٤٦	نعمَّ الحياة
١٥٠	بحوث
١٥٠	١ - التناصح أو عودة الأرواح
١٥١	٢ - السماوات السبع
١٥٣	٣ - عظمة الكائنات
١٥٤	٣٣ - ٣٠ - تفسير الآيات:
١٥٤	الإنسان خليفة الله في الأرض
١٥٨	الملائكة في بودقة الاختبار
١٦٠	جواب على سؤالين
١٦٢	٣٦ - ٣٤ - تفسير الآيات:
١٦٢	آدم في الجنة
١٦٣	بحثان
١٦٣	١ - لماذا أبى إبليس؟
١٦٤	٢ - هل كان السجدة أم لآدم؟
١٦٧	بحوث
١٦٧	١ - ما هي جنة آدم؟
١٦٨	٢ - ما هو ذنب آدم؟
١٦٩	٣ - المقارنة بين معارف القرآن والتوراة
١٧١	٤ - المقصود من الشيطان في القرآن

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ١.....	
١٧٣.....	٥ - لماذا أخلق الشيطان؟!
١٧٤.....	٣٩ - ٣٧ تفسير الآيات:
١٧٤.....	عودة آدم إلى الله
١٧٥.....	بحوث
١٧٥.....	١ - الكلمات التي تلقاها آدم
١٧٦.....	٢ - سبب تكرار جملة «أهْبِطُوا»
١٧٧.....	٣ - من هم المخاطبون في جملة «أهْبِطُوا»؟
١٧٨.....	تفسير الآية: ٤٠
١٧٨.....	ذكر النعم الإلهية
١٧٩.....	بحوث
١٧٩.....	١ - اليهود في المدينة
١٨٠.....	٢ - ميشاق بنى إسرائيل
١٨١.....	٣ - وفاء الله بهده
١٨٢.....	٤ - لماذا سمي اليهود «بني إسرائيل»؟
١٨٤.....	تفسير الآيات: ٤١ - ٤٣
١٨٤.....	جشع اليهود
١٨٧.....	بحث
١٨٧.....	هل يؤيد القرآن ما جاء في التوراة والإنجيل؟!
١٨٧.....	الجواب
١٨٨.....	شاهد حي آخر
١٩١.....	تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦
١٩٣.....	بحثان
١٩٣.....	١ - ما هو لقاء الله؟
١٩٤.....	٢ - سبيل التغلب على الصعاب
١٩٦.....	تفسير الآيتين: ٤٧ - ٤٨
١٩٦.....	أوهام اليهود
١٩٨.....	القرآن ومسألة الشفاعة
٢٠٠.....	١ - المفهوم الحقيقي للشفاعة

٢٠١	٢ - الشفاعة في عالم التكوين
٢٠١	٣ - مستندات الشفاعة
٢٠٢	٤ - الشروط المختلفة للشفاعة
٢٠٥	٥ - الشفاعة في الحديث
٢٠٦	٦ - التأثير المعنوي للشفاعة
٢٠٩	٧ - فلسفة الشفاعة
٢١٠	٨ - شروط «توفيق الشفاعة»
٢١١	٩ - شبكات حول مسألة الشفاعة
٢١٢	١٠ - الشفاعة والتَّوحيد
٢١٦	نظرة على منطق الوهابيين في حقل الشفاعة
٢٢٠	تفسير الآية: ٤٩
٢٢٠	نسمة الحرية
٢٢٣	تفسير الآية: ٥٠
٢٢٣	التجاه من آل فرعون
٢٢٥	تفسير الآيات: ٥١ - ٥٤
٢٢٥	أكبر إنحرافات بني إسرائيل
٢٢٧	ذنب عظيم وتبعة فريدة
٢٢٩	تفسير الآيتين: ٥٥ - ٥٦
٢٢٩	طلب عجيبة
٢٣١	تفسير الآية: ٥٧
٢٣١	النعم المتنوعة
٢٣٢	بحوث
٢٣٢	١ - الحياة الجديدة بعد التحرر
٢٣٢	٢ - المن والسلوى
٢٣٥	٣ - لماذا قالت الآية «أنزَلْنَا»؟
٢٣٦	٤ - ما هو الغمام؟
٢٣٧	تفسير الآيتين: ٥٨ - ٥٩
٢٣٧	عناد بني إسرائيل

٢٤٠	تفسير الآية: ٦٠
٢٤٠	انفجار العيون في الصحاء
٢٤٢	بحوث
٢٤٢	١ - الفرق بين العتي والآفساد
٢٤٢	٢ - المعاجز في حياة بنى إسرائيل
٢٤٣	٣ - الفرق بين الانفجار والإنبساط
٢٤٤	تفسير الآية: ٦١
٢٤٤	المطالبة بالأطعمة المتنوعة
٢٤٥	بحوث
٢٤٥	١ - آراء المفسرين في كلمة «مصر»
٢٤٦	٢ - التنوع وطبيعة الإنسان
٢٤٧	٣ - هل «المن» و«السلوى» خير الأطعمة؟
٢٤٨	٤ - ذلة بنى إسرائيل ومسكتهم
٢٤٩	تفسير الآية: ٦٢
٢٤٩	القانون العام للتجارة
٢٥٠	تساؤل هام!
٢٥١	بحوث
٢٥١	١ - قصة سلمان الفارسي:
٢٥٤	٢ - من هم الصابئون؟
٢٥٦	٣ - معتقدات الصابئين
٢٥٨	تفسير الآيتين: ٦٣ - ٦٤
٢٥٨	الالتزام بالميقات
٢٥٩	بحوث
٢٥٩	١ - الميقات
٢٥٩	٢ - رفع جبل الطور
٢٦٠	٣ - الالتزام والإرهاب
٢٦٠	٤ - جبل الطور
٢٦١	٥ - خذوا تعاليم السماء بقوة

٢٦٢ تفسير الآيتين: ٦٥-٦٦
٢٦٢ عصاة يوم السبت
٢٦٤ تفسير الآيات: ٦٧-٧٤
٢٦٥ قصّة بقرةبني إسرائيل
٢٦٧ بحوث
٢٦٧ ١- أسللة كثيرة تافهة
٢٦٩ ٢- مدلول هذه الأوصاف
٢٦٩ ٣- ما هو دافع القتل؟
٢٧٠ ٤- العبر في هذه القصّة
٢٧١ ٥- الإحسان إلى الأب
٢٧٢ تفسير الآيتين: ٧٥-٧٧
٢٧٣ سبب التزول
٢٧٤ لا أمل في هؤلاء
٢٧٦ تفسير الآيتين: ٧٨-٧٩
٢٧٦ سبب التزول
٢٧٦ خطأ اليهود في استغلال الجهلة!
٢٧٩ تفسير الآيات: ٨٠-٨٢
٢٧٩ غرور وادعاء فارغ
٢٨٠ بحوث
٢٨٠ ١- كسب السيدة
٢٨١ ٢- إباحتة الخطيئة
٢٨١ ٣- عنصرية اليهود
٢٨٣ تفسير الآيتين: ٨٣-٨٦
٢٨٤ الناكثون
٢٨٦ بحوث
٢٨٦ ١- إشارة تاريخية
٢٨٦ ٢- الإزدواجية في الالتزام
٢٨٨ ٣- منهج البقاء وعوامل السقوط

١	الأمثال في تفسير كتاب الله المنزل / ج ١	٥٠
٢٨٩	تفسير الآيتين: ٨٧-٨٨	
٢٨٩	القلوب المغلقة	
٢٩٠	بحوث	
٢٩٠	١- رسالة الأنبياء في مسيرة التاريخ	
٢٩١	٢- ما هو روح القدس؟	
٢٩٢	٣- مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين	
٢٩٣	٤- قلوب غافلة محجوبة	
٢٩٤	تفسير الآيتين: ٨٩-٩٠	
٢٩٤	سبب التزول	
٢٩٥	كفروا بـنا دعوا الناس اليه	
٢٩٦	بحثان	
٢٩٦	١- صفة خاسرة	
٢٩٧	٢- غضب على غضب	
٢٩٨	تفسير الآيات: ٩١-٩٣	
٢٩٨	العصبية القومية لدى اليهود	
٣٠٠	بحثان	
٣٠٢	تفسير الآيات: ٩٤-٩٦	
٣٠٢	فتنة مغروبة	
٣٠٤	بحوث	
٣٠٤	١- المقصود من الأعوام الـألف	
٣٠٤	٢- تنكير العيله	
٣٠٥	٣- إفرازات العنصرية	
٣٠٥	٤- عوامل الخوف من الموت	
٣٠٧	تفسير الآيتين: ٩٧-٩٨	
٣٠٧	أسباب التزول	
٣٠٨	قوم جذلون	
٣٠٩	جيبريل ومويكال	
٣١١	تفسير الآيات: ٩٩-١٠١	

٣١١	سبب التزول
٣١١	الناكثون من اليهود
٣١٢	بحوث
٣١٣	١ - تعبير «التزول» أو «الانزال»
٣١٣	٢ - كلمة «فاسق»
٣١٣	٣ - القرآن في حديثه عن اليهود
٣١٤	تفسير الآيتين: ١٠٣ - ١٠٢
٣١٤	سليمان وسحره بابل
٣١٧	بحوث
٣١٧	١ - قصة هاروت وماروت
٣١٨	٢ - لفظ هاروت وماروت
٣١٨	٣ - كيف يكون الملك معلماً للإنسان؟
٣١٩	٤ - لا قدرة لأحد على عمل دون إذن الله
٣١٩	٥ - السحر وتاريخه
٣٢١	السحر في رأي الإسلام
٣٢١	السحر في رأي التوراة
٣٢٢	السحر في عصرنا
٣٢٤	تفسير الآيتين: ١٠٤ - ١٠٥
٣٢٤	سبب التزول
٣٢٥	لا توقر والأعداء فرصة الطعن
٣٢٦	بحث
٣٢٦	مغزى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمْ
٣٢٧	تفسير الآيتين: ١٠٦ - ١٠٧
٣٢٧	الغرض من النسخ
٣٢٨	بحوث
٣٢٨	١ - هل يجوز النسخ في الأحكام؟
٣٣٠	٢ - المقصود من الآية
٣٣١	٣ - تفسير عبارة «تنسها»

٤ - تفسير (أو مثنيها) ٣٣١	٤ - تفسير (أو مثنيها) ٣٣١
تفسير الآية: ١٠٨ ٣٣٣	١٠٨ ٣٣٣
سبب التزول ٣٣٣	سبب التزول ٣٣٣
حجج واهية ٣٣٤	حجج واهية ٣٣٤
تفسير الآيتين: ١١٠ - ١٠٩ ٣٣٥	تفسير الآيتين: ١١٠ - ١٠٩ ٣٣٥
حسد وعناد ٣٣٥	حسد وعناد ٣٣٥
بحوث ٣٣٦	بحوث ٣٣٦
١ - أصفحوا ٣٣٦	١ - أصفحوا ٣٣٦
٢ - عبارة «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ٣٣٧	٢ - عبارة «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ٣٣٧
٣ - عبارة «وَحَسَدَ أَمْنِي عَنْ أَنفُسِهِمْ» ٣٣٧	٣ - عبارة «وَحَسَدَ أَمْنِي عَنْ أَنفُسِهِمْ» ٣٣٧
تفسير الآيتين: ١١١ - ١١٢ ٣٣٨	تفسير الآيتين: ١١١ - ١١٢ ٣٣٨
احتياط ٣٣٨	احتياط ٣٣٨
بحوث ٣٣٩	بحوث ٣٣٩
١ - الأماني ٣٣٩	١ - الأماني ٣٣٩
٢ - الوجه ٣٤٠	٢ - الوجه ٣٤٠
٣ - عدم الانحراف ٣٤١	٣ - عدم الانحراف ٣٤٠
تفسير الآية: ١١٣ ٣٤١	تفسير الآية: ١١٣ ٣٤١
سبب التزول ٣٤١	سبب التزول ٣٤١
تعصّب وتناقض ٣٤١	تعصّب وتناقض ٣٤١
تفسير الآية: ١١٤ ٣٤٣	تفسير الآية: ١١٤ ٣٤٣
سبب التزول ٣٤٢	سبب التزول ٣٤٢
ظلم الناس ٣٤٤	ظلم الناس ٣٤٤
بحثان ٣٤٥	بحثان ٣٤٥
١ - تخريب المساجد ٣٤٥	١ - تخريب المساجد ٣٤٥
٢ - أكبر الظلم ٣٤٦	٢ - أكبر الظلم ٣٤٦
تفسير الآية: ١١٥ ٣٤٧	تفسير الآية: ١١٥ ٣٤٧
سبب التزول ٣٤٧	سبب التزول ٣٤٧
أيَّتُمْ تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ٣٤٨	أيَّتُمْ تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ٣٤٨

٥٥٣	بحوث
٢٤٩	١ - فلسفة القبلة
٢٤٩	٢ - وجه الله
٢٤٩	٣ - الروايات
٢٤٩	تفسير الآيتين: ١١٦-١١٧
٢٥٠	خرافات اليهود والنصارى والمرشكين
٢٥١	بحوث
٢٥١	١ - دلائل نفي الولد
٢٥٢	٢ - تفسير (كُنْ فَيَكُونُ)
٢٥٣	٣ - كيف يوجد الشيء من العدم؟
٢٥٣	الجواب
٢٥٥	تفسير الآيتين: ١١٨-١١٩
٢٥٥	حجج أخرى
٢٥٧	بحثان
٢٥٧	١ - (أشتاهيهم فلويهم)
٢٥٧	٢ - أصلان تربويان
٢٥٩	تفسير الآيتين: ١٢١-١٢٠
٢٥٩	أسباب التزول
٢٦٠	إرضاء هذه المجموعة محال
٢٦١	بحوث
٢٦١	١ - سؤال عن عصمة الأنبياء
٢٦٢	٢ - للإسترضاة حدود
٢٦٢	٣ - إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهَدَى
٢٦٢	٤ - حق التلاوة
٢٦٤	تفسير الآيتين: ١٢٢-١٢٣
٢٦٦	تفسير الآية: ١٢٤
٢٦٦	الإمامية قمة مفاخر إبراهيم
٢٦٧	بحوث

١ - المقصود من «الكلمات» ٣٦٧
٢ - من هو الإمام؟ ٣٦٨
٣ - الفرق بين النبوة والإمامية والرسالة ٣٧٠
٤ - الإمامة آخر مراحل مسيرة إبراهيم التكاملية ٣٧١
٥ - من الظالم؟ ٣٧٢
٦ - تعين الإمام من قبل الله ٣٧٣
٧ - جواب عن سؤالين ٣٧٤
٨ - شخصية إبراهيم المثالية ٣٧٥
تفسير الآية: ١٢٥ ٣٧٧
٩ - عظمة بيت الله ٣٧٧
١٠ - بحثان ٣٧٨
١١ - الآثار الإجتماعية والتربوية للبيت الآمن ٣٧٨
١٢ - بيت الله ٣٧٩
تفسير الآية: ١٣٦ ٣٨٠
١٣ - إبراهيم يدعوربه ٣٨٠
١٤ - تفسير الآيات: ١٢٧ - ١٢٩ ٣٨٢
١٥ - إبراهيم يبني الكعبة ٣٨٢
١٦ - بحثان ٣٨٤
١٧ - هدف بعثة الأنبياء ٣٨٤
١٨ - «التعليم» مقدمه أو «التربية» ٣٨٥
١٩ - تفسير الآيات: ١٣٠ - ١٣٢ ٣٨٦
٢٠ - إبراهيم الإنسان التمودج ٣٨٦
٢١ - تفسير الآيتين: ١٣٣ - ١٣٤ ٣٨٩
٢٢ - سبب التزول ٣٨٩
٢٣ - تفسير الآيات: ١٣٥ - ١٣٧ ٣٩٢
٢٤ - سبب التزول ٣٩٢
٢٥ - نحن على حق لا غیرنا! ٣٩٣
٢٦ - بحوث ٣٩٤

٣٩٤	١ - وحدة دعوة الأنبياء
٣٩٥	٢ - من هم الأبطال؟
٣٩٥	٣ - العنيف
٣٩٦	٤ - تفسير الآيات: ١٣٨ - ١٤١
٣٩٦	التلخّي عن غير صبغة الله

الجزء الثانيي من القرآن الكريم

٤٠٣	١ - تفسير الآية: ١٤٢
٤٠٣	٢ - تغيير القبلة
٤٠٥	٣ - بحوث
٤٠٥	١ - السفهاء
٤٠٥	٢ - النسخ
٤٠٥	٣ - يهدي من يشاء
٤٠٦	٤ - تفسير الآية: ١٤٣
٤٠٦	٥ - الأمة الوسط
٤٠٨	٦ - بحوث
٤٠٨	١ - أسرار تغيير القبلة
٤١٠	٢ - الأمة الوسط
٤١١	٣ - الأمة الشاهدة
٤١١	٤ - علم الله
٤١٣	٥ - تفسير الآية: ١٤٤
٤١٣	٦ - كل الوجوه شطر الكعبة
٤١٤	٧ - بحوث
٤١٤	١ - نظم الآيات
٤١٥	٢ - انتظار صعبا
٤١٥	٣ - معنى الشطر
٤١٦	٤ - خطاب عام
٤١٦	٥ - هل الهدف من هذا التغيير تحقيق رضى النبي؟

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ١.....	٥٦
٤١٦.....	٦ - الكعبة مركز دائرة كبرى
٤١٨.....	تفسير الآية: ١٤٥..... لا يرضون بأي ثمن.....
٤١٨.....	٤٢٠..... تفسير الآيتين: ١٤٦-١٤٧..... يعرفون حق المعرفة ولكن.....
٤٢٠.....	٤٢٢..... تفسير الآية: ١٤٨..... لكل أمة قبلة.....
٤٢٢.....	بحثان.....
٤٢٣.....	١ - يوم يجتمع أصحاب المهدى.....
٤٢٥.....	٢ - «ولكل وجهة هُوَ مُؤْلِه».....
٤٢٥.....	٣ - الخوف من الله فقط.....
٤٢٥.....	٤٢٥..... تفسير الآيتين: ١٤٩-١٥٠..... الخوف من الله فقط.....
٤٢٥.....	٤٢٨..... تفسير الآيتان: ١٥١-١٥٢..... مهمة رسول الله.....
٤٢٨.....	بحثان.....
٤٣١.....	١ - أقوال المفسرين في تفسير «فاذكُرُونِي أذكُرْكُمْ».....
٤٣٢.....	٢ - المقصود من ذكر الله.....
٤٣٤.....	٤٣٤..... تفسير الآيتين: ١٥٣-١٥٤..... سبب التزول.....
٤٣٤.....	٤٣٤..... الشهداء أحياه.....
٤٣٧.....	بحوث.....
٤٣٧.....	١ - خلود الشهداء.....
٤٣٨.....	٢ - الشهادة سعادة في الإسلام.....
٤٣٩.....	٣ - الحياة البرزخية وبقاء الروح.....
٤٤٠.....	٤٤٠..... تفسير الآيات: ١٥٥-١٥٧..... الدّنيا دار اختبار إلهي.....
٤٤٢.....	بحوث.....

٤٤٢	١- لماذا الإختبار الإلهي؟
٤٤٣	٢- الإختبار الإلهي عام
٤٤٤	٣- طرق الإختبار
٤٤٤	٤- عوامل النجاح في الامتحان
٤٤٧	٥- الإختبار بالخير والشر
٤٤٩	تفسير الآية: ١٥٨
٤٤٩	التزول
٤٥٠	أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر
٤٥١	بحوث
٤٥١	١- الصفا والمروءة
٤٥١	٢- من أسرار السعي بين الصفا والمروءة
٤٥٠	٣- جواب على سؤال
٤٥٠	٤- معنى التطوع
٤٥٦	٥- شكر الله
٤٥٧	تفسير الآيتين: ١٥٩ - ١٦٠
٤٥٧	سبب التزول
٤٥٧	حرمة كتمان الحق
٤٥٩	بحوث
٤٥٩	١- مفاسد كتمان الحق
٤٦١	٢- كتمان الحق في الأحاديث
٤٦١	٣- معنى اللعن
٤٦٣	تفسير الآيات: ١٦١ - ١٦٣
٤٦٣	الذين مأثروا وهم كفار
٤٦٤	بحوث
٤٦٤	١- لانجاة للكفار
٤٦٤	٢- أحديبة الله
٤٦٥	٣- ألا يكفي لعن الله؟!
٤٦٦	تفسير الآية: ١٦٤

الأمثال في تفسير كتاب الله المنزل / ج ١.....	
٤٦٦.....	مظاهر عظمة الله في الكون.....
٤٧١.....	تفسير الآيات: ١٦٥ - ١٦٧.....
٤٧١.....	أنتمة الكفر يتبرأون من أتباعهم.....
٤٧٤.....	تفسير الآيتين: ١٦٨ - ١٦٩.....
٤٧٤.....	سبب التزول.....
٤٧٤.....	خطوات الشيطان!.....
٤٧٦.....	بحوث.....
٤٧٦.....	١ - أصل الخلية.....
٤٧٧.....	٢ - الاتجاهات التدريجية.....
٤٧٨.....	٣ - الشيطان عدو قديم.....
٤٧٨.....	٤ - طريقة الوسوسنة الشيطانية.....
٤٨٠.....	تفسير الآيتين: ١٧٠ - ١٧١.....
٤٨٠.....	التقليد الأعمى.....
٤٨٢.....	بحثان.....
٤٨٢.....	١ - سبل المعرفة.....
٤٨٣.....	٢ - نفق الغراب.....
٤٨٤.....	تفسير الآيتين: ١٧٢ - ١٧٣.....
٤٨٤.....	التفسير.....
٤٨٤.....	الطبيات والخبايا.....
٤٨٧.....	بحوث.....
٤٨٧.....	١ - فلسفة تحريم اللعوم المحمرة.....
٤٩٠.....	٢ - التكرار والتأكيد.....
٤٩١.....	٣ - حقن الدم.....
٤٩٢.....	تفسير الآيات: ١٧٤ - ١٧٦.....
٤٩٢.....	سبب التزول.....
٤٩٢.....	إدانة كتمان الحق مرة أخرى.....
٤٩٦.....	تفسير الآية: ١٧٧.....
٤٩٦.....	النزول.....

٤٩٦	أساس الير...
٥٠١	تفسير الآيتين: ١٧٨ - ١٧٩
٥٠١	سبب التزول
٥٠١	في القصاص حياة
٥٠٤	بحوث
٥٠٤	١ - القصاص والعفو تركيب عادل
٥٠٥	٢ - هل يتعارض القصاص مع العقل والعواطف الإنسانية؟
٥٠٥	الجواب
٥٠٨	٣ - هل انتقص قانون القصاص المرأة؟
٥١٠	تفسير الآيات: ١٨٠ - ١٨٢
٥١٠	الوصية بالمعروف
٥١٤	بحوث
٥١٤	١ - فلسفة الوصية
٥١٤	٢ - العدالة في الوصية
٥١٥	٣ - الوصايا الواجبة والمستحبة
٥١٦	٤ - الوصية قابلة للتغيير خلال الحياة
٥١٦	٥ - ينبغي أن يجعل وصيته وسيلة لتلافي ما مضى من تقصير
٥١٧	تفسير الآيات: ١٨٣ - ١٨٥
٥١٧	الصوم مدرسة التقوى
٥٢١	بحوث
٥٢١	١ - الآثار التربوية والإجتماعية والصحية للصوم
٥٢٣	الآثار الصحية للصوم
٥٢٤	٢ - الصوم في الأمم السابقة
٥٢٦	٣ - امتياز شهر رمضان
٥٢٦	٤ - قاعدة «لا حرج»
٥٢٨	تفسير الآية: ١٨٦
٥٢٨	سبب التزول
٥٢٨	سلاح اسمه الدعاء

٥٢٩ ..	بحوث
٥٢٩ ..	١ - فلسفة الدعاء
٥٣٢ ..	٢ - المفهوم الحقيقي للدعاء
٥٣٣ ..	٣ - شروط استجابة الدعاء
٥٣٦ ..	تفسير الآية: ١٨٧
٥٣٦ ..	سبب التزول
٥٣٧ ..	رخصة في أحكام الصرم
٥٣٩ ..	بحوث
٥٣٩ ..	١ - الحدود الإلهية
٥٣٩ ..	٢ - الإعتكاف
٥٤٠ ..	٣ - طلوع الفجر
٥٤٠ ..	٤ - التقوى
٥٤١ ..	الفهرس